نسخة هامة بالمؤلف

الدكتور
السيد محمد ديب

ياقوت الحموي

أديبا وناقدا

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م

دار الطباعة المحمدية
٣٨ درب الأتراك بالأزهر – القاهرة



إهداء

إلى روح والدى فى مثواه ، وإلى مكانته فى قلبى ، وإلى أمنياته العذبة ، وآماله الرطبة ، فى أن يرانى عالما أديبا ...

أهدى هذا الكتاب

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على أنبيائه الأطهار ، ورسله الأبرار ، واستفتح بالذى هو خير .

وبعد : فقد تعرفت إلى الأديب الجهبذ والعالم الفذ « ياقوت الرومى الحموى » لأول مرة — من خلال قراءتى لكتاب ملامح أدبية ، للمرحوم الدكتور / أحمد الشرباصى رحمه الله ، وأنا طالب فى السنة الثالثة من كلية اللغة العربية بالقاهرة .

ولقد كان عرض الكتاب لحياة ياقوت جذابا ، وكان أسلوبه خلابا ، فاندفعت فى نهم عليه ، وجعلت أحوم حول « ياقوت » ، وأقرأ كل ما كتب عنه فى رغبة حقيقية ومراجعة دقيقة وقراءة صادقة لمؤلفات هذا الأديب الكبير .

وكانت النتيجة أن تذوقت أدبه ، ودرست شعره ، وأدركت مناهجه الدراسية والنقدية ، واعجبت بها أيما إعجاب .

ثم كان من آثار ذلك أن تملكتنى الرغبة العارمة فى الكتابه عنه والحياة معه والبحث عما أوتى فى ميدان الأدب والنقد من مكانة ، وما حصل عليه من درجات .

وكانت الفرصة المواتية لتحقيق هذه الرغبة ، وتوثيق تلك الأمنية هى كتابة بحث أتقدم به للكلية للحصول على الدكتوراة .

وكان أن عرضت الموضوع على الأستاذ الكبير الدكتور أحمد الشرباصى الأستاذ فى كلية اللغة العربية بالقاهرة الذى اخترته مشرفا على أثناء تأليفى للبحث المطلوب .

وكان من أسباب سعادتى أن تفضل مشكورا بالموافقة على البحث ، والإشراف على تأليفه وإعداده .

ثم توفى بعد فترة وجيزة من الموافقة ، فانتقل الإشراف إلى الدكتور محمد رجب البيومى عميد كلية اللغة العربية فى المنصورة ، الذى دخل البحث معه فى دائرة التنفيذ والإنجاز .

* * *

لقد عاش ياقوت الحموى فى العصر العباسى الثانى ، وكان أديبا أريبا وكاتبا شاعرا ومؤلفا ناقدا ودارسا موهوبا ، استطاع بعلمه الوافر وأدبه الغزير أن يقـــدم إلى المكتبة العربية عديدا من المؤلفات تمتاز بالدقة والبراعة ، وتنفرد بالأساليب العذبة والعبارات القوية .

وتراثه العلمى والأدبى يتكون من مجموعات مطبوعة ومخطوطة ومفقودة ، ومن أروع وأبدع كتبه المطبوعة معجماه المشهوران « معجم الأدباء » ، « معجم البلدان » ، وهما من الذخائر العلمية والكنوز الأدبية التى يشار إليها بالبنان ، وقد ترجم فى الأول للمئات من العلماء والأدباء والشعراء واللغويين والنحاه وغيرهم كما عنى فى الثانى بالتاريخ والضبط لأسماء الأمصار والبلدان فى الساحتين العربية والإسلامية .

ويمتاز أسلوبه فى هذه المؤلفات بالأسلوب الأدبى والتركيب العربى الذى يزدان بالسجع ويزين بالاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، ويختال بالأشعار الكثيرة التى تكسب أسلوبه حسنا وجمالا إلى درجة بعيدة المدى عميقة التأثير .

وتبـدو فى كتابته الروح الدينية والنزوع إلى الجبلة العربية والحذر من الدنيا والاطمئنان للآخرة .

وأنى لأشكر الله آلاءه أن وفقنى للكتابة عن هذا الرجل العظيم ، ودراسة أدبه ونقده .

ولقد صادفتنى بعض الصعوبات فى العثور على مراجعه ، والبحث عمن كتبوا عنه — حتى وفقنى المولى تبارك وتعالى إلى تحقيق وتنفيذ رغبتى فيما كنت أهفو إليه . وهذا البحث يتكون من أربعة أبواب وخاتمة هذا المقدمة .

أما الباب الأول : فموضوعه « العصر والحياة » ويتكون من فصلين : تحدثت فى أولها : عن عصر ياقوت بإيجاز ، وفى الثانى : عن حياته وبيئته ونشأته وأطوار نموه وظهوره ورحلاته وشيوخه ، ثم عن آثاره وما خلف من ذخائر وكنوز فى العلم والأدب .

وأما الباب الثانى : فجعلته دراسة تفصيلية عن معجميه الكبيرين « معجم البلدان » ، و « معجم الأدباء » .

ويتكون هذا الباب من أربعة فصول .

تحدثت فى أولها عن « معجم البلدان » من حيث تأليفه ومضمونه وأسلوبه ومنهجه ومعلوماته .

وفى ثانيها : عن معجم البلدان بين معجم ما استعجم و تقويم البلدان دراسة وموازنة .

وفى ثالثها : عن معجم الأدباء ودراسته كسابقتها فى معجم البلدان .

وفى رابعها : عن معجم الأدباء ، بين نزهة الألباء و وفيات الأعيان دراسة وموازنة .

وأما الباب الثالث : ياقوت الحموى أديبا ، فقد فصلت الحديث عنه فى أربعة فصول :

تحدثت فى أولها : عن « كتابته الإنشائية » .

وفى ثانيها : عن « كتابته التأليفية » .

وفى ثالثها : عن « ياقوت شاعرا » .

وفى رابعها : عن « ياقوت فى ميزان الأدب والتأليف » .

وأما الباب الرابع : فهو « ياقوت الحموى ناقدا »،وقد قسمت الحديث عنه إلى أربعة فصول.

أولها : تحدثت فيه عن النقد التاريخى .

وثانيها : تحدثت فيه عن النقد الذاتى .

وثالثها : تحدثت فيه عن النقد الموضوعى .

ورابعها : تحدثت فيه عن مصادرة النقدية .

وأما الخاتمة فهى خلاصة مركزة عن البحث والدراسات التى تمت فيه والنتائج التى وصلت إليها .

ولقد واجهتنى بعض الصعوبات أمام المراجع الأجنبية التى لا أحسن النطق بلغتها ولا أجيد الكتابة بها ، ولكن المولى تبارك وتعالى يسر لى الأمر ، وسهل لى المهمة بوساطة بعض الأصدقاء فاجتزت هذه الصعوبة ، وقدمت هذا البحث فى صورته التى أرجو الله أن تنال الرضا ، وتحظى بالقبول من كل من قرأ أو عرف شيئا عن ياقوت الحموى .

ولن أنسى ما حييت أن أذكر بلسان الشكر والعرفان ، وبلغة التقدير والإجلال استاذى الكبير الدكتور / محمد رجب البيومى المشرف على هذه الرسالة فإن له — بعد المولى تبارك وتعالى — فضل توجيهى وإرشادى وهدايتى إلى كثير من المراجع والكتابات القديمة والحديثة عن ياقوت ، كما كان صاحب الفضل الأول فى إرشادى إلى إنشاء باب كامل للموازنة بين

مؤلفات ياقوت وما سبقها أو لحقها من المؤلفات ، حتى تتضح أهميته ، وتبرز مكانته ، وكان دائما يؤكد لى نفوره الشديد من الدراسة المطولة لأحوال العصر السياسية والاجتماعية والعقلية وغيرها ، على النحو الذى صارت فيه كثير من رسائل الباحثين وتجنبتها أنا تحقيقا لنصيحته .

ومعروف عن سيادته ، سعة الحلم ، وغزارة العلم ، والحدب على أبنائه الباحثين ، وهى نعمة يغبطه عليها كثير من محبيه وعارفى فضله ، والله المسئول أن يجزيه عنا خير الجزاء .

« ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

المؤلف

السيد محمد أحمد ديب

الخميس ٦ من شوال سنة ١٤٠١ هـ

الموافق ٦ من أغسطس سنة ١٩٨١ م

الباب الأول

العصر والحياة

الفصل الأول : عصر ياقوت

الفصل الثانى : حياته وآثاره

الفصل الأول

عصر ياقوت

١ — بين العصر والحياة :

أطلق الأدباء كلمة « عصر » على كل مدة زمنية لها بداية مميزة ونهاية محددة معروفة وتشتمل هذه المدة الزمنية التى تسمى بالعصر على صفات وخصائص معينة لأوجه النشاط الأدبى ، والعصور الأدبية معروفة لدارس تاريخ الأدب ، فهى تبدأ بالعصر الجاهلى ثم بعصر صدر الإسلام فالعصر الأموى وهكذا حتى تصل إلى العصر الحديث .

والعصر العباسى أطول هذه العصور لامتداده الطويل إذ يبدأ باستيلاء العباسيين على الخلافة الإسلامية والقضاء على بقايا بنى أميه فى الحكم وذلك فى سنه (١٣٢هـ — ٧٥١م) وينتهى بهجوم التتار على بغداد فى سنة (٦٥٦ — ١٢٥٨م) والعصور الأدبية تتداخل وتتمازج ، وتحديد عمرها يدخل فى نطاق التقريب ، لأن الأدب لا يمكن أن يتغير فى يوم وليلة تبعا لبداية العصر أو نهايته التى تكون غالبا موقفا عسكريا سريعا .

لقد حفل العصر العباسى بأنواع كثيرة من الصراعات ، صراع ممتد طويل بين الأتراك والفرس حول الفوز بالسلطة والوصول إلى بلاط الحكم ، وصراع بين العرب والأتراك وبين العرب والفرس ، كما نمت الشعوبية خلال هذا العصر فكانت قضية شبه عنصرية أقلقت مفكرى الإسلام عندالعرب والعجم ، وصراع بين الشيعة وأهل السنة ، وهذا أخطر صراع لأنه يمس المسلمين فى عقائدهم ، وصراع بين الدولة الأموية الأندلسية والدولة العباسية فى المشرق ، وهذا الصراع كان غالبا فى سبيل

النفع العام كخدمة الدين واللغة بتحقيق انتصارات أقوى وأكبر إلى الصين شرقا أو إلى ممالك أخرى فى أسبانيا غربا .

لقد بدأ الإسلام دينا ودولة ، والدولة كانت عربية فى صدر الإسلام وعهد بنى أمية ، ولما جاءت الدولة العباسية وتخطت مرحلة الطفولة ووصلت إلى سن الشباب مبكرة وحققت الانتصارات السريعة فى القضاء على بنى أمية ، كان الهدف عند ذلك تحقيق أطماع البيت العباسى والعودة بالإسلام إلى قوته القديمة دينا ولغة فبدأت الدولة العباسية عربية ثم تقاذفها الأتراك والفرس لتنتهى نهاية سيئة على أيدى التتار .

قسم مؤرخو الأدب هذا العصر أكثر من قسم لما به من أحداث عظيمة خطيرة منها حادث مقتل الخليفة المتوكل فى القرن الثالث الهجرى على يد الأتراك بتأييد من ابنه المنتصر الذى كان مكروها من أبيه المتوكل .

لقـد فتح المعتصم للعنصر التركى قلبه ووطنه لأن أمه كانت تركية ، وجعلهم يقفون إلى جانبه من قبل أن تنتقل الخلافة إليه ، ومما شجعه على ذلك أنه كان يكره الفرس ولا يثق فيهم ويخاف منهم فى داخله بعد قتل الأمين، وكانت الثقة بين المعتصم والعرب مفقودة فانتقل بالأتراك إلى سامراء على شاطىء نهر دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد فى سنة ٢٢١ هـ .

ولما أراد المتوكل كبح جماحهم نفذوا فيه جريمتهم البشعة بأيديهم القذرة وذلك فى أواخر عام ٢٤٧ هـ ، وكان الشاعر البحترى بمجالس المتوكل فى تلك الليلة المشئومة ، فسجل أحداثها فى شعره كما شاهدها .

والعصر العباسى ينقسم إلى عصرين :

العصر العباسى الأول الذى يبدأ من قيام الدولة حتى سيطرة بنى بويه على مركز الخلافة فى بغداد وذلك فى سنة ٣٣٤ هـ . والعصر العباسى الثانى الذى يبدأ من التاريخ السابق وينتهى باستيلاء التتار على بغداد فى سنة ٦٥٦ هـ

يوجـــد تقسيم شبيه لذلك فى العصر العباسى الثانى حيث قسم إلى قسمين ، جعلت سنة ٤٤٧ ﻫ فاصلا بينهما ، وهى السنة التى استولى فيهـا السلاجقة الأتراك على بغداد وحلوا فيها محل بنى بويه .

ومادمنا نؤرخ لياقوت الحموى أديبا وناقدا ومؤرخا وشاعراً وناسخا ولغويا ونسابة ورحالة فلابد أن نربطه بعصره الذى عاش فية حيث التأثر والتأثير ممن سبقه وتقدم عليه أو فيمن لحقـه وجاء بعده ونهل من علمه . لأننا لا نستطيع أن نقطع الصلة بين الأديب وبيئته التى عاش فيها ، وتنقل بين ربوعها ، فالأمـكنة تقوم بدور كبير فى حياة الأدباء ، وتؤثر تأثيراً كبيراً فى أفكارهم وخيالاتهم ، ولا يقل الزمن عن الأمكنة فى هذا التأثير .

إن كثيرا من الأدباء يستوحون البيئة ويستنطقون الجمادات ويحولون الصخور إلى صور حية نابضة بالروح والحياة .

إن الدراسة الأدبية الحديثة تربط بين النص الأدبى وبيئته ، ولا يستطيع الأديب أن يحبس نفسه بعيدا عن المجتمع وعن الأشجار والأنهار والبحور والثغور لذا وجب أن ندرس صاحبنا من خلال عصره لنبين موقعه من هذا العصر ومكانته بين أدبائه ولأن عصره الأدبى الذى ينتسب إلية عصر عامر بالتيارات الفـكرية والأدبية التى انتقلت إلى البيئة العربيـــة بعد الاحتكاك المباشر بين العرب وجيرانهم من الروم والفرس .

عاش ياقوت الحموى حياته من سنة ٥٧٤ ﻫ إلى سنة ٦٢٦ ﻫ وبذلك استفاد فائدة كبيرة من ثقافة عصره والعصور التى سبقته لأنه جاء فى نهاية العصر العباسى الثانى .

* * *

الحياة السياسية فى عصر ياقوت

عاش ياقوت الحموى فى آواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين عند ذلك كانت الدولة العباسية ممزقة ومقسمة من الباطن إلى عدة دويلات تحاول كل واحدة منها أن تنهش فى عظم الأخرى وفى مقدمتها .

١ — دولة السلاجقة:

نشأت هذه الدولة أولا فى تركستان بوسط أسية ، وهى بجموعة من القبائل التركية التى دفعتها الظروف الاقتصادية والسياسية إلى كثرة التنقل بحثا عن أسباب العيش الرغيد فظروف هجرتهم من أواسط آسية كانت ظروفا اقتصادية ملحة ، فأعدادهم كثيرة ، وأمكنتهم التى يقيمون بها لا تتسع لهذه الأعداد الكثيرة ، فهاجروا من موطنهم الأصلى وهم مدربون على القتال ليدافعوا عن أنفسهم فى أثناء الانتقال من مكان إلى آخر فنزلوا فى بلاد « ماوراء النهر » أى ما وراء نهر جيحون فى آواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين وقد أطلق على هذه القبائل اسم « السلاجقة » بعد أن تولى رئاستها « سلجوق بن دقاق » فجمع شملها ونظم صفوفها ووحدها تحت زعامته ، ولما كانت البلاد التى دخلوها من بلاد المسلمين رأوا أن يدخلوا هم كذلك فى الإسلام ، وهذا ما حدث فأتيح لهم بذلك أن يتقربوا من حكام المسلمين المجاورين لهم كما ساعدتهم الظروف المحيطة ببلاد ماوراء النهر وما جاورها أن يضاعفوا من سيطرتهم ونفوذهم عليها يقول الدكتور عبد النعيم حسنين .

« (١) كان السلاجقة عنصرا جديدا فى هذه البلاد ، فكانوا يختلفون

---

(١) دولة السلاجقة ص ٩٠ . المطبعة الفنية الحديثة ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية .

عن عنصر السامانيين فى أنهم لم يألفوا حياة المدن والاستقرار من قبل، بل عاشوا عيشة تغلب عليها سمات البداوة، من ميل إلى التنقل والارتحال، طلبا وانتجاعا لمواطن الكلأ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة فى أعماق نفوسهم مما أثر فى دولتهم، وفى حاضرهم ومستقبلهم أيما تأثير. فقد اعتمد سلاطين السلاجقة على القبائل التركية اعتمادا كبيرا، وكونوا من أفرادها جيوشهم وشجعوا القبائل السلجوقية على الوفود إلى ايران، وغيرها من الأقطار الإسلامية».

بدأ السلاجقة فى توسيع ممتلكاتهم بالإغارة على المناطق المجاورة لهم فتمكنوا من الإستيلاء على إقليم خراسان والقضاء على الدولة الغزنوية استطاع سلطانهم طغرل أن يدخل نيسابور ويعلن قيام دولة السلاجقة فى هذه المنطقة، فاعترف بها الخليفة العباسى القائم بأمر الله، واعترف بطغرل سلطانا عليها فأخذت هذه الدولة صفة شرعية أمام الناس فى سنة ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م)

كان قيام هذه الدولة حدثا جديدا فى هذا الوقت واستطاعت أن توجه سير الأحداث فى العالم الاسلامى. يقول الدكتور عبد النعيم حسنين.

«(١) وقد استطاع السلاجقة السيطرة على جزء كبير من العالم الإسلامى فى عصرهم، وعلى كثير من ممتلكات الروم (الدولة البيزنطية) فى آسيا الصغرى والمناطق المجاورة لإيران. فكان الدور الذى لعبوه على مسرح التاريخ دورا مهما جديرا بالتعريف به، ودراسة تكشف أبعاده وآثاره».

استطاع الزعيم السلجوقى طغرل — بما أوتى من مقومات الشخصية القوية — أن يجمع الجند والقبائل حوله فلما أسلموا له القياد استعان بأفراد

---

(١) المرجع السابق. ص ٢٩

أسرته فى تحقيق أهدافه التى هى أهداف كل السلاجقة فى الوقت نفسه فعين كل واحد من أفراد الأسرة واليا على ولاية من الولايات وسيره إليها وسمح له أن يفتح ما يقدر على فتحه من البلاد المجاورة له على ألا يؤدى ذلك إلى نزاع مع فرد آخر من أفراد الأسرة ، واستطاعوا جميعا — بهذا التصرف الحسن — أن يبسطوا أيديهم على إيران ، وكانت مدينة الرى « المجاورة لطهران » عاصمة لهذه الدولة عند قيامها .

ولما علم الخليفة القائم بهذه الفتوحات سر بها أيما سرور ودعا طغرل زعيم السلاجقة « لزيارة بغداد فرحب الأخير بالدعوة ، ولكنه طلب تأجيلها إلى أن يتمكن من بسط نفوذه على كل أجزاء إيران وبعض البلاد المجاورة لها .

كانت دعوة القائم بالله لطغرل بسبب ثورة البساسيرى الثائر الذى ملك بغداد مدة ودعا فيها للفاطميين ، وتمكن طغرل من بسط نفوذه على بغداد والقضاء على كل القوى المناوئة فى سنة ٤٤٧ هـ .

وصلت هذه الدولة إلى أوج عظمتها فى عهد « ألب أرسلان » خليفة طغرل ، وفى عهد ملكشاه بن ألب أرسلان ، ومع موت كل سلطان من سلاطينهم كان التنافس يشتد حول عرش السلطنة وحول كرسى الوزارة ، ومع هذا التنافس تمكنوا من بسط نفوذهم على مناطق واسعة من العالم (الإسلامى) من أفغانستان إلى البحر المتوسط كما هزموا الروم وقضوا على شوكتهم فى أكثر أجزاء آسية الصغرى مما ساعد على القضاء على الدولة الرومية نفسها على أيدى الأتراك العثمانيين بعد ذلك .

ولقد منى السلاجقة بظهور « الإسماعيلية (١) » حيث كان ظهورهم فى

---

(١) ينتسب دعاة مذهب الإسماعيلية إلى إسماعيل بن جعفر الصادق =

إيران وبالا على السلاجقة فدخلوا فى حروب طويلة معهم ، ولم يقتصر الأمر على ظهور هذه الدعوة الشيعية بل أبتلى السلاجقة بخصوم آخرين أكثر عنفا وأشد نفوذا وهم الصليبيون ، فقد أخذوا يغيرون على بلاد الشام فى وقت كان السلاجقة فيـــه منقسمين على أنفسهم يتقاتلون فيما بينهم للظفر بعرش السلطة مما يسر للصليبيين النصر فى حروبهم الأولى وتمكنوا من بسط نفوذهم على كثير من الأجزاء المهمة فى بلاد الشام وفلسطين .

٢ ــ الدولة الخوارزمية :

أخذت هـــذه الدولة تظهر فى التاريخ تدريجيا فى منتصف القرن السادس الهجرى عندما تمكن أحد الأتراك العبيد من أن يستقل بهـا عن الدولة السلجوقية وكان قطب الدين محمد أول ملك لها ملقبا نفسه « خوارزم شاه » أى ملك خوارزم .

ولقد أنهارت الدولة السلجوقية فى المشرق بفضل الدولة الخوارزمية التى قضى عليها هى الأخرى بعـد مدة قصيرة من عدو عنيف فى حربه ، جديد بأسلحته ، وهذا العدو هو المغول بقيادة سفاح الشعوب جنكيزخان ولم يكتف المغول بالدولة الخوارزميـة بل اتجهوا إلى بغداد بعد ذلك ، وقضوا على كل أثر للعباسيين أو الأتراك السلاجقة ، وقبل مجيئهم لبغداد كانوا قد خربوا ما يقارب نصف بلاد العـــالم الإسلامى ، وذلك حتى عام ٦١٨ هـ وهذا ياقوت الحموى الذى كان معاصرا لهـذه الأحداث يقول :

= الذين كانوا يعتقدون أنه أحق بالامامة من أخيه موسى الكاظم ، وهم من شيعـة آل على . أنظر دولة السلاجقة ص ٦٠ للدكتور عبد النعيم حسنين .

« (١) على أنه قد جرى فى أيامنا هذه وعصرنا الذى نحن فيه فى سنة سبع عشرة ، وثمانى عشرة وستمائة من التتر الواردين من أرض الصين ما لو أستمر لملكوا الدنيا كلها فى أعوام يسيرة ، فإنهم ساروا من أوائل أرض الصين إلى أن خرجوا من باب الأبواب وقد ملكوا وخربوا من البلاد الإسلامية ما يقارب نصفها ، لأنهم ملكوا ما وراء النهر وخراسان وخوارزم وبلاد سجستان ونواحى غزنة وقطعة من نهر السند وقومس وأرض الجبل بأسره غير أصبهان وطبرستان وأذربيجان وأران وبعض أرمينية وخرجوا من الدربند ، كل ذلك فى أقل من عامين ... » .

لقد حدد ياقوت فى عبارته السابقة البلاد التى خربها التتر والتى كان تخريبها مقدمة لتخريب بغداد مركز الخلافة العباسية .

٣ — الدولة الأيوبية :

تمكن صلاح الدين الأيوبى بعد أن جاء إلى مصر مع عمه من إسقاط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وتم لهما ذلك بدون عناء أو اضطراب ثم تولى صلاح الدين الأمر بنفسه بعد وفاة عمه فى سنة ٥٦٩ هـ

يقول الدكتور محمد زغلول سلام عن سياسة صلاح الدين وجهوده :

« (٢) وكان وصلاح الدين يسير فى سياسته على نهج يتلخص فى الحزم

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص : ١٨٢ . طبعة دار صادر . بيروت .

(٢) الأدب فى العصر الأيوبى ص ٣٥ طبعة دار المعارف ١٩٦٨ م

من غير عنف وحسن السيرة فى غير ضعف ، كما أنه كان يسعى إلى توحيد الجهود نحو الهدف ، ولم يسمح لذلك بالفرقة فى أية صورة من الصور ، وحارب دعاة الهزيمة وتشتيت الجهود داخل البلاد حربا لا هوادة فيها ولا تهاون حتى يحفظ للجبهة الداخلية تماسكها لتواجه الأعداء صفا مرصوصا متماسكا لا منفذ فيه ولا ثغرة لمغرض أو مغامر أفاق ، ولا خرجة يستطيع الأعداء التسلل خلالها للطعن من الخلف » .

وقد واجه صلاح الدين صعابا كثيرة خرج منها منصورا ظافرا بفضل يقظته وحسن تدبيره وإخلاص بعض أعوانه ، فأحل المذهب السنى فى مصر محل المذهب الشيعى فحقق أمنية كان يتوق إليها أهل السنة فى إيران والعراق والشام وغيرها من بلاد المسلمين .

وبعد أن تخلص من الصعوبات فى مصر وقضى فيها على المعارضة الداخليه وطهرها من الفتن ومؤامرات الأعداء ، نظر إلى الشام فوجد قسما منه يسيطر عليه الصليبيون بقوة السلاح ، وقسما آخر يملكه العرب والمسلمون وعلى رأسهم نور الدين محمود بن زنكى . أتجه صلاح الدين إلى الشام ، والتقى مع آل زنكى فى موقعة لم يكن راغبا فيها لأن الأمر يستلزم توحيد الصف وجمع الشمل أمام العدو المشترك وهو الصليبيون .

أنتصر صلاح الدين على آل زنكى وأعترف به الخليفة العباسى فى بغداد سلطانا على مصر والشام ، وأمن جبهته الشمالية وعاد إلى مصر ليجهز نفسه للحرب الحقيقية ضد الصليبيين فى فلسطين والشام ولم يقابلهم إلا بعد أن جمع حوله معظم القوى العربية والإسلامية تعاضده وتنطلق معه ، ليلقى بثقلها على الصليبيين ، وحقق صلاح الدين أمنيته فى هزيمة الصليبيين فى مواقع كثيرة منها موقعة حطين ، وأستمر يتنقل بين مصر والشام ثم لحق بربه فى سنة ٥٧٩ هـ بدمشق .

بعـــد وفاة صلاح الدين أضطرب الأمر بين أبنائه فتعرضت الدولة لهذات كبيرة من الداخل والخارج ، ومع هـذا الأضطراب تابع خلفاء صلاح الدين رسالته حريصين على السير فى الطريق الذى خطـــه لهم ، وأستمرت هذه الدولة مايقرب من قرن من الزمان ، وكان آخر ملوكهم فى مصر « توران شاه » قائدا مناضلا ضـد الصليبيين الذين هاجموا مصر عن طريق دمياط فى حملة هوجاء قادها لويس التاسع ملك فرنسا نخاب سعيه وخابت حملته وانتهى به الامر إلى دار ابن لقمان بالمنصورة وبجنده إلى القتل أو الغرق أو الأسر .

لهزات

هذه هى صورة المجتمع العربى الإسلامى فى الوقت الذى عاشة ياقوت الحموى (٥٧٤ هـ — ٦٢٦ هـ) .

فالدولة العباسية ممزقة ، والدولة السلجوقية التى أجهزت عليها وصلت هى الأخرى إلى مرحلة الضعف ، والدولة الأيوبية كانت منهوكة القوى بعد حروبها الكثيرة مع الصليبيين والدوله الخوارزمية كان خطبها أفدح لأن التتار بدأوا بها فسقوها الهزيمة تلو الهزيمة حتى أبيدت عن آخرها ، ثم انتقل التتار إلى سلاجقة بغداد فقضوا عليهم مع بقايا الدولة العباسية فى منتصف القرن السابع الهجرى وقبل ذلك بسنوات معدودة كان المماليك قد حلوا محـل الأيوبيين فى مصر وبعض الشام وتعاونت فئاتهم فى صد هجوم التتار لأول مرة فى موقعـة عين جالوت بقيادة سيف الدين قطز الذى كان مملوكا يرجع أصله إلى سلالة « خوارزم شاه » . يقول الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجى(١) « وبعد أن كانت الخلافة فى قبضة الخليفة الذى

---

(١) الآدب العربية فى العصر العباسى الثانى ص ٩ مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٥ م .

يحكم العالم الإسلامى من بغداد ، تفرق السلطان فى بيوت كثيرة ، وتوزع الحكم فاستوطن أكثر من عاصمة ، واضطربت أمور العالم الإسلامى بتأثير سياسات متضاربة متخاصمة فى أغلب الأمر ، مما أوهن من نفوذ المسلمين فى العالم وفلّ غرب سلطانهم » .

التقى ياقوت الحموى فى عهد الدولة الأيوبية بالأمير عضد الدولة بن مويد الدولة عندما جاء إلى مصر قال :

« (١) وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر ، عند كونى بها فى سنتى إحدى عشرة واثنتى عشرة وستمائة وأنشدنى شيئا من شعره وشعر والده » .

ويحدد ياقوت لقاءه ، بعضد الدولة زمانا ومكانا فيقول :

« (٢) قال مؤلف هذا الكتاب فارقته فى جمادى الأولى ، سنة اثنتى عشرة وستمائة بالقاهرة يحيا ، ولقيته بها وهو شيخ ظريف ، واسع الخلق شائع الكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، واشترى منى كتبا ، وحدثنى أن عنده من الكتب مالا يعلم مقداره ، إلا أنه ذكر لى ، أنه باع منها أربعة آلاف مجلد فى نكبة لحقته ، فلم يؤثر فيها ، وسألته عن مولده ، فقال : ولدت سنة عشرين وخمسمائة فيكون عمره إلى وقتنا هذا اثنتين وتسعين سنة ، وكان قد اقعد لايقدر على الحركة ، إلا أنه صحيح العقل والذهن ، والفطنة والبصر ، يقرأ الخط الدقيق كقراءة الشبان ، إلا أن سمعـــة فيه ثقل ، وكان ذلك يمنعنى من مكاثرته ومذاكرته ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله — قد أقطعه ضياعا بمصر ، فهو يصرفها فى مصالحه ، وأجراه الملك العادل ، أخو صلاح الدين على ذلك ، وكان الملك الكامل بن العادل

---

(١) معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٩٢ طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت .

(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٤٣ .

يحترمه ، ويعرف له حقه وأنشدنى شعرا من شعر أهله ، لم يحضرنى منه فى هذا الوقت ما أورده » .

كانت حلب على عصر ياقوت خاضعة للدولة الأيوبية وكان صاحبها هو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر يوسف بن أيوب .

وكان القفطى وزيراً لصاحب حلب فى سنة ٦٠٨ ﻫ وهو الملك الظاهر غازى بن يوسف بن أيوب وكان القفطى هذا محبوبا عند ياقوت ، ونشأت بينهما صداقة على ماسنذكره بعد ، وكان القفطى من الكتاب المشهورين المبرزين فى النظم والنثر وكان أبوه كاتبا منشئا ، قال القفطى الشعر وألف الكتب التى كان منها . إنباه الرواه على أنباه النحاه ، وهو كتاب فى أخبار النحويين .

ولقـــد التقى ياقوت بأفراد البيت الأيوبى فى مصر والشام ، وقضى سنوات عمره الأخيرة فى حلب وهى تحت النفوذ الأيوبى .

* * *

ضعفت الحركة العلمية فى نهاية عصر السلاجقة ببغداد ، وقويت هذه الحركة فى عهد الأيوبيين بمصـــر والشام ، فساعدت على ارتقاء الفلسفة وتاليف المعاجم اللغوية وظهور فنون جديدة فى الأدب .

وأستطيع أن أقرر أن المجتمع العباسى كان يعـانى من الطبقية ومن العناصر المختلفة من عرب وأتراك وفرس وهنود وغيرهم ، وكانت اللغة العربية تجمع بين هذه العناصر وتوحد بينهم وكانت حركة الترجمة نشطة فى العصر العباسى الأول وبدأت تؤتى ثمارها فى العصر العباسى الثانى ، فالعلوم المترجمة إلى العربية قد أمدت الأدب بـكثير من المعانى والأخيلة والصور الأدبية .

كان التعصب بين الدول المنشقة عن الدولة العباسية يدفعها إلى الاهتمام بالأدب شعره ونثره ويدفعها أيضا إلى عقد المجالس الأدبية التى كان يتنافس فيها الأدباء والشعراء ويجد فيها الفلاسفة والمفكرون مكانا رحبا وأرضا صالحة لنمو العقل وازدهار المعرفة .

كما اشتد الصراع بين الشيعة وأهل السنة وزاد التنافس بين علماء اللغة فى المشرق والمغرب وأصبح الفاصل بين الأدب والعلم ضئيلا ، واهتم الأدباء والكتاب بالتدوين . ولقد تفرقت عناصر المجتمع واختلفت فيما بينها ، ولكن اللغة العربية بقيت قوية ، ودامت العقيدة أقوى .

١ — اللغـــة :

لقد بقيت اللغة العربية فى هذا العصر قوية ولم تضعف بعد الاحتكاك المباشر بالعناصر الأجنبية التى التقى العرب بها فى الأراضى الجديدة التى فتحها المسلمون ، ولم تضعف اللغة كذلك بدخول الأعاجم البلاد العربية ، وإنما كانت العناصر غير العربية تسعى إلى تعلم اللغة وإجادتها فهما وتذوقا ، لأنهم يتعاملون بها ويتعلمون أمور الإسلام عن طريقها .

استفاد الإسلام واللغة من معرفة هؤلاء الأعاجم للغة العربية ، فظهر علماء أفذاذ فى التفسير والحديث والفلسفة والمنطق واللغة والاجتماع والنحو والبلاغة والأدب والتاريخ والخطابة ... الخ

وازدادت اللغة ثراء بما نقل عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات والألفاظ الإدارية والسياسية والاقتصادية وخير دليل على ذلك هذه الرسالة الجامعية فهى تتعرض بالبحث والدرس لأدب ونقد رجل رومى غير عربى . يقول أحمد حسن الزيات :

«(١) واقتبست اللغة العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب كالتبجيل فى الخطاب ، والاحتشام مع المخاطب وإسناد الشىء إلى الحضرة والجناب والمجلس ، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد كالسفاح والمنصور والرشيد وذى الرياستين وركن الدولة . . . إلخ ، والإسهاب فى العهود والرسائل ، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشانها من جهة أخرى » .

لم تضعف اللغة إبان هذا العصر ، لأنها لغة القرآن والدين ، ولأنها لغة الحكم والسياسة والعلوم المختلفة والآداب والشعر والنقد والبلاغة .

ولما ضعفت الدولة العباسية فى آخر عهدها ، وتفتت رقعتها بين العرب والفرس والأتراك واجهت اللغة إبان ذلك صراعا عنيفا وحربا ضروسا ضد العامية واللغات المحلية التى بدأت تزاحم الفصحى فى التعامل لا فى التأليف .

كانت اللغة تقاتل فى جهة أخرى ولكن القتال هنا أعنف ، إنه مع اللغة الفارسية ، إذ كان رجال السياسة والأدب من الفرس يتعصبون للغتهم ويدعون إلى التعامل والكتابة بها ، ومحاولاتهم هذه كانت تنجح أحيانا وتفشل غالبا . ولقد تقهقرت اللغة وتحشرجت ألفاظها على ألسنة الناطقين بها بالهجوم التترى يقول د . محمد عبد المنعم خفاجى(٢) :

« فلما خرج التتار من صحراء المغول اكتسح سيلهم فى طريقه أثر العربية وهاض الإسلام إلى ما به ، وأحرقوا الكتب ، وقتلوا العلماء ،

---

(١) تاريخ الأدب العربى ص ٢١٣ دار نهضة مصر للطبع والنشر .

(٢) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى ص ١١

فكان ذلك آخر العهد بامتداد سلطان العربية السياسى بالمشرق ، وبقى لها بعض السلطة الدينية والعلمية بين العلماء خاصة حتى عصرنا هذا » .

٢ — الأدب :

وعلى الرغم من الانحلال السياسى الذى كان نتيجة للضعف والتفكك فى جسم الدولة العباسية فى عصرها الثانى إلا أن الأدب قد ظل رائعـــا لوقت طويل من بداية هذا العصر ، وكان ذلك يرجع إلى التنافس الشديد بين الدويلات التى قامت خلال هذا العصر مثل الدولة البويهية والدولة الحمدانية وغيرهما ، الأمر الذى جعل المراكز الأدبية والثقافية تتعدد أمام أهل الأدب والفكر — كما كان الخلفـــاء والحكام والأمراء يدفعون الأدباء إلى الإجادة بما كانوا يتقدمون به من منح وعطايا ، كما كان بعضهم يتذوق الشعر أو يقوله أو ينقده .

ولقد عُـدّ فى الشعراء تميم بن المعز الفاطمى ، وأبو فراس الحمدانى وعضد الدولة البويهى ، واهتم العلماء بالأدب وعلومه وأخباره ودونوا ماجمعه الرواه من أخبار العرب ونوادرها وأيامها وأشعارها وخطبها وأودعوها بطون الكتب وأوعية الصدور .

وكان الإنقسام السياسى فى هذا العصر سببا فى ظهور الآداب القومية التى تتغنى بأمجاد الدول الصغيرة النابتة على ظهر الأرض العباسية .

«(١) وهذه الآداب القومية التى نشأت فى أقاليم الخلافة لم تتباعد كثيرا لاتحاد ممالك الخلافة فى الدين واللغة والثقافة والأخلاق ، ولكثرة الهجرات والرحلات بينها ، ولاتحاد مصادر الثقافة فيها » .

---

(١) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى ص ٣٧ ، للدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى .

تأثر العرب كثيراً بالفلسفة اليونانية التى ترجمت إلى العربية وآتت ثمارها فى هذا العصر جنباً إلى جنب مع الثقافة الهندية والمعانى الفارسية، وكان العرب الذين تعلموا الفارسية وللفرس المتعربين دور كبير فى مجال الأدب الذى يشيع فيه اللهو والمجون ووصف الراح وأدب الزهد.

كما تأثر الأدب كذلك بالبيئة والطبيعة وتغنى الشعراء بالربيع والجداول والشمس والقمر والنجوم.

٣ — الكتابة الفنية:

لا تختلف الكتابة الفنية عن الأدب من حيث الازدهار والجمود أو من حيث القوة والضعف، وهى ظل السياسة ولسان الحاكم، وكانت الكتابة فى يده هذا العصر قوية جزلة واضحة الدلالة لانتشار الثقافة الأدبية والعقلية انتشاراً كان له أثره فى ذوق وفكر الكتاب كما ازدادت أخيلتهم ثراء بما ترجم من الأمم الأخرى.

كما استفاد الأسلوب، وازداد جمالا بالمحسنات غير المتكلفة التى دخلت سماء الكتابة، واستفادت الكتابة بالتسابق المحمود بين حكام الأقاليم المنشقة والذى سبقت الإشارة إليه.

ولما ضعفت الدولة ازدادت الكتابة ضعفاً، وفسد الذوق، وضعفت الملكات البيانية وتكبلت الكتابة بالمحسنات المتكلفة، وشاعت العجمة وسرت إلى ألسنة الكتاب، وانتشرت العامية بين المتحدثين فتضاءل مجتمع الفصحى وقل الحرص عليها.

«(١) لقد أخذت الكتابة فى هذا العصر طريقها إلى التكلف والإسراف

---

(١) ملامح أدبية ص ١١٨ د. أحمد الشرباصى مطبعة الرسالة ١٩٦٩ م

فى المحسنات البديعية والصناعية اللفظية من الجناس والتورية والطباق والسجع كما ظهر التكلف فى الإتيان بالتشبيه والمجاز والاستعارة وكثرة التضمين والاقتباس من القرآن والأحاديث والأمثال والحكم ..

وظهرت فى هذا العصر فنون نثرية جديدة لم يكن الأقدمين عهد بها ومنها:

أولا : المقامـة :

المقامة معناها : المجلس ويقصد بها فى الأدب : الحكاية الخيالية التى تشتمل على حادثة فى موقف لشخص يكتسب بالأدب وتنتهى بموعظة أو فكاهة .

ظهر هذا الفن على يد بديع الزمان الهمذانى الذى توفى فى نهاية القرن الرابع الهجرى وقد أملى أربعمائة مقامة على الناس فى أول عهده .

ولابد من أن تصاغ المقامة بأسلوب قصصى لطيف منمق يلتزم فيه السجع أو يكثر منه وتعتبر المقامة أثراً من آثار اتصال الأدب العربى بالأدب الفارسى وإن كان هناك بعض الباحثين ينفون أن تكون المقامة العربية مأخوذة عن الفارسية .

« (١)ويذكر البعض أن المقامات مقتبسة من أصل فارسى ، ولكن الباحثين المنصفين من عرب وفرس ينفون أن تكون المقامات قد وجدت فى الأدب الفارسى قبل البديع ، إذ لم تعرف المقامات فى الأدب الفارسى قبله ولا فى عصره ، وإنما عرفت بعده بقرن ونيف »

ولقد نسج الحريرى على منوال الهمذانى .

---

(١) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى : د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٦٨

أسهمت المقامة فى إغناء الأدب العربى بالألفاظ والأساليب والأخيلة، وجددت بعض المفردات اللغوية المهملة ، وكان ظهورها مقدمة لظهور فن القصة فى الأدب العربى .

ثانياً : كتابة الرسائل :

ظهر فن كتابة الرسائل فى هذا العصر ونال اهتماما وعناية كبيرة من الأدباء ، وهذه الرسائل إما ديوانية أو إخوانية .

الرسائل الديوانية : وهى التى تكتب لتصريف شئون الدولة وتدبير أمورها ـ وذلك بعد أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واحتاجت إلى متابعة وإشراف من مركز الخلافة فأنشأت الدواوين ومنها ديوان الرسائل وكانت الدواوين عاملا قوياً فى نشاط الكتابة إذ اشتغل بها كثيرون لأنها تدر عليهم أموالا ضخمة، وكان الديوان يختار ألمع الكتاب فكراً وأدباً ، ومع أن هذه الرسائل كانت تتناول المسائل السياسية ، إلا أنها نماذج أدبية فيها متعة وفكرة وإحساس وذوق .

«(١) وقد امتازت كتابة الرسائل فى هذا العصر امتيازاً ظاهراً بلزوم السجع القصير الفقرات لاسيما فى الرسائل السلطانية ، واستعمال الجناس وبعض أنواع البديع من غير إفراط ، واستخدام معانى الشعر وألفاظه فيها بحل الأبيات السائرة والحكم المأثورة ، حتى كادت الرسائل تكون شعراً منثوراً ، وازدادت فيها عبارات التعظيم والتفخيم للملوك والأمراء والتهويل بشأنهم ، والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعر ».

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣

الرسائل الإخوانية :

هى الرسائل الإخوانية التى تكون بين الأصدقاء لتصوير عاطفة الشوق والعتاب أو التعزية والمواساة، ولا يتصل هذا النوع من الرسائل بالحياة الرسمية ومتطلباتها . ويشيع السجع فى هذا اللون من الرسائل ، وقد تطول الرسالة الإخوانية وتكون بذلك مخالفة للمألوف، كالرسالة التى بعث بها ياقوت الحموى إلى الوزير على بن يوسف القفطى وهى رسالة طويلة ممتدة ، وسوف نعرض لها بالدراسة عند التعرض لهذا الفن عند ياقوت .

٤ — الشعر :

لقد بلغ الشعر العربى درجة كبيرة من القوة والازدهار عندما كانت الدولة البويهية تمتلك زمام الأمور فى بغداد، إذ كانت تنافسها فى ذلك الدولة الحمدانية فى حلب والدولة الفاطمية فى مصر والشام ، وكان التنافس بين هذه الدول محموداً وطيباً فى رعاية الشعراء وحسن معاملتهم .

وفى العصر السلجوقى الذى زادت فيـــه العامية واستشرت العجمة ، وكثرت الاضطرابات — ضعف الشعر وأفسدتـه المحسنات الممقوتة والمعانى الساذجة والصور الرثة البالية ولم يكن هذا هو حال كل الشعراء أو كل الأقاليم إذ كان الشعر فى مصر والشام مقبولا إلى حد ما فى عهد الفاطميين والأيوبيين .

فنى مصر بخاصة أدى الشعر دوراً هاماً فى أحداث هذا العصر ، وكان الشعر لساناً للسياسة وترجماناً لأحداث العصر ووسيلة للتسلية والمتعة وتعبيرا عن الوجدان والمشاعر والأحاسيس .

مما سبق يتضح لنا كيف لعبت السياسة دوراً هاماً فى خدمة الأدب أولا ثم فى ضعفه وبوار سلعته بعد ذلك .

لقد بدأ الأدب بشتى فنونه فى هذا العصر قوياً ولم يلبث أن استحال فى السنوات الأخيرة إلى سطور منمقة وعبارات مزينة تشم منها روائح العصر المتغيرة فإذا بحثت فيها عن معنى ربما تجـــده بمشقة وربما تتعثر ولا تصل إليه .

ولقد جعلت الكلام عن هذا الفصل مختصراً لأن كل فن من هذه الفنون سوف نكتب عنه بالتفصيل من خلال شخصية ياقوت الحموى .

الفصل الثاني

حياته وآثاره

أسماء متشابهة :

ينقل إلينا تاريخ الأدب للعصر العباسي الثاني أكثر من شخصية أدبية تحمل اسم « ياقوت بن عبد الله » عاشت كلها في القرن السابع الهجري ، وكلها رومية « وهذا تشابه غريب كثيراً ما يوقــــع الدارسين في اللبس والاضطراب ، ولهذا كان من المناسب أن نتعرف على كل الشخصيات التي تحمل هذا الأسم في ذلك العصر حتى نميز بينها .

وكل علم من هذه الأعلام الياقوتية يتميز بشيء بل بأشياء تجعله معلوم الهوية ، معروفا من سميه ، وهذه ترجمات موجزة مختصرة ندق بها ناقوس الدخول إلى صاحبنا ، وموضوع بحثنا الذي بذهم جميعاً .

* * *

١ — ياقوت بن عبد الله الرومي الشاعر :

كتب عنه ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » وترجم له ياقوت الحموي في كتابه « معجم الأدباء » وكتب عنه مؤرخون آخرون .

وهو أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي ، أحد أدباء العصر العباسي الثاني ، نشأ بغداد ، وحفظ القرآن الكريم وتلقى علومه العربية والأدبية ، بالمدرسة النظامية ببغداد ، كان حسن الخط ، أديباً شاعراً قال ياقوت

الحموى عنه :(١) « وله ديوان شعر لطيف بلغتنا وفاته فى ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، ومن شعره فى الغزل هذه الأبيات :

لك منزل فى القلب ليس يحله ... إلا هواك عن سواك أجله

يا من إذا جليت محاسن وجهه ... علم العذول بأن ظلماً عذله

الوجه بدر دجى ، عذارك ليله ... والقد غصن نقاً ، وشعرك ظـــله

الأبيات . . .

ويذكر له فى معجم الأدباء شعراً آخر من قصيدة تظهر فيها علامات الصنعة البديعية وهى إحدى مظاهر هذا العصر . يقول :

جسدى لبعـدك يا مثير بلابلى ... دنف بحبـــك ما أبل بلى بلى(٢)

يا من إذا مالام فيــه لوائمى ... أوضحت عذرى بالعـذار السائل

أأجيز قتلى فى « الوجيز » لقاتلى ... أم حل فى «التهذيب» أم فى «الشامل»

أم فى « المهذب » أن يعذب عاشق ... ذو مقلة عبرى ودمع هامل(٣)

ياقوت بن عبد الله الرومى الكاتب :

ترجم له كتاب « وفيات الاعيان » وكتاب « معجم الأدباء » وله ترجمة مختصرة فى كتاب « ملامح أدبية للمرحوم الدكتور أحمد الشرباصى » .

ويروى أنه أخذ النحو والأدب عن ابن البرهان أبى محمد سعيد بن

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢١١ طبعة دار إحيـاء التراث العربى — بيروت لبنان — عن دار المأمون سنة ١٩٣٦

(٢) دنف : مريض .

(٣) الكلمات التى وضعت داخل أقواس أسماء كتب .

المبارك ولازمه — كان واحد عصره فى جودة الخط وإتقانه — لذا قصده الناس من البلاد وكتب عليه خلق لا يحصون كثرة، يقول ياقوت الحموى عن اجتماعهما فى الموصل بالعراق :

«(١) اجتمعت به فى الموصل سنة ثلاث عشرة وستمائة فرأيته على جانب عظيم من الأدب والفضل والنباهة والوقار وقد أسن وبلغ من الكبر الغاية، ورأيت كتباً كثيرة بخطه يتداولها الناس، ويتغالون بأثمانها، بينها عدة نسخ من الصحاح للجوهرى، والمقامات الحريرية، وتوفى فى السنة التى عدت فيها من خوارزم إلى الموصل سنة ثمان عشرة وستمائة عن سن عالية».

* * *

٣ — ياقوت بن عبد الله الرومى الأديب المعروف بالملكى:

لم يترجم له ياقوت الحموى فى معجم الأدباء أو البلدان، لأن صاحبنا متقدم عليه بزمن طويل، وإنما ترجم له أصحاب التراجم الذين جاءوا بعده قال عنه الدكتور الشرباصى :

« وهو أديب، ناثر، ناظم، خطاط، كان من مماليك الخليفة المستعصم، ومن آثاره رسالة فى الخط، وكتاب أسرار الحكماء، ورسالة فى الأدب والحكم والأخبار ونبذة من أقوال الفضلاء. توفى بالموصل سنة ثمان وتسعين وستمائة هجرية »(٢).

بعد هذا العرض السريع لهؤلاء الثلاثة ماذا نقول عن هذا التشابه فى الاسم والجنس والزمن والموطن الذى أقاموا فيه وهو العراق، لقد كانت

---

(١) معجم الأدباء ج١٩ ص ٣١٢

(٢) ملامح أدبية ص ١٩ للدكتور أحمد الشرباصى مطبعة الرسالة سنة ١٩٦٩ م.

أسواق الرقيق تختار الاسم أو اللقب للأسرى الصغار فى العصر العباسى الثانى ، وكانت أسماء الجواهر مثل ياقوت ومرجان ولؤلؤ مما يطلق على الذكور كما أن مثل نضار ولجين وفضة وماسة كانت مما يطلق على الإناث ولذلك راج اسم ياقوت سواء كان روميا أو غيره ، وإنما خلد فى التاريخ من كانت له صلة بالآداب والعلوم .

على كل سوف نحاول معالجة ذلك بشىء من التفصيل مع ياقوت الرابع والأخير فى عالم الأدب والأسر والروم .

ياقوت الحموى

١ — نسبه ومولده :

اعتمد كتاب الأدب وتاريخه وناشرو كتب التراث ومحققو أمهات الكتب القديمة اعتمدوا على كتاب « وفيات الأعيان لابن خلكان » فى الترجمة لياقوت الحموى بين ما اعتمدوا عليه لأن هذه الترجمة مفصلة واضحة ولأن ابن خلكان كان معاصراً لياقوت ، ولأن كتابته تنال ثقة الكثيرين. وقد ذكر نسبه فقال :

(أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الجنس الحموى المولد البغدادى الدار الملقب شهاب الدين أسر من بلاده صغيراً) .(١)

فهو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى البغدادى(٢) وهذا سيل من الألقاب فرضته ظروف النشأة البائسة التى تعرض لها صاحبنا منذ خروجه إلى الدنيا ، اللقب الأول شهاب الدين ، والنسبة إلى الدين كانت شائعة إذ ذاك بين الناس ، ولا نعرف المناسبة التى لقب فيها ياقوت بهذا اللقب .

اللقب الثانى « الرومى » لأنه ولد فى بلاد الروم ، وقد أخذ منها فى صباه المبكر أسيراً . لكن أى مكان ولد فيه ببلاد الروم ؟ . إننا لا نعرف ذلك فبلاد الروم واسعة ، والصبى قد أخذ منها صغيراً ، إذن فليست له بلدة رومية ينتسب إليها ، ويشعر بالفخر والاعتزاز عندما يأتى ذكرها ، ولقد افتقد فى طفولته ماضيه ، فهو يجهل بلدته الحقيقية ، كل شىء عن حياة

---

(١) وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢١٠

(٢) لقد أخطأ ابن العماد الحنبلى عندما لقبه أبا الدر (الدرى) فى كتابه شذرات الذهب ، وأبو الدر هذا ياقوت آخر سبق الكلام عنه .

ياقوت فى بلاد الروم غير معلوم وهكذا لا نستطيع أن نجزم بشىء فى شأن مولده أو طفولته .

وبلاد الروم التى ولد فيها صاحبنا وأسر منها كانت على عداء مستمر مع دولة الفرس ، ولم تكن الحروب تنقطع بين هاتين القوتين ، فلما ظهر الإسلام فى بداية القرن السابع الميلادى عاشت هاتان الدولتان فى قلق ، وبدأ الصراع بين هذه الأطراف ، وطال مداه .

حاولت دولة الروم أن تحافظ على تعمقها فى مصر وأطراف الشام وتركيا وشبه جزيرة البلقان (اليونان وماجاورها) وكانت تهدد المسلمين العرب بين الحين والحين ، لذا لم يجد الخلفاء الراشدون بدأ من مهاجمة هذه الدولة التى تقف موقف العداء من الإسلام ، وتم إزاحتها عن مصر والشام بما فيه سورية وفلسطين .

لم تتوقف الحروب بين الروم ودولة العرب فى حياة بنى أمية وبنى العباس فالمد الأموى وصل إلى بيزنطة وحاول احتلالها ، والسلاجقة الأتراك تمكنوا من هزيمة الأمبراطور « رومانوا الرابع » سنة ١٠٧١ م والأمبراطور « مانويل الأول » سنة ١١٧٩م . ثم تحقق النصر الأكبر على يد السلطان محمد الثانى « الفاتح » الذى تمكن من فتح القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية ١٤٥٣ م وتحولت إلى استنبول « لتكون عاصمة الدولة التركية .

وكانت الدولة الرومانية قريبة من شبه الجزيرة العربية ، ونتيجة لهذا القرب والجوار بعد الحروب والمعارك دخل كثير من الروم فى الإسلام ، ودخلوا جزيرة العرب حيث يوجد رسول الإسلام عند بدء الدعوة ، وظهرت أسواق النخاسة فى العراق والشام وغيرها ، حيث يباع الأسرى من الروم والفرس ، وكثير من تجار الرقيق يملكون قلوبا كالصخر قلوبا لا تعرف شفقة ولا رحمة . وإنما تعرف جيداً الدينار والدرهم .

البغدادي الحموى لقبان آخران :

وصل ياقوت مع الأسرى إلى بغداد ، حيث السلاجقة الأتراك ، يحكمون باسم الخليفة العباسى، إنها المحطة الأولى فى تاريخ حياته ينزل فيها بعيداً عن بلاده ، لقد تم بيعه فى سوق بغداد ، فقيل له « البغدادي » .

كما لقب بالحموى لأن التاجر الذى اشتراه فى بغداد كان يسمى «عسكر ابن أبى نصر إبراهيم الحموى » لأنه كان من حماه ، فاكتسب ياقوت لقب « الحموى » من سيده الذى نشأه نشأة إسلامية ، وأصبح « ياقوت الحموى أو « ياقوت الرومى » أحيانا ، أصبح مسلما يعرف له بيتا جديداً وسيداً يقوم بتكليفه ببعض المهام التى تتناسب مع حداثته . ولما كبر سمى نفسه « يعقوب» قال ابن العماد الحنبلى :

«(١) ولما تميز ياقوت واشتهر سمى نفسه يعقوب » وابن العماد ينقل هذه العبارة عن ابن خلكان . واسم ياقوت ليس غريباً عن المجتمع العربى ، سواء أكان حضريا أو بدويا ، والياقوت حجر كريم ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وأطلق على كثير من الأعلام المشهورة فى مجال الأدب والتاريخ والعلوم ، وكان منهم بالطبع ياقوت الرومى الحموى .

ذكر ابن خلكان أن ولادة ياقوت الحموى كانت سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة من الهجرة ، وذكر ناشر معجم البلدان طبعة بيروت أنه لا يعلم شىء عن تاريخ مولده . ومع أنى ذكرت أنه لا يعرف تاريخ محدد لمولده إلا أن المؤرخين الذين جاءوا بعد ابن خلكان قد ارتضوا سنة أربع وسبعين وخمسمائة من الهجرة تاريخا لمولده ، فلا نجد حرجا من متابعتهم على ذلك .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٤

وجعل الدكتور/زكى محمد حسن ياقوتا يونانى الجنس قال(١) : «كان ياقوت يونانى الجنس ، على أن اليونان كانت جزءاً من الدولة الرومانية البيزنطية .

٢ — نشأته :

بدأ الصبي حياته الجديدة فى بغـداد حيث منزل سيده الذى اشتراه وهو عسكر بن أبى نصر إبراهيم الحموى ، كان عسكر هذا رجلا مسلما طيب القلب ، أميا لا يعرف قراءة ولا كتابة ، تاجراً واسع الثراء ، وكان متزوجا ، وصاحب أولاد من زوجته .

أقام عسكر فى بغداد واستقر فيها لأنه تزوج منها وبنى حياته فيها ، وازدادت تجارته إتساعا وهو محتاج إلى أن يحافظ على هذه التجارة الواسعة التى يتنقل بها من بلد إلى بلد ، فإقامته فى بغداد ليست إقامة كاملة ، وهذا هو حال التجار فى العصور الوسطى ، كان بعضهم يتزوج فى البلاد التى ينزل بها مدة من الزمن ، ولـكن عسكراً هذا كبرت تجارته ، وهو محتاج إلى معاونة من شاب يحسن القراءة والـكتابة ، ويتق الله فى أعماله ، فاشترى ياقوتا الرومى ليصنع منه شابا مسلما متعلما مثقفا ، تاجراً ناضجاً ، ورحالة يتحمل أعباء السفر ومشقات الطريق .

أختار ياقوتا فهو طفل صغير لم يعرف لؤما ولا مكرا فأراد له نشأة سليمة على أساس إسلامى رفيع ، فأحسن إليه ، وأهتم به ، وأدخله الـكتاب ليتعلم القراءة والـكتابة حتى يستفيد به فى تجـارته ، وهنا هدأت نفس

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ١٠٢ طبعه دار المعارف سنة ١٩٤٥

ياقوت مع حنان سيده وعطفه . ولم يقتصر فى تعليمه الأولى على القراءة والكتابة بل تعلم شيئاً من الحساب كما أراد له سيده .

إنه لم يتعلم حبا فى العلم ولا طمعاً فى تحصيل ثقافة معينة ، إنه يتعلم من أجل النجاح فى التجارة .

كبر ياقوت ونما وترعرع وفتح عينيه على النحو واللغة والقرآن الكريم فاكتملت بما حصله منهما — قدرته على العمل والحركة ، وخرج إلى ميدان الحياة حيث التجارة والأسفار والرحلات الطويلة الشاقة .

خرج ياقوت إلى حياة الرحلة والتجارة ، لقد تعلم فن القراءة والكتابة والحساب وشيئاً من النحو واللغة وها هوذا يخرج إلى الحياة ، فهى مدرسة كثيرة الفصول طويلة المناهج ، غنية بالتجارب بعد أن عقد العزم على الإخلاص لسيده الذى أحسن إليه .

كانت الرحلة الأولى إلى منطقة الخليج الفارسى ففيها جزيرة كيش الواقعة فى بحر عمان ، حيث تلتقى مراكب الهند وتقترب منها الأراضى الفارسية وهى ميناء تنشط فيه حركة التجارة . يقول ياقوت .

«(١) وهى مدينة مليحة المنظر ذات بساتين وعمارات جيدة وبها مسكن ملك البحر صاحب عمان وله ثلثا دخل البحرين وهى مرفأ مراكب الهند وبر فارس وجبالها تظهر منها للناظر ، ويزعمون أن بينهما أربعة فراسخ ، رأيتها مرارا .... الخ » .

كان ميدان ياقوت واسعا فى هذه السن سافر إلى كيش وعمان وعاد

---

(١) معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٢٢

إلى الشام ، ثم رجع إلى بغداد حيث يوجد مولاه، بعد أن استفاد من هذه الرحلة التجارية معرفة وخبرة فى معرفة البلدان والأقاليم .

* * *

٣ — عتقه وحريته :

بعد أن عاد صاحبنا من رحلته الأولى ، حدثت بينه وبين مولاه جفوة أدت إلى أن سيده أعتقه وأعطاه حريته ، وقد سكت التاريخ عن أسباب هذه الجفوة ، ولا نعرف إلا أنها كانت بعد العودة من الرحلة. إن ياقوتا أصبح رجلا يستطيع الاعتماد على نفسه فى تصريف أموره بعد أن أعتقه مولاه فى سنة ست وتسعين وخمسمائة من الهجرة (١١٩٩ م) .

وإذا كان التاريخ لم يذكر سببا للجفوة التى سبقت العتق فإن الأستاذ على أدهم يرى أن السبب هو حدة الطبع عند ياقوت : قال .

«(١) ربما كان سببه ما فى طباعه من حدة وما خلفته طفولته القاسية فى نفسه من مرارة وألم وعقد نفسية والتواءات جنسية » .

خرج إلى الحياة يتعلم منها شيئاً جديداً . لأنه لا يملك مالا يتاجر به وينتقل بين الأقاليم فاشتغل بنسخ الكتب ، ولديه خط جميل يستطيع أن يكسب به قوته ، وهو ذو ماض فى التجارة فأخذ يتاجر فى الكتب ، وأصبحت الكتابة صناعته ينسخها لنفسه أو لغيره ، ويقرؤها بعناية واهتمام ويتاجر فيها مكتوبة ومدونة فى كتب . وهذه مهنة لا تدر ربحا كبيرا ولكنها تكسب ثقافة وعلما جليلا يقول الأستاذ محمد كرد على(٢) .

---

(١) الثقافة سنة ١٩٥١م العدد ٦٤٢ ص٦

(٢) الرسالة السنة الخامسة ١٩٣٧ م العدد ٢٢٣ ص ١٦٤٦، وكنوز الأجداد ص ٣١٩

« فاشتغل بالنسخ بالأجرة وحصل بالمطالعة فوائد » . لم يدخل ياقوت مدرسة ، ولم يتلق تعليمه على شيخ ، ولكنه كان عصاميا كون نفسه بنفسه ، وأفادته هذه المهنة الجديدة معلومات واسعة ومتنوعة — كان يقرأ بعين نافذة ناقدة، ولم يكن آلة يكتب فقط ، بل كان يجتهد أيقرأ بدقة وإمعان وتفكير .

* * *

٤ — العودة إلى عسكر الحموى :

عاد ياقوت إلى عسكر الحموى،واجتمعا بعد تفرق، واستأنفا نشاطهما التجارى من جديد فياقوت أصبح حرا،وهو فى ريعان الشباب، وأما عسكر فشيخ هرم لا يقوى على التجارة ، ولا يستطيع مفارقتها فهى حياته التى لازمته ولم يرد لياقوت أن يعيش حياة الفقراء مع بيع الكتب ونسخها ، فطلبه لينعم عليه بأموال أكثر وربح أوفر بعد أن هدأت ثورته بعد الجفوة التى ترتب عليها العتق والحرية .

جاء ياقوت إلى سيده القديم راضيا فهو لم ينس جميله ومعروفه السابق واستجاب له ، وفارق الكتب وهو كاره لفراقها على أمل العودة إليها بعد أداء المهمة التى سوف ينفذها فى سنة أو سنتين ليعود بعدها إلى الكتب والقراءة والنسخ ، وسافر إلى كيش بخليج عمان وعاد سريعا من هذه الرحلة القصيرة ليجد سيده قد مات ، وهو راض عن ياقوت ، فحزن عليه صاحبنا وتألم لفراقه الأبدى وأحسن إلى زوجه وأولاده وجمع أمواله وحافظ عليها وقدمها لهم فرضوا عنه واستراحوا لتصرفه السليم ، واحتفظ لنفسه ببقية جعلها رأس مال له ، فهو تاجر ومحتاج إلى قدر من المال يواجه به ظروف الحياة والتجارة .

وهذه المدة الممتدة من حياة ياقوت حتى وفاة مولاه لم يغفلها ، ولم ينسى ذكرياته فيها ، وهو يكتب كثيراً عن الأحداث التى شهدها فى رحلاته وعن البلدان التى زارها ، وعن الأشخاص الذين تعرف عليهم وأخذ منهم . يقول فى ترجمته للمبارك بن المبارك الكوخى :

«(١)مات فى ثامن ذى القعدة سنة خمس وثمانية وخمسمائة، أدركت زمانه، ولقيت ببغداد أوانه إلا أننى لم أره لصغر السن حينئذ والاشتغال فى ذلك الزمان بغير هذا الشأن» ، كان صاحبنا ابن أحد عشر عاما فى وقت كان يشتغل فيه بالتجارة مع سيده بعد أن تعلم القراءة والكتابة ولم يكن له اتصال بتأليف الكتب ومتابعة أخبار الأدباء والكتاب والنحاة .

ويقول فى ترجمته لنصر بن الحسن العيلانى :

«(٢) وقد أدركته صغيراً ولم ألقه ، توفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة) ويتقدم فى السن ويتنقل فى شبابه من بلد لآخر يقول :

«(٣)وردت آمد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا فى عنفوان الشباب وريعه) .

• • •

---

(١) معجم الأدباء جـ١٧ ص٥٦

(٢) المرجع السابق جـ١٩ ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق جـ ١٦ ص ١٦٧

٥ — رحلاته بعد وفاة سيده :

خرج ياقوت إلى الحياة بما فيها من شقاء وكد وتعب ، ولم يكن يملك بيتاً يأوى فيه إلى زوجة تشاركه آلامه، وليس لديه المال يشترى به الكتب والمراجع ، وهو لا يملك صنعة إلا النسخ ، والعطاء منه محدود ، ومع هذا استطاع أن يواصل رحلته في الحياة باحثاً عن الكتب ومتاجراً فيها إلى جانب تجارته الأخرى ، ولديه معرفة كبيرة ببلاد العراق والشام والجزيرة وخراسان : ويستطيع أن يتنقل فيها فهو يهوى الرحلة ويعشق المغامرة ويفضل أن يدرس الجغرافية عن طريق هذه الرحلات بدلا من دراستها عن طريق المؤلفات — سافر إلى البلاد الإسلامية وتنقل من مشرقها إلى مغربها، وكان في أثناء ذلك مكبا على الاطلاع مواليا البحث ، مثابرا على الدرس والتحصيل وجمع المعلومات من كل مكان يذهب إليه — سافر إلى دمشق وحلب ، والموصل وإربل ، وجال في البلاد الفارسية وفي آسيا الصغرى وبلاد ماوراء النهر .

وكانت رحلاته وتنقلاته ليست إلا تنقل عاقل يرحل في اقتناص شوارد العلم ، ولقاء الرجال . ولم يعبأ بتعب أو نصب ، يمكن لنا أن نتصور طبيعة هذه الأسفار في البرد القارس أو الحر اللافح في سنة ٦٠٧ هـ ، رحل إلى مدينة هراه ، وهى من مدن خراسان فقال :

« (١) مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان ، ولم أر بخراسان عند كونى بها فى سنة ٦٠٧ مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء » .

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٩٦

كانت نفسه لا تهدأ وهمته لا تفتر في التنقل في الرباع ، والبقاع . ما دام قادرا على ذلك .

. . .

٦ — ياقوت في مصر :

سافر ياقوت إلى مصر وعاش فيها نحو عامين ، وتنقل بين مدنها وقراها ولم يأت موضع يجد فيه مناسبة للحديث عن مصر إلا ذكره ، كانت رحلته إلى مصر رحلة عادية تجمع بين التجارة والدراسة ، والمتتبع لتحركاته في مصر يجد أنه كان يشاهد بنفسه ما يستحسنه وعندما يدرك أن رؤية واحدة لموضع معين لا تكفي كان يعيدها ، ويقول عن الهرمين :

« (١) وقد رأيت الهرمين وقلت لمن كان في صحبتي غير مرة إن الذي يتصور في ذهني أنه لو اجتمع كل من بأرض مصر من أولها إلى آخرها على سعتها وكثرة أهلها ، وصمدوا بأنفسهم عشر سنين مجتهدين لما أمكنهم أن يعملوا مثل هذين الهرمين وما سمعت بشيء تعظم عمارته فجئته إلا ورأيته دون صفته إلا الهرمين فإني رأيتهما أعظم من صفتهما » .

وفي مصر رأى قرية « أطواب » من أعمال البهنسا وقرية « برمة » في كورة الغربية ، و « بركة الحبش » من أجل منتزهات مصر ، وغيرها كثير جدا »(٢) .

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ٤٠٠

(٢) انظر المرجع السابق جـ ١ الصفحات ٢١٩ ، ٤٠١ ، ٤٠٣

وفى ترجمته لأسامة بن منقذ قال عن الأمير عضد الدولة :

« (١) فارقته فى جمادى الأولى ، سنة اثنتى عشرة وستمائة بالقاهرة يحيا ، ولقيته بها وهو شيخ ظريف ، واسع الخلق ، شائع المكرم ، جماعة للكتب ، وحضرت داره ، واشترى منى كتبا ... » .

ويقول : (٢) « وقد رأيت أنا العضد هذا بمصر ، عند كونى بها فى سنتى إحدى عشرة واثنتى عشرة وستمائة وأنشدنى شيئاً من شعره وشعر والده » .

كان ياقوت فى مصر يجالس العلماء وأكابر الناس من الأدباء والشعراء يأخذ عنهم ويستمع إليهم ويناقشهم ، وكانت وقتها قلعة من قلاع الدولة الأيوبية وحصنا أمينا لرجال الأدب والفكر . قضى ياقوت فيها مدة من الزمن يبيع الكتب ويتاجر فيها ، وتركها فى سنة اثنتى عشرة وستمائة متجها جنوب دمشق ، وقد سافر ياقوت من حلب إلى مصر مرة أخرى فى سنوات عمره الأخيرة .

. . .

٧ — تنقلاته فى الشام والعراق :

رجع ياقوت إلى دمشق وأخذ يزاول مهنته قال :

« (٣) حتى وردت دمشق فى سنة اثنتى عشرة وستمائة من جمادى الآخرة »

---

(١) معجم الأدباء جـ٥ ص ٢٤٣
(٢) المعجم السابق جـ ٥ ص ١٩٣
(٣) معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٣٤

وكان يتجه بتجارته إلى سوق دمشق كعادته فى التجارة ، وفى الأسواق يختلط الحابل بالنابل وتكثر الخلافات ويشتد الصراع حول الربح، ويزداد التنافس حول السلع النادرة . وكان ياقوت عند ذلك قد أشرف على الأربعين من عمره ، وهى السن التى يبدأ الإنسان فيها يشعر بأثر الكهولة، فيعتدل بعد الإسراف ، ويقل جموحه ، وتهدأ ثورته ، ويحاسب نفسه على ماقدم فى سنواته السابقة ليصبح معتدلا متزنا ، قريباً من الناس بعيداً عن الطيش والضلال .

ذكر ابن خلكان أن ياقوتا كان متعصبا على على بن أبى طالب — رضى الله عنه — لأنه كان قد طالع شيئاً من كتب الخوارج فاشتبك فى ذهنه منه طرف قوى وذهب إلى سوق دمشق وهناك جرى له مايحكيه ابن خلكان قال :

«(١) وقعد فى بعض أسواقها وناظر بعض من يتعصب لعلى — رضى الله عنه وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكره عليا — رضى الله عنه بما لا يسوغ فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً » .

والأستاذ على أدهم يصف ياقوتاً بالحمق والطيش وحدة الطبع على هذا التصرف قال :

« (٢) ولكن صاحبنا هذا الجالس فى السوق كان على فضله وغزارة علمه وسعة معرفته لا يخلو من بعض الحمق والطيش وحدة الطبع، وجفوة الخلق ، وكان قد أكثر من الاطلاع على كتب الخوارج ، وتأثر بآرائهم

---

(١) وفيات الأعيان جـ٢ ص ٢١٠

(٢) الثقافة السنة ١٣ العدد ٦٤٢ ص ٧

وجازاهم في تعصبهم الذميم على الإمام الرضى والمثل النادر في نبالة المنزع وسمو الأخلاق علي بن أبي طالب، فجرت مناظرة بينه وبين أحد المعجبين بالوصي، وحمى وطيس الجدل بينهما، ففقد صاحبنا توازنه، واندفع يذكر عليا بما لا يسوغ، ولا يليق بمقامه الرفيع ومكانته في النفوس».

كان ياقوت بالطبع مندفعا في مناظرته هذه، ولم يقدر وهو جالس في السوق حب على عند العلويين المقيمين في دمشق — اقدثار الناس عليه ثورة شديدة عارمة كان يمكن أن تودي بحياته، ولكن الله أنقذه منهم، فخرج من دمشق منهزما خائفا حزينا. ووصل هذا الأمر إلى الوالي في دمشق فحاول البحث عنه، ولكن ياقوتا كان قد فر هاربا ووصل إلى حلب خائفاً يترقب، واسترد أنفاسه، وهدأ خوفه ومع هذا الخوف لم ينس من فيها من العلماء والأدباء والمنصفين فالتقى بالقاسم بين القاسم الواسطي ولم يتركه من غير أن يستفيد منه، قال:

«(١) وصنف بها عدة تصانيف، وهي على ما أملاه علي هو بباب داره من حاضر حلب في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة: كتاب شرح اللمع ...». ولم تطل إقامة ياقوت في حلب وخرج منها إلى الموصل في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة يقول في ترجمة يحيى بن سعد البغدادي.

«(٢) اجتمعت به لما كنت بالموصل سنة ثلاث عشرة وستمائة، وانتقل من الموصل إلى إربل بعد أن تحاشى في رحلته الانهزامية هذه المرور على بغداد، خوفا من العلوي الذي كان يناظره في سوق دمشق، لأنه كان

---

(١) معجم الأدباء جـ١٦ ص ٢٩٧

(٢) المرجع السابق جـ٢٠ ص١٦

بغداديا ، وخشى ياقوت أن يذاع عنه ببغداد ما صدر منه بدمشق فيحدث ما لا تحمد عقباه .

* * *

٨ — في خراسان :

ترك إربل وسار إلى خراسان ، وفى طريقه إليها رأى مدينة «دامغان» وهى بين « الرى ونيسابور » قال :

« جئت إلى هذه المدينة فى سنة ٦١٣ مجتازا بها إلى خراسان » .

ولما انتهى ياقوت إلى خراسان أخذ يتنقل فى بلاده مشتغلا بالتجارة ، مستمراً فى مراجعة الكتب وجمع المعلومات وتحصيل الفوائد .

تشتمل خراسان على أمهات من البلاد هى نيسابور — هراه — مرو — بلخ — طالقان — نسا — أبيورد وسرخس . . . وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون .

كان صاحبنا يتنقل بين هذه البلاد حيث يلتقى بالأدباء وأهل اللغة يأخذ منهم وينقل عنهم ، ومن مدن خراسان مدينتان لهما تأثير فى حياته.

الأولى : نيسابور : خرج إليها فى سنة ثلاث عشرة وستمائة قال :

« (١) وقفت بنيسابور عند أول ورودى إليها فى ذى القعدة سنة ثلاثة عشرة وستمائة على كتاب وشاح الدمية ... » .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٣ ص ٢٢٩

إن الحياة التى عاشها صاحبنا لم تتح له أن يبنى بيتاً أو يؤسس حياة زوجية ينعم فيها بأولاد ويسعد فيها بزوجة عطوف . والتجارب العاطفية قليلة فى حياته ، ومدينة نيسابور تشهد تجربة عاطفية تحدث عنها كثيراً وصاغ فيها شعراً .

أقام بنيسابور فى سنة ثلاث عشرة وستمائة وهى مدينة « الشاذياخ » فاستطابها واشترى بها جارية ، لا يرى أن الله تعالى خلق أحسن منها خَلقاً وخُلقاً وصادفت من نفسه محلا كريماً فأحبها حبا كبيرا وبادلته نفس الحب وارتاحت إليه ، وكان ياقوت سعيداً بهذه الحياة التى عاشها بنيسابور لدرجة أنه رأى أن أيامه فى نيسابور شذوذ فى حياته ، لأن الدهر خرج عن عادته معه ، فلأول مرة يفرح ويسعد ويحب ويعشق ويشترى جارية وتحبه مع جمالها الرائع وأخلاقها الكريمة ، ولكن فرحه لم يدم يقول :

« ثم أبطرتنى النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها ، فامتنع على القرار وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار ، فأشار على بعض النصحاء باسترجاعها ، فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن إلى ذلك سبيل لأن الذى اشتراها كان متمولا وصادفت من قلبه أضعاف ماصادفت منى ، وكان لها إلى ميل يضاعف ميلى إليها ، فخاطبت مولاها فى ردها على بما أوجبت به على نفسها عقوبة فقلت فى ذلك :

ألا هل ليـــالى الشاذياخ تؤوب
فإنى إليهـا ، ما حييت ، طروب
بلاد بها تصبى الصبا ويشوقنا الـ
شمـال ويقتاد القـــلوب جنوب
لذاك فؤادى لا يزال مروعا ؟
ودمعى لفقدان الحبيب سكوب

---

(١) معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٠٦

إلى أن يقول :

أئن ومن أهواه يسمع إأنتى ، ويدعو غرامى وجده فيجيب
وأبكى فيبكى مسعداً إلى إفيلتقى شهيق وأنفاس له ونحيب

وسوف أعود إلى هذه القصيدة عند دراستى لشعره .

الثانية : مرو الشاهجان(١) :

هى أشهر مدن خراسان بينها وبين نيسابور سبعون فرسخا ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخا وإلى بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخا ، أقام فيها صاحبنا ما يقرب من ثلاثة أعوام .

عاش فيها سعيداً هانئا ، فأهلها مشهورون بالرفد ولين الجانب وحسن العشرة ، وهى بلدة عامرة بخزائن الكتب التى يحتاج إليها صاحبنا . رأى ياقوت فى هذه المدينة عشر خزائن للوقف لم ير فى عصره مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان فى الجامع إحداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجانى ، وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو ما يقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية . والخزانة الثالثة فى هذه المدينة لشرف الملك المستوفى أبى سعد محمد بن منصور فى مدرسته والخزانة الرابعـــة لنظام الملك الحسن بن إسحاق فى مدرسته ، ويوجد خزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى فى المدرسة العميدية وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية فى مدرستها والخزائن الضميرية فى خانكاه ليكتمل العدد بذلك عشر خزائن .

---

(١) الشاهجان : كلمة فارسية معناها نفس السلطان ، لأن الجان هى النفس أو الروح والشاه هو السلطان .

لم يجد ياقوت صعوبة فى الوصول إلى هذه الخزائن فكانت كتبها فى متناول يده ، لا يفارق منزله منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن أو ضمان . وقد طابت الاقامة له فى هذه البلدة ونسى بسببها البلد والأهل والولد ، نسى البلاد فلم يعرف له بلداً معينا ، ونسى الأهل فلم يتزوج ولم يعرف الأبوة . قال(١) :

« وأكثر فوائد هذا الكتاب » معجم البلدان وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن وكثيراً ما كنت أترنم عند كونى بمرو بقول بعض الأعراب :

أقربة الوادى التى خان الفها
من الدهر أحداثٌ أتت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فإننا
كلانا بمرو الشاهجان غريب

جعل ياقوت « مرو » مركزا لحركته ونشاطه وبدأ فيها يجمع المواد العلمية لتأليف كتابه معجم البلدان وتركها فى سنة ٦١٦ هـ بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام ، ولم يجد فيها إلا عيباً واحداً وهو ما يعترى أهلها من العرق المدينى فإن أهلها منه فى شدة عظيمة وقل من ينجو منه فى كل عام . فارق ياقوت هذه المدينة مجبراً مكرها بسبب ورود التتر وتخريبهم لها وزار بعدها كثيراً من البلاد المجاورة لها وترك خراسان بأجمعها واتجه إلى خوارزم .

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ١١٤

٩ — ياقوت فى خوارزم :

مضى ياقوت إلى خوارزم فى رمضان سنة ست عشرة وستمائة من الهجرة ، وشاهد فى طريقه مدينة « درغان » على شاطىء نهر جيحون وهى أول حدود خوارزم من ناحية أعلى جيحون .

تقع خوارزم فى أقصى بلاد فارس ، وهى من أشهر مدن الشرق فى هذا الوقت تخريجا للعلماء .

نشأت بها حركة علمية وأدبيـــة ، ومن علمائها الزمخشرى صاحب الكشاف والسكاكى صاحب مفتاح البلاغة . والعلماء الخوارزميون كثيرون فى كل فروع العلم وبخاصة الدراسات العقلية ، وفى شرقى خوارزم نهر جيحون ، وفى غربيها إقليم خراسان . عندما وصل صاحبنا إلى هذا الإقليم كانت الأمور معقدة فى أقاصى الشرق بين الدولة الخوارزمية ودولة المغول ، وساءت العلاقة بينهما ، ثم بدأ المغول بالهجوم العنيف والعدوان الشديد ، فتراجع الخوارزميون ، وتقدم جنكيزخان من بلد إسلامى إلى آخر ، ولم تطب الحياة لياقوت فى أماكن القتال فانهزم من خوارزم خائفا حزينا فى سنة ست عشرة وستمائة من الهجرة ، وقاسى فى طريق عودته من المضايقة والتعب ما يكل ياقوت نفسه عن شرحه وبيانه ، وعاد من خوارزم صفر اليدين فاقدا ماله وتجارته فارا بنفسه ، وذكره هذا الهرب بما جرى له فى سوق دمشق عندما هرب منها بعد مناظرة السوق الشهيرة التى كادت تودى بحياته .

كانت مدة الإقامة فى خوارزم قصـــيرة ، لم يسعد فيها ياقوت بنهر جيحون ولا بالبلاد التى تجاوره وهى « بلاد ما وراء النهر » وفى هذه المدة القصيرة رأى بعض البلاد الواقعة فى الإقليم مثل مدينة الجرجانية ونهر جيحون وهو متجمد قال :

«(١) وقد شاهدته وركبت فيه ورأيته جامدا » ثم شرح حالته عند التجمد فقال : «فإذا استحكم جمود هذا النهر عـــبرت عليه القوافل والعجل والبقر ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون فى البوادى ويبقى على ذلك نحو شهرين » .

ترك إقليم خوارزم وبدأ طريق العودة إلى العراق ماراً بخراسان خلال سنة سبع عشرة وستمائة ، ورأى فى هذه السنة علامات الدمار وآيات الخراب على المدن الإسلامية ، ولم يتمكن من الإقامة فيها وشاهد فى عودته خراسان وشهرستان وبيروزكوه وأشنه وغيرها .

١٠ — العودة إلى العراق :

وصل ياقوت إلى اربل فى رجب سنة سبع عشرة وستمائة ، وإربل قلعة حصينة ومدينة كبيرة وهى بين الزابين (نهر الزاب الصغير إلى الجنوب ونهر الزاب الكبير إلى الشمال) تقع هذه المدينة فى شمالى العراق . قال ياقوت .

«(٢) ودخلتها فلم أر فيها من ينسب إلى فضل غير أبى البركات بن أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب ، يعرف بالمستوفى ، فإنه متحقق بالأدب ، محب لأهله ، مفضل عليهم وله دين وإتصال بالسلطان ، وخله شبيهة بالوزارة وقد سمع الحديث الكثير ممن قدم عليهم إربل وألف كتبا » .

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٩٦

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٨

وصل صاحبنا إلى هذه المدينـــة في رجب سنة سبع عشرة وستمائة حسب رواية ابن خلـكان قال :

« (١) ونقلت من تاريخ إربل الذى عنى بجمعه أبو البركات بن المستوفى أن ياقوتا المذكور قدم إربل فى رجب سنة سبع عشرة وستمائة ، وكان مقيما بخوارزم وفارقها للواقعه التى جرت فيها بين التتر والسلطان محمد بن تـكش خوارزم شاه » .

وانتقل ياقوت من إربل إلى الموصل ، وقال عن هذه المدينة :

« (٢) وليس للموصل عيب إلا قلة بساتينها وعدم جريان المـاء فى رساتيقها وشدة حرها فى الصيف وعظم بردها فى الشتاء ، فأما أبنيتهم فهى حسنة وجيدة وثيقة بهية المنظر لأنها تبنى بالنورة والرخام » .

عاد صاحبنا إلى الموصل سنة ثمان عشر وستمائة قال :

« (٣) . . . . فى السنة التى عدت فيها من خوارزم إلى الموصل سنة ثمان عشرة وستمائة . . . » وهذا التاريخ الذى ذكره ياقوت محتاج إلى إعادة نظر .

فقد ذكر على بن يوسف القفطى وزير صاحب حلب فى كتابه « إنباه الرواه على أنباه النحاه » أن ياقوتا المذكور كتب إليه رسالة من الموصل فى سنة سبع عشر وستمائة حين وصوله من خوارزم طريد التتر . . . » ولا ندرى كيف نختار تاريخا من هاتين الروايتين ؟

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ صـ ٢١٠

(٢) معجم البلدان جـ ٥ صـ ٢٢٤

(٣) معجم البلدان جـ ١ صـ ٣٥

كتب صاحبنا من الموصل رسالة طويلة إلى علي بن يوسف القفطي سنعرض لها فيما بعد — حيث وصف فيها حالته أثناء طريق العودة، وتحدث عن لياليه وأيامه فى مرو الشاهجان ، وهى إحدى مدن خراسان وسبق أن تكلمت عنها — وقال ياقوت فى رسالته إنه وجد فى كتب العلوم والآداب بمرو ما شغله عن الأهل والوطن ، وإنه ظفر منها بضالته المنشودة ، وبغية نفسه المفقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص ، وذكر أنه كان ينوى الإقامة فى خراسان بقية عمره لولا الخراب الذى حل بها ، والمحن والأرزاء التى أصابتها ، ولقد وصف أهلها بكرم الأخلاق ، ونبل الطباع يقول عنهم فى هذه الرسالة الطويلة :

«أطفالهم رجال ، وشبابهم أبطال ، ومشايخهم أبدال ، شواهد مناقبهم باهرة ، ودلائل مجدهم ظاهرة ويكتب عن أثر الكوارث التى حلت بها وبأهلها قائلا(١) :

« فإنا لله وانا إليه راجعون » . من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت فى العضد ، وتوهى الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب ، وتذهل اللب ، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيسا ، بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل ، بعد مقاساة أخطار ، وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير مرة على البوار والتبار ، لأنه مر بين سيوف مسلولة وعساكر مغلولة »

بكى صاحبنا على أيام الشباب :

تنكر لى مذ شبت دهرى فأصبحت
معارفة عندى من النكرات

(١) معجم الادباء جـ١ ص ٢٥

إذا ذكرتها النفس حنّت صَبابةً
وجادت شؤون العين بالعبراتِ

وفى نهاية رسالته الطويلة يستنجد بالقفطى ويطلب منه أن ينظر إليه بعين الرضا وأن يشمله بعطفه وعنايته .

أقام ياقوت بالموصل مدة قصيرة ثم انتقل منها إلى سنجار وارتحل من سنجار إلى حلب وأقام بظاهرها .

* * *

١١ — وفاته فى حلب :

عاش ياقوت البقية الباقية من حياته فى حلب بعد عودته من الموصل، ومدينة حلب ليست جديدة عليه فقد عاش فيها قبل ذلك وهاهو ذا قد عاد إليها بعد استحالة الإقامة فى خوارزم وخراسان نتيجة للحرب البغيضة بين الدولة الخوارزمية ودولة التتر. وجد صاحبنا أن مدينة حلب هى أنسب مكان ينزل فيه ففيها الوزير على بن يوسف القفطى ، وقد طلب منه المساعدة عندما كتب اليه — رسالة الموصل التى سبق التعرض لها .

كان صاحبنا يفارق حلب الى أماكن قريبة منها فزار بيت المقدس سنة أربع وعشرين وستمائة ، وزار أطراف العراق ومصر . إنه يطوف ما يطوف ثم يعود إلى حلب حيث مجالس الأدباء والشعراء ، يقول فى ترجمة القاسم بن القاسم الواسطى :

«(١) وأنشدنا لنفسه فى ذى الحجة سنة عشرين وستمائه بحلب» .

ظل ياقوت على هذا الحال حتى وافته منيته فى يوم الأحد العشرين من رمضان سنة ست وعشرين وستمائه من الهجرة (١٢٢٩م) .

---

(١) معجم الأدباء جـ١٦ صـ٣٠٦

بعد أن وقف كتبه على مسجد الزيدى بدرب دينار ببغداد وسلمها إلى الشيخ عز الدين بن أبى الحسن على بن الأثير صاحب التاريخ الكبير فحملها إلى بغداد .

قال ابن خلكان: «(١)ولقد سمعت الناس عقيب موته يثنون عليه، ويذكرون فضله وأدبه ولم يقدر لى الاجتماع به » .

* * *

١٢ — أخلاقه :

كان ياقوت رقيق العاطفة مرهف الحس دءوبا على العمل ، يحمل نفسا زكية دراكة ، صريحا فى قوله ،لا يداهن ولا يرائى ،يقول ما يؤمن به وأن أغضب، فيه صدع العلماء بالحق ، وصدق الصادقين من الرواه .

كان متواضعا إذا سئل عن شىء ولم يعرفه لا يخجل من أن يقول : لا أعرف أو لا أعلم .و كان لوعا بالعلم حريصا على تحصيله مهما كلفه ذلك من من جهد وطاقة ، متدينا يعرف ربه ،سباقا إلى المعروف وعمل الخير . ولقد رأيناه يقف كتبه على مسجد بالعراق ،فاشترى آخرته بدنياه قولا وعملا .

كان معتزا بنفسه مفتخرا بأعماله،معترفا بجهود من سبقوه فى كل موضوع كتب فيه . عاش حياته طالبا للعلم أمام العلماء ولكن معاصريه لم يوفوه حقه من الاهتمام والعناية حتى فوجئوا بعثر لفاته تبهرهم وتعجبهم بعد وفاته. كتب عن القفطى كتابة يظهر فيها كل الحب والثناء والتبجيل ، و كتب عنه القفطى كتابة المنعم الممتن .

---

(١) وفيات الاعيان حـ ٢ ص ٢١٤

أنعم الله عليه بعد وفاته فكتب لاسمه البقاء ولتراثه النشر والذيوع، وجعل الناس يمدحونه ويثنون عليه ويعتمدون على مؤلفاته بعد غيابه عنهم .

* * *

١٣ — شيوخه وثقافته :

عاش ياقوت حياته بين الأسر فى الصبا والتجارة فى الشباب والعزلة فى سنواته الأخيرة بحلب ، وكانت حياته متقلبة لم يعرف فيها الاستقرار والهدوء ولم تتح له أن يتفرغ لشيوخ بأعينهم يتلقى منهم ويأخذ عنهم، وإنما كان كلما صادق شيخا انتفع به وأخذ عنه، ثم لا يلبث بحكم هذه التنقلات أن يصادق شيخا آخر له يطيل صحبته، وهكذا تعددت شيوخه وكثر معدوه وإن لم يتفرغ لاستاذ بعينه .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن ياقوتا تتلمذ على الكتب أكثر مما تتلمذ على الشيوخ ، ومع ذلك فإننا سنشير إلى شيخين له ، كان لهما أثر فى ثقافته أكثر من غيرهما .

أولهما : سالم بن أحمد :

هو أول شيخ قرأ عليه ياقوت بدمشق ، له معرفة بالأدب والنحو والعروض، سافر إلى خراسان لسماع صحيح مسلم، كان حسن الأخلاق متوددا محبوبا الى الناس ، وله شعر، قال ياقوت عنه(١) :

« قرأت عليه العربية والعروض ببغداد ، وله أرجوزة فى النحو ، وكتاب فى العروض » و كتاب فى القوافى » وكتاب فى صناعة الشعر وغير

---

(١) معجم الأدباء ج ١١ ص ١٧٨

ذلك ، مات ببغداد يوم الأحد خامس ذى القعدة سنة إحدى عشرة وستمائة .

ولست أدرى كيف اقتصر ياقوت فى ترجمته على سطور قليلة بعد اعترافه بأستاذيته له وتعلمه عليه — وذلك فى الوقت الذى ترجم فيه لأدباء ليسوا بهذه المكانة عشرات الصفحات فلم يرو له شيئا من شعره ، ولم يورد أى خبر عن ذكرياته معه ، علما بأنه تتلمذ على يديه فى العراق ودمشق .

ثانيهما : عبد الرحيم السمعانى :

هو أبو المظفر فخر الدين عبد الرحيم بن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبى سعد عبد الكريم السمعانى ولد سنة ٥٣٧ هـ ، أخذ من علوم الشريعة وروى جل كتبها القيمة ، انتهت إليه رياسة الشافعية فى بلدته « مرو » بخراسان رحل الناس إليه ورووا عنه — توفى عليه رحمة الله عند دخول التتار بلاد خراسان وإبادتهم العباد والبلاد وإهلاكهم الحرث والنسل فى سنة سبع عشر وستمائة من الهجرة — التقى به ياقوت فى السنوات الثلاث التى قضاها فى مرو ، وأشار فى معجميه الأدباء والبلدان الى هذه اللقاءات ، وفى كل إشارة نجده ينتقى العبارة التى يتحدث بها عن شيخه ، ففى معجم الأدباء قال :

« وكنت(١) عند كونى بمرو عرض على شيخنا فخر الدين أبو المظفر عبد الرحيم بن تاج الإسلام أبى سعد السمعانى تغمدهما الله برحمته — جزءا يشتمل على رسائل للحسن القطان إلى الرشيد الوطواط محشوة بالسب له والثلب تصريحا لا تعريضا ... الخ » .

وفى مقدمة معجم البلدان كتب ياقوت عن خلاف بينه وبين أحد المحدثين حول ضبط كلمة فى مجلس السمعانى أيضا يقول :

---

(١) معجم البلدان ج ٩ ص ٩٥

فى مجلس شيخنا السعيد الشهيد فخر الدين أبى المظفر عبد الرحيم بن الإمام الحافظ تاج الإسلام أبى سعـــد السمعانى تعمدهما الله برحمته ورضوانه»(١).

ولذلك قال الدكتور أحمد الشرباصى تعقيبا على كلام ياقوت فى شأن أستاذه عبد الرحيم السمعانى:

وهى عبارة تدل على الوفاء لشيخه والتوفير لمكانته.

وإذا كان قد تتلمذ على أبى المظفر عبد الرحيم السمعانى فإنه قد تتلمذ أيضا على كتب أبى سعد السمعانى (الوالد) أخذ ونقل منها مشيرا إلى مواضع أخذه.

ولد أبو سعد السمعانى فى سنة ست وخمسمائة من الهجرة فى بيت كريم انتهت اليه رئاسته وهو من أكابر العلماء بمدينه مرو ويتجلى علمه فى مؤلفه «كتاب الأنساب».

وهذه أمثلة مختصرة لاعتماد ياقوت على كتب أبى سعد — فى الجزء الخامس من معجم البلدان يقول: «قال تاج الإسلام أبو سعد. ص ٣٤» وقال أبو سعد فى التحبير. ص١٠٧» وفى الجزء السادس من معجم الأدباء يقول: «ذكره أبو سعد السمعانى فى المذيل. ص ٩٦» ويقول: «وقال السمعانى فى كتاب الأنساب. ص ١٣٥ الخ.

ونعود لنؤكد الحقيقة السابقة وهى أن حياة ياقوت لم تتح له أن يتتلمذ على يد شيوخ معروفين ولو لم يعش فى مرو أفضل سنوات عمره ماتكلم عن شيخه السمعانى، أو كان يتكلم بايجاز كما فعل مع شيخه سالم بن أحمد.

---

(١) معجم البلدان جـ١ صـ١٠

(٢) ملامح أدبية صـ٢٤.

ومن شيوخه فى حلب أبو البقاء يعيش بن على بن يعيش ، ومن شيوخه فى مرو إلى جانب السمعانى ، محمد بن حامد بن محمد بن جبريل بن محمد بن منعة بن مالك الموصلى الفقيه».

اشتغل صاحبنا فى بدء حياته بنسخ الكتب والاتجار فيها ، وأتاحت له هذه المهنة أن يطلع على كثير من أمهات الكتب فى عهده ، وقبل عهده ، كما ساعدته الأسفار والرحلات التى قام بها بعد ذلك على أن يطلع على الكثير من الكتب فى مصر ودمشق وحلب وبغداد ومرو الشاهجان وغيرها ، بل كثيرا ما أشاد بخزائن الكتب الموجودة فى مدينة مرو التى كانت فى متناول يده ، وأنه لم يجد صعوبة فى وصوله اليها وحصوله عليها .

وكانت له همة فى تحصيل المعارف وجمع المعلومات ، وكان مدمنا للقراءة شغوفا بأخبار العلماء متطلعا إلى أنباء الأدباء يسأل عن أحوالهم ويبحث عن نكت كلامهم.

أشار ياقوت فى مقدمات كتبه إلى الذين سبقوه بالكتابة فى موضوعه مشيرا إلى كتبهم ومدى فائدتها، وما أطلع عليه منها وما لم يطلع عليه ومن هذه الكتب التى نقل منها واعتمد عليها فى تأليفه لمعجم الأدباء كتاب أخبار النحويين لمحمد بن عبد الملك قال :

«(١)ثم ألف فيه (٢)أبو سعيد الحسن بن عبد الله المرزبانى السيرافى القاضى كتابا صغيرا فى نحاة البصرة نقلنا أيضا فوائده إلى هذا الكتاب ، يقصد معجم الأدباء .

---

(١) معجم الأدباء جـ١ صـ٤٧.
(٢) يقصد فن الترجمة للأدباء والأعلام.

ويقول بعد ذلك :

«ثم ألف فيه على بن فضال المجاشعى كتابا ، وسماه «شجرة الذهب فى أخبار أهل الأدب وقع إلى منه شىء فوجدته كثير التراجم ، إلا أنه قليل الفوائد لكونه لايعتنى بالأخبار ولا يعبأ بالوفيات والأعمار»(١).

أخذ صاحبنا ممن سبقوه واعترف بهذا ، وكان أمينا فى أخذه ، مهتما بذكر الكتب التى أخذ منها واعتمد عليها.

لم يكتف بذكر مصادره ومراجعه فى أول كتبه ، بل أثبتهـــا فى مواطنها فتراه يقول :

«وفى كتاب الملحمة المنسوب إلى بطليموس» ويقول : «قال أبو عبيد البكرى فى كتاب المسالك والممالك» ويردد دائما أمثال هذه العبارات : «وذكره محمد بن إسحاق النديم فى كتاب الفهرست».

وقرأت فى كتاب أنساب المواضع لابن الكلبى «وقال أبو حيان فى كتاب الإمتاع» «ذكره أبو الحسن البيهق فى وشاح الدمية» «وقد ذكره أبو منصور عبد الملك بن محمـــد الثعالبى فى كتاب يتيمة الدهر ومثل هذا كثير .

إن آلاف الكتب التى أطلع عليها ياقوت لانستطيع حصرها وبيان عددها فلا تكاد تمر ورقة من مؤلفاته إلا رأيناه يشير إلى كثير من أمهات الكتب ، وعند الإشارة إلى كتاب يعطى فكرة عن موضوعه مع الاهتمام بالضبط اهتماما كبيرا ، وإذا حدد الضبط حدد معه المصدر الذى اعتمد عليه فيقول مثلا :

---

(١) معجم الأدباء جـ١ صـ٤٨ .

«هكذا وجدناه مضبوطا فى الجمهرة عن ابن الكلبي(١)».

والذي يلفت النظر ويدعو للعجب حقا هو معرفته الكاملة غالبا بمؤلفات من يترجم له، وهذا لايتأتى إلا بالإطلاع ومداومة القراءة.

وفى ترجمة أحمد بن أبى عبد الله الرقى قال: وصنف كتبا كثيرة منها .. ويذكر مصنفاته، ولقد أحصيت ماذكره ياقوت من هذه المؤلفات فوجدته خمسة وتسعين مصنفا لقد ذكرها كاملة، وهذا الحرص ليس له نظير فى إيراد هذا العدد الضخم من المصنفات.

١٤ — مؤلفاته:

بدأ ياقوت التأليف مبكرا، ولكن طبيعة حياته لم تساعده على إخراج أكثر مما أنتج من المؤلفات. ولا بد أنه فقد الشيء الكثير من مواد تآليفه عندما فر هاربا من دمشق. ويبدو أن الفقد كان أكثر وأكبر عندما ترك «مرو» هاربا من هجوم التتر، ولم يحمل معه إلا النزر اليسير الذى جاء به إلى الموصل.

ومع هذه الحياة القلقة المضطربة ترك لنا طائفة من الكتب تكشف عن سعة اطلاعه وكثرة تحصيله وعن موهبته الخارقة فى الإعداد والتأليف والإبتكار.

إن مؤلفاته قد ولدت حقيقة بعد عودته من خراسان وخوارزم، مما يكشف لنا أن عمر حياته فى التأليف لا يزيد عن ثمانية أعوام قضاها خالصة فى حلب إلى جوار وزير صاحبها وصديقه على بن يوسف القفطى

كان ياقوت يضيف إلى مؤلفاته كل مايعثر عليه من معلومات جديدة فهو وراق ونساخ ودائم القراءة والإطلاع.

(١) معجم البلدان جـ٤ صـ٢٧٣.

وهذه المؤلفات منها ما هو مطبوع وما هو مخطوط وما هو مفقود وسوف نشير إلى ذالك فيما يلى :

١ — إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء) :

هكذا سماه ياقوت يقول: « وقد سميت هذا الكتاب: « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ويبدو أن ياقوتا عندما اختار هذا الاسم لكتابه لم يرض عنه بعد ذالك فوجد فيه إطالة ، فأطلق عليه اسم « معجم الأدباء » يقول فى حديثه عن الشاعر الضرير مصنف كتاب التفقيه : « وقد ذكرته فى كتاب « معجم الأدباء » وهذه الجملة تخبرنا عن الاسم الجديد « لإرشاد الأريب » ونفهم من ورودها بمعجم البلدان الآتى ذكره أن معجم الأدباء متقدم على معجم البلدان فى زمن التأليف ، وسوف تأتى دراسة عن هذا الكتاب بالتفصيل .

٢ — معجم البلدان :

نال هذا الكتاب شهرة واسعة واحتل به صاحبه مكانة مرموقة عند العلماء الذين جاءوا بعده، وازدادت هذه الشهرة عند علماء الغرب المستشرقين الذين اهتموا بهذا الكتاب وطبعوه لأول مرة — وأكتفى بهذه العبارة وستأتى أيضا دراسة موسعة عن هذا الكتاب .

٣ — المشترك وضعا والمفترق صقعا :

طبع هـــذا الكتاب فى سنة ١٨٤٦ م وقام بنشره المستشرق الألمانى فرديناند وستنفيلد الذى نشر معجم البلدان وغيره من أمهات كتب التراث، وهذه أحدى محاسن الاستشراق ولقد طغت شهرة معجم البلدان على هذا الكتاب فأصبح قليل التداول رغم بساطته وسهولة مادته العلمية ، وهو جزء واحد فى مجلد واحد يقول صاحبه فى مقدمته .

« أما بعد فهذه طرفة طريفة وملحة مليحة تشرئب إليها النفوس بالطباع

ويشترك فى استحسانها أهل الاجتماع والنزاع انتخلتها من كتابى الكبير المسمى بمعجم البلدان وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان فيما اتفق من أسماء البقاع لفظا وخطا ووافق شكلا ونقطا وافترق مكانا ومحلا واختلف صقعا ومحتلا ».

وأهم ما قرره ياقوت فى هذه العبارة أنه اختصر معجم البلدان فى هذا الكتاب، واذا تركنا هذا المعجم الصغير إلى معجم البلدان نرى ياقوتا يدعو بالهلاك على من يختصره، وتطول عبارته فى رفض هذا المبدأ، لأنه أراد أن يكون معجم البلدان كبير الحجم، ولو أراد له مزيدا من الشهرة والذيوع لصغره، يقول فى ذلك:

« (١) ولقد التمس منى الطلاب اختصار هذا الكتاب مرارا فأبيت ولم أجد لى على قصر هممهم أولياء ولا أنصارا، فما أنقدت لهم ولا ارعويت» وهذه المواقف المتضاربة تضعنا فى حيرة واضطراب، ويمكن أن نحكم بظاهرها على ياقوت بالتناقض مع النفس والتراجع عن الآراء.

تعرض الدكتور أحمد الشرباصى لهذه المسألة جامعا رأيه فى هذين الاحتمالين قال:

« (٢) فإما أن يكون ياقوت قد وضع كتابه المشترك أولا ثم ضمه إلى المعجم بعد ذلك، وإما أن يكون بعض الناس قد جرد كتاب المشترك من المعجم ونسبة إلى ياقوت ».

والاحتمال الأول لا أوافق عليه، لأن ياقوتا لو وضع المشترك أولا ثم أضافه إلى معجم البلدان لأشار إلى ذلك بالتفصيل، ولصاحبنا منهج فريد

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٣

(٢) ملامح أدبية ص ٦٣

يتبعه ويلتزم به فى كتابته، يمكن أن نسميه منهج الربط والإحالة فإذا تكلم عن بلد ذكر النابغ من أهلها ، ويحيل القارىء إلى الترجمة الخاصة به فى معجم الأدباء أو أخبار الشعراء (مفقود) أو أى كتاب آخر رأيناه أم لم نره .

ولقد قرأت كل ما ظهر لياقوت من مؤلفات وفهمت شخصيته الوثابة فى مرحلة الشباب التى لا يمكن أن تقوم بعمل موجز مختصر كالمشترك .

والاحتمال الثانى : وهو أن يكون بعض الناس قد أختصر المشترك من معجم البلدان ثم أضافة لياقوت ، وهذا احتمال غير مقبول لأننا لا نجد فائدة تعود إلى من قام بذلك ، ولو أراد أن يحقق شهرة وذيوعا لأضاف الكتاب لنفسه وهذا ما حدث بالفعل لمعجم البلدان إذا اختصره صفى الدين عبد المؤمن فى كتاب مطبوع سماه « مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع ».

ولقد قلت إن هذا الاحتمال غير مقبول على أساس دليل لا يحتمل النقاش ويتمثل هذا الدليل فى إشارة ياقوت إلى هذا الكتاب يقول فى معجم البلدان :

« (١) مدينة الأنبار تكتب فى المتفق والمفترق » وهذه العبارة التى كتبها ياقوت فى الجزء الأخير من معجم البلدان تكشف الدليل الأكيد على أن المشترك والمفترق ، قد وجـــد فى حياته كما أشار إلى ذلك فى مقدمته .

وهو يقصد من قوله : « المتفق والمفترق » يقصد المشترك وضعا والمفترق صقعا » فهى عبارة مختصرة كتبها فى آخر معجم البلدان عن آخر كتاب وضعه فى آخر حياته .

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٧٨

وأنا أرى أن ياقوتا قد رفض فكرة الاختصار لمعجم البلدان لأنه بدأ الكتابه فيه فى ريعان الشباب وكانت همته عالية فى تحصيل المعارف وجمع الثقافات فلما انهزم عمره وأقبل خريف حياته رجع عن رأيه ، بعدأن وجد طبيعة العصر لا تتمشى مع كتاب كبير كمعجم البلدان فانتزع منه كتاب المشترك ، وعبارته فى مقدمة المشترك واضحة فى تقرير هذه الحقيقة ، ولا يعيب الرجل أن يتراجع عن بعض الآراء الأدبية أو التاليفية إذا ثبت له عدم جدواها .

اختصرت ياقوت معجم البلدان فى كتابه المشترك ، توفيرا الوقت المطلع الذى يحب السرعة فى الوصول إلى الفوائد ، وبعدا به عما ذكر فى معجم البلدان من الأشعار والأخبار والفوائد والشواهد .

رتب صاحبنا كتابه « المشترك » على نظام حروف المعجم ملتزما ذلك من أول الكلمة وثانيها وثالها ورابعها والى أى غاية بلغت .

والمشترك وضعا والمفترق صقعا ليس معجما عاما فى البلدان ، ولكنه يتناول بالشرح الموجز الحديث عن البلدان التى تشترك فى الخط والكتابة وتختلف فى المكان والموضع — يبدأ المشترك بكتاب الهمزة وفى باب آبل يقول أنها أربعة مواضع ثم يضبطها ويحدد أما كنها قال ياقوت :

«(١) بفتح الهمزة وتسكين الألف وكسر الباء ولام ، الأولى آبل الزيت جهز النبى ﷺ قبل وفاته جيشا أمر عليه أسامة بن زيد وأمره أن يوطىء خيله آبل الزيت من مشارق الشام بالأردن ، الثانى آبل القمح قرية من نواحى بانياس من أعمال دمشق ، الثالث آبل السوق قرية مشهورة من قرى دمشق بالوادى ينسب إليها أبو طاهر الحسين بن عامر بن خراشة المقرى

---

(١) المشترك وضعا ص ٤

(٢) المشترك وضعا ص ٤

الآبلى إمام جامع دمشق روى عن أبى الحسين بن إبراهيم بن جابر الفرائضى روى عنه عبد العزيز الكتابى وقال ابن منير .

فالماطرون فداريا فجارتها فآبل فمغانى دير قانون (١)

الرابع آبل قرية من قبلى حمص بينهما نحو فرسخ » .

والبيت الذى ورد فى شرح مادة « آبل » ذكر فى معجم البلدان من مقطوعة شعرية لأحمد بن منير يتحدث فيها عن ديار لهوه وذكريات حبه يبدأها بقوله :

حيّى الديار على علياء جيرون مهوى الهوى ومغانى الخرّد العين

ولا يبدأ معجم البلدان بآبل كالمشترك وإنما يبدأ بالحديث عن آبار الأعراب ثم آبج فآبر فابسكون ، وهذه المواد الأربع لا يختصرها ياقوت فى المشترك لأنها مواضع مفردة لم تتكرر فى أكثر من إقليم فالموضع الأخير مثلا بليدة على ساحل بحر طبرستان بينها وبين جرجان ثلاثة أيام ، وهذه البلدان وأمثالها ليس لها مكان بالمشترك أما آبل فلأنها أربعة مواضع بدأ بها ياقوت .

ولا يختلف أسلوب ياقوت فى معجم عن الآخر ، ولا يتعارض كلامه بين المعجبين ، والمعروف عن ياقوت أنه ملتزم بخطته وهذا ماسار عليه فى المشترك .

بعد الحديث عن آبل يترك مادة « آبندون » ولا يختصرها من معجم

---

(١) الماطرون وداريا وآبل ودير قانون قرى بدمشق — والماطرون كلمة أعجمية تلزم فيها الواو والنون وتظهر علامات الإعراب على النون ومثلها جيرون وبيرون اسما موضعين .. وانظر معجم البلدان جـ١ ، ص٥٠ جـ٢ ص : ٤٣١ ، ص ٥٢٦ ، جـ٥ ص ٤٢ والمشترك وضعا ص : ٥

البلدان ثم تكلم عن المادة التى تليها وهى مادة « آبة » لأنها ثلاثة مواضع تكلم عنها هنا باختصار بعد أن فصل القول عنها فى معجم البلدان .

وهذا النظام المتبع فى المشترك لايتيح للقارىء فرصة الاكتفاء به لأنه لم يكتب عن البلدان التى لم تتعدد موضعا ، وهو لايعتبر تلخيصا لمعجم البلدان وإنما هو اختصار لمعظم بلدانة فبلدة مثل بخارى مثلا كتب عنها فى معجم البلدان مايقرب من أربع صفحات من القطع الكبير هذه الصفحات عبارة عن لوحة أدبية تتعدد فيها الألوان المتناسقة من شعره ونثر ونبحث عن هذه المادة فى المشترك فلا نجدها ،لأن المنهج يقتضى عدم الكتابة عنها.

يتميز هذا الكتاب بالضبط والدقة والاختصار وتتبع مفردات المادة، والكتاب يعطى المعلومة صافية ولا يغرق القارىء فى تفاصيل لايحتاج إليها — والكتاب مرجع عظيم عند الجغرافيين بذل فيه صاحبه جهداً كبيراً ، ولقد فطن المستشرقون لهذه الأهمية فأخرجوه منشوراً محققاً .

٤ — المقتضب من جمهرة النسب :

هذا الكتاب مخطوط من نسختين الأولى نسخة دار الكتب وهى مائة وسبع عشرة ورقة ، وقد اطلعت عليها ووجدت فى بعض صفحاتها غموضا أما الثانية فهى نسخة الرباط واطلعت عليها فوجدتها مكتوبة بخط جميل فى مائة وثمان عشرة صفحةوالنسختان موجودتان بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة التابع لجامعة الدول العربية والأولى تحت رقم ١٢٤٣ تاريخ ، والثانية رقمها ٢٠٥٦ .

ولقد أشار ياقوت إلى هذا الكتاب فقال فى معجم البلدان (١) « ومن قحطان إلى نوح اختلاف نذكره فى كتاب النسب من جمعنا إن شاء الله تعالى » .

---

(١) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٨١ .

ولياقوت كتب أخرى مفقودة وهى :

١ — أخبار الشعراء . أشار ياقوت إلى هذا الكتاب فى مواضع متعددة من كتابيه الكبيرين معجم الأدباء ومعجم البلدان . وأخبار الشعراء كتاب غير معجم الأدباء ففى مقدمة معجم الأدباء يحدد ياقوت موضوع كتابه أخبار الشعراء فيقول (١) « وكنت قد شرعت عند شروعى فى هذا الكتاب أو قبله فى جمع كتاب فى أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ونسجتها على هذا المنوال وسبكتها على هذا المثال فى الترتيب، والوضع والتبويب ، فرأيت أكثر أهل العلم المتأدبين ، والكبراء المتصدرين ، لاتخلو قرائحهم من نظم شعر ، وسبك نثر ، فأودعت ذلك الكتاب كل من غلب عليه الشعر فدون ديوانه ، وشاع بذلك ذكره وشانه ، ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها ، والآداب وتصنيفها » ومن هذه العبارة يظهر منهج ياقوت فى كتابه أخبار الشعراء وهو معجم خاص بهم .

ولقد ألف ياقوت هذا الكتاب قبل الانتهاء من تأليف معجم الأدباء والبلدان بدليل أنه أشار فيهما إلى أخبار الشعراء يقول فى بدء ترجمة كلثوم بن عمرو العتابى بمعجم الأدباء (٢) « قد ذكرنا أخباره مستوفاة فى كتابنا أخبار الشعراء » .

وعندما كتب ياقوت عن مدينة الرملة بفلسطين اصطنع مناسبة يورد فيها شعراً أثناء حديثه عن هذه المادة وينوه أيضاً بكتابه أخبار الشعراء .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١ ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ١٧ ص ٢٦ .

يقول (١) : « وكان أبو الحسن على بن محمد التهامى الشاعر أقام بها وصار خطيبها وتزوج بها وولد له ولد فمات بها فقال يرثيه :

أبا الفضل طال الليل أم خانني صبرى
فخيل لى أن الكواكب لا تسرى ؟
أرى الرملة البيضاء بعدك أظلمت
فدهرىَ ليل ليس يفضى إلى فجر
وماذاك إلا أن فيه وديعة أبى ربها أن تسترد إلى الحشر
بنفسى هلال كنت أرجو تمامه
فعاجله المقدار فى غرة الشهر

وهى قصيدة ذكرتها فى كتابى فى أخبار الشعراء مع أختها .
حكم المنية فى البرية جارى ...

ونفهم من هذه العبارة أن أخبار الشعراء كان يضم بين دفتيه قطعا شعرية رائعة فى موضوعات متعددة ويشتمل هذا الكتاب على حكايات وقصص طويلة تتعلق بالشعر والشعراء يقول عن قصة الشاعر جبلة بن الأيهم (٢) «فيها طول فذكرتها فى أخبار حسان من كتاب الشعراء» .

٢ — المبدأ والمآل فى التاريخ :

ألف ياقوت فى تراجم الرجال والبلدان والشعراء، وكتب فى الأنساب وهذا مؤلف مفقود وضعه صاحبنا فى التاريخ — يذكر ياقوت هذا الكتاب فى مواضع كثيرة من معجم البلدان فى الجزء الأول : الصفحات

---

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٧٠ .
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣١٣ ، ص ٣١٤ .

٣٦٩ ، ٤٣٣ والجزاء الثـالث صفحة ٤٣٩ والجزء الرابع الصفحات ١٦ ، ٤٢١ ، ٤٦٥ ، واهتم يـاقوت فى هذا الـكتاب بالفرق الإسلامية كالزيدية وغيرها ، وفى مادة صيمرة بمعجم البلدان يقول .

« صيمرة بالفتح ثم السكون ، وفتح الميم ثم راء ، كلمة أعجمية ، وهى فى موضعين : أحدهما بالبصرة على فم نهر معقل وفيها عدة قرى تسمى بهذا الاسم ، جاءهم فى حـــدود سنة ٤٥٠ ، رجل يقـال له ابن الشباس فادعى عندهم أنه إله فاستخف عقولهم بترهات فانقادوا له وعبدوه ، وقد ذكرت من خبره جمله فى كتاب المبدأ والمال عند ذكر فرق الإسلام ... » ولا نجد أمامنا وسيلة نعرف بها هذا الـكتاب إلا كلام ياقوت عنه .

كتب ياقوت عن البربر وهم قبائل كثيرة فى جبال المغرب — وكتب فى معجم البلدان عن فضائحم وعند ذلك لا ينسى أن يذكرنا بكتابه المبدأ والمال فيقول : (١) « ذكرت فى كتـابى الذى رسمته بأخبار أهل المـال وقصص أهل النحل فى مقالات أهل الاسلام ... » .

أشار ابن خلكان وغيره من مؤرخى الأدب إلى كتب ياقوت الأخرى التى ضاعت فيم ضاع من تراث العرب الثمين وهى .

٣ — الدول .

٤ — مجموع كلام أبى على الفارسى .

٥ — عنوان كتاب الأغانى .

٦ — أخبار المتنبى .

وهكذا تصل مؤلفات ياقوت إلى عشرة كتب تتشكل منها شخصيته الأدبية والنقدية والشاعرية والمؤرخة لأحداث العصر وأنباء الزمان .

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ٣٦٩ .



الباب الثاني

معجم البلدان ومعجم الأدباء

دراسة وموازنة

١ ـ الفصل الأول دراسة معجم البلدان .

٢ ـ الفصل الثاني معجم البلدان بين معجم ما استعجم وتقويم البلدان .

٣ ـ الفصل الثالث دراسة معجم الأدباء .

٤ ـ الفصل الرابع معجم الأدباء بين نزهة الألباء ووفيات الأعيان.

الفصل الأول

دراسة معجم البلدان

كتب البلدان :

كان العرب منذ القدم مشغولين بالرحلة تواقين إليها ، ففيها حياتهم ، ومعاشهم ، ولا وجود لهم إلا بالسفر والتجارة ، وطبيعة أرضهم الجرداء لم تسمح بزرع عند بيت الله الحرام . وكانت رحلة الشتاء والصيف إلى اليمن والشام دليلا أكيداً على استعداد النفس العربية للتنقل والبحث عن الطعام فى أماكن الزرع البعيدة ، واستفاد هؤلاء المسافرون أخباراً وأنباء جديدة من البلاد التى سافروا إليها ، وهكذا كانت التجارة سبباً أساسياً للارتحال ، ومعظم الذين يسافرون للتجارة يعودون إلى ذويهم فيحدثونهم عن بلاد الله وما فيها من جبال وأنهار وبحور وثغور وعن طبائع وعادات وتقاليد خلق الله فيها ، وعن أماكن لهوهم وجدهم ، والشعر العربى حافل بكثير من الأشعار التى تسجل الأسفار والرحلات .

وعندما انتشر الإسلام وقويت الشوكة العربية بالدين الجديد، ودخل الناس فى دين الله أفواجا فى جزيرة العرب وخارجها انتقل العرب المسلمون مع دينهم إلى البلاد المفتوحة بالإسلام، وكلما توسع العرب فى الفتح ازدادت تجاربهم ومعارفهم وخبراتهم عن البلاد والمواضع الجديدة وتبعاً لذلك ازداد نطاق التجارة اتساعا عند المسلمين التجار، وجابت سفنهم عباب البحار فى الصين والبلطيق والأندلس وشواطىء المحيط الأطلسى والبحر المتوسط وسواحل أفريقية .

والرحلة للتجارة كانت اختيارية أما الرحلة لأداء فريضة الحج فكانت واجبة لزيارة بيت الله الحرام فى مكة وقبر الرسول فى المدينة، والمرتحلون الحجاج أكثر عدداً ومداومة ، وكثير منهم يدون أخبار هذه الرحلة المقدسة — وهذا ما فعله ابن جبير الأندلسى الذى خرج من غرناطة فى الثامن من شوال سنة خمسمائة وثمان وسبعين للهجرة ليحج إلى بيت الله الحرام ، وعاد إلى غرناطة بعد أن استغرقت رحلته سنتين وثلاثة أشهر ونصفا ، سافر فيها عن طريق مصر إلى بلاد الحجاز التى بقى فيها بضعة أشهر ورجع من طريق العراق والشام ، ثم سافر بحراً عن طريق صقلية عائداً إلى بلاده ، وقد سجل ما شاهده فى هذه الرحلة الطويلة فى كتابه : « رحلة ابن جبير » .

وكثير من العرب كانوا يسافرون بحثاً عن العلم ، ولديهم قدرة خارقة على تحمل المصاعب فى سبيل المعرفة والارتحال ، ومعظمهم كانوا تجاراً وطلاب علم فى وقت واحد ، وكان ياقوت الحموى من هذا الفريق .

والرحالة العرب كانوا كثرة كثيرة لأن الرحلة كانت حياتهم، بل إن فريقاً منهم كان يتزوج فى البلاد التى ينزل فيها مدة من الزمن حتى لا يكون وجوده محل شكوك أو مصدر متاعب اجتماعية ، والإسلام قد أباح تعدد الزوجات وهذه المسألة بالطبع كانت تخفف بعض متاعب الأسفار ، ولعل عسكرا الحموى الذى اشترى ياقوتا فى بغداد كان واحدا من أمثال هؤلاء التجار إذ ارتحل من حماه ، وسافر إلى بلاد كثيرة وعاش فى بغداد وتزوج بها .

والذين دونوا أخبار رحلاتهم من هؤلاء جميعا قلة قليلة ، وما دونوه يمثل قيمة علمية وأخرى أدبية . أما القيمة العلمية فقد أتت مما تحتويه هذه الرحلات من كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية ، فقدم هؤلاء المؤرخون خدمات عظيمة عند الكتابة عن أحوال البلاد العربية والإسلامية من مختلف نواحيها — ولا يقلل من أهميتها ما خضعوا فيه

النظريات الموروثة عن الأوائل فى الكتابة أو ما نقلوه من خرافات الشعوب وأساطيرها دون أن يحكموا فيه العقل والنقد .

وأما القيمة الأدبية لهذه الكتابة فتظهر فيما تعرضه من أساليب ترتفع بها إلى مجال الأدب، وترتقى بها إلى مستوى الخيال الفنى وإن الذى يتصفح كتاباً كمعجم البلدان لسوف يبهر بروعة الأسلوب وجمال العرض وقوة الذاكرة الحافظة التى جعلت من الكتاب دائرة معارف وخزانة أدب .

وفى العصر العباسى الثانى ازداد عدد المؤرخين والجغرافيين الذين اعتمدوا على الرحلة والمشاهدة فى كتابة ما خلفوا من آثار ، إنها سمة وعلامة بارزة من علامات هذا العصر ، وهذه الآثار العظيمة تختلط فيها الجغرافية بالأدب والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والدين والخرافات والأساطير ، ولا يمكن أن يقال عنها : إنها كتب جغرافية أو أدب أو تاريخ أو تراجم أو اجتماع أو اقتصاد بل إنها كل ذلك معا .

إن هؤلاء الرحالة الجغرافيين قد خدموا الأدب العربى بالتعبير السهل المؤدى للغرض بدون تكلف لفظى أو تزويق للعبارة ، أما موضوعاته فكانت غنية بما تضيفه من جديد ، وبعض الكتابات الجغرافية تتصف بالسجع والجفاف ، ولكن قراءة هذه الألوان الأدبية تؤدى غرضها من المتعة والفائدة معاً بما فيها من قصص ومقامات وحكايات وأساطير ومقالات أدبية ورسائل منمقة .

إن هذه الخصائص كانت تتجمع فى الكتابات الجغرافية للذين ارتحلوا وسافروا ودونوا أخبار أسفارهم ورحلاتهم .

وهناك فريق كان يهتم بضبط البلدان وتحديد أماكن العمران وبيان المسافات والأطوال وهذا الفريق نمط خاص ، إنهم جغرافيون فقط وفى مقدمتهم « ابن خرداذبة » صاحب كتاب « المسالك والممالك » ، ولقد

تطورت الكتابة فى هذا الفن حتى انقسمت إلى اتجاهين فى نهاية هـــذا العصر .

الاتجاه الأول : يمثله ابن جبير ومن جاء بعده كابن بطوطة وابن خلدون وهذا الاتجاه يمثل مايسمى بأدب الرحلات .

والاتجاه الثانى : يمثله القزوينى ومن جاء بعده كأبى الفداء وصفى الدين عبد المؤمن وهؤلاء هم الجغرافيون الذين اعتنوا بالأطوال والمسافات .

ونعود إلى البداية التى يمثلها ابن خرداذبة « أبو القاسم عبيد الله » صاحب كتاب « المســـالك والممالك » وهو أول من بدأ الكتابة فى هذا الفن .

عاش فى القرن الثالث الهجرى وحرر كتابه بعيد عام (٢٣٠هـ) وكتابه من أقدم الكتب الجغرافية العربية حرره فى «سامراء» وهذا الكتاب يمثل المحاولة الأولى للتعرف على البـــلاد الإسلامية وطرقها وخراجها ولم يجد صاحبه صعوبة فى تأليفه لأنه كان متنقلا رحالة بين أرجاء فارس بصفته متوليا للبريد والأخبار التى ينقلها من ناحية إلى أخرى .

ولقد سار على درب ابن خرداذبه وطريقته فى الكتابة أحمد بن واضح اليعقوبى صاحب كتاب البلدان والمسعودى « أبو الحسن على بن الحسين ابن على » صاحب كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر «والمقدسى» مطهر ابن طاهر ، صاحب كتاب « البدء والتاريخ » وابن حوقل «أبو القاسم محمد» صاحب كتاب « المسالك والممالك » نفس الإسم الذى يحمـــله كتاب ابن خرداذبه ، والاصطخـرى « أبو إسحق الكرخى الفارسى » صاحب كتاب « مسالك الممالك » « والمقدسى البشارى » شمس الدين بن عبد الله» صاحب كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .

وهؤلاء الأدباء الجغرافيون ومن لف لفهم ، وسار على منهجهم يمثلون مرحلة التأثر بالجغرافية اليونانية الرومانية مترجمة إلى اللغة العربية ، وقد كانت الخرائط التى رسمهـــا بعضهم منقولة عن بطليموس . إذ استطاع الخوازرمى الفلكى أن يقدم فى كتابه « صورة الأرض » خلاصة لجغرافية بطليموس وأتاح لزملائه من كتاب الجغرافية العربية أن يستفيدوا بخبرات بطليموس فى الأطوال والعروض والمواقع وغيرها ، وفى هذا الوقت كان المسلمون قد علقوا بعلوم اليونان وكتبهم فتأثرت أبحاثهم فى الجغرافية فى عهدها الأول بآخر ما وصل إليه الجغرافيون اليونانيـــون ، وامتد أثر الترجمة فى العصر العباسى إلى الجغرافية التى لم تكن معروفة عند العرب قبل ذلك .

وليس فى مقدور هؤلاء — وهم فى البداية — أن يوسعوا دائرة كتاباتهم لتشمل العالم القديم كله بل اقتصرت على العالم الإسلامى .

ويأتى المسعودى فى مقدمة هؤلاء السابقين جميعاً فكتابته تمثل النضج التام ، وهو من أعظم الجغرافيين أصالة — توفى فى سنة ست وأربعين وثلاثمائة من الهجرة — وهو بغدادي الأصل — انتقل إلى مصر وأقام فيها وتحدث عنه أصحاب تراجم الرجال ومنهم ياقوت الحموى (١) .

وهذا اتجاه آخر لم يسر على طريقة ابن خرداذبه وإنما سلك مسلكا فيه نوع من التخصص فى الكتابة ويمثله « ابن الحائك » أبو محمد الحسن ابن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمدانى المتوفى بصنعاء من اليمن سنة ٣٣٤ هـ صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » ومن الكتب التى تمثل

---

(١) تراجع ترجمته بمعجم الأدباء ج ١٣ ص ٩٠ إلى ص ٩٤ — الطبعة الأخيرة .

هذا الاتجاه كذلك كتاب عرام بن الأصبغ السلمى عن «أسماء جبال تهامة» وكتاب البيرونى عن الهند .

وفى مقدمة كتب هذا الاتجاه وأعظمها جمعاً كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع للوزير الفقيه : أبى عبيد ، عبدالله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية ، وبعد البكرى الذى عاش فى الأندلس ظهر الرحالة الذين دونوا أخبار رحلاتهم بأسلوب أدبى يختلف عن شكل الكتابة الجغرافية ، ولقد فرق الدكتور نقولا زيادة بين الكاتب الجغرافى والرحالة الأديب فى كتابه «الرحالة العرب» قال :

«(١) فهذا « يقصد الكاتب الجغرافى » يسأل ويستقصى ويحقق ويحاول أن يشمل كل جزء عن المنطقة التى يعرض لدرسها أما الرحالة فينقل ما يشاهد وتكون صورته جزئية ، ولكنها ثمينة فى هذه الناحية . . . فبينما المقدسى أو أبو الفداء يذكران كل شىء عن إقليم الشام ، نجد ابن جبير — وهو سائح — لا يتناول مدن الغور أبداً لأنه لم يصل إليها وابن بطوطة يذكر جنوب سورية وخاناته وأماكن المكس والتفتيش فيه لأنه جاء البلاد براً من مصر .

واقترن ظهور ياقوت الحموى بظهور هؤلاء الرحالة فجعل كتابه معجم البلدان نمطاً فريدا فلم يؤلفه إلا بعد أن جال بلاد العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه فكان رحالة وكان أديباً وبمعجم البلدان انتهى عصر المعاجم العامة فى البلدان التى تسير على هذا النمط .

وبعد أن انفصل الأدب عن الجغرافية رأينا كتبا فى علم الجغرافية الخالية من سمات الأدب وهذه يمثلها كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء إسماعيل بن على ، الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه . ويمثلها أيضا إلى

---

(١) الرحالة العربية ص ٤١ طبعة دار الهلال .

حد بعيد كتاب « المشترك وضعا والمفترق صقعا الذى اختصره ياقوت من معجم البلدان .

وفى القرن الثامن الهجرى وجد الناس أن عصر الموسعات الجغرافية التى يختلط فيها الأدب بالجغرافية وغيرها من الفنون لم يعد صالحا لهم ، ولا يتمشى مع رغباتهم فاستجاب الجغرافيون لهذه الرغبة وقدموا لهم كتبا مختصرة موجزة غير مرهقة ، وقام فريق من علمائهم باختصار ما جمعه وأعده السابقون ، وهذا ما يمثله بالفعل كتاب «مراصد الاطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع » لصفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ والكتاب مختصر من معجم البلدان لياقوت .

• • •

إن كتاب : « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع لأبى عبيد البكرى » مختص بجزيرة العرب ، فهو ليس معجما عاما ، وهذا الكتاب يهتم بالضبط اهتماما كبيراً اعتماداً على أقوال العرب من شعر ونثر ، كما أنه يلتزم بالترتيب المعجمى الذى يتيسر معه الوصول إلى بيان الأمكنة وضبطها وكتاب معجم ما استعجم متقدم فى زمن تأليفه على معجم البلدان بأكثر من مائة عام وبهذه الخصائص وبغيرها التى سوف نتكلم عنها بالتفصيل بعد ذلك رأيت أن يكون هذا الكتاب نموذجا للكتابة المتقدمة فى هذا الفن ليدخل فى نطاق الموازنة مع معجم البلدان .

كما أن كتاب تقويم البلدان لأبى الفداء يمثل المرحلة التى انفصلت فيها الجغرافية عن أدب الرحلات — كما سبقت الإشارة إلى ذلك — فهو يمثل اتجـــاها لا يمثله معجم ما استعجم أو معجم البلدان لتاخر زمن تأليفه .

والكتاب يعتنى بالضبط ، ويركز على الجغرافية ، ويهتم بالأطوال ،

والعروض ويذكر كثيراً من المواضع التى لم تصل إليها الكتب المتقدمة ، وصاحبه مؤرخ دقيق العبارة واضح الأسلوب يصل بالقارىء إلى الحقيقة من أقرب طريق .

ولهذه الخصائص ولغيرها أيضا رأيت دخوله فى الموازنة مع معجم البلدان لأنه متأخر عنه أيضا فى زمن التأليف بأكثر من مائة عام .

إن هذه الكتب الثلاثة التى اهتم بها المستشرقون وأخرجوها للناس مطبوعة على السواء هى موضوع الموازنة التى سوف نعرض لها .

معجم البلدان :

— ١ —

هذا المعجم فريد من نوعه ، لم يصل إلى مستواه كتاب يشرح بلدان العالم الإسلامى فى القرن السادس الهجرى بهذه السعة ، والكتاب جيد الإعداد دقيق التنظيم ، أراده صاحبه معجما عاماً ليجعل منه خزانة للأدب والجغرافية والتاريخ واللغة والأنساب .

وهو مرتب على حسب حروف المعجم حتى يصل القارىء إلى ضالته فى يسر وسهولة مع العناية بالضبط ، وكثيراً مايذكر أكثر من وجه للضبط حتى تكتمل الفائدة .

وهو على سعته يحمل أسلوبا سهلا وعبارة رشيقة ، وهو أثر نفيس ومؤلف نادر ، وموسوعة ضخمة لم يؤلفه صاحبه إلا بعد أن قام برحلات كثيرة فى البلاد والأصقاع ، أتاحت له أن يشاهد ويعاين المواضع التى يكتب عنها ، ولم يكن يكتفى بالمشاهدة أحيانا بل كان يسأل أهل البلاد عما شاهده أو استمع إليه .

وإذا كان هذا الكتاب قد سبق بطائفة من المؤلفات التى كانت أيضاً ثمرة من ثمار الرحلة والمشاهدة فإنها جميعاً لا ترقى إلى مستواه لمزاياه العديدة التى سنشير إليها قريباً . طبع لأول مرة فى ألمانيا سنة ١٨٦٦ م — إلى سنة ١٨٧٣ م ونشره المستشرق فرديناند وستنفيلد فى ستة أجزاء وجعل الجزء الأخير الفهارس ، ونشره اعتماداً على مخطوطات إستانبول ثم طبع فى مصر فى أوائل هذا القرن بمطبعة الخانجى وصدر الكتاب فى ثمانية أجزاء ، وقد تولى تصحيحه الأديب الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطى ، وصدر الكتاب

بعد ذلك فى أكثر من طبعة منها طبعة دار صادر — بيروت — فى خمسة أجزاء وهى النسخة التى أتعامل معها ، وطبع فى طهران أيضا عام ١٩٦٥ م فى ستة أجزاء .

إن المقدمة التى تعقد لكتاب هى مفتاح له يدخل على أساسها القارىء إلى الكتاب ، وفيها يشرح المؤلف خطته ويرسم منهجه ويعرف بكتابه ، ويذكر من سبقوه وتقدموا عليه فى موضوع كتابته ، ولا بدأن يكشف عن قصده من هذه الكتابة التى لابد أن تضيف جديداً إلى موضوعها .

والمقدمة التى عقدها ياقوت لمعجم البلدان تقع فى واحد وأربعين صفحة ، تحدث فيها عن الكتاب ونظامه فى تسع صفحات ثم أتبع ذلك بخمسة أبواب فى موضوعات شتى تتصل بعلم الجغرافية لا بد أن يطلع عليها من يتصفح الكتاب ليكون على بصيرة بما يرد فيه من اصطلاحات .

وفى هذه المقدمة بدأ يعرف بكتابه فقال :

(١) « فهذا كتاب من أسماء البلدان ، والجبال ، والأودية ، والقيعان ، والقرى ، والمحال ، والأوطار ، والبحار ، والأنهار ، والغدران ، والأصنام ، والأبداد ، والأوثان ... » .

ويذكر سببين لتأليف هذا المعجم ، أولهما سبب دينى وهو الاستجابة لقول الله تبارك وتعالى حين أراد أن يعرف عباده آياته ومثلاته ، ويقيم الحجة عليهم فى إنزاله بهم أليم نقماته : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »(٢) .

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٧

(٢) سورة الحج آية ٤٦

ويقول تعقيباً على هذه الآية :(١) «فهذا تقريع لمن سار فى بلاده ولم يعتبر ، ونظر إلى القرون الخالية فلم ينزجر ، وقال وهو أصدق القائلين : (قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(٢) .

أى انظروا إلى ديارهم كيف درست ، وإلى آثارهم وأنوارهم كيف انطمست عقوبة لهم على إطراح أوامره ، وارتكاب زواجره ، إلى غير ذلك من الآيات المحكمة والأوامر والزواجر المبرمة » .

ولقد أحسن ياقوت صنعاً عندما استجاب لنداء السماء ولبى دعوة الحق فى تأليف هذا الكتاب واضعا بذلك الأسباب الدينية فى المقدمة، ثم تكلم بعد ذلك عن أهمية احتياج الناس إلى كتب البلدان المضبوطة المحققة لأن معرفتها ضرورية لكل من ضرب فى العلم بسهم ، واختص منه بنصيب ، ويخص بالذكر نقلة الأخبار وأعيان رواة الأشعار والآثار « ولا أحد يستغنى من أولى البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها ، وكل الناس محتاج إلى معرفتها ، لأن منهاما هى مواقيت للحجاج والزائرين ، ومعالم للصحابة والتابعين ، ومشاهد للأولياء ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين وفتوح الأئمة من الخلفاء والراشدين .

ويبين ياقوت الأهمية فى معرفة ضبط البلدان لكل من أهل السير ، والأخبار والحديث والآثار وأهل الحكمة والتفهيم والطب والتنجيم .

ومعجم البلدان قريب الشبه من لسان العرب من حيث الأهمية .

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٧

(٢) سورة الأنعام آية ١١

يقول ناشرو الكتاب :

(١) « فكما أن لسان العرب معجم لغوى ، فمعجم البلدان معجم جغرافى ، ولا يخفى أن العلماء والأدباء والمتأدبين لا يسعهم أن يستغنوا عن كتاب يبين لهم مواقع ما يمر بهم فى مطالعاتهم من بلدان ومدن وقرى وجبال وبحار وأنهار وأودية ، وما يجدونه من أسماء من نبغ فى كل موضع من المواضع إلى ما هنالك مما يحويه هذا الكتاب الجزيل الفوائد » .

ويصل ياقوت فى كلامه عن أهمية هذا الكتاب إلى أهل الأدب ، فيقول فى المقدمة أيضا : (٢) « وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم إليها ، لأنها من ضوابط اللغوى ولوازمه ، وشواهد النحوى ودعائمه ، ومعتمد الشاعر فى تحلية جيد شعره بذكرها وتزيين عقود لآلىء نظمه بشذرها »(٣) .

ويضرب مثالا على ما يقول بإمام من أهل الأدب صنف كتابا فى شرح مقامات الحريرى ولم يذكر ياقوت اسم هذا الإمام لا جهلا بمعرفته ولكن صونا لكرامته وحفظا لمروءته وذكر أن هذا الأديب بهر العقول وأدهش الأذهان بما ذكره من أسرار بلاغة هذه المقامات ، وقال : إن هذا الأديب قد نال الإعجاب من الجميع ، ولم يهجم عليه أحد بمؤاخذة أو نقد حتى ذكر أسماء الأماكن التى أسس عليها أبو محمد الحريرى «المقامات» وهنا تداعى ما شيده لأنه أخذ يخلط ويخبط فى عشواء الجهالة ، وضرب ياقوت أمثلة لخبط هذا الرجل وخطئه فى ضبط الكلمات مما أوقعه فى الحرج والاضطراب وبتتبع كلام ياقوت عن هذا الرجل المعاصر له نجد البداية

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ٥

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٩

(٣) الشذر : صغار اللؤلؤ .

العادية التى تشتمل على ألفاظ الاحترام والمودة والتقدير ، فإذا وصلنا إلى كلامه عنه وهو يخلط فى أسماء البلدان نجد الألفاظ قد اشتدت والعبارة قد قسمت ليجعل من هـــذا الرجل شيئا تافها ومن كتابته مستودعاً للأخطاء .

والسبب الثانى لتأليف هذا الكتاب سبب لغوى دفع ياقوتا إلى وضع معجم للناس يذكر أنه سئل بمرو الشاهجان « بلد بإقليم خراسان » فى سنة خمس عشرة وستمائة من الهجرة فى مجلس فخر الدين أبى المظفر عبد الرحيم ابن أبى سعد السمعانى عن ضبط كلمة «حباشة» وهى سوق من أسواق العرب فى الجاهلية ووردت فى الحديث النبوى ، فقال فى ضبطها «حُباشة» بضم الحاء قياسا على أصل هذه اللفظة فى اللغة ، لأن الحباشة : الجماعة من الناس من قبائل شتى ، وحبشت له حباشـة أى جمعت له شيئا . وقال رجل من المحدثين بفتح الحاء « حباشة » ، وصمم الرجل على ذلك ، ولم يفلح ياقوت فى المناقشة معه ، ولم ينجح فى تبصيره بالعقل والاشتقاق فخرج صاحبنا إلى النقل فوجد صعوبة شديدة فى الاهتداء إلى ضالته برغم الـكتب الكثيرة التى اشتملت عليها خزائن مرو ، وبعد البحث والاستقصاء والتتبع اهتدى إلى ضبط هذه الـكلمة فوجده موافقا لرأيه وقوله .

علق ياقوت على هذه الحادثة مبينا أهمية وضع هذا المعجم فقال :

(١) « فألقى حينئذ فى روعى افتقار العالم إلى كتاب فى هذا الشأن مضبوطا وبالاتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطا ، ليكون فى مثل هذه الظلمة هاديا ، وإلى ضوء الصواب داعيا ونبهت على هذه الفضيلة النبيلة ، وشرح صدرى لنيل هذه المنقبة التى غفل عنها الأولون ولم يهتد لها الغابرون » .

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٠

ثم انتقل ياقوت إلى الحديث عمن سبقوه بالكتابة عن البلدان وأمام ما كتبه فى ذلك لا نملك إلا الحيرة والدهشة لهذه الذاكرة القوية والعقلية الجبارة حيث أستطاع أن يقدم تحليلا قيما وتبويبا رائعا للمصنفين فى أسماء الأماكن والبلدان ، ويزداد إعجابنا بياقوت عند تصفح المعجم حيث لا نجد صفحة واحدة تخلو من اسم مرجع مقرونا بصاحبه ، ولو نبه فى مقدمة المعجم على كل الكتب التى أخذ منها واعتمد عليها لاحتاج إلى مجلد كبير يمكن أن يكون عنوانه « مراجع معجم البلدان » ، ولكنه أكتفى بالتنبيه فى المقدمة على أهم الكتب التى أخذ منها ، وأشار فى صفحات الكتاب إلى الكتب الأخرى، وهذه التفاصيل الواسعة فى أسماء الكتب والمراجع التى أشار اليها صاحبنا سواء فى المقدمة أم فى داخل الكتاب منهج سليم من مناهج البحث العلمى اهتدى إليه السابقون ، وأولى بالمحدثين أو المعاصرين أن يلتزموا به ليأخذ كل ذى حق حقه من خلال شعار كثر النداء به وهو شعار الأمانة العلمية التى تقتضى أن ننسب كل قول أو تأليف إلى صاحبه .

ذكر ياقوت أن المتقدمين قد صنفوا فى أسماء الأماكن كتبا وهى صنفان منها ماقصد بتصنيفه ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة وهم طبقتان :

الطبقة الأولى من القدماء والفلاسفة والحكماء أفلاطون وفيثاغورث وبطليموس وغيرهم كثير من هذه الطبقة .

والطبقة الثانية إسلاميون سلكوا قريبا من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك ، وعينوا مسافة الطرق والمسالك وذكر منهم ياقوت : ابن خرداذبة ، وأحمد بن واضح ، والجيهانى وابن الفقيه ، وأبو زيد البلخى ، وأبو إسحاق الإصطخرى وابن حوقل ، وأبو عبدالله البشارى ، والحسن ابن محمد المهلبى ، وابن أبى عون البغدادى ، وأبو عبيد البكرى وله كتاب (المسالك والممالك) .

والصنف الثانى هم الذين قصدوا ذكر البوادى والقفار ، واقتصروا على منازل للعرب الواردة فى أخبارهم والأشعار وهم طبقة أهل الأدب الذين ذكرهم ياقوت بهذا الترتيب : أبو سعيد الأصمعى ، وأبو عبيد السكونى ، والحسن بن أحمد الهمدانى ، وله كتاب جزيرة العرب ، وأبو الأشعث الكندى فى جبال تهامه وأبو سعيد السيرافى ، يقول ياقوت : (١) « بلغنى أن له كتابا فى جزيرة العرب » وأبو محمد الأسود الغندجانى وله كتاب فى مياه العرب ، وأبو زياد الكلابى ، ومحمد بن إدريس بن أبى حفصة وقف ياقوت على كتاب له سماه مناهل العرب وهشام بن محمد الكلى وله كتاب يسمى « اشتقاق البلدان » وأبو القاسم الزمخشرى وتلميذه أبو الحسن العمرانى ، وأبو عبيد البكرى الأندلسى ، له كتاب سماه « معجم مااستعجم من أسماء البقاع ، ولم يره ياقوت بعد البحث عنه والتطلب له .

وكتب هذه الطبقة هى التى نقـل منها مضافا إليها مانقله من دواوين العرب والمحدثين ، وتواريخ أهل الأدب والمحدثين ، ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهده فى أسفاره وحصله فى تطوافه .

ولم يرض عن كتب القدماء من الفلاسفة والحكماء لما فيها من التصحيف والتحريف ، أما كتب الطبقة الإسلامية فغير مرتبة وشديدة الاختصار ، ولقد لاحظت أن أبا عبيد البكرى قد ذكر مرتين الأولى فى عداد الطبقة الإسلامية وذكر معه « كتاب المسالك والممالك » والثانية فى عداد طبقة أهل الأدب وذكر معه كتاب « معجم ما استعجم الذى لم يره ياقوت ولم يطلع عليه .

ثم انتقل صاحبنا فى مقدمة كتابه إلى الحديث عن خطته فقال :

« (٢)فاستخرت الله تعالى وجمعت ماشتتوه ، وأضفت إليه ماأهملوه ،

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١١ .

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ١٢ .

ورتبته على حروف المعجم ، ووضعته وضع أهل اللغة المحكم ، وأبنت عن كل حرف من الاسم : هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم ، أومكسور وأزلت عنه عوارض الشُّبه ، وجعلته تبرا بعدأن كان من الشَّبه ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربيا ، ومعناه إن أحطت به علما إن كان عجميا ، وفى أى اقليم هو ، وأى شىء طالعة وماالمستولى عليه من الكواكب ، ومن بناه ، وأى بلد من المشهورات يجاوره ، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه ، وبماذا اختص من الخصائص ، وما ذكر فيه من العجائب ، وبعض من دفن فيه من الأعوان والصالحين والصحابة والتابعين ونبذا مما قيل فيه من الأشعار فى الحنين إلى الأوطان ، الشاهدة على صحة ضبطه والاتقان . وفى أى زمان فتحه المسلمون وكيفية ذلك ، ومن كان أميره ، وهل فتح صلحا أو عنوة لتعرف حكمه فى الفىء والجزية ، ومن ملكه فى أيامنا هذه » .

وبهذه السطور المضئية استطاع ياقوت أن يكشف النقاب عن وجه كتابه ليعرف القارىء صورتة من الصفحات الأولى ، إن هذه الأسس السابقه التى ذكرها لا يمكن أن تتأتى له فى كل ما يورده ، وإنما يجىء عليها البلدان المشهورة والأمهات المعمورة .

استطاع ياقوت أن يجمع فى هذا الكتاب كثيرا من الفوائد ليجعل من كتابه أثرا فريدا وموسوعة أدبية جغرافية ، ومن خلال محاولته جمع الفوائد الكثيرة فى هذا الكتاب ذكر فية أشياء كثيرة تأباها العقول ، وتنفر عنها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة يقول عنها :

«(١) وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرىء إلى قارئها من صحتها ، لأننى

---

(١) معجم البلدان حـ١ صـ١٢

كتبتها حرصا على إحراز الفوائد ، وطلبا لتحصيل القلائد منها والفوائد ، فإن كانت حقا فقد أخذنا منها بنصيب المصيب ، وإن كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب ؛ لأننى نقلتها كما وجـــدتها ، فأنا صادق فى إيرادها كما أوردتها ، لتعرف ما قيل فى ذلك حقا كان أو باطلا .

وسوف نعود إلى مناقشة هذه المسألة بالتفصيل لنعرف منهج ياقوت فى إيرادها ، وكيف كان يعتذر عنها مع ضرب أمثلة لها .

ذكر فى المقدمة بعد ذلك أن كتابه أوحد فى بابه مؤمر على أضرابه وأنه سيحاول مضاعفة حجمه أضعافا ، لأنه يقصد زيادة فضله عند الناس ولم يهدف إلى نفاق الكتاب وسيرورته وذكره وشهرته ولو كان هذا هدفه لصغره واختصره ، ثم يدعو على من يختصره من بعده ، ولقد تعرضت لمناقشة هذه المسألة عند الحديث عن كتابه « المشترك وضعا والمفترق صقعا » الذى اختصره من معجم البلدان .

وقد أهدى الكتاب إلى العالم الجليل وزير حلب جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيبانى « القفطى » فى عبارة رقيقة مهذبة تكشف عن حب ياقوت له مدبجا هـــذه العبارة بأبيات متفرقات من الشعر .

رتب ياقوت الكتاب — كما قلنا — على نظام حروف المعجم من غير نظر إلى أصول الكلمة وزوائدها ، لأن جميع ما يرد فى معجمه أعلام لمسميات مفردة وأكثرها أعجمية ومرتجلة لا مجال للاشتقاق فيها . والهدف من ذلك تسهيل الفائدة من غير مشقة .

ولقد قسم الكتاب إلى ثمانية وعشرين كتابا على عدد حروف المعجم ثم قسم كل كتاب إلى ثمانيـة وعشرين بابا للحرف الثانى للأول ، والتزم ياقوت ترتيب كل كلمة منه على أول الحروف وثانية وثالثه ورابعه ، وإلى

أى غاية بلغ فيقدم ما يجب تقديمه بحكم ترتيب الحروف الهجائية على صورتها الموضوعة لها .

وإذا كان ياقوت قد بدأ فى جمع المادة العلمية لهذا الكتاب فى سنة خمس عشرة وستمائة من الهجرة فإنه تمكن بعد عشر سنوات من أن يبدأ فى تبييضه فى ليلة إحدى وعشرين من محرم سنة خمس وعشرين وستمائة .

ومطالعة الكتاب تكشف لنا أن هذا التاريخ الذى بدأ فيه التبييض لم تكن نهاية الكتابة فى هذا المعجم ، وإنما كان صاحبنا يضيف إليه حتى وفاته ، وبهذا لا يستطيع الإنسان أن يحدد عاما واحدا ألف فيه ياقوت كتابه فنى حديثه عن « ميا فارقين » كلمة فارسية ومعناها بالعربية مدينة الشهداء يقول :

« إنها(١) إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢٠ لم تؤخذ عنوة قط » ويذكر فى مواضع متفرقة أحداثا وقعت فى السنوات التالية حتى ٦٢٦ ﻫ وهى السنة التى توفى فيها ، تقرأ له مما كتبه عن حلب :

« (٢) وقدارتفع إليها فى العام الماضى ، وهو سنة ٦٢٥ ، من جهة واحدة وهى دار الزكاة التى التى يجبى فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع ، سبعمائة ألف درهم ، وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا مهتضم ولا متهضم ، وهذا من بركة العدل وحسن النية » .

وكثير من الأحداث يحكى ياقوت قصة وقوعها فى سنة ٦٢٦ ﻫ الأمر

---

(١) معجم البلدان حـ٥ صـ٢٣٧

(٢) معجم البلدان حـ٣ صـ٢٨٥

الذى يجعلنى أوقن أن سنة ٦٢٥ ﻫ ليست هى السنة التى انتهى فيها من تأليف المعجم كما ذكر ذلك فى المقدمة وإنما استمر تأليفه حتى سنة ٦٢٦ ﻫ .

أردف ياقوت هذه المقدمة بخمسة أبواب ملحقة بها، واعتبرها مدخلا ومفتاحا للمعجم، وكلها مسائل جغرافية تخلو من الصبغة الأدبية وتكثر فيها النقول عن السابقين .

تقع هذه الفصول فى ثلاث وثلاثين صفحة من صفحات الكتاب كما جاءت فيها بعض الدوائر الجغرافية لشكل الأرض وهيئتها .

الباب الأول : عن صفة الأرض وصورتها، وما قاله المتقدمون والمتأخرون فى هيئتها .

الباب الثانى : فى وصف اختلاف الجغرافيين على معنى الإقليم وكيفيته واشتقاقه . ودلائل القبلة فى كل ناحية مع بيان الأقاليم السبعة وهى الحجاز والهند ومصر وبابل والصين ويأجوج والروم .

وعقد الباب الثالث : للحديث عن الألفاظ التى يتكرر ذكرها فى الكتاب كالبريد والفرسخ والميل والكورة .. الخ .

وفى الباب الرابع : ذكر أحوال العلماء فى أحكام أراضى الفيء والغنيمة وكيفية قسمة ذلك .

الباب الخامس : فى جمل من أخبار البلدان التى لا يختص ذكرها بموضع دون موضع .

وبعد المقدمات السابقة تبدأ أجزاء الكتاب

فى الجزء الأول تحدث ياقوت عن كتابين أو عن حرفين من حروف الهجاء وهما الهمزة والباء وما يليهما حسب ترتيب حروف المعجم، فكتب عن البلدان التى تبدأ بالهمزة ثم عن البلدان التى تبدأ بالباء .

ومن أهم المواضع التى كتب عنها فى حرف الهمزة : الأبواء ، وأجا وأحـــد ، وإربل ، والأردن . والاسكندرية ، وأسوان ، وأسيوط ، وأصبهان ، والأندلس وأنطاكية .

ومدينة إربل بالعراق من المدن التى زارها صاحبنا ولم يعجبه أهلها فطباعهم شبيهة بطباع أهل القرى يقول عنها :

« (١)ودخلتها فلم أر فيها من ينسب إلى فضل غير أبى البركات المبارك ابن أحمد بن المبارك بن موهوب بن غنيمة بن غالب يعرف بالمستوفى ، فإنه متحقق بالأدب ، محب لأهله ، مفضل عليهم ، وله دين واتصال بالسلطان وخلة شبيهة بالوزارة ، وقد سمع الحديث الكثير ممن قدم عليهم إربل ، وألف كتبا وقد أنشدنى من شعره ... » ولم يحدد ياقوت السنة التى دخل فيها إربل ولكن أبا البركات بن المستوفى قد حددها يكتب عن ذلك ابن خلكان قائلا :

« (٢)ونقلت من تاريخ إربل الذى عنى بجمعه أبو البركات ابن المستوفى .... أن ياقوتا المذكور قدم إربل فى رجب سنة سبع عشرة وستمائة ، وكان مقيما بخوارزم وفارقها للوقعة التى جرت فيها بين التتر والسلطان محمد بن تكش خوارزم شاه .

وهذه العبارة التى نقلها ابن خلكان تؤكد أيضا ذهاب ياقوت إلى البلاد التى كتب عنها .

ومن أهم البلدان التى كتب عنها فى حرف الباء : بخارى وبدر وبرقة ، والبصرة ، وبغداد ، وبوان .

---

(١) معجم البلدان جـ١ ص١٣٨

(٢) وفيات الأعيان جـ٢ ص٢١٠

ويطول نفس ياقوت فى الكتابة عن البصرة وبغداد فيكتب عن كل واحدة منهما أكثر من عشر صفحات من المعجم الكبير .

ولما كتب عن بوان بأرض فارس لم ينس شعبها وأحاديث الشعراء والكتاب فيه واستشهد بقصيدة للمتنبى ، قال :

(١) « وقد أجاد المتنبى فى وصفه فقال :

مغانى الشعب ، طيبا ، فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه ، واليد ، واللسان
ملاعب جنـة ، لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

ويذكر ياقوت القصيدة ثم ينتقل منها إلى رسالة أدبية رفيعة كتبها أحمد بن الضحاك الفلكى إلى صديق له يصف شعب بوان بدأها بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، كتبت إليـه من شعب بوان وله عندى يد بيضاء مذكورة ، ومنة غراء مشهورة ، بما أولانيه من منظر أعدى على الأحزان ، وأقال من صروف الزمان ... إلى آخر الرسالة (٢) .

وحفل هذا الجزء بكثير من القطع الأدبية النادرة التى تغنى بها ياقوت سواء أكانت له أم لغيره .

---

(١) معجم البلدا ج ١ ص ٥٠٤

(٢) هذه الرسالة مترجمة إلى اللغة الفرنسية مع الترجمة لياقوت فى كتاب « مفكرو الإسلام » ص ١٨ من الجزء الثانى
« Les pensurs de l' islam »
وصاحبه « Carra de vaux » وتبدأ الترجمة لرسالة أحمد الضحاك بقوله إلى آخر الرسالة ..
J' t' êcris de la vallêe de Bewan .

وفى الجزء الثانى تكلم عن البلاد التى تبدأ بأحد الحروف الهجائية من التاء إلى الدال ومن أهم المدن التى كتب عنها : تاهرت ، وتهامة ، وجدة ، وجرجان، والجيزة ، والحجاز وحلب ، وحمص ، وخراسان ، وخوارزم، وختمه بالحديث عن الأديرة التى كتب عنها مايقرب من خمسين صفحة .

وكتب فى الجزء الثالث عن المواضع التى تبدأ أسماؤها بأحد حروف الهجاء : الذال إلى الصاد ومن أهم الأماكن التى أعطاها أهمية : الرصافة والرياض التى فى بلاد العرب ، الروم ، الرى ، سامرا ، سنجار ، الشاذياخ ، صفين ، صنعاء ، الصين .

وكتب فى الجزء الرابع عن البلدان والمواضع التى تبدأ بحرف من الطاء إلى الكاف ومن أهمها: الطائف ، العباسية ،العريش ، فارس، الفسطاط الفيوم ، القادسية ، الكعبة ، الكوفة .

وفى الجزء الخامس والأخير كتب عن البلدان التى تبدأ بالحروف من اللام إلى الياء ، ومن أهم الأماكن التى طال فيها نفسه اللاهون مارب، المدينة ، مرو ، المروة ، المزدلفة ، مصر ، المطرية ، المقدس ، مكة ، الموصل نجد ، نجران ، همذان ، يثرب .

والمادة الأخيرة من هذا المعجم وهى « يبين » تصلح لأن تكون نموذجا للكتابة فى هذا المعجم ففيها لغة وشعر وبلاغة ودين وسيرة وهى مادة موجزة ما كتب عنها يقع فى حوالى ثلثى صفحة ، وأنا أرى أن أختم كلامى عن أجزاء هذا المعجم بها وسأنقلها كاملة لتفى بالغرض وتعبر عن منهج ياقوت وطريقته فى الكتابة وأسلوبه فى العرض قال :

(١) « يبين : بالفتح ثم السكون ، وآخره نون ، وليس فى كلامهم

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٥٤

مافاؤه وعينه ياء غيره ، قال الزمخشري : يين عين بواد يقال له حورتان وهي اليوم لبني زيد الموسوي من بني الحسن ، وقال غيره : يين اسم واد بين ضاحك وضويحك وهما جبلان أسفل الفرش ، ذكره ابن جني في سر الصناعة وقيل : يين في بلاد خزاعة ، وجاء ذكر يين في السيرة لابن هشام في موضعين: الأول في غزوة بدر وهو أن النبي ﷺ ، مر على تربان ثم على ملل ثم على غميس الحمام من مريين ثم على صخيرات اليمام فهو هنا مضاف إلى مر ، ثم ذكر في غزواته ، ﷺ ، لبني لحيان أنه سلك على غراب جبل ثم على مخيض ثم على البتراء ثم صفق ذات اليسار فخرج على يين ثم على صخيرات اليمام ، وقال نصر :

يين ناحية من أعراض المدينة على بريد منها وهي منازل أسلم بن خزاعة وقيل : يين موضع على ثلاث ليال من الحيرة، وقيل : يين في بلاد خزاعة جاء في حديث أهبان الأسلمي ثم الخزاعي أنه كان يسكن يين فبينما هو يرعى بحرة الوبرة إذ عدا الذئب على غنمه ، الحديث في أعلام النبوة .

وقال ابن هرمة :

أدار سليمى بين يين فمثعر
أبيني فما استخبرت ألا لتخبري

أبيني ، حبتك البارقات بويلها لنا منسما عن آل سلمى وشغفر
لقد شقيت عيناك إن كنت باكيا
على كل مبدى من سليمى ومحضر

وقيل : يين : اسم بئر بوادي عباثر ، قال علقمة بن عبدة التميمي :

وما أنت أم ذكره ربعيـــة
تحـــل بأين أو بأكناف شربب

وفي هذا البيت استشهاد آخر وهو من بلاغة العرب التي ورد مثلها

فى الكتاب العزيز ، وهو صرف الخطاب عن المواجهة إلى الغائب والمراد به المخاطب الحاضر لأنه أراد فى البيت أم ماذكرك ربعية فصرفه عن المواجهة ، وقال عز وجل : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » .

ملامح الكتاب ومزاياه :

يعد كتاب معجم البلدان موسوعة عامة فى البلدان والآثار واللغة والأدب والإجتماع والتاريخ والجغرافية وغير ذلك من المعارف والعلوم ولعل أهم مايميزه .

١ — اهتمامه بضبط المواضع والأمكنة والبحار والأنهار ..... إلخ وبيان مواقعها ومناخها وما اشتهرت به من الصناعات .

لقد أهتم ياقوت بالضبط أهتماما كبيرا ، وساعدته فى ذلك معرفته الكبيرة باللغة ، فجعل كتابه موسوعة فى ضبط بلدان العالم الإسلامى وما جاورها على عصره أعتمادا على الشعر وكتب اللغة العربية والكتب الصحيحة المترجمة ، وبعد أن يذكر الموضع مضبوطا يتبعه بذكر المعنى إن كان عجميا ، وإن كان عربيا ذكر اشتقاقه وبعض القواعد النحوية والصرفية ، ويجعل حديثه عن بعض المواد حديثا لغويا ، يقول :

(١) « البئر مهموزة الوسط ، وهى الجب ، معروف وجمعها بئار وأبآر وتقلب فيقال آبار وحافرها بآر ويقال آبار ، وبأرت بئرا إذا حفرتها ، واشتقاق ذلك من بأرت الشيء . وابتأرته إذا خبأته وادخرته .. » .

---

(١) معجم البلدان جـ١ ص ٢٩٨

ولا يتكلم ياقوت عن أى موضع من المواضع إلا بعد أن يضبطه ضبطا صحيحا بالحروف إلى جانب الحركات يقول فى برلس :

(١) « برلس : بفتحتين ، وضم اللام وتشديدها بليدة على شاطىء نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية » كما اهتم بتفسير الألفاظ التى يتكرر ذكرها فى كتابه كالبريد والفرسخ والميل والإقليم والكورة والمخلاف والأستان والرستاق والطسوج والجند وأباذ والسكة والمصر والطول والعرض والدرجة والدقيقه والصلح والسلم والعنوة والخراج والغنيمة والصدقة والخمس ، ويذكر أكثر من وجه عند الضبط مع بيان الأصل والاستعمال ، قال فى مادة أم خنور :

(٢) « أم خنور بفتح أوله وضم النون المشددة وسكون الواو ، وراء : اسم لكل واحدة من البصرة ومصر ، وهى فى الأصل : الداهية واسم الضبع وقيل : الخنور بالكسر الدنيا وأم خنور اسم لمصر ، وفى نوادر الفراء ، العرب تقول : وقعوا فى أم خنور بالفتح وهى النعمة وأهل البصرة يقولون خنور بالكسر وفتح النون ، والعرب تسمى مصر أم خنور » .

ويصل ياقوت فى توسعه اللغوى إلى أبعد من هذا فحينما كتب عن مادة العين ذكر لها عشرين معنى ، قال :

(٣) « والعين من عان الرجل فلانا يعينه عينا إذا أصاب بالعين والعين الطليعة للعسكر وغيره ، والعين من الماء معلومة ، وعين الحيوان معروفة أيضا ».... إلى أن يقول : « فهذا عشرون معنى للعين » .

---

(١) معجم البلدان ج ١ صـ ٤٠٢

(٢) معجم البلدان ج ١ صـ ٢٥١

(٣) المرجع السابق ج ٤ صـ ١٧٤

وفى كلامه عن صفين ذكر ضبطها وحالها فى الإعراب ، ومن أنها تعرب إعراب الجموع وإعراب مالا ينصرف .

عاش ياقوت مدة طويلة فى البلاد الإيرانية تمكن خلالها من معرفة اللغة الفارسية فاطلع على الكتب الموجودة فى خزائن مرو الشاهجان واستطاع أن يجعل معجم البلدان معجما عاماً بالإضافات التى كتبها عن البلاد الفارسية وما جاورها فالكلمة العربية يضبطها والكلمة الأعجمية ينقلها إلى العربية ذاكراً معناها قال(١):

« مرو الروز : المرو: الحجارة البيض تقدح بها النار » ثم يقول: « والروذ بالذال المعجمة هو بالفارسية النهر ، فكأنه مرو النهر» .

وإذا كان ياقوت قد تعلم الفارسية فإنه كان عاجزاً أمام لغة الروم مع أنه رومى الجنس فلم يستطع ضبط بعض بلاد الروم واعترف بذلك واعتذر عنه ، قال(٢) :

«وفى أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها فليعذر الناظر فى كتابى هذا ومن كانت عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً فقد آذنت له فى إصلاحه مأجوراً» .

إن هذا لأكبر دليل على تواضع الرجل والتزامه بالمنهج العلمى الدقيق فى استعداده لقبول التوجيه والنقد ، وإذا تعرض لمكان لا يعرفه ، قال ذلك صراحة وبكل شجاعة ففى كتابته عن ميانج « موضع » قال: « أعجمى لا أعلم معناه » .

---

(١) المرجع السابق حـ ٥ ص١١٢

(٢) معجم البلدان حـ٣ ص٩٨

وبعد أن يذكر ضبط الموضع يبين موقعه ويحدده تحديداً جغرافياً سليماً ذاكراً المدن والقرى التي تجاوره قال عن الموصل

« (١) الموصل : بالفتح ، وكسر الصاد : المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كبراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة فهي محط رحال الركبان ومنها يقصـــد إلى جميع البلدان فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان » .

وإذا كتب عن بلد ذكر هواءه وصيفه وشتاءه ففي حديثه عن همذان قال(٢): «ولا شك عند كل من شاهد همذان بأنها من أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفهها ومازالت محلا للملوك ومعدنا لأهل الدين والفضل إلا أن شتاءها مفرط البرد بحيث قـــد أفردت فيه كتب وذكر أمره بالشعر والخطب » .

كان صاحبنا رحالة ذا نظر ثاقب وعين نافذة فلا يرى شيئاً إلا كتب عنه ففي الموصل يكتب عن قلة بساتينها وعدم جريان الماء في رساتيقها وشدة حرها في الصيف وعظم بردها في الشتاء ويقول عن أبنية أهلها .

« (٣) فأما أبنيتهم فهي حسنة جيدة وثيقة بهية المنظر لأنها تبنى بالنورة والرخام ».

عاش ياقوت في حلب السنوات الأخـــيرة من عمره ورأى أن أهلها يشتغلون بالزراعة فينبه على ذلك عند حديثه عن حلب قال (٤) :

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ٢٢٣

(٢) » » جـ ٥ ص ٤١٢

(٣) » » جـ ٥ ص ٢٢٤

(٤) » » جـ ٢ ص ٢٨٤

وشاهدت من حلب وأعمالها ما استدللت به على أن الله تعالى خصها بالبركة وفضلها على جميع البلاد ، فمن ذلك أنه يزرع فى أراضيها القطن والسمسم والبطيخ والخيار والدخن والكروم والذرة والمشمش والتين والتفاح عذبا لا يسقى إلا بماء المطر ويجىء مع ذلك رخصاً روياً يفوق ما يسقى بالمياه والسيح فى جميع البلاد».

وهكذا نرى صاحبنا يتطرق فى معجمه إلى التفاصيل الدقيقة التى لم تخطر على بال القارىء فينقله بذلك إلى كل مكان وكل موضع يكتب عنه ،ولا يترك صغيرة ولا كبيرة من المسائل الجغرافية إلا تكلم عنها ،

. . .

٢ — تبدو النزعة الأدبية واضحة فى هذا المعجم ، فنرى صاحبنا يضمن كتابته عن البلدان ما قيل فيها أو فى آثارها من شعر قد ينقده أحيانا أو يذكر مناسبته ويعلق عليه ، وهو يذكر القصائد الطوال التى تصل إلى مائة بيت أو يزيد ، أو تقل عن ذلك ،كما يذكر المقطوعات والآبيات المفردة.

وإذا كتب عن موضع أثبت ما قاله الشعراء فيه من مدح أو هجاء فعندما كتب عن حلب اختار قصيدة طويلة للصنوبرى استغرقت قرابة أربع صفحات من الكتاب، وأبياتها مائة وأربعة،قال فى حديثه عن حلب وتقديمه لهذه القصيدة :

«(١) وقد أكثر الشعراء من ذكرها ووصفها والحنين إليها ،وأنا مقتنع من ذلك بقصيدة لأبى بكر محمد بن الحسن بن مرار الصنوبرى وقد أجاد فيها ووصف منتزهاتها وقراها القريبة منها فقال :

---

(١) معجم البلدان ج٢ ص٢٨٦

أحبسا العيس أحبساها وسلا الدار سلاها
واسألا أين ظباء الـ دار أم أين مهاها
أين قطان محاهم رَيب دهر ومحاها
صمت الدار عن السا ئل ، لاصم صداها
بليت بعددهم الدا ر ، وأبلاني بلاها

الأبيات . . .

يهتم ياقوت فى معظم المواضع بالشعر العاطفى ، ويصطنع المواقف التى يورد فيها هذا اللون الشعرى، فعند الحديث عن غمير بلفظ تصغير الغمر وهو الماء الكثير يذكر المواضع التى تسمى بهذا الاسم ويذكر منها غمر الصلعاء من مياه أجا أحد جبلى طىء ، وينشد أبياتا لعبيد بن الأبرص ورد فيها غمير المذكور وهذه هى الأبيات:

تبصر خليلي هل تري من ظعائن
سلكن غميراً دونهن غموض
وفوقِ الجمـــال الناعجات كواعب
مخاضيب أبكار أوانس بيض
وخبت قلوصى بعد هدء ، وهاجها
مـــع الشوق بالحجاز وميض
فقلت لها : لاتعجلى ! إن منزلا
نأتنى به هنـــد إلى بغيض

وموضوعات الشعر التى يحفل بها معجم البلدان كثيرة ،ولا نكاد نرى فنا من فنون الشعر لم يمثل له فى الكتابة عن بغـــداد ذكر ياقوت شعراً لاثنين وثلاثين شاعراً فى مدحها وذمها ، وبغداد من المواضع التى طال فيها حديث الشعر ، ومن القطع التى اختارها هذه الأبيات التى قدم لها فقال(١).

---

(١) معجم البلدان حـ ١ ص ٤٦٢

وكان القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المـالـكى قد نبا به المقام ببغداد فرحل إلى مصر، فخرج البغداديون يودعونه وجعلوا يتوجعون لفراقه ، فقال : والله لو وجدت عندكم فى كل يوم مدا من الباقلى ما فارقتكم ثم قال :

أذم بغداد والمقام بهـا ... من بعد ما خبرة وتجريب

ما عند سكانهـا لمختبط ... خير ، ولا فرجة لمكروب

يحتاج باغى المقـام بينهـم ... إلى ثلاث من بعد تثريب

كنوز قارون أن تكون له ... وعمر نوح وصبر أيوب

قوم مواعيدهم مزخرفة ... بزخرف القول والأكاذيب

عندما تصفحت ما كتبه ياقوت عن بخارى كنت أتوقع أن أقرأ كلاما مستحباً عن هذه المدينة لشهرتها واتساعها وتشريفها بانتساب إمام المحدثين إليها وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة بن بردزيه صاحب الجـامع الصحيح والتاريخ الذى رحل فى طلب العلم إلى محدثى الأمصار، وكتب بخراسان والعراق والشام والحجاز ومصر، ولـكنى قرأت شعراً يصفها بالقذارة وظهور النجس فى أزقتها، ولم يحامل ياقوت فى كتابته، والتزم الدقة والواقعية وأرجع تهجم الشعراء عليها إلى عدم وجود الـكنف عندهم .

والشعر الذى ذكر فيهـا كله هجاء . وهذان بيتان جاءا فيهما يقول :

« وقال آخر :

أقمنـا فى بخـــارى كارهينا ... ونخرج إن خرجنـا طائعينـا

فاخرجنا إله الناس منها   فإن عدنا فإنا ظالمونا

إن ياقوتا يملك حاسة فنية ورغبة ملحة فى تتبع الشعر وضبطه وانتقاء العذب منه ففى حديثه عن « الجعفرى » قصر المتوكل يقول :

« وللشعراء فى ذكر الجعفرى أشعار كثيرة . ومن أحسن ما قيل فيه قول البحترى »(١) ، ويورد قصيدته ، وفى حديثه عن نجـــد تقرأ له مقطوعات شعرية لأكثر من خمسة عشر شاعراً ويقول : إن هذا بعض ما يحضره .

ولياقوت براعة فى اختيار المقطوعات الشعرية الرقيقة يضعها فى البلاد التى يتحدث عنها ، فهو مثلا حينما يتحدث عن قطن ويذكر المواضع التى تسمى به ومنها أنه جبل لبنى عبس ، يثبت فى المادة أكثر من مقطوعة شعرية ، ومنها هذه الأبيات لبعض الأعراب .

سلم على قطن ، إن كنت نازله
سلام من كان يهوى مرة قطنا
أحبه ، والذى أرسى قواعده
حباً إذا ظهرت آياته بطنا
ياليتنا لا نريم الدهر ساحته
وليتها ، حيث صرنا غربة معنا
ما من غريب ، وإن أبدى تجلده
إلا تذكر ، عند الغربة ، الوطنا
انظر ، وأنت بصير ، هل ترى قطنا
من رأس حوران من آت لنا قطنا
يا ويحها نظرة ليست براجعة   خيراً ولكنها من غيره فتنا

(١) معجم البلدان جـ٢ ص ١٤٤

إن هذا المعجم ديوان شعر كبير متعدد الأجزاء متنوع الفنون عامر بالقصائد الطويلة والمقطوعات الغنائية الرائعة التى تكشف عن ذوق ياقوت فى الاختيار ، كما أنه يملك القدرة على تهيئة القارىء لإيراد الشعر .

كان ياقوت حريصا على إثبات القصيدة التى رثى بها مالك بن الريب المازنى نفسه ، وهى من نوادر القصائد الطوال فى الشعر العربى .

بدأ ياقوت القصيدة فى حديثه عن خراسان بقول مالك :

لعمرى لئن غالت خراسان هامتى
لقــد كنت عن بابى خراسان نائيا

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا ؟

وقد وزعها على أبواب الكتاب حسب المواضع والأمكنة التى وردت بها رابطا كل جزء من القصيدة أورده فى موضع بما قبله وما بعده من أجزاء حتى يتمكن القارىء من متابعة أبيات القصيدة حسبما ذكرها ياقوت .

ولقد أهتم بهذه القصيدة لما جاء فيها من أسماء لهذه الأمكنة : خراسان أود ، الطبسان ، قرى الكرد ، أعلى الرقتين ، السمينة ، مرو ، سهيــل ، الشبيك ، رحا المثل ، فلج ، المتان (جمع متن) ، عنيزة ، بولان ، الرمل .

وزع ياقوت القصيدة بأبياتها السبعة والأربعين على ستة مواضع من المعجم ففى مادة بولان يورد أبياتا من القصيدة ثم يقول :

(١)« هذه آخر قصيدة مالك بن الريب ، وقد ذكرتها بتمامها فى هذا الكتاب متفرقة ، ونبهت فى كل موضع على ما يتلوه ، وأولها فى خراسان» .

---

(١) معاجم البلدان جـ ١ ص ٥١١

ويعلق الدكتور أحمد الشرباصى على اهتمام ياقوت بهذه القصيدة فيقول :

«(١) وهنا ينبغى أن نلاحظ ميزة لمعجم البلدان تذكر له ، وهى أنه من أهم المراجع الدالة على أن الشعر العربى كان معجما جغرافيا تكفل لنا بحفظ الكثير من أسماء البلاد والأماكن والمياه والدور والمواضع المختلفة ، ففى أكثر المواد التى تحدث عنها ياقوت نجد الشعر العربى كان صورة للبيئة التى قيل فيها وعاش بها أهلوه » .

كما أورد ياقوت معظم قصائده فى معجم البلدان، فله قصيدة فى ذم أزتخشميثن ،وأخرى فى حديثه عن الشاذياخ ،وثالثة فى كتابته من مرو يتشوق فيها إلى العراق وساكنيه وسوف نتعرض بالدراسة لهذه القصائد وغيرها عند الكتابة عن شعره وتذوقه للشعر .

. . .

٣ — لا تقتصر ملامح الأدب فى هذا المعجم على الشعر ، ولكنها تمتد إلى القصص الأدبى ، ويستعين ياقوت بذاكرته وإلمامه بالتاريخ فى إختيار نوع الحكاية ومناسبتها للموقف الذى يكتب عنه من خلال المواضع والأمكنة ، وفى هذا القصص الأدبى التاريخى نرى الشعر متداخلا فى النثر فيضمن صاحبنا بذلك عناصر الإجادة والتفوق فى الكتابة عن الجغرافية الأدبية ، ويجعل من تآليفه مادة مسلية لمن يقرأ أخبار البلاد .

فى كتابته عن قصر « الخورنق » بالحيرة ذكر أقوال المؤرخين التى اختلفت فى تحديد بانيه وارتضى صاحبنا قول الهيثم بن عدى فى أن بانيه هو النعمان ابن امرىء القيس بن عمرو بن عدى : والذى بناه له رجل من

---

(١) ملامح أدبية صـ ٨٨

الروم يقال له سنجار ، ويحكى نهاية هذا الرجل وما قيل فيها من شعر ثم يحكى نهاية النعمان .

ويروى ياقوت قصة هند بنت النعمان بن المنذر عندما حبس كسرى أباها ، ويذكر أنها أعطت لله عهداً إن رد الله أباها لملكه أن تبنى ديرا تسكنه حتى تموت ، فخلى كسرى عن أبيها فبنت الدير ، وأقامت به إلى أن ماتت ودفنت فيه . ويحكى ياقوت قصة لقائها بخالد بن الوليد فيقول :

« (١)وهى التى دخل عليها خالد بن الوليد ، رضى الله عنه ، لما فتح الحيرة ، فسلمت عليه ، فقال لها لما عرفها : أسلمى حتى أزوجك رجلا شريفا مسلما ، فقالت له : أما الدين فلا رغبة لى فيه غير دين آبائى ، وأما التزويج فلو كانت فى بقية لما رغبت فيه فكيف وأنا عجوز هرمه أترقب المنية بين اليوم وغد فقال : سليني حاجة ، فقالت : هؤلاء النصارى الذين فى ذمتكم تحفظونهم قال : هذا فرض علينا أوصانا به نبينا محمد ﷺ ، قالت : مالى حاجة غير هذا فإنى ساكنة فى هذا الدير الذى بنيته ملاصقا لهذه الأعظم البالية من أهلى حتى ألحق بهم ، قال . فأمرلها بمعونة ومال وكسوة ، قالت : أنا فى غنى عنه ولى عبدان يزرعان مزرعة لى أتقوت بما يخرج منها ويمسك الرمق وقد اعتددت بقولك فعلا وبعرضك نقداً ، فقال لها : أخبريني بشيء أدركت ، قالت: ما طلعت الشمس بين الخورنق والدير إلا على ما هو تحت حكمنا فما أمسى المساء حتى صرنا خولا لغيرنا ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا
إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

فتبا لدنيا لا يدوم نعيمها
تقلب تارات بنا وتصرف

---

(١) معجم البلدان جـ٢ صـ ٥٤١

ثم قالت : أسمع منى دعاء كنا ندعو به لأملاكنا : شكرتك يد افتقرت بعد غنى ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك مواضعه ولا أزال عن كريم نعمة إلا جعلك سببا لردها إليه ولا جعل لك إلى لئيم حاجة : قال(١) . فتركها وخرج ، فجاءها النصارى وقالوا . ما صنع بك الأمير ؟ فقالت .

صان لى ذمتى وأكرم وجهى   إنما يكرم الكريم الكريم

وفى مادة اليستعور . « موضع » يحكى صاحبنا قصة عن عروة بن الورد قال .

«(١) كان عروة قد سبى امرأة من بنى كنانة ثم تزوجها ، وأقامت عنده وولدت له ثم التمست منه أن يحج بها فلما حصلت بين قومها قالت.اشتروني منه فإنه يرى أنى لا أختار عليه أحداً ، فسقوه الخمر ثم ساوموه فيها فقال . إن اختارتكم فقد بعتها منكم ، فلما خيروها قالت . أما إنى لا أعلم امرأة ألقت سترها على خير منك أغنى غناء وأقل فحشا وأحمى لحقيقة ، ولقد ولدت منك ما علمت وما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت أحب إلى من الحياة فيه ، إنى لم أكن أشاء أن أسمع امرأة تقول قالت أمة عروة إلا سمعته ، لا والله لا أنظر إلى وجه امرأة سمعت ذلك منها أبداً ،فارجع راشداً وأحسن إلى ولدك ، فقال . عروة .

سقونى الخمر ثم تكنفونى   عداة الله من كذب وزور
وقالوا : لست بعد فداء سلمى   بمغن ما لديك ولا فقير
أطعت الآمرين بصرم سلمى   فطاروا فى بلاد اليستعور

---

(١) الراوى

(٢) معجم البلدان جـ٥ صـ٤٣٦

إن بعض الحكايات الأدبية التى حفل بها معجم البلدان تطول عما سبق عرضه وهذه إحداها يرويها ياقوت فى ست صفحات من الكتاب ، ولا يسعنا أمام هذا الطول إلا أن نشير إليها وهى موجودة بالمعجم لمن أراد أن يطالعها .

إنها حكاية طويلة تبــدو فى مواقفها الحبكة القصصية والتسلسل الموضوعى والأسلوب الجيد ويغلب عليها الحوار بالشعر والنثر ، ويختلط فيها التاريخ بالأسطورة(١) .

تبدأ بخلاف بين زوجين من جديس حول حضانة ابنهما فترفع المرأة «هزيلة» الأمر إلى الملك عمليق « وهو من طسم » الذى يعجز عن الحكم لمتانة حجة كل من الزوجين ، فيأخذ عمليق الغلام منهما ويجعله واحداً من غلمانه ويحول الزوجين إلى الرق وتقول هزيلة شعرا فى أعقاب ذلك يصل إلى الملك فيأمر الا تزوج بكر من جديس حتى تدخل عليه فيكون هو الذى يفترعها قبل زوجها فاق أهل جديس من ذلك ذلا حتى تزوجت واحدة منهم فلم تسلم نفسها للملك فاعتدى عليها فهربت منه والدماء تسيل منها ، وتألم القوم لمنظرها وتعاطفوا مع أخيها فى حربه مع عمليق حتى قتله ثم جاء تبع لمناصرة طسم أهل عمليق فى حربهم ضد جديس واستطاع أن يفتح اليمامة ويقضى عليها ولم يخلف فيها أحداً ، ومن الأبيات التى وردت فى هذه القصة قول هزيلة .

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا فأظهر حكما فى هزيلة ظالما
لعمرى لقد حكمت لا متورعا ولا كنت فيما يلزم الحكم حاكما
نــدمت ولم أندم ، وأنى بعترتى
وأصبح بعــلى فى الحكومة نادما

---

(١) راجع القصة بمعجم البلدان ج ٥ ص ٤٤١ إلى ص ٤٤٧

وغيرها كثير .

ولقد تمكن ياقوت بالمامة بالشعر العربى أن يجعل معجمه حافلا بأمثال هذا القصص الأدبى التاريخى .

وما يقرب من الحكاية الأدبية وأسلوبها وسردها ما يسمى بالمناظرات الأدبية التى يقف فيها أديبان يعالجان مشكلة ما أو يتحدثان عن بلد ما أحدهما يهاجم والآخر يدافع ولقد فتح ياقوت صفحات كتابه لهـذا اللون الأدبى .

عندما نطالع ما كتبه عن همذان نجـــد معركة أدبية بين رجل من أهل العراق يقال له عبد القاهر بن حمزة الواسطى ورجل من أهل همذان يقال له الحسين بن أبى سرح ويقول ياقوت عنهما(١) . « إنهما كانا كثيراً ما يلتقيان فيتحادثان الأدب ويتذاكران العلم » ،

وموضوع هذه المناظرة هو الهجوم على همذان من جانب عبدالقاهر والدفاع عنها من الحسين ، واستغرقت صفحتين من الكتاب واكتفى ياقوت بكلام عبد القاهر الواسطى وفى النهاية يوجز كلام أبى سرح قال .

«(٢) فلما بلغ عبد القاهر إلى هذا المكان التفت إليه ابن أبى سرح وقال له.قد أكثرت المقال وأسرفت فى الذم وأطلت الثلب وطولت الخطبة، ثم صمد للإجابة فلم يأت بطائل أكثر من ذكر المفاخرة بين الصيف والشتاء والحر والبرد ، ووصف أن بلادهم كثيرة الزهر والرياحين فى الربيع وأنها تنبت الزعفران وأن عندهم أنواعا من الألوان لا تكون فى بلاد غيرهم ، وأن مصيف الجبال طيب فلم أر الاطالة بالاتيان به على وجهه ».

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٤١٢

(٢) معجم البلدان جـ ٥ ص ٤١٤

لقد عاش صاحبنا هذه المناظرة ليستمتع بما فيها من شعر ونثر وليصل إلى الحقيقة فى بحثه عن البلدان وتنقيبه عن أخبارها من خلال هذه القصص والمعارك الأدبية

* * *

٤ — سجل ياقوت فى معجمه كل ماشاهده أو سمع عنه من غرائب الأحداث والوقائع والمشاهد ولم يترك بلدا فتحه المسلمون إلا ذكر معه قصة الفتح منبهاً على المواقع التى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا ، وهو مؤرخ بارع يستطرد فى ذكر الخبر ويعمد إلى التفاصيل الدقيقة فى أسلوب روائى سهل ولا ينسى أن يقول : إن كان الفتح صلحا أو عنوة ليقف القارىء على جلية الأمر . وأشار إلى هذا المنهج فى مقدمة المعجم والتزم به على صفحاته .

يقول فى حديثه عن حضر موت :(١) وأما فتحها : فإن رسول الله ﷺ كان قد راسل أهلها فيمن راسل فدخلوا فى طاعته ، وقدم عليهم الأشعث بن قيس فى بضعة عشر راكبا مسلماً ، فأكرمه رسول الله ، ﷺ فلما أراد الانصراف سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يولى عليهم رجلا ، فولى عليهم زياد بن لبيد البياضى الأنصارى وضم إليه كندة . فبقى على ذلك إلى مات رسول الله ﷺ ، فارتدت بنو ربيعة بن شرحبيل ابن معاوية .

ويكتب ياقوت عن جهود زياد بن لبيد فى حربه مع الذين ارتدوا عن الإسلام ومنعوا الصدقة بعد وفاة الرسول .

وذكر أن زيادا وقف فى أهل حضر موت خطيبا فعرفهم موت النبى

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٧٠

ﷺ ، وأنه دعاهم إلى بيعة أبي بكر فامتنع الأشعث بن قيس عن البيعة واعتزل في كثير من أهل كندة وبايع زيادا خلق كثير، كتب ياقوت عن زياد يقول :

« (١) وانصرف إلى منزله وبكر لأخذ الصدقة كما كان يفعل ، فأخذ فيما أخذ قلوصا من فتى من كندة ، فصيح الفتى وضج ، واستغاث بحارثة ابن سراقة بن معد كرب بن وليعة بن شرحبيل بن معاوية بن حجر القرد ابن حارث »

ويحكي مادار بين حارثة وزياد من حوار ساخن حول القلوص ، وينتهي الموقف بانتصار زياد على حارثة ، ولكن الأشعث يعود إلى حرب زياد وينتصر عليه ويطلب زياد العون من أبي بكر فيعينه بالمهاجر بن أبي أمية الذي كان واليا على صنعاء وينتقم زياد والمهاجر للمسلمين، ويرسلان الأشعث أسيراً إلى أبي بكر ويذكر ياقوت في نهاية قصة فتح حضر موت مادار بين أبي بكر والأشعث حيث يعتذر الأشعث لأبي بكر ويطلب منه الزواج من أخته أم فروة يقول ياقوت(٢)

« فمن عليه أبو بكر رضي الله عنه ، وزوجه أخته أم فروة ولما تزوجها دخل السوق فلم يمر به جذور إلا كشف عن عرقوبها وأعطى ثمنها وأطعم الناس وولدت له أم فروة محمدا وإسحاق وأم قريبة وحبانة ، ولم يزل بالمدينة إلى أن سار إلى العراق غازياً ، ومات بالكوفة . وصلى عليه الحسن بعد صلح معاوية »

وهكذا رأينا ياقوتاً يستطرد في فتح حضر موت : ويذكر الأمور

---

(١) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٧٠

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٧١

الدقيقة التى تتعلق بالحدث التاريخى . وفى مادة حلب يقول(١) : «وأما فتحها فذكر البلاذرى أن أباعبيدة رحل إلى حلب» . ويذكر قصة الفتح اعتماداً على البلاذرى .

وهذه النزعة التاريخية تشكل نطاقا محدداً ومكاناً أساسياً فى كل بلد يكتب عنه من البلاد التى دخلها الإسلام .

ومن المسائل التاريخية التى اهتم بها ياقوت أيام العرب فى الجاهلية فهى جزء من التاريخ . ولأن أدباء العرب ورواة الأخبار أعطوا هذه الأيام أهمية كبرى لما فيها من القصص الأدبى وقصائد الشعر وتاريخ القبائل العربية ، ولازالت هذه الأيام حديثاً للمؤرخين والأدباء حتى وقتنا الحاضر .

قرأ ياقوت عن هذه الحروب التى دارت فى جزيرة العرب وماجاورها من بلاد الشام والعراق ثم صب ماقرأه عنها فى معجمه رابطاً بين هذه الأيام والمواضع التى دارت رحى الحرب عليها .

فهذا يوم ذى قار الذى انتصر العرب فيه على الفرس انتصاراً حاسماً فى المعركة التى اشتعلت فى بطحاء ذى قار بين البصرة والكوفة فيفتخر صناجة العرب بهذا اليوم .

أما حرب البسوس التى استمرت أكثر من أربعين عاماً بين القبيلتين بكر وتغلب فيتصدى المهلهل وجليلة بنت مرة وغيرهما لأشعار الحزن والبكاء فيها .

وتطول الحرب بين عبس والقبائل التى تجاورها كطيء وذبيان وغطفان فلما يشتد أوارها يتدخل عنترة منشداً ومحارباً .

---

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٨٥

وعندما وقعت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان جادت قريحة زهير فى مدح وسطاء السلام بين القبيلتين المتجاورتين .

ونجد معجم البلدان يسجل هذا التاريخ بدقة وأمانة ويتتبع ياقوت ما قيل فى هذه الأيام من فنون الكلام ليسجله فى كتابه .

وهذا نموذج واحد لهذه الأيام عالجه صاحبنا معالجة تاريخية أدبية تكشف عن سعة اطلاعه ، فتمكن معها أن يقدم معجمه فى هذه الكمية وبهذه الكيفية .

وهذا اليوم هو يوم « حليمة » الذى كان النابغة الذبيانى من شعرائه لأنه لجأ إلى عمرو بن الحارث الغسانى بعد انصرافه عن المناذرة قال ياقوت :

«(١) وإنما حليمة اسم امرأة بنت الحارث الغسانى نائب قيصر بدمشق وهو يوم سار فيه المنذر بن المنذر بعرب العراق إلى الحارث الأعرج الغسانى وهو الأكبر ، وسار الحارث فى عرب الشام ، فالتقوا بعين أباغ وهو من أشد أيام العرب ، فيقال : إن الغبار يوم حليمة سد عين الشمس فظهرت الكواكب المتباعدة من مطلع الشمس » .

وهذه مبالغة مكشوفة أوجدها خيال الشعراء ، وليست من تفكير المؤرخين .

ذكر ياقوت قولا آخر فى هذه الحرب ، وهى أنها كانت بين غسان والضجاغم ويذكر رأيا ثالثا يقول عنه(٢): « إن يوم حليمة هو اليوم الذى

---

(١) معجم البلدان جـ٢ ص٢٩٦

(٢) المرجع السابق جـ٢ ص٢٩٦

قتل فيه الحارث بن أبي شمر الغساني المنذر بن ماء السماء ، وجعلت حليمة بنت الحارث تخلق قومها وتحرضهم على القتال فمر بها شاب فلما خلقته تناولها وقبلها فصاحت وشكت ذلك إلى أبويها فقالا لها : اسكتى فما فى القوم أجلد منه حين اجترأ وفعل هذا بك فإما إن يبل غدا بلاء حسنا فأنت امرأته ، وإما إن يقتل فتنالى الذى تريدين منه ، فأبلى الفتى بلاء عظيما ورجع سالما فزوجوه حليمة وقال النابغة :

تخيرن من أزمان يوم حليمة
إلى اليوم قد جربن كل التجارب(١)

كان ياقوت قد بدأ كلامه عن هذا اليوم برأى نسبه الى العمرانى ولم يوافق عليه .

وتمتد النزعة التاريخية الى المعارك الحربية والغزوات الإسلامية فاذا كتب عن واحدة منها ذكر إعداد الجيوش ومدة الحرب وقيمة الغنائم وكشف عن أعداد القتلى ليجعل القارىء متصورا لهيئة المعركة وحجمها ، كما أنه يذكر الآراء ، ويختار منها الأقرب الى الصحة ، ومن المعارك التى أفاض فى الكتابة عنها معركة صفين قال :

«(٢) وهو موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربى

---

(١) هذا البيت من قصيدة للنابغة يمدح فيها الغسانيين ومطلعها :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وكليني : دعيني : فعل أمر من وكله للشيء أى أسلمه، له وكليني لهم : دعيني وهمى وقلق

(٢) معجم البلدان جـ٣ ص ٤١٤

بين الرقة وبالس ، وكانت وقعة صفين بين على رضى الله عنه ومعاوية فى سنة ٣٧ فى غرة صفر . واختلف فى عدة أصحاب كل واحد من الفريقين ، فقيل : كان معاوية فى مائة وعشرين ألفا ، وكان على فى تسعين ألفا ، وقيل: كان على فى مائة وعشرين ألفا ومعاوية فى تسعين ألفا ، وهذا أصح ، وقتل فى الحرب بينهما سبعون ألفا ، منهم من أصحاب على خمسة وعشرون ألفا ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفا وقتل مع على خمسة وعشرون صحابيا بدريا ، وكانت مدة المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام ، وكانت الوقائع تسعين وقعة » .

وفى حديث ياقوت عن البلدان ووصفها لا يفوته أن يسجل ما يشاهده من مواقف مثيرة وأحداث غريبة صادفته فى بلد من البلدان فيكتب ما رآه أو استمع إليه ، ومنها ما يروى فى بلدة الرى عن عبد الرحمن بن حاتم الرازى يقول :

«(١) كنت مع أبى فى الشام فى الرحلة فدخلنا مدينة فرأيت رجلا واقفا على الطريق يلعب بحية ويقول : من يهب لى درهما حتى أبلع هذه الحية ؟ — فالتفت إلى أبى وقال : يا بنى احفظ دراهمك فن أجلها تبلع الحيات » .

وتتحرك عين صاحبنا فى كل موضع يكتب عنه ويلتقط المشاهد الغريبة فيعلق عليها ويثبتها فى معجمه .

عندما كتب عن نهر جيحون فى أقصى الشرق الإسلامى شرح للقارىء كيفية جموده عندما يشتد البرد ، ويتحول النهر كله إلى قطعة واحدة فيكتب عن تأثير هذا الجمود فى أهل خوارزم شارحا أعمالهم وتصرفاتهم مع الجليد يقول :

---

(١) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٢٠

«(١) فيحفر أهل خوارزم فيه آبارا بالمعاول حتى يخرقوه إلى الماء الجارى ثم يستقوا منه الماء لشربهم ويحملوه فى الجرار إلى منازلهم فلا يصل إلى المنزل إلا وقد جمد نصفه فى بواطن الجرة، فإذا استحكم جمود هذا النهر عبرت عليه القوافل والعجل بالبقر، ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق حتى رأيت الغبار يتطاير عليه كما يكون فى البوادى، ويبقى على ذلك نحو شهرين فإذا انكسرت سورة البرد تقطع قطعا كما بدأ فى أول مرة إلى أن يعود إلى حالته الأولى، وتظل السفن فى مدة جماده ناشبه فيه لا حيلة لهم فى اقتلاعها منه إلى أن يذوب، وأكثر الناس يبادرون برفعها إلى البر قبل الجماد».

٥ — إذا كتب ياقوت عن موضع ذكر من نبغ فيه من العلماء الأدباء والمشاهير مترجما لهم باختصار، لأن له كتابا فى الترجمة للأعلام، وهذا الاختصار يتضمن تاريخ الحياة وتاريخ الوفاة كما يذكر أحيانا العلوم والفنون التى تفوق فيها من يكتب عنه وإذا كان شاعرا اختار نموذجا قصيرا من شعره.

قال فى حديثه عن بلدة آمد:

«(٢) وينسب الى آمد خلق من أهل العلم من كل فن منهم أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي الأديب، كان بالبصرة يكتب بين يدى القضاة بها وله تصانيف فى الأدب مشهورة منها كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء، وكتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى وغير ذلك، ومات فى سنة ٣٧٠. وينسب إليها من المتأخرين أبو المكارم محمد بن الحسين الآمدي

---

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٩٧

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ٥٧

شاعر بغدادى مكثر مجيد، مدح جمال الدين الأصبهانى وزير الموصل، ومن شعره :

ورث قميص الليـــل ، حتى كأنـه
سليب بأنفاس الصبـــا متوشح

ورفـع منــــه الذيل صبح كأنه
وقد لاح مسح أسود اللون أجلح

ولاحت بطيـات النجوم كأنها
على كبـد الخضراء نور مفتح

ومات أبو المكارم هذا فى سنة ٥٥٢ .

لم يشر ياقوت فى مقدمة المعجم الى أنه سيذكر من نبغ من علماء وأدباء البلدان ، لذلك نراه لا يلتزم بهذا المسلك فى كل المواضع . فلما كتب عن البصرة لم يكتب عمن نسب إليها من أهل العلم والأدب واكتفى بقوله(١) .

« والمنسوبون إليها من أهل العلم لا يحصون » :

* * *

٦ — يمتاز هذا المعجم بما ذكره ياقوت من بعض القصص الخرافية والأساطير المروية التى تكشف لنا عن تفكير الناس فى هذا الوقت . وقصده من ذلك ألا يخلى كتابه من كل أطروفة ولو كانت سخيفة ليستفيد منه الجاهل. ويتفكه به العالم . ويقتبس منه الباحث فضلا عن وجود هذه الخرافات والأوهام فى الكتب المشهورة التى دونها العقلاء، وتبرأ منها

---

(١) معجم البلدان جـ ١ صـ ٤٤٠

صاحبنا فى مقدمة معجمه . يقول قبل أن يحكى بعض الأساطير عن الصين:

(١) « وهذا شىء من أخبار الصين الأقصى ذكرته كما وجدته لا أضمن صحته فإن كان صحيحا فقد ظفرت فيه بالغرض وإن كان كذبا فتعرف ماتقوله الناس » . ويحكى بعد ذلك أسطورة طويلة لا يتسع المقام لعرضها .

ومن الأساطير التى نقلها إلى كتابة تلك الأسطورة التى تتحدث عن رجال جزيرة جاسك التى تقع بالقرب من مدينة هرمز بالخليج العربى ، وهؤلاء الرجال هم جند ملك جزيرة قيس التى تبعد عن جاسك ثلاثة أيام يقول عنهم :

(٢)«وهم رجال أجلاد أكفاء لهم صبر وخبرة بالحرب فى البحر وعلاج للسفن والمراكب ليس لغيرهم . وسمعت غير واحد من جزيرة قيس يقول: أهدى إلى بعض الملوك جوار من الهند فى مراكب فرفأت تلك المراكب إلى هذه الجزيرة فخرجت الجوارى يتفسحن فاختطفهن الجن وافترشهن ، فولدن هؤلاء الذين بها . يقولون هذا لما يرون فيهم من الجلد الذى يعجز عنه غيرهم . ولقد حدثت أن الرجل منهم يسبح فى البحر أياما وأنه يجالد بالسيف وهو يسبح مجالدة من هو على الأرض » .

ونجد هنا حرص ياقوت فى أن ينسب الأسطورة إلى قائليها وهم «غير واحد من جزيرة قيس » ثم يستخدم موهبته النقدية فيبحث عن تفسير للأسطورة فيقول : يقولون هذا لما يرون فيهم من الجلد الذى يعجز عنه غيرهم .. الخ .

٧ — التزم ياقوت فى معجم البلدان بمنهج المعاينة التاريخية ، لأنه كان

---

(١) معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٤٠ .

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٩٥ .

رحالة جغرافيا يجمع مواد تآليفه عن طريق الرحلة قبل أى طريق آخر فيعتمد على المعاينة التاريخية ولمس الأشياء عند الكتابة لأن المؤلفات ربما تقع فى خطأ مقصود أو غير مقصود ولا يصححه إلا المعاينة التى تقطع قول كل خطيب ، وهذه بعض مشاهداته يحكيها كما رآها قال :

(١) « وأما بحيرية طبرية فقد رأيتها مراراً وهى كالبركة تحيط بها الجبال ويصب فيها فضلات أنهـــر عظيمة .. » ثم يقول : « ... ومدينة طبريه فى لحف الجبل مشرفة على البحيرة ماؤها عذب ليس بصادق الحلاوة ثقيل : وفى وسط هذه البحيرة حجر ناتىء يزعمون أنه قبر سليمان بن داود عليه السلام » .

ويقول فى حديثه عن شهرستان :

(٢) « رأيتها فى سنة ٦١٧ وقت هربى من خوارزم من التتر الذين وردوا وخربوا البلاد فوجدتها مدينه ليس يقربها بستنان ، ومزارعها بعيدة منها ، والرمال متصلة بها ، وقد شرع الخراب فيها ، وقد جلا أكثر أهلها من خوف التتر » .

كان صاحبنا يشاهد ويعاين ويسأل ويفتش عما استمع إليه ، ويحاول أن يجمع كل ذلك أو معظمه عندما يكتب عن موضع من المواضع .

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ٣٥٢ .

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٧٧ .

الفصل الثاني

معجم البلدان بين معجم ما استعجم وتقويم البلدان

بين معجم البلدان ومعجم ما استعجم :

سبقت الإشارة إلى أن ياقوتا الحموى ذكر فى مقدمة معجم البلدان أبا عبيد البكرى مرتين الأولى مع كتاب المسالك والممالك ، والثانية مع كتاب معجم ما استعجم .

وأخذ من الكتاب الأول ولم يطلع على الثانى بعد البحث عنه والتطلب له .

وأبو عبيد البكرى هو الوزير الفقيه أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكرى الأندلسى المعروف فى الأوساط الأدبية بأبى عبيد البكرى وأحيانا تضاف إليها « الأندلسى » .

كان من أهل اللغة والآداب الواسعة ، عارفا بمعانى الأشعار ، عالما بالأنساب والأخبار كما كان اهتمامه منصبا على اللغة بالضبط والتفسير .

لم تذكر كتب التراجم تاريخا ثابتا ولد فيه أبو عبيد ولكنها ذكرت سنة وفاته وهى سبع وثمانون وأربعمائة من الهجرة .

ولأسرة البكرى ماض عظيم فى الأفق الأندلسى بما قدموه من جهود حربية فى فتحها ، وبما شغلوه من الوظائف الكبرى فى الدولة .

كون البكرى ثقافته على كتب أبى علـى القالى وعلى أساتذة أجلاء بالأندلس .

وله مجموعة من المؤلفات منها هذا المعجم ، وكتاب المسالك والممالك الذى أخذ منه ياقوت الحموى كثيراً ،وله كتاب الإحصاء لطبقات الشعراء وكتاب اشتقاق الأسماء ، وكتاب التدريب والتهذيب فى ضروب أحوال الحروب وله كتب كثيرة غير هذه .

وكتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع يمثل مرحلة متقدمة من مراحل عمر التأليف فى معاجم البلدان ، وهو متقدم على معجم البلدان فى زمن التأليف بأكثر من قرن من الزمان .

والكتاب يحمل بعض الخصائص التى تميزه من غيره وتجعله قريباً من معجم البلدان أسلوبا ومنهجا ، لذا اخترته ليكون نموذجا لهذا الفن ومعبرا عن الكتب التى سبقت معجم البلدان ، والكتاب جدير بأن يدخل فى نطاق الموازنة مع كتاب ياقوت أو مع غيره من الكتب .

تنبه العلامة المستشرق فرديناند وستنفليد لهذا الكتاب وأدهشته مقدمته فترجمها كلها إلى الألمانية ، ونشر الكتاب لأول مرة فى مجلدين كبيرين صدر المجلد الأول منهما سنة ١٨٧٦ م والثانى سنة ١٨٧٧ م بجوتنجن من ألمانيا ، ثم طبع الكتاب فى مصر بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا فى أربعة أجزاء وذلك فى سنة ١٩٤٥ م بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

— ٢ —

إذا تصفحنا المقدمة التى عقدها البكرى لهذا الكتاب نراها طويلة جداً ، ومساحتها أوسع من مقدمة معجم البلدان وقد قسمها البكرى إلى قسمين غير متساويين الأول صغير جدا ، ولا يزيد عن أربع صفحات ، تحدث فيه عن الكتاب وسبب تأليفه ، وعن ترتيبه ، خاتما كلامه ببعض مصادر الكتاب

قال :

«(١)هذا كتاب «معجم ما استعجم» ذكرت فيه، إن شاء الله جملة ما ورد فى الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار والقرى والأمصار ، والجبال والآثار، والمياه والآبار، والدارات والحرار منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة » :

وذكر أن سبب تأليف هذا الكتاب هو خوف التصحيف والتحريف لأنه يقع كثيرا فى المؤلفات ، ويشتد خطره فى الأحاديث والأشعار ، ويضرب لذلك كثيرا من الأمثلة التى وقعت فى عصره وقبل عصره، ذاكرا أن التصحيف قد وصل إلى رواة الأحاديث قال :

(٢) « وهذا يزيد بن هارون ، على إمامته فى الحديث ، وتقدمه فى العلم، كان يصحف « جمدان » وهو جبل فى الحجاز بين قديد وعسفان من منازل بنى أسلم فيقول .

« جندان » بالنون، وذلك فى الحديث الذى يرويه العلاء عن أبى هريرة « أن رسول الله ﷺ كان يسير فى طريق مكة ؛ فمر على جبل يقال له جمدان، فقال سيروا هذا جمدان ، سبق المفردون (قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال .) الذاكرون الله كثيرا والذاكرات .

وعبارات البكرى محددة دقيقة فى هذا الجزء القصير من المقدمة لا تجد فيه حشوا ، إذ تكاد كل كلمة به أن تكون ذات غرض ووظيفة معينة فمبدأن تكلم عن سبب التأليف انتقل إلى ترتيب المعجم ؛ فقال فى الصفحة نفسها :

« وترتيب حروف هذا الكتاب ترتيب حروف أ ، ب ، ت ، ث. فأبدأ

---

(١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع جـ ١ ص ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ .

(٢) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع جـ١ ص ١ .

بالهمزة والألف نحو آره، ثم بالهمزة والباء ؛ نحو أبلى وأبان ؛ ثم بالهمزة والتاء نحو الأتم ؛ ثم الهمزة والثاء ؛ نحو الأثيل والآثابة ؛ هكذا إلى انقضاء الحروف الثمانية والعشرين » .

وفى نهاية هذا الجزء من المقدمة ذكر مصدرا واحدا أخذ منه وهو ما كتبه أبو عبيد الله عمرو بن بشر السكونى فى جبال تهامة ومحالها .

ثم أنتقل البكرى إلى القسم الثانى من المقدمة الذى يستغرق ما يقرب من خمس وثمانين صفحة من الحجم المتوسط فكتب عن جزيرة العرب وأقسامها الجغرافية تهامة والحجاز ونجد واليمن وكتب عن القبائل العربية التى استقرت فى هذه الأقسام وأرخ لتنقلاتها ووقائعها مع الاستشهاد بالحديث والشعر مبينا من كان يسكن هذه الأقاليم عندمجىء الإسلام .

وهذه المقدمة التى عقدها البكرى للجزيرة العربية مقتطعة من مادة الكتاب لأهميتها وبيان فضلها قال :

(١) « وأنا أبتدىء بذكر جزيرة العرب ؛ والأخبار عن نزولهم فيها وفى غيرها من محالهم ومنازلهم ؛ واقتطاعهم ؛ ومحل كل قبيل منها . وذكر ما اشترك فى نزوله قبيلان فأزيد . وذكر من غلب جيرانه منهم فانفرد .

وبعد أن انتهى البكرى من هذه المقدمات انتقل إلى أبواب الكتاب حسب حروف الهجاء ضابطا وشارحا للبلاد والمواضع كما وردت فى الأحاديث والأشعار .

— ٣ —

يتفق معجم ما استعجم ومعجم البلدان فى :

١ — الكتابة على نظام الحروف الهجائية. وهذان الكتابان يبدأ اسم

---

(١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ج ١ ص ٥ .

كل منهما بكلمة معجم مما يوحى بهذا الالتزام . الذى يريح القارىء فى بحثه وييسر له طريق الوصول إلى بغيته فلا يجد مشقة فى الكشف عن ضبط موضع أو بيان ماقيل فيه من أشعار وأحاديث .

ولقد التزم ياقوت فى معجم البلدان بالترتيب المعجمى الصحيح إلا فى حالات نادرة وردت على خلاف ماذكره فى المقدمة عندما قال : «والتزم ترتيب كل كلمة منه على أول الحرف وثانيه وثالثه ورابعه وإلى أى غاية بلغ ...

ففى الجزء الرابع قدم « كومح » على « كوك» بلدين وكان المفروض العكس . وعلى كل فهذه حالات نادرة ربما يكون النساخ قد وقعوا فيها بدون قصد ليبقى الكتاب على صورة فريدة فى مراعاة الترتيب، يمتاز بها عن كل الكتب المناظرة .

أما البكرى فلم يلتزم بنظام المعجم تماما لعدة أسباب .

أولها : أنه كتب عن جزيرة العرب خمسا وثمانين صفحة فى المقدمة وهذا القدر مقتطع من مادة الكتاب . وغير داخل فى ترتيبه ، لقد كتب عن تهامة فى المقدمة ولما جاء موضعها من الكتاب حسب الترتيب المعجمى قال:

(١) « تهامة بكسر أوله وقد تقدم تحديدها فى صدر الكتاب » .

وهذه المساحة التى خصصها البكرى للكتابة عن جزيرة العرب تكشف عن اهتمامه بها وحرصه على أن يورد معظم ماقيل فيها من أحاديث وأشعار، ولعل حرصه على أن يجعل الحديث عن جزيرة العرب مستقلا شاملا هو الذى جعله يسلكه فى المقدمة ولا يوزعه على أبواب المعجم. فالبكرى لم يقصد من الكتابة عن جزيرة العرب فى المقدمة إلا إعطاء هذا الأماكن مزيدا من العناية حتى يتكلم عنها بإفاضة كلاما لا يعتبره صالحا لأن يكون فى داخل المعجم من الأحاديث والأشعار والتفاصيل الكثيرة . ولو صحت وجهة النظر

---

(١) معجم ما استعجم ج ١ ص ٣٢٢ .

هذه التى يمكن أن تتوفر للبكرى مع أنه لم يشر إليها فإنها لا تعفيه من الإخلال إلى حد بعيد بنظام الترتيب المعجمى .

ثانيا : رتب البكرى معجمه الجغرافى عند التأليف على نظام حروف المعجم عن المغاربة ، الذين يتفقون مع أهل المشرق فى ترتيب الحروف حتى حرف الزاى ثم يختلفون بعده ، فيكون ترتيب المغاربة للحروف بعد الزاى على النحو التالى :

ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ى ، وأعتقد أن البكرى لا يسئل عن هذه الوجهة لأنه عاش فى الأندلس .

ثالثا : نظر البكرى فى ترتيب الكلمات إلى الحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة ولم ينظر إلى ترتيب ما بعدهما من الحروف ، وإذا كان الحرف الثانى ألفا زائدة ، أهمله، ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثالث هو الحرف الثانى ، واضطر محقق الكتاب أمام ما ذكرته آنفا إلى الغاء نظام الترتيب الذى سار عليه البكرى، وأصبح ترتيب الكتاب راجعا فى الحقيقة إلى المحقق ولكنه لم يتصرف فيما كتبه البكرى عن جزيرة العرب فى المقدمة ، وتركه كما هو حتى لا يختل شكل الكتاب تماما قال المحقق وهو الاستاذ مصطفى السقا:

« (١) ولذلك كان من عملى فى هذا المعجم أن غيرت وضع مادته ورتبتها عن حسب ترتيب حرف الهجاء فى المشرق ، وعلى ما يقتضيه نظام الفهرسة الصحيح ، وذلك بترتيب حروفها بحسب صورتها . لا بحسب جوهرها ومادتها » .

٢ — العناية بالضبط والاهتمام به ، لأن البكرى وياقوتا قصدا خدمة القارىء وحفظ أسماء الأماكن من التحريف والتصحيف وضبطها ضبطا

---

(١) معجم ما استعجم حـ ١ ص هـ :

صحيحا كما وردت فى أقوال العرب، كما تنبها إلى خطورة الاعتماد على الحركات فى الضبط وركزا على الحروف إلى جانب الحركات .

كان ياقوت يبحث ويتحرى عن الضبط الدقيق ، ويذكر أحيانا أكثر من رأى فى ضبط الكلمة الواحدة ، نرى هذا فى مواضع كثيرة منها مادة تبت يقول .

« (١) تبت : بالضم ، وكان الزمخشرى يقوله بكسر ثانية وبعض يقوله بفتح ثانية ، ورواه أبو بكر محمد بن موسى بفتح أوله وضم ثانيه مشدد فى الروايات كلها » .

كما استعان بالشعر العربى لتأكيد صحة الضبط ، وهذا وارد فى خطته لهذا المعجم يقول فى مقدمته .

« (٢) ونبذا مما قيل فيه من الأشعار فى الحنين إلى الأوطان ، الشاهدة على صحة ضبطه والاتقان » .

أما البكرى فتكثر عنايته فى تحرى الضبط الصحيح اعتمادا على الشعر العربى ، فهو يأتى بالشعر والحديث الذى ورد فيه اسم المكان الذى يتكلم عنه ، ناقلا ذلك عن الرواة الثقات، ومعتمدا على الكتب السابقة التى كتبها أصحابها بأنفسهم أو كتبها أهل الثقة الذين وثقوا فيهم ، يقول .

« (٣) أحارد : بضم الهمزة ، وبالراء والدال المهملتين . على وزن أفاعل : موضع هكذا ذكره سيبويه فى الأبنية ، وذكر معه أحامر : اسم موضع أيضا » .

---

(١) معجم البلدان جـ ٢ صـ ١٠

(٢) معجم البلدان جـ ١ صـ ١٢

(٣) معجم ما استعجم جـ ١ صـ ١١١

وإذا كان البكرى وياقوت يهتمان اهتماما كبيرا بالضبط ، فإن ياقوتا يتفوق بتحديد وتعيين المكان بعد ضبطه فى كل الأحوال،ولكن البكرى لا يعطى هذه المسألة اهتماما فإذا نقل من كتاب ركز على الضبط لا على التحديد يقول .

« (١) إزميم : بكسر أوله على وزن إفعيل : موضع ذكره ابن دريد ولم يحدده » .

ويقول عن مادة أنف :

« (٢) أنف : بفتح الهمزة ، على لفظ أنف الإنسان : بلد يلى ديار بنى سليم من ديار هزيل » فجاءت الثانية محددة دون الأولى .

٣ — وقد ذكرت عند حديثى عن مقدمة معجم البلدان ماسجله ياقوت من أسماء المؤلفين الذين سبقوه ، ومنهم البكرى ، وذكرت طائفة من الكتب التى أعتمد عليها وأشار إليها فى هذه المقدمة .

وعند تصفح الكتاب وجدته يشير فى صدر صفحاته إلى المراجع التى أخذ منها ذاكرا معها أصحابها غالبا يقول :

« هكذا وجدناه مضبوطا فى الجمهرة عن ابن الكلبى » ج ٤ ص ٢٧٣

« قال ابن الكلبى فى كتاب الافتراق » ج ٤ ص ٢١٢

ويذكر أحيانا الكتب بدون مؤلفيها يقول :

« وفى كتاب متعة الأديب » ج ١ ص ١٥٤

« كما ينبه فى بعض المواضع عن المؤلفين دون الكتب ، يقول :

« وقال الأصمعى » ج ١ ص ١٦٦

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٧

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٠١

أما البكرى فقد أشار فى مقدمة كتابه إلى مرجع واحد وهو ما كتبه أبو عبيد الله عمرو بن بشر السكونى فى جبال تهامة ومحالها .

إن كتب الجغرافية التى سبقت معجم ما استعجم كثيرة،منها على سبيل المثال كتاب البلدان لليعقوبى ومروج الذهب للمسعودى،أما كتاب الجغرافية الذى كتب عن جزيرة العرب وتقدم فى زمن التأليف على معجم ما استعجم فهو كتاب « صفة جزيرة العرب » لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ابن يوسف بن داود الهمدانى اليمنى المعروف بابن الحائك .

قال الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته لتحقيق معجم ما استعجم عن كتاب « صفة جزيرة العرب » .

« (١) اعتمد فيه (أى مؤلفه) على مشاهداته الخاصة ، وما عاينه أثناء رحلاته فى جزيرة العرب ، لا على النقل من الكتب ، لكنه مع هذه المزية الظاهرة لا يبلغ مبلغ معجم البكرى ، لشدة إيجازه وقلة تفاصيله ، إلا فيما يخص جغرافية بلاده ، وهو القسم الجنوبى من جزيرة العرب » .

أخذ البكرى من هذا الكتاب ومع ذلك لم يشر إليه فى المقدمة كما أخذ من أمهات الكتب الأخرى للأصمعى ولأبى حاتم السجستانى ولابن دريد ونفطويه وابن السكيت ، وغيرهم ، وأشار إلى من نقل عنهم فى أبواب الكتاب المختلفة دون أن يشير إلى مؤلفاتهم أو كتبهم وهذا نموذج آخر من كتابته يوضح هذا المسلك ، قال .

« (٢) الأندرين : بفتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وفتح الدال المهملة ، وكسر الراء المهملة ، على لفظ الجمع : قرية بالشام ، وقال الطوسى : هى قرية من قرى الجزيرة . قال عمرو بن كلثوم .

---

(١) معجم ما استعجم ج ١ ص ج .

(٢) معجم ما استعجم ج ١ ص ١٩٨

ألا هبي بصحنك فأصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وقال النابغة يصف عيرا:

أقب كعقد الأندرى معقرب حزابية قد كدحته المساجل

أراد طاقة عقده الأندرى.

وقال امرؤ القيس بن حجر:

فأصدرها بادى النواجذ قارح أقب ككر الأندرى أو بالأندرينا

مرج صراع: هناك أيضا. وقال الخليل: وقد أنشد بيت عمرو: الأندرون جمع أندرى، وهم الفتيان يجتمعون فى مواضع شتى».

فلم يقل لنا البكرى اسم المرجع الذى أخذ منه مقولة الطوسى أو الخليل. لقد تفوق معجم البلدان فى هذه الناحية، وبرز صاحبه رائدا فى هذا المجال فلا يوجد أديب جغرافى أطلع على مؤلفات تصل إلى ما أطلع عليه، وهو لا يبارى فى تعداد ونقد من سبقوه فى الكتابة عن البلدان والعمران؛ وأكاد أجزم بندرة وجود كتاب يشبه معجم البلدان فى ذكر المراجع والمصادر.

٤ — سيطرة النزعة الدينية والعربية على هذين المعجمين، فالبكرى جعل معجمه فى ضبط أقاليم الجزيرة العربية والبلدان المجاورة لها؛ وجعل الجزء الأكبر من مقدمته للكتابة عن هذه الجزيرة؛ كما أنه أرخ لتنقلات القبائل العربية؛ وجعل الشعر العربى عونا له فى ضبط المواضع والأمكنة؛ كما اعتمد فى الضبط على كتب اللغة الصحيحة وعلى الرواة الثقات العدول.

وتبدو النزعة الدينية واضحة عندما يتكلم عن تفسير آية، أو عن الحديث عن غزوة للرسول أو قبر من قبور أصحابه، عند ذلك ينسى البكرى أنه يكتب عن ضبط مكان لا يستغرق أكثر من سطرين فيكتب صفحة أو صفحتين.

ولا تقل هذه النزعة عند ياقوت عن البكرى ، فلقد ألف كتابه استجابة لآية من كلام الله .

وهو يؤرخ لأنبياء الله ورسله من خلال كتابته عن المدن التى أقاموا فيها أو نزلوا بها ، ولما كتب عن بيت المقدس قال : « الحمد لله الذى وفقنى لزيارته » . وفى كتابته عن مكة يذكر أسماءها التى وردت فى القرآن وفى غيره ، ويتوسع كثيرا فى الكتابة عن أماكن الحج كعرفة والكعبة ومنى .

ينسى ياقوت أنه رومى وتسرى فى دمه روح العروبة التى اكتسبها فى طفولته فيكتب بإفاضة أيضا عن المدن التى أحدثها العرب كالبصرة والكوفة وبغداد والفسطاط .

وهذان الكتابان نجد فيهما — إلى جانب ضبط المواضع — اللغة والحديث والتفسير والفقه والسيرة النبوية الشريفة فيكشفان بذلك عن نزعة عربية دينية تفرض نفسها على صفحاتهما .

أما وجوه الاختلاف فيمكن أن نلاحظها فيما يلى :

١ — عندما نشر وستنفيلد كتاب البكرى جعله فى جزءين ، ثم نشر معجم ياقوت وجعله فى ستة أجزاء مما يوحى بعدم التقارب بين حجم المعجمين ولو نظرنا الآن فى طبعاتهما الحديثة لقلنا إن معجم البكرى ربما لا يصل حجم الكتابة فيه إلى ثلث ما فى معجم ياقوت ، لأن البكرى جعل معجمه معجما خاصا بجزيرة العرب بينما جعل ياقوت معجمه عاما يتناول كل البلاد المعروفة على زمنه كما أن ما يكتب عن بلدة عند البكرى لا يوازن من حيث المقدار بما يكتب عنها عند ياقوت .

ففى باب الهمزة والسين : كتب ياقوت فيه عن مائة وسبعة مواضع فى خمس وعشرين صفحة من القطع الكبير بينما كتب البكرى فى هذا الباب ست صفحات من القطع المتوسط وكتب فيها عن تسعة عشر موضعا .

وكتب ياقوت فى هذا الباب عن مائة موضع ليست موجودة فى معجم البكرى ، وكتب البكرى عن سبعة مواضع ليست موجودة فى معجم ياقوت ، وبالتالى اشترك الاثنان فى الكتابة عن اثنى عشر موضعا ، وهذه هى المواضع السبعة التى كتب عنها البكرى، ولم توجد فى معجم البلدان .

«أسبط ، إستارة ، الأسماء ، الأسبق ، أسنمة ، أسودة ، أمى» وهى بالجزيرة العربية.

وإذا كان معجم البلدان قد زاد فى هذا الباب بمائة موضع . فلأنه معجم عام فى البلدان، ولأن صاحبه ارتحل إلى خراسان وخوارزم ومصر والشام وغيرها . فتمكن من أن يخرج هذه الموسوعة الكبيرة .

لم يكتب البكرى فى هذا الباب (الهمزة والسين) عن أسيوط وأسوان والأسكندريه من بلاد مصر . ولم يكتب عن «إساف» صنم بمكة ولا عن «أسبذ» قرية بالبحرين . ولا عن «إستجة» اسم لكورة بالأندلس .

كتب البكرى وياقوت عن «إسبيل» .

قال البكرى(١) : «إسبيل» بكسر أوله . وإسكان ثانيه . وكسر الباء المعجمة بواحدة على وزن إفعيل . نحو إكليل . وهو بلد باليمن «ثم يروى بيتا من الشعر . وينقل عن أبى عبيده قوله : «اسبيل : جبل باليمن» وأنشد للنمر بن تولب بيتين من الشعر :

وقال ياقوت(٢) : «إسبيل : بالكسر ثم السكون . وكسر الباء الموحدة

---

(١) معجم ما استعجم جـ ١ ص ١٤٧

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ١٧٣

وياء ولام : حصن بأقصى اليمن . وقيل ؛ حصن وراء النجير . قال الشاعر يصف حمارا وحشيا :

بإسبيل كأن بها برهة من الدهر ، لم ينبحنه الكلاب

وهذه صفة جبل لا حصن ،وينقل عن ابن الدمينة وعن مسلم بن جندب الهذلى . كما يذكر قصيدة من عشرة أبيات لمحمد بن عبد الله النميرى ذاكرا قصتها معتمدا على مسلم بن جندب الهذلى فى روايتها .

واشترك ياقوت مع البكرى فى الكتابة عن « أسحمان » وزاد حجم ما كتبه البكرى عما كتبه ياقوت فى هذا الموضع .

كتب البكرى ما يقرب من عشرة سطور . بينما كتب ياقوت سطرين لضبط المادة وبيان موقعها .

وأمثال هذا الوضع الذى كتب فيه البكرى أكثر مما كتب ياقوت نادر جدا .

وفى جزيرة العرب نرى البكرى يكتب عن مواضع لا يتطرق اليها ياقوت بالبحث ، والعكس صحيح كما سبق ، للتدليل على ذلك ، وفى غير جزيرة العرب لانرى للبكرى أى أثر لأن معجمه خاص بجزيرة العرب وتخصيص معجم ما استعجم بجزيرة العرب يجعله خفيف الحمل سريع الفائدة .

٢ — التزم البكرى بنسبة الأبيات إلى قائليها . فإلى جانب الأمثلة السابقة التى مرت له يقول فى مادة أجا(١) :

« . . . . قال أمرؤ القيس فهمزه وأنثه :

أبت أجأ أن تسلم العام جارها فمن شاء فلينهض لها من مقاتل

(١) معجم ما استعجم ج ١ ص ١٠٩

وفى مادة تبوك قال :

« (١) ... وقال بجير بن بجرة الطائى :

تبارك سائق البقرات إنى   رأيت الله يهدى كل هاد

فمن يك حائدا عن ذى تبوك   فإنا قـد أمرنا بالجهاد

ولكن ياقوتا لا يلتزم فى معجمه كثيرا بنسبة الأبيات إلى قائليها فنراه يقول كثيرا :

« وقال آخر ... » أو « وقال الشاعر » دون أن يحدد الاسم ولم يكن مرجع ذلك إلى عدم معرفتـه بقائل البيت ، وإنما لأن ذلك منهجه فى كتابته .

كتب عن بلاد ما وراء النهر يقول :

« (٢) وبقيت مثل ما قال بعضهم »

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وفى كتابته عن مكة نقرأ له :

«(٣) يقول عمرو بن مصاص الأصغر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر

---

(١) معجم استعجم حـ١ صـ٣٠٢

(٢) معجم البلدان حـ٥ صـ٤٧

(٣) معجم البلدان حـ٥ صـ١٨٦

فجاء البيت منسوبا إلى صاحبه مرة وغير منسوب مرة أخرى . وبذلك تأكد أن ياقوتا لم يكن حريصا كل الحرص على أن ينسب الأبيات إلى قائليها فى معجم البلدان .

٣ — يمتاز معجم البلدان بالنزعة الأدبية التى تسرى فيه، وتسيطر على صاحبه ، ففى الشعر يأتى ياقوت بالقصيدة الطويلة فيقدم لها ويذكر مناسبتها وإذا كتب عن موضع ذكر معظم ما قيل فيه من مدح وهجاء .

إن هذا المعجم ديوان كبير من الشعر الذى يؤرخ للمواضع والأماكن بل لا نكاد نرى شاعرا عربيا عاش حتى عصر ياقوت وليس له شعر فى معجم البلدان ، ولا يقتصر ما فيه من شعر عن البلدان ولكنه يشتمل على بعض ما قاله العرب فى فنون الشعر المختلفة ، على عكس البكرى الذى يأتى بالبيت أو بالبيتين ليستشهد بهما على بيان الضبط وتحديده .

ونقرأ فى معجم البلدن كثيرا من القصص الأدبية والحكايات الغريبة التى أشرنا إليها قبل ذلك عند الحديث عن ملامحه ، ولا نجد فى معجم ما استعجم مثل ذلك .

٤ — يمتاز معجم البلدان بنزعته التاريخية ، فتكلم عن أيام العرب فى الجاهلية ، وعن الفتوح الإسلامية والمعارك الحربية فى الإسلام كصفين والجمل وغيرها . وفى هذه الحروب يكتب صاحبه عن كل ما يتعلق بها من عدد الجيوش والقتلى ، وبيان الغنائم والأسرى ، وغيرها .

وتمتد هذه النزعة إلى ذكر رجالات الأدب والحديث والتفسير والفقه الذين ظهروا ونبغوا فى الموضع الذى يكتب عنه ، وتكون إشارة ياقوت عن الأعلام باختصار ، لأن له كتابا فى الترجمة للأدباء ، حتى لا يكون كلامه معادا مكررا ، وقلما نجد الاهتمام بالتاريخ عند البكرى .

٥ — يتفوق معجم البلدان على معجم البكرى من الناحية الجغرافية ،

ففى كل موضع يذكر البلاد والأمكنة الى تجاوره ، كما يذكر المسافة التى تقع بها ، ويذكر الأطوال والمسافات ، وهى أحد الأعمدة الرئيسية فى صرح الكتابة الجغرافية قال عن مدينة مرو :

(١)« وبين مرو ونيسابور سبعون فرسخا ، ومنها إلى سرخس ثلاثون فرسخا ، وإلى بلخ مائة واثنان وعشرون فرسخا .. »

إن ياقوتا كاتب جغرافى من الطراز الأول ، يتناول فى كتابته كل المسائل التى تهم الجغرافيين . ونراه يكتب عن « ماوراء النهر » فيقدم صورة لهذا الإقليم تشتمل على تحديده وضبطه وذكر مياهه ودوابه ولحومه ومعادنه ومسكه وأوباره وفواكهه وملبوسه ورقيقه ، ويكتب عن طبيعة أهله وبأسهم وشوكتهم فى الإسلام ، ويصور حالتهم بعد هجوم التتار عليهم .

٦ — يعبر معجم البلدان عن عصره بما ذكر فيه من القصص والأساطير التى كان ياقوت يتخيرها بدقة وينقدها بعناية ، ويذكر وجهة نظره فيها ، ولقد استشهدت بمثال منها عند الكلام عن ملامح الكتاب .

ولا يمكن أن نعتبر ما ذكره ياقوت بصدد ذلك حشوا وفضولا ، لأننى أعرف عنه حبه للإيجاز والاختصار . فى كتابته عن بيت المقدس وعجائبه يقول :

(٢)« ... وقد وصفها القدماء بصفات إذا استقصيتها أملت القارىء »
ثم يقول فى الموضع نفسه :

(٣)« ... وليس كل ما أجده أكتبه ، ولو فعلت ذلك لم يتسع لى زمانى »

---

(١) معجم البلدان حـ٥ صـ١١٣
(٢) معجم البلدان حـ٥ صـ١٦٨
(٣) معجم البلدان حـ٥ صـ١٧١

وهاتان العبارتان المحددتان تكشفان بوضوح أن صاحبنا كان ينتقي الأخبار، ولا يكتب إلا ما يتصل بالموضوع، ولم يكن حاطب ليل يجمع في كتابه كل ما ينقله عن الآخرين، بل كان مدققا ذواقة يتحسس مشاعر القراء وأعين الباحثين، ولم يهتم البكري بمثل هذه الأشياء.

٧ — يمتاز معجم البلدان بمنهج المعاينة التاريخية الذي تحدثنا عنه قبل ذلك كأحد ملامح هذا المعجم.

فياقوت الحموي يعتمد على رؤية ومشاهدة الأماكن التي يكتب عنها ويضيف إلى رؤيته السؤال والاستفسار من أهل هذه الأماكن؛ ثم يلجأ إلى المؤلفات أخيرا في الاستعانة بها على الأماكن التي لم تصل إليها قدماه أو لاستكمال ما شاهده وعاينه في البلاد التي زارها وكتب عنها.

فالمدن والقرى التي ارتحل إليها في إربل وسنجار وبغـــداد وعمان وحلب وبيت المقدس ومصر ودمشق ومرو ونيسابور وخوارزم وغيرها يكتب عنها أفضل مما يكتب عن غيرها من البلاد التي لم يشاهدها؛ واعتماد ياقوت على المشاهدة والمعاينة في الكتابة الجغرافية يجعل كتابه أفضل وأعظم وأصح من المؤلفات التي كتبها أصحابها اعتمادا على الكتب التي تكون في بعض الأحيان عرضة لضياع الحقيقـــة على أيدي الوراقين والنساخين.

أما البكري فقد اعتمد على القراءة فقط في تأليف معجمه وعاش في الأندلس؛ ولم يعاين المواضع التي كتب عنها في المشرق؛ وارتحلت إليه الكتب ولم يرحل إلى بلدان الجزيرة العربية التي كتب عنها.

بين معجم البلدان وتقويم البلدان

— ١ —

سبقت الإشارة إلى أن القرن السادس قد شهد انفصال الجغرافية عن أدب الرحلات ؛ وذكرت أن كتاب ياقوت الحموى « معجم البلدان » لا يخضع لهذا الانقسام لأنه كتاب فى أدب الرحلة والجغرافية والتاريخ واللغة والأنساب . الخ .

وقد جاء بعد ياقوت من ألف فى علوم الجغرافية التى تخلو من الملامح الأدبية ؛ ومن هؤلاء أبو الفداء صاحب كتاب تقويم البلدان وهو :

عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبى الفداء صاحب حماة وقد ولد أبو الفداء فى جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وستمائة ؛ وحفظ القرآن الكريم ؛ وبرع فى الفقه والأصول والتاريخ والأدب، وصار من جملة أمراء دمشق .

تولى سلطنة حماة من الملك الناصر بن قلاون ؛ ولقب بالملك المؤيد .

كان أبو الفداء كثير التنقل بين مصر والشام فكان يخرج من حماة ومعه أنواع من الهدايا والتحف يحملها إلى مقر الملك الناصر محمد بن قلاوون بدمشق وينتقل إلى القاهرة ؛ ثم يخرج منها إلى مقر سلطنته بحماة .

وهو أديب مثقف ثقافة عميقة فى كل أنواع العلوم حتى قيل إن علمه لم يصل إليه ملك من ملوك المسلمين ؛ تقرب منه الشعراء والأدباء لحبه للشعر وإجازته عليه بالجوائز الطيبة ؛ ومن الشعراء الذين لازموه وتقربوا منه ومدحوه الأديب الشاعر جمال الدين محمد بن نباتة الذى أقام معه فى حماة .

توفى أبو الفداء فى جمادى الأولى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة من الهجرة .

ومن مؤلفاته : تاريخه المسمى « المختصر فى تاريخ البشر » وله « نظم الحاوى فى الفقه » و « كتاب الموازين» وأخيرا . « تقويم البلدان » .

رثاه ابن نباتة بعدة مراثى يقول فى إحداها :

كأن المديح له غرس بدولته
فأحسن الله للشعر العزا فيه

يا آل أيوب صبرا إن أرثكم
من اسم أيوب صبر كان ينجيه

هى المنايا على الأقوام دائرة كل سيأتيه منها دور ساقيه

— ٢ —

وكتاب تقويم البلدان الذى نوازن بينه وبين معجم البلدان مطبوع فى جزء واحد فى باريس بدار الطباعة السلطانية ، وقد اعتنى بتصحيحه وطبعه الفرنسيان « رنود » و « البارون ملك كوكين ديسلان » .

طبع الكتاب بخط كبير مع مقدمة باللغة الفرنسية عن أبى الفداء ومؤلفاته وطائفة من الأشعار المختارة المطبوطة لابن نباتة وغيره من الشعراء المقربين عند أبى الفداء .

ذكر الناشران فى وسط مقدمتهما عن الكتاب هذه العبارة لأبى الفداء يحدد فيها السنة التى انتهى فيها من تأليف كتابه :

« هذا آخر ما أوردناه مما صح لدينا من أخبار البلاد على قدر الطاقة » وكان الفراغ من تبييضه فى شعبان سنة إحدى وعشرين وسبعمائه هجرية على صاحبها أفضل الصلاة .

وكتاب تقويم البلدان كتاب جغرافى يشرح بالضبط والتحديد بلدان العالم الإسلامى وما جاورها فى القرن الثامن الهجرى .

عقد أبو الفداء مقدمة طويلة تقع فى خمس وسبعين صفحة من ورق الكتاب ذى القطع الكبير .

ونقد فى بدايتها الكتب التى وقف عليها فى هذا الفن ، وبدأ بكتاب ابن حوقل فى ذكر أوصاف البلاد وقال : إنه لم يضبط الأطوال ولا العروض .

كما وجه هذا النقد أيضا إلى كتاب الشريف الإدريسى فى الممالك والمسالك وكتاب ابن خرداذبة وإلى كل الكتب التى حذت حذو كتاب ابن حوقل فى عدم التعرض إلى تحقيق الأسماء والأطوال والعروض .

وجد أبو الفداء هذا العيب فى الكتب السابقة فوضع كتابا جديدا فى مادته العلمية ، وفى عنايته بالضبط ، وتحقيقه للأسماء ، وذكره للأطوال والعروض . ولقد أستفاد من هذه الكتب عند تأليف كتابه مع أنه لم يرضى عنها يقول فى ذلك :

« (١) ولما وقفنا على ذلك وتأملناه جمعنا فى هذا المختصر ما تفرق فى الكتب المذكورة من غير أن ندعى الإحاطة بجميع البلاد أو بغالبها فإن ذلك أمر لامطمع فى الإحاطة به فإن جميع الكتب المؤلفة فى هذا الفن لا تشتمل إلا على القليل إلى الغاية ، فإن إقليم الصين مع عظمته أو كثرة مدنه لم يقع إلينا من أخباره إلا الشاذ النادر ، وهو مع ذلك غير محقق ، وكذلك إقليم الهند فإن الذى وصل إلينا من أخباره مضطرب وهو غير محقق ... إلخ .

---

(١) تقويم البلدان ص ٢ طبعة دار الطباعة السلطانية بباريس .

ويقول فى المقدمة عن تسمية الكتاب :

(١) « وسمينا كتابنا هذا تقويم البلدان »

وكتب فى المقدمة أيضا عن الأقاليم السبعة وحدودها التى ترجع إلى القرب أو البعد من خط الاستواء .

وهذه الأقاليم هى : الهند ، الحجاز ، مصر ، بابل ، الصين ، الروم ، يأجوج . وهى التى أخذت القدر الأكبر من مقدمة تقويم البلدان ، كما كتب عنها ياقوت فى الباب الثانى من الأبواب الخمسة الملحقة بمقدمة معجم البلدان .

تبرأ أبو الفداء من الأخطاء التى قد توجد فى كتابه حول الأطوال والعروض ، لأن ذلك — لو وقع — راجع إلى من نقل عنهم وهم الذين اختلفت أقوالهم واضطربت مقاييسهم قال :

(٢) « وينبغى أن تعلم أن غالب ماذكر من أطوال البلاد وعرضها غير صحيح وفيه غلط كبير ... ثم يقول : وربما تجد فى كتابنا هذا طول بلد بعينه مختلفا ، وكذلك عرضه والعذر فيه أنى نقلت الأطوال والعروض من القانون للبيرونى ، وكتاب الأطوال والعروض للفرس ومن كتاب أبى سعيد المغربى ، ومن كتاب رسم الربع المعمور وهو كتاب نقل من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية وعرب للمأمون ، وهذه هى الكتب المعتمد عليها فى هذا الفن ، وقلما تتفق هـــذه الكتب على عرض مكان بعينه أو طوله بل لابد من الاختلاف فيها ، وقد نقلنا نحن بجموع هذه الكتب وهى غير متقنة فحصل فى كتابنا اختلاف فى الأطوال والعروض فالعذر فيه ماشرحناه » .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٣

(٢) تقويم البلدان ص ٧٣

لقد ترك أبو الفـــداء نفسه على سجيتها فتناول بإفاضة كل المسائل الجغرافية التى تتعلق بكل الأقاليم مثل الجبال والبحار والأنهار والموانى والثغور .

بعد هذه المقدمة يبدأ الكتاب فيسقمه إلى عدة أقاليم ، ويكتب عن كل أقليم مقالة فى عدد من الصفحات يذكر فيها وصفا عاما للإقليم وأهم مدنه وقراه وقد تطول المقالة وقد تقصر حسب أهمية الإقليم الذى يكتب عنه .

ثم يتبع المقالة بذكر الجداول الجغرافية التى يحدد فيها أماكن وبلدان الإقليم الذى يكتب عنه مع بيان الأطوال وضبط الأسماء وذكر الأوصاف والأخبار العامة .

بدأ أبو الفداء بجزيرة العرب فذكر أخبارها فى تسع صفحات . وهذه الأخبار تتعلق بالأطوال والجبال ، والدور ، والأماكن المشهورة ، والجداول والعيون والآبار .. الخ قال بالنقل عن المدائنى :

« (١) جزيرة العرب خمسة أقسام تهامة ونجد وحجاز وعروض ويمن فأما التهامة فهى الناحية الجنوبية من الحجاز وأما نجد فهى الناحية التى بين الحجاز والعراق . وأما الحجاز فهى جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام وفيه المدينة وعمان . وأما العروض فهى اليمامة إلى البحرين قال وإنما سمى الحجاز حجازا لأنه يحجز بين نجد وتهامة .

ثم يكتب أبو الفداء عن المواضع المشهورة بديار العرب من خلال كلامه عن جزيرتهم قال :

(٢) « ومن المواضع المشهورة بديار العرب العقيق قال فى المشترك : وهو اسم لعدة أودية .

---

(١) تقويم البلدان ص ١٤٦ (٢) المرجع السابق ص ٧٩

ثم يذكر هذه الأودية . ولايكتفى بما نقله عن المدائنى فى جزيرةالعرب بل ينقل عن ياقوت وابن حوقل . ويواصل كتابته على هذا النهج حتى إذا انتهى من مقالته عن جزيرة العرب اتبعها بذكر جداولها الجغرافية . فكتب فيها عن اثنين وأربعين موضعا . وبدأ بمكة فالمدينة فأيله فدين إلى أن ينتهى ببلاد مهرة .

ومن مدن الجزيره العربية صنعاء كتب عنها يقول :

(١)«وصنعاء من أعظم مدن اليمن تشبه دمشق لكثرة مياهها وأشجارها وهى شرقى عدن بشمال فى الجنوب . وهى معتدلة الهواء وتتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف وهى كانت كرسى ملوك اليمن فى القديم . وبها تل عظيم يعرف بغمدان كان قصر ملوك اليمن قال ابن سعيد : وبينها وبين عدن مدينه جبلة قال فى العزيزى مدينه صنعاء مدينه جليلة وهى قصبة اليمن وبها أسواق جليلة ومتاجر كثيرة» .

لقد سلك أبو الفداء هذا المنهج فى كتابته الجغرافية عن البلدان وتقويمها وبعد أن انتهى من ذكر جزيرة العـــــرب كتب عن ديار مصر مقالة فى سبع صفحات . ثم أتبعها بالجداول الجغرافية التى ذكر فيها أوصاف ثمانية وعشرين موضعا بدأها بقفط ثم قوص وختمها بعيذاب .

كتب عن دمياط وهى من مدن مصر . وتحدث عن إقليمها وأطوالها وعروضها ثم ذكر أوصافها وأخبارها العامة قال :

---

(١) المرجع السابق ص ٩٥

« (١) ودمياط كانت مدينة مسورة على البحر عند مصب النيل الشرقى ثم خربت وبنى بالقرب منها بليدة تسمى المنشية ، وهى مدينة ذات أسواق وحمامات، وخربت دمياط فى سنة ثمان وأربعين وستمائة، وكانت أسوارها من عمارة المتوكل الخليفة العباسى . وكان سبب تخريبها ما قاساه المسلمون عليها من الشدة مرة بعد أخرى بسبب قصة الفرنج إياها بجموعهم مرة بعد أخرى ، إذا سار السائر مع الساحل من دمياط مغرباً ينتهى إلى البرلس ثم إلى نستروه ثم إلى رشيد ثم إلى الإسكندرية على النيل وذلك مقدار مسافة خمسة أيام بالتقريب » .

تناول أبو الفداء أقاليم الأرض يشرحها ويضبطها فى عبارة واضحة وبأسلوب علمى دقيق محدد بدون حشو أو فضول.

ولم يلتزم بمنهج معين فى ترتيب الأقاليم أو المواضع والأمكنة من خلال الجداول الجغرافية التى أشرت إليها .

— ٣ —

يتفق معجم البلدان مع تقويم البلدان فى :

١ — الإهتمام بضبط المواضع والبلدان والبحار والأنهار والجبال وماعداها ، لأن هذا هو موضوع الكتابين .

وأبو الفداء يذكر وجها واحداً لضبط الموضع بينما يذكر ياقوت أكثر من وجه مع ذكر من اعتمد عليهم فى صحـــة الضبط واتقانه . كما اتفق الكتابان أيضاً فى الضبط بالحروف إلى جانب الحركات تحـرزا من التحريف الذى يفسد التأليف .

---

(١) تقويم البلدان ص ١١٧

٢ — تناول الكتابان كل البلاد بالضبط والشرح وذكر الخصائص العامة على عصريهما، فالأول معجم البلدان والثانى تقويم لها ، ولكن معجم البلدان أكثر استيعابا وإحاطة من تقويم البلدان ، فهذا الأخير لا يتطرق إلى القرى الصغيرة وما عداها من القبور والمساجد والأديرة التى يتوسع فيها معجم البلدان توسعاً ملحوظاً، ولهذا كان تقويم البلدان لا يصل إلى خمس معجم البلدان حجما .

إن المواضع التى كتب عنها فى تقويم البلدان تعتبر قليلة بالنسبة لما كتب فى معجم البلدان الذى يعتبر اوسع معجم عام فى البلدان ، فتوجد به مئات من المواضع التى لم يأت لها ذكر فى تقويم البلدان : ومع ذلك فإن تقويم البلدان به بعض المواضع القليلة النادرة التى لا توجد فى معجم البلدان وهى غالبا ما تكون فى الأماكن التى لم يذهب إليها ياقوت ولم يعاينها كبلاد السودان وجنوب أفريقية .

كتب أبو الفداء مقالة عن الجانب الجنوبى من الأرض ، وهو بلاد السودان حسب تعبيره وذكر من مواضع هذا الإقليم واحداً وعشرين موضعاً، ولم يأت بعضها بمعجم البلدان مثل مدينة «بريسا» قال عنها أبو الفداء بالنقل عن ابن سعيد «وهى على شمالى نيل غانة» وسحرته من أجناس الحبشة، وبعض مدن هذا الإقليم التى ذكرها أبو الفداء جاءت بمعجم البلدان مثل كوكو التى قال عنها ياقوت :

«(١) كوكو : وهو اسم أمة وبلاد من السودان ».

ومن المواضع التى اشترك معجم البلدان وتقويم البلدان فى الكتابة عنها : زيلع .

---

(١) معجم البلدان ج٤ ص٤٩٥

كتب عنها أبو الفداء بالنقل عن ابن سعيد المغربى الذى كان معاصراً لياقوت ونقل عنه أبو الفداء كثيراً قال :

« (١) وزيلع مدينة مشهورة من مدن الحبشة وأهلها مسلمون وهى على ركن من البحر » .

وكتب عنها ياقوت فقال :

« (٢) زيلع بفتح أوله وسكون ثانيه ، وفتح اللام وآخره عين مهملة : هم جيل من السودان فى طرف أرض الحبشة . وهم مسلمون . وأرضهم تعرف بالزيلع » .

ثم يقول : ومن جزائر اليمن جزيرة زيلع ، ويقول : وزيلع بالعين المهملة قرية على ساحل البحر من ناحية الحبشة » .

ويحكى عن الشيخ وليد البصرى بعض الحكايات الطريفة التى يتبعها البربر الذين يقطنون بين بلاد الزنج وبلاد الحبش ... الخ .

ومن هذا المثال نلاحظ أن معجم البلدان يكتب عن الموضع أكثر مما يكتب عنه فى تقويم البلدان فأبو الفداء يكتب عن المواضع سطراً أو سطرين أو ثلاثة من خلال الجداول الجغرافية المحددة بينما يكتب ياقوت عن الموضع من سطر إلى صفحة إلى اثنتى عشرة صفحة من القطع الكبير .

---

(١) تقويم البلدان ص ١٦١

(٢) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٦٤

٣ — الإهتمام بذكر الأطوال والعروض :

لقد سبق أن ذكرت أن هذه الخاصية يمتاز بها معجم البلدان على معجم ما استعجم ولكن تقويم البلدان يهتم بهذه الناحية، لأنه يمثل الاتجاه الجغرافى الخالص، وإن كان أبو الفداء قد حذرنا من أخطاء ربما تقع فى كتابه حول الأطوال والعروض والمسافات والأبعاد لأنه اعتمد على كتب السابقين التى تضاربت فى ذكرها .

٤ — الإهتمام بذكر المراجع فى المقدمة والمتن :

لقد ذكر أبو الفداء فى مقدمته معظم الكتب التى اعتمد عليها، ونقدها وذكر عيوبها، وكلها كتب جغرافية خالية من الصبغة الأدبية، فهو مثلا ينقل عن كتاب «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» لياقوت، ويعتمد غالباً فى الضبط وتحديد المواضع نجد ذلك فى كثير من الصفحات[1] يقول فى اعتماده عليه فى ضبط زويلة :

[2] «من المشترك بفتح الزاى المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت ولام وهاء».

وبمراجعة هذا الضبط فى المشترك تبين أن أبا الفداء لا ينقل كلام ياقوت كما هو ، بل يضيف إليه ويتصرف فيه قال : ياقوت فى ضبط هذه الكلمة :

---

(١) مثل (الصفحات ٩٠—٩٦— ٩٧— ١٢٩—١٤١ إلخ) .

(٢) تقويم البلدان ص ١٤٦

«(١) بفتح الزاى وكسر الواو وياء مثناة من تحتها ساكنة» .

وفى متن تقويم البلدان نرى أبا الفداء ينقل عن ابن سعيد والبيرونى وغيرهما ويذكر مع كل علم منهم كتابه غالباً .

وياقوت يلتزم بهـــذا المنهج فى معجمه كما سبق أن ذكرت ، ولكنه يتفوق على أبى الفداء فى هذه الناحية فهو يذكر المؤلف والكتاب ولا يسقط أحدهما إلا نادراً .

ففى الجزء الخامس من معجم البلدان وفى مادة الهزم يقول :

«(٢) الهزم : بالفتح ثم السكون ، والهزم : ما اطمأن من الأرض» جرى فى هذا المكان بحث وتفتيش وسؤال وقد أقتضى أن أذكره هنا (وينقل فى كتابته عن هذه المـادة عن معجم الطبرانى وكتاب الصحابة لأبى نعيم الحافظ وكتاب معرفة الصحابة لأبى عبد الله محمد بن اسحاق بن محمد ابن يحى بن مندة . وعن كتاب الاستيعاب لابن عبد البر . وكتاب الآثار لأحمد بن الحسين البيهقى ويختم هذه القائمة من المراجع المقرونة بأصحابها فى موضع واحد قائلا :

((٣) ثم قرأت فى كتاب الروض الأنف الذى ألفه عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى فى شرح سيرة النبى ﷺ) .

---

(١) المشترك وضعاً والمفترق صقعا ص ٢٣٦

(٢) معجم البلدان حـ ٥ صـ ٤٠٤

(٣) المراجع السابق حـ ٥ صـ ٤٠٥

— ٤ —

أما وجوه الإختلاف فنلاحظهما فيما يأتى : —

١ — إن معجم البلدان كتاب جغرافى عام وكتاب فى الأدب والتاريخ واللغة والدين والأنساب ، وبه القصائد الطويلة التى تزيد أبياتها عن مائة بيت والمقطوعات والأبيات التى يستشهد بها على صحة الضبط والتحديد.

أما تقويم البلدان فهو كتاب جغرافى يهتم بالضبط والتحديد وذكر الأوصاف العامة . ولا يعنيه أن يكون البلد صغيراً أو كبيراً أو قيل فيه شعر أو نسب إليه علماء مشاهير أو ذكرت فيه كثير من المناظرات كل ذلك ليس من صميم الكتابة الجغرافية التى يمثلها تقويم البلدان فالنزعة الأدبية التى يتصف بها معجم البلدان لا توجد فى كتاب أبى الفداء .

٢ — يلتزم معجم البلدان بالسير على نظام المعاجم حسب حروف الهجاء فيسهل فيه الوصول إلى الحقيقة ، الأمر الذى يريح الباحث من عناء البحث والتفتيش عن مواضع البلدان، أما تقويم البلدان فلم يلتزم بهذا المنهج، فالكتاب لا يحمل صفة المعجم وإنما يسير على نظام الأقاليم حيث تقسم الأرض إلى مجموعة من الأقاليم يذكر فى كل واحد منها أهم بلاده ويضبطها حسب المنهج الذى سبق الحديث عنه يقول أبو الفداء :

(١) « وأما ترتيب الأماكن وتقويم بعضها على بعض فى الذكر فإنه أمر لم يتهيأ لنا فيه ترتيب يرضينا فتتبعنا فيه ابن حوقل وابتدأنا بجزيرة العرب لكون بيت الله الحرام وقبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام فيها » .

---

(١) تقويم البلدان ص٧٣

لقد صار أبو الفداء فى كتابه بغير منهج، ولم ينقل عن السابقين عليه — ومنهم ياقوت — فى الترتيب المعجمى الميسر للبحث والاطلاع .

٣ — التزم ياقوت فى تأليف معجمه بمنهج المعاينة والمشاهدة ولمس الحقائق عن طريق الرحلة .

ولقد ساعدته ظروف حياته على ذلك فتنقل بين دجلة والفرات والنيل وبردى وجيحون واستطاع أن يجمع الأخبـــار بالرؤية والبحث والتفتيش،وذكرت مقدما أكثر من مثال عن ذلك عند الحديث عن ملامح هذا المعجم .

بينما عاش أبو الفداء بين مصر والشام ، ولم يذكر عنه أنه رحل مرة ليعاين المواضع والبلدان التى كتب عنها فى تقويم البلدان .

٤ — يتفرد معجم البلدان بذكر القصص الغريبة والأساطير والخرافات التى كانت موجودة على ألسنة الناس عند تأليف هذا المعجم ، واستعان ياقوت فى سبيل ذلك بكتب المؤرخين السابقين وحرص على تسجيلها فى كتابه،وكان يتبرأ من بعضها لعدم إيمانه بها، وهذا نموذج قصير رواه ياقوت فى حديثه عن بغداد قال :

« (١) وكان المنصور كما ذكرنا بنى مدينته (بغداد) مدورة وجعل داره وجامعها فى وسطها . وبنى القبة الخضراء فوق إيوان . وكان علوها ثمانين ذراعا . وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس فى يده رمح . وكان السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم قد استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة . فلا يطول عليه الوقت حتى ترد إليه

---

(١) معجم البلدان ﺟ ١ ص٤٥٩

الأخبار بأن خارجياً قد هجم من تلك الناحية، قلت أنا : هكذا ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب الفاحش » .

وإذا بحثنا عن مثيل لهذه الحكايات والخرافات في كتاب تقويم البلدان لم نجد شيئا .

٥ — يمتاز تقويم البلدان بالجداول الجغرافية التي عقدها أبو الفداء في عقب كل مقاله ، خاصة بإقليم ما ، فيتحدث في هذه الجداول عن الموضع وضبطه وأطواله وأهم أخباره في عبارة محددة ، وهذه ميزة لمن يريد أن يلم بضبط البلد وبمعرفة أوصافه في كلمات موجزة بينما يطول الكلام في معجم البلدان وتتداخل المعلومات الجغرافية بالمسائل الأخرى .

٦ — سيطرت النزعة الدينية — إلى جانب النزعة الأدبية — على معجم البلدان ، ففي مقدمة المعجم يذكر ياقوت أنه ألفه استجابة لتوجيه القرآن الكريم لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »(١) .

ثم ربط مؤلفه بين موضوع كتابة — وهو الحديث عن البلدان والمواضع والأمكنة — بالدين في براعة ويقظة ذهنية فذكر أن أولى البصائر لا يستغنون عن معرفة الأماكن وتصحيحها ، لأن بعض هذه الأماكن مواقيت للحجاج والمعتمرين وبعضها معالم الصحابة والتابعين.

وإذا كتب عن بلد ذكر ما فيه من المشاهد والمزارات يقول :

---

(١) سورة الحج آية ٤٦

« (٤) وبمصر من المشاهد والمزارات : بالقاهرة مشهد به رأس الحسين رضى الله عنه ، نقل إليها من عسقلان وهو خلف دار المملكة يزار ، وبظاهر القاهرة مشهد صخرة موسى بن عمران ، عليه السلام، به أثر أصابع يقال إنها أصابعه فيه اختفى من فرعون لما خافه ، وبين مصر والقاهرة قبة يقال إنها قبر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب . ومشهد يقال إن فيه قبر فاطمة بنت محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وقبر آمنة بنت محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وقبر آمنة بنت محمد الباقر . ومشهد فيه قبر رقية بنت على بن أبى طالب . ومشهد فيه قبر آسية بنت مزاحم زوجة فرعون والله أعلم » .

ويتعرض معجم البلدان للآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالشرح والتفسيرة وتكثر الكتابة عن أنبياء الله ورسله من خلال البلاد التى عاشوا فيها أو ارتحلوا إليها . ويشرح ياقوت فى معجمه كثيرا من المواقف التى برزت فى حيـــاة الرسول وآل بيته وأصحابه . فعندما كتب عن فدك (موضع بالجزيرة العربية) ذكر الخلاف الذى دار بين أبى بكر وفاطمة رضى الله عنهما . واعتمد على حديث الرسول وأقوال الصحابة فى معالجة هذا الخلاف .

كما أهتم ياقوت بالفتوح الإسلامية التى أبلى فيها المسلمون بلاء حسنا كما كتب بإفاضة عن الأماكن الدينية مثل مكة والمدينة بينما لا نجد تقويم البلدان يتعرض لأمثال هذه المسائل الدينية .

كتب أبو الفداء عن تبوك ما يقرب من ثلاثة سطور أما ياقوت

---

(١) معجم البلدان حـ ٥ صـ ١٤٢

فكتب عنها فى معجمه ما يقرب من صفحة حيث أفاض فى الحديث عنها لأنها آخر غزوة للرسول ﷺ .

إن معجم البلدان ذو مزايا متعددة . ويتفوق بخصائصه وملامحه على الكتب المناظرة له . منهجاً وموضوعاً وأسلوبا ، وهو أثر عظيم وتراث ضخم يكشف عن عقلية جبارة ونبوغ خارق وذكاء حاد فى جغرافية البلاد وآدابها .

الفصل الثالث

دراسة معجم الأدباء

كتب التراجم :

اهتم العرب اهتماماً كبيراً بتدوين تاريخهم وتسجيل حضارتهم ، وافتنوا فى ذلك افتناناً يدعو إلى العجب والإعجاب ، وبدأوا بتاريخهم السياسى فكتبوا عن أخبار الملوك والخلفاء والأمراء ، وعنوا بما خلفه أسلافهم من العلوم والمعارف والثقافات فأودعوه بطون المجلدات ليبقى أثراً حياً خالداً ، كما انصرفوا إلى اللغة فحافظوا عليها ودافعوا عنها ، ووضعوا أصول النحو وقواعده حماية لها من العجمة ، كما دونوا الشعر بكل فنونه لما فيه من تسجيل لهذه الحضارة .

ولقد عنى العرب أشد العناية بتراجم رجالهم وطبقات علمائهم ، وتوافروا على ذلك الفن وبرعوا فى تبويبه وترتيبه على مر العصور . ولم يقتصر الحديث عن الرجال على كتب التراجم بل جاءت تراجم الأعلام مبثوثة ومنثورة فى كتب الأدب واللغة مثل كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة من الهجرة حيث تحدث فى كتابه عن الشعر والأدب والسير والأنساب وغيرها ، وكتب عن النحويين واللغويين والشعراء والمتكلمين والفقهاء وغيرهم ، ومثل كتاب الفهرست فى هذا المنزع كتاب زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحاق الحصرى ، وغيرها كثير .

ولم يقصد مؤلفو هذه الكتب وغيرهم ممن سار على هذا النهج أن يؤرخوا للأعلام ويسجلوا تفاصيل حياتهم ، وإنما كانوا يكتبون عن بعض

المواقف من حياتهم التى تتصل بالأدب واللغة كمناظرة أدبية ، أو معركة نقدية فيذكرون مناسبتها والأمور المتصلة بها .

أما فى الترجمة للأعلام فيرجع فى أساس نشأته وظهورة إلى السيرة النبوية التى أولاها المؤرخون جل اهتمامهم ، وسجلوا فيها حياة الرسول مثلما فعل ابن هشام فى كتابه عن السيرة النبوية . كما نشأت بجانب العناية بكتابة السيرة النبوية عناية كبرى بتدوين أقوال الرسول التى لم تدون على عهده، واهتموا فى تدوينهم لأحاديث الرسول بالرواة ،فترجموا لهم تراجم مختصرة كان القصد منها بيان قيمة المحدث ومكانته فى الرواية والإسناد .

ولقد خدمت كتب البخارى ومسلم وابن سعد فن التراجم ، ونبهت الأذهان إلى وضع تراجم لطبقات أخرى من الرجال.

وعلى ضوء ماتقدم ذكره سار فن التراجم فى عدة اتجاهات تتلاقى كلها فى الحرص التام على تراث العرب من القرآن الكريم والأحاديث النبوية واللغة والأدب والتاريخ وغيرها والحرص على رجالات هذاالتراث وحامليه .

١ — كتب الطبقات :

وهى الكتب التى ترجمت لطبقات شتى من الناس كالصحابة والفقهاء والنحويين واللغويين والشعراء والأدباء والصوفية والقضاة والأعيان والحكماء والأطباء . . إلخ

فأبو الطيب اللغوى جعل كتابه «مراتب النحويين» فى الترجمة للنحويين واللغويين ورواة اللغة والشعر — منذ ظهور الإسلام فى القرن الاول إلى نهاية الرابع — فى الكوفة والبصرة وبغداد ومكة والمدينة ، أشهر عواصم اللغة والأدب فى هذا العصر .

أما أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأشبيلى النحوى اللغوى المتوفى فى سنة ٣٧٩ هـ فقد وضع كتابة « طبقات النحويين واللغويين » فى الترجمة للنحاة واللغويين من أبى الأسود الدؤلى إلى زمانه ، وبدأه بذكر النحويين على طبقاتهم واللغويين مقدماً البصريين على الكوفيين من كلتا الطبقتين ورتبه على ست طبقات .

ووضعت كتب أخرى عديدة فى هذا الاتجاه ومنها الكتب التالية التى أشار إليها ياقوت فى مقدمة معجم الأدباء وهى أخبار النحويين لأبى بكر محمد بن عبد الملك التاريخى ، وأخبار النحويين البصريين للسيرافى وأخبار النحويين لابن درستويه ، والمقتبس فى أخبار النحويين واللغويين للمرزبانى قال ياقوت عن كتاب المرزبانى :

(١) : وقد وقفت على هذا الكتاب وهو تسعة عشر مجلد ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب (٢) مع أنه أيضا قليل التراجم بالنسبة إلى كبر حجمه .

وألف القفطى وهو معاصر وصديق لياقوت كتابه : إنباه الرواة على أنباه النحاه ، وجمع فيه مايقرب من ألف ترجمة للنحاة واللغويين وغيرهم من العلماء الذين اتصلت معارفهم بالنحو واللغة وفى طبقات الشعراء والأدباء نجد كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ومعجم الشعراء للمرزبانى . وأخبار الشعراء المتأخرين والقدماء لياقوت ، الذى سماه ابن خلكان معجم الشعراء . (٣) وشجرة الذهب فى أخبار أهل الأدب لعلى بن فضال المجاشعى ، قال ياقوت عن هذا الكتاب :

---

(١) معجم الأدباء جـ ١ صـ ٤٧
(٢) يقصد معجم الأدباء
(٣) هذا الكتاب مفقود

(١) وقع إلى منه شيء فوجدته كثير التراجم ، إلا أنه قليل الفائدة لكونه لا يعتني بالأخبار ولا يعبأ بالوفيات والأعمار .

٢ — تواريخ البلدان وتراجم رجالها :

بلغت العناية بالترجمة عند العرب أن ألفوا كتباً في البلدان يؤرخون فيها لنشوئها وعمرانها وحضارتها وتطورها وآثارها ثم يفيضون بعد ذلك في الترجمة لمن نشأ بها وارتحل إليها ، واهتموا بالمدن التي زخرت بالمدارس والمعاهد وعمرت مجالسها بصنوف المعارف والآداب كبغداد والكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة ومصر والأندلس وغيرها ، ومن أهم الكتب الموضوعة في هذا الاتجاه تاريخ بغداد للخطيب البغدادي المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة من الهجرة وتاريخ دمشق للحافظ بن عساكر المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة من الهجرة .

وتاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، وضعه في أزهى عصور الإسلام منذ تأسيسها إلى وفاته في التاريخ السابق ، ويشتمل هذا الكتاب على وصفها وتخطيطها وما كانت عليه من الحضارة والمدنية ، ويترجم فيه للخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والأشراف إلخ بحيث لا يترك مشتهراً أو صاحب مهنة أو مشتغلا بالأدب واللغة إلا ترجم له ممن نبغ فيها أو ورد عليها من غير أهلها ، والتزم الخطيب بذكر الإسناد في الروايات التاريخية فضخم بذلك هذا الكتاب الذي طبع في اثني عشر مجلدا .

أما كتاب تاريخ دمشق للحافظ بن عساكر فقد نهض المجمع العلمي العربي بدمشق بنشرة في عام ١٩٥١ م وعهد إلى عدد من أعضاء المجمع بتحقيق

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٤٨

هذا الكتاب الكبير الذى وضعه الحافظ فى ثمانمائة جزء وجعل كل عشرة أجزاء مجلدة فكان تاريخه ثمانين مجلدة ، كل مجلدة فى مائتى ورقة .

٣ — التراجم العامة :

وهى الكتب التى تتنوع فيها التراجم من حيث الطوائف والعصور والأقاليم إذ يجتمع فيها الأديب مع اللغوى والنحوى والمفسر والشاعر والمحدث .. إلخ ويجتمع فيها رجال القرن الرابع مع رجال القرن الخامس أو الأول ويلتقى فيها رجال مصر مع رجال الشام والكوفة والبصرة ومكة والأندلس ، ويتفق هؤلاء جميعاً فى صفة واحدة هى الجدارة والاستحقاق بأن يترجم لهم ، ويعرف الناس تاريخهم ويذكرون سيرتهم . وفى هذا النوع من التراجم توجد ثلاثة كتب هى :

(أ) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لكمال الدين الأنبارى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ

(ب) معجم الأدباء لياقوت .

(جـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبى العباس أحمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ

لقد وضعت هذه الكتب فى القرنين السادس والسابع الهجريين حيث كثر التأليف فى هذا الفن نتيجة لكثرة المعارف وتنوع الفنون ووفرة الكتب واتصال العلما بعضهم ببعض وتوفر ثقافة علمية واسعة تنتظم ما بين الأندلس غرباً إلى آخر حدود فارس شرقاً .

ولقد تميزت هذه المؤلفات الثلاثة بجمع الحقائق المنثورة المبعثرة فى تضاعيف الكتب وترتيب وتنسيق المعارف التى وردت على ألسنة الرواة وهى مرتبة ومنظمة تيسيرا للإفادة والنفع ، وهى مؤلفة فى أزمان متقاربة متتالية بين كل واحد منها ما يقرب من خمسين عاما .

ومعجم الأدباء لياقوت مسبوق بنزهة الألباء وسابق لوفيات الأعيان من حيث زمن التأليف، وتمثل هذه الكتب اتجاهاً متقارباً فى تأليف التراجم حيث يقل فيها الإسناد فى الروايات التاريخية للثقة التى عرفت عن الرواة الذين أخذوا منهم أو نقلوا عنهم، فهذه الكتب تختلف فى هذه الناحية عن تاريخ بغداد كما سبق أن أشرت إلى ذلك .

وسوف يعقد هذا الفصل لدراسة معجم الأدباء على أن يليه فصل آخر للموازنة بين هذه المؤلفات الثلاثة .

معجم الأدباء

— ١ —

أشار ياقوت فى مواضع كثيرة من معجم البلدان إلى كتاب « معجم الأدباء » بما يفيد أنه سابق على معجم البلدان فى الإعداد والتأليف .

اختار له عند تأليفه اسم « إرشاد الأدَيب إلى معرفة الأديب » هذا ماقاله فى المقدمة ، ولكن صاحبنا — فيما يبدو — وجد فى هذا الاسم إطالة فاختار له بعد ذلك اسمه الذى اشتهر به وهو « معجم الأدباء »

قال فى حديثه بمعجم البلدان عن الشاعر الضرير مصنف كتاب التفقيه

« (١) وقد ذكرته فى كتاب معجم الأدباء » ويقول فى موضع آخر بمعجم البلدان :

« (٢) وقد ذكرت الزمخشرى وأخباره فى « كتاب الأدباء » وهـذا الاستدلال يمكن أن يكون كافياً فى بيان اسم هذا الكتاب لكنى وجدت اضطراباً فى كلام ابن خلكان ومن جاء بعده حول اسم هذا الكتاب .

ذكر صاحب وفيات الأعيان فى ترجمته لياقوت أن له كتاباً سماه « إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء » وقد نقل ابن خلكان هذه التسمية المخترعة من كتاب « تاريخ إربل » لأبى البركات بن المستوفى . ولقد ذكر ياقوت هذا الرجل بالخير عندما ترجم فى معجم البلدان لمدينة إربل .

ولما ذكر ابن خلكان مؤلفات ياقوت جعل منها «معجم الأدباء» وهنا

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٨

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٤٧

يمكن أن يفهم أن لياقوت كتابا يسمى «إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء» وكتابا آخر هو «معجم الأدباء».

إن هذا ما حدث بالضبط ووقع فيه كثيرون، ومنهم ابن العماد الحنبلي صاحب شذرات الذهب.

أما الكتب التي نقلت عن ياقوت في الترجمة للأعلام فإنها ذكرت «معجم الأدباء» ولم يأت لاسم «إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء» أي ذكر مثل كتاب «بغية الوعاة» للسيوطي و«فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي.

وليس لمعجم الأدباء زمن محدد لتأليفه، وكل ما يمكن أن نقوله: إن مؤلفه كان يضيف إليه باستمرار حتى سنة وفاته. ففي الترجمة لعمر بن أحمد قال ياقوت في كلامه عن أحد أبناء بني جرادة:

«(١) وهو الآن يحيا في محرم سنة عشرين وستمائة فإذا اطلع القارىء على هذه العبارة فهم أن التاريخ المذكور هو تاريخ التأليف حتى إذا طالع كل صفحات المعجم أو بعضها وجد تواريخ أخرى حتى سنة ست وعشرين وستمائة من الهجرة، وهي السنة التي توفي فيها ياقوت.

وقال في ترجمة القاسم بن القاسم الواسطي:

«(٢) ومات بحلب في يوم الخميس رابع ربيع الأول سنة ست وعشرين وستمائة».

فلم يتوقف ياقوت عن تغذية المعجم بكل جديد، وإذا تصفحناه وجدنا

---

(١) معجم الأدباء جـ١٦ صـ ٣٥

(٢) المرجع السابق جـ١٦ صـ٩٦

فى بعض التراجم مسافات بيضاء كسطر أو نصف سطر كان قد تركها عند التبييض على أمل أن يملأها بما ستأتى به الأيام ، أو يصل إلى معرفته بالبحث والسؤال والتنقيب .

ففى ترجمته ليحيى بن أحمد الفارابى قال :

«(١) ومات سنة .... ، ولم يكمل جملته لأسباب لا نعرفها .

— ٢ —

«لقد بدأ طبع هذا الكتاب لأول مرة بمطبعة هندية بالقاهرة سنة ١٩٠٧م، واكتمل الكتاب فى نهاية الطبع فى سبعة أجزاء ، وأشرف المستشرق ، دافيد صمويل مرجليوث » على نشره وتصحيحه ، كما تحملت لجنة الورثة للمستشرق « جب — Gibb » تكاليف الطبع واعتمد الناشر على نسخة خطية محفوظة فى مكتبة بوريل بجامعة أكسفورد تحت رقم ٧٢٣ ويحكى مرجليوث فى مقدمته للطبعة الأولى قصة اقتناء بوريل لهذه النسخة التى احتوت على أغلاط كثيرة بين تحريف وتصحيف واضطراب فى الخط مما يدل على أن الناسخ لها كان غريبا على العربية وأشار إلى بعض الأغلاط التى أصلحها بالاعتماد على الكتب التى أخذ منها ياقوت مثل كتاب «الفهرست» لابن النديم وكتاب «اليتيمة » للثعالبى أو الكتب التى أخذت من معجم الأدباء مثل كتاب « الوافى بالوفيات » للصفدى .

كما أوضح الناشر أنه لم يحذف من النسخة الأصلية إلا بضع رسائل لأبى العلاء المعرى ، وهذه الرسائل التى سبق طبعها فى كتاب على حده باسم الرسائل فى إكسفورد سنة ثمان وتسعين وثمانمائة بعد الألف ، وقد

---

(١) معجم الأدباء جـ١٩ صـ٣١٣

اعترف بجميل العلماء الأفذاذ الذين قرءوا نماذج الكتاب قبل طبعه ومنهم الشيخ إبراهـــيم اليازجى وقسطاس الحمصى وجورجى زيدان والشيخان عبد العزيز جاويش ومحمد حسنين الغمراوى .

سلك مرجليوث هذا المسلك الحميد عند إعادة طبع الكتاب فى سنة ١٩٢٣ م وتمكن من إحداث تعديلات وتنقيحات كثيرة أشار بها معارفه من العرب وأصدقاؤه المستشرقون كأحمد زكى والأب أنستاس الكرملى ، أو وصل إليها عن طريق الانتفاع ببعض المراجع التى تيسر حصوله عليها بعد الطبعة الأولى،وأفاد مرجليوث بضياع بعض الأجزاء من هذا الكتاب أى أنه لم يصل كاملا حتى طبعته الثانية .

قامت دار المأمون فى سنة ١٩٣٦ م بطبع الكتاب فى عشرين جزءا بمطبعة عيسى الحلبى كل جزء فى مجلد بعد إضافات أخرى تم العثور عليها ، وعاونت وزارة المعارف،فى هذا الوقت، دار المأمون فى تصحيح وإعداد الكتاب للطبع .

كما طبع الكتاب بدار إحياء التراث العربى ببيروت — لبنان — على صـورة طبعة دار المـأمون الأخيرة ولكنها جعلت العشرين جزءا فى عشرة مجلدات .

وفى كل طبعة من طبعات هـــذا الكتاب كان يتصدى لها بالتصحيح والمراجعة علماء أفذاذ لا تكاد تمر صفحة من صفحات الكتاب إلا ونجد أثرا من آثار أقلامهم المخلصة ، ونذكر منهم الأساتذة عبد الخالق عمر والسباعى بيومى ومحمود منصور ومحمد سعيد يوسف وأحمد يوسف نجاتى الذين تعاونوا مع الدكتور أحمد فريد الرفاعى المشرف على الدار الناشرة للطبعة الأخيرة .

ولقد أعطت مجلات كثيرة هـــذا الكتاب عناية خاصة ، وقدمت

صفحاتها بيضاء للنقاد حتى يصححوا ويراجعوا وينقدوا ما جاء فى الكتاب من أغلاط لغوية وأخطاء فى التراجم ، ومن هذه المجلات مجلة «لغة العرب» التى كان يصدرها فى العراق الأب أنستاس الكرملى ومجلة «المقتبس» التى كان يصدرها فى القاهرة الأستاذ محمد كرد على ومجلتا الرسالة والثقافة المصريتان .

عندما صدر الكتاب لأول مرة كان يحمل بعض التحريف والتصحيف نظراً للأغلاط التى وردت بالنسخة الوحيدة التى أعتمد عليها الناشر الذى لم تكن العربية لغته الأصلية والذى كان بعيداً عن المكان الذى طبع فيه الكتاب لأول مرة . عندما صدر الكتاب استقبله الأدباء والمفكرون بالسرور والبشر ، مع مابه من أغلاط ولقد عبرت مجلة المقتبس لمحمد كرد على عن هذا الشعور فقالت :

«(١) وما قولنا لمن يرون فى مثل هذه المطبوعات التى ينشرها علماء المشرقيات بعضه تحريف من نقط أو كلمات قد تدرك بالبداهه إنكم إذا توليتم من هذه الكتب مايتولاه أولئك الأعاجم الغيورون منها ، لجاءت أكثر تحريفا وتصحيفا من مطبوعاتهم وأحر بمن يبادررن إلى النقد أن ينشروا للناس ولو كتابا واحداً يكون فى صحته على الرسم الذى يرسمونه ليصدقهم أهل العلم . .

وعند صدور الطبعه الثانية لم يخف القراء والأدباء سرورهم وإعجابهم بهذه الطبعة تقول مجله لغة العرب .

---

(١) مجله المقتبس ١٩٠٨ ص ٤١٤

«(١) واليوم أمامنا الجزء الأول من معجم الأدباء لياقوت المذكور وقد أعيد طبعة ثانية بعد نفاد طبعته الأولى ، وقد عنى بتصحيحه صديقنا الكريم د.س. مرجليوث الذى يعرفه جميع العراقيين، وقد استحسنا هذه الطبعة لما بذل لها من العناية» .

ولما خرجت الطبعه الأخيرة كثرت الكتابة حول نقد هذا الكتاب .

ولقد كتب الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى أكثر من عشرين مقالة فى مجلة الرسالة فى سنه ١٩٤٥م حول التحريف والتصحيف والأغلاط اللغوية التى وردت بطبعته الأخيرة .

ولقد لاحظ ناشر الكتاب بعض هذه التحريفات فأشار فى آخر بعض الأجزاء إليها مستدركا بعض ما وقع فى الكتاب من أغلاط مطبعية .

كما أضيفت إلى هذه الطبعة رسائل أبى العلاء التى كان الناشر قد أسقطها من طبعته الأولى ، وأضيفت إلى آخر الكتاب ثلاث ترجمات إضافية .

والكتاب بهذا الوضع يحتاج إلى طبعة رابعة، تنقى من هذه الأخطاء وتضع التراجم الملحقة فى مكانها حسب الترتيب المعمول به فى هذا الكتاب . وتتميز الطبعة الأخيرة بما فيها من الفهارس العامه المفصلة للتراجم والكتب المصنفة والبلدان والأعلام حيث استغرقت معظم الجزء العشرين.

---

(١) لغه العرب آب «أغسطس» ص ٢٥ — (ومجله لغه العرب مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية صاحب امتيازها الأب أنستاس الكرملى؛ وهى بغدادية الموطن عربية اللغة غربية التفكير)

— ٣ —

تعد مقدمة هـذا الـكتاب من أطول ما كتب من المقدمات فى كتب التراجم والطبقات إن لم تـكن أطولها جميعاً ، ولقد ملأها صاحبنا بالفوائد الأدبية وحدد فيها بعض مناهجه عن هذا الـكتاب . أما ما تبقى من هـذا المنهج فهو بمتن الـكتاب لمن يطالعه .

وهى تقع فى إحدى وعشرين صفحة ، لتتناسب بذلك مع حجم الـكتاب ، ولقد بدأها بأسلوب أدبى التزم فيـه بالسجع المقبول المستحسن لقصر الفقرات وعدم التـكلف فى الزخرفة اللفظية ، ثم ذكر ما يمكن أن يكون سببا لتأليف هـذا المعجم من أنه منذ تعلقه بالأدب وهو مشغوف بأخبار العلماء متطلع إلى أنباء الأدباء بالسؤال عن أحوالهم والبحث عن نـكت أقوالهم ، فلم يجد أمامه تصنيفا شافيا ولا تأليفا كافيا .

ولم يغفل ياقوت فى مقدمته ذكر من سبقوه بالـكتابه فى تراجم الرجال فـكتب عنهم وتحدث عن كتبهم ، وأبان عمن أخذ منهم ونقل عنهم .

إن بعض الـكتب التى أشار إليها فى المقدمة قد طبع محققا مثل كتاب «طبقات النحويين واللغويين» لأبى بكر محمد بن الحسن الزبيدى الأندلسى وكتاب نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لأبى البركات كمال الدين عبدالرحمن ابن محمد الأنبارى .

ولياقوت منهج سليم فى عرض الـكتب ، فهو ينقدها ويشير إلى موضوعها ويذكر مجلداتها ، فيقول عن كتاب «المقتبس» للمرزبانى :

«(١) ثم صنف فيه أبو عبيد لله محمـد بن عمران المرزبانى كتابا

---

(١) معجم الأدباء جـ ١ صـ ٤٧

حفيلا(١) كبيرا على عادته فى تصانيفه ، إلا أنه حشاه بما رووه ، وملأه بما وعوه ، فينبغى أن يسمى مسند النحويين ، وقد وقفت على هذا الكتاب وهو تسعة عشر مجلدا ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب مع أنه قليل التراجم بالنسبة إلى كبر حجمه » .

وكثير من الكتب التى ذكرها فى المقدمة لم يصل إلى يد القارىء حتى الآن إما لأنه ضاع فيما ضاع من تراث العرب ، وإما لأنه لا يزال مخطوطا فى احتياج إلى من يحققه ، ويزيح عنه تراب النسيان .

شرح ياقوت منهجه فى الترجمة للرجال ، فهو يجمع فى كتابه كل الطبقات بطريق الإيجاز مع ذكر مواليد المترجم لهم وتواريخ وفياتهم . وإذا ترجم لرجل ذكر تصانيفه ومستحسن أخباره وبعض المختار من شعره مع إثبات مواضع النقل ومواطن الأخذ ، مرتبا كتابه على نظام حروف الهجاء متناولا فى الترجمة رجال كل الأقاليم . وسوف نعرض للحديث عن هذا المنهج بالتفصيل عند الكتابة عن ملامح الكتاب .

خشى ياقوت أن يفهم عنه بعده عن الدين وعدم اشتغاله بأموره وانصرافه إلى هذه التراجم فذكر أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل علم من يحفظ جملته وينظم جوهرته والمرء ميسر لما خلق وحسبك بالمرء فضلا ألا يأتى محظورا ، وذكر أن الترجمة لعلماء الأدب من صميم الدين قال :

«(٢) فهذه أخبار قوم عنهم أخذ علم القرآن المجيد والحديث المفيد وبصناعتهم تنال الإمارة وببضاعتهم يستقيم أمر السلطان ، وباستنباطهم يعرف الحلال من الحرام » .

---

(١) الحفيل : الكثير .

(٢) معجم الأدباء ج ١ ص ٥٣

ثم يطلب بعد ذلك من الناظر فى كتابه ألا يقصد قصد من إذا رأى حسنا ستره وعيبا أظهره ، وليتأمله بعين الإنصاف ، ويقول لتأكيد هذه الحقيقة :

«(١) فالكمال محال لغير ذى الجلال ، فالمرء غير معصوم ، والنسيان فى الإنسان غير معدوم ، ولمن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب ، فقد علم أن كل مجتهد مصيب فإنا وإن أخطأنا فى مواضع يسيرة ، فقد أصبنا فى مواطن كثيرة » .

واعتذر ياقوت عن شحه بهذا الكتاب على من استحسنه وطلب نسخة لكنه بخل به ، وذكر أن منزلة الكتاب لديه كمنزلة الروح من جسد الجبان ، وهو غير راض عن هذا الصنيع الذى جبلت عليه نفسه وقال فى الكتاب ستة أبيات من الشعر بدأها بقوله :

فكم قد حوى من فضل قول محبر
ومن نثر مصقاع ومن نظم ذى فهم

ولقد كشف عن سبب شحه بالكتاب بأنه اقتدى بمحمد بن عبد الملك التاريخى عندما ألف كتابه فى أخبار النحويين ، وذكر فى مقدمته أنه لم يسمح ببذله إلى غير أبى الحسين محمد بن عبد الواحد الروزبارى الكاتب يقول :

«(٣) فحينئذ خففت عن نفسى هذا اللوم إذا كان التأسى من أخلاق القوم ، وعلمت أن النفوس بخيلة بالنفائس ، شحيحة بإبراز العرائس» .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٥٧
(٢) مصقاع : بليغ
(٣) معجم الأدباء جـ١ ص٦٢

ويبدو أن السبب الحقيقي أو الأساسي لهذا الشح هو أن الكتاب حينئذ كان مخطوطا لدى ياقوت في مسودته، وخشي إن أعاره لسواه أن تتسرب معلوماته إلى من عداه ، ومن يدري: لعل شيئا قليلا أو كثيراً من الكتاب ينقله ناقل وينسبه إلى نفسه ، ويضيع على ياقوت ما بذل من وقت وجهد وإبداع .

ويشير ياقوت إلى هذا المعنى ، إن لم يصرح به تصريحا واضحا بأنه سبب المنع والشح قال :

«(١) وقد أقسمت ألا أسمح بإعارته ، ما دام في مسودته ، لئلا يلح طالب بالتماسه ، ولا يكلفني إبرازه من كناسه(٢) لحملهم منعي على احتفائه وتصنيف شرواه(٣) في استوائه ، وما أظنهم يشقون غباره ويحسنون ترتيبه وإسطاره(٤) وان وقفت لنظر الجميع فستعرف الظالع(٥) من الضليع(٦) فإذا هذبته ونقحته وبيضته فتمتع به فإنه كتاب أسهرت لك فيه طرفي(٧) وأنضيت(٨) في تحصيله طَرَفي(٩) وطِرْفيِ(١٠) » .

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٢

(٢) الكناس : بيت الظبي

(٣) الشرو : المثل

(٤) الاسطار : ما يكتب والجمع أساطير

(٥) الظالع : المسائل في مشيته

(٦) الضليع : الشديد الأضلاع القوى

(٧) طرفي : عيني

(٨) أنضيت : أتعبت

(٩) الطرف : الناحية

(١٠) طرفي : جوادي المطهم

ثم يفتخر بكتابه وينوه بقميته الكبيرة أوضح تنويه فيقول :

«(١) ولو أنصف أهل الأدب لاستغنوا به عن المأكل والمشرب» كما نبه على خوفه من ضياع قيمة هذا الكتاب لسببين :

أولهما : انحراف الناس عن الحق وتوهمهم أن المملوك الرومى لا يستطيع الإتيان بشيء عبقرى .

ثانيهما : هو تقاصر همم الناس عن بلوغ مراتب الشرف التى تعرف صاحبها قيمة العمل الشريف وإنكارهم الفضل على صاحبه ، وكأن صاحبنا يريد أن يقول إنه ليس هناك ما يمنع إتيانه بما لم يأت به أبناء جنسه .

وأشار فى نهاية هذه المقدمة إلى أنه سمى كتابه « إرشاد الأريب الى معرفة الأديب » وبعد هذه المقدمة أورد فصلين فى خمس وثلاثين صفحة :

الفصل الأول : فى فضل الأدب وذم الجهل وحمله ، بدأه بقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه ، ويفرح إذا نسب اليه من ليس من أهله وكفى بالجهل خمولا ، أنه يتبرأ منه من هو فيه ، ويغضب إذا نسب إليه . ولم يتعرض ياقوت فى هذا الفصل إلى القضايا الأدبية أو النقدية أو لأحد مناهج الكتاب .

الفصل الثانى : وعقد الفصل الثانى فى فضيلة علم الأخبار وختمه بقصيدة لمحمد بن عبد الملك الزيات فى رجل خلو من الأدب .

---

(١) معجم الادباء ج ١ ص ٦٣

سار ياقوت فى ترجمته للأعلام حسب المنهج الذى ذكر معظمه فى المقدمة .

فهو يذكر اسم ونسب من يترجم له وشيئا من أخباره وأشعاره ، ويذكر تصانيفه والفنون التى برع فيها ، وشيوخه ، وأساتذته ، ومن تتلمذ على يديه ، ثم يذكر سنة وفاته ومن خلال الترجمة تبدو موهبته فى اختيار الأشعار التى ينقدها ويحكم عليها بالجودة أو الرداءة .

وصاحبنا مؤرخ بارع يعرف كيف ينتقى الأخبار التى تجذب القارىء فيجد فيها المتعة والفائدة معا بأسلوب أدبى علمى .

ولقد ترجم فى كتابه لألف وسبعين علما من أعلام الأدب واللغة والنحو والتاريخ .... الخ .

وهذا واحد منهم ترجم له ياقوت ترجمة موجزة مختصرة تتجمع فيها معظم ملامح المنهج إذ قال عن ترجمة محمد بن محمود البغدادى :

«(١) محمد بن محمود بن الحسن .

ابن هبه الله بن محاسن صاحبنا الإمام محب الدين بن النجار ، البغدادى الحافظ المؤرخ الأديب العلامة أحد أفراد الأعلام ، ولد ببغداد فى ذى القعدة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع من ابن كليب والحافظ أبى الفرج ابن الجوزى الواعظ وأصحاب ابن الحصين ، ورحل إلى الشام ومصر والحجاز وخراسان وأصبهان ومرو وهراة ونيسابور وسمع الكثير ، وحصل الأصول والمسانيد ، واستمرت رحلته سبعا وعشرين سنة . واشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ وكان إماما حجة ثقة حافظا مقرئا أديبا عارفا بالتاريخ وعلوم الأدب

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٤٩

حسن الإلقاء والمحاضرات وكان له شعر حسن ، وله التصانيف الممتعة ، منها تاريخ بغداد ذيل به على تاريخ مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى واستدرك فيه عليه، وهو تاريخ حافل دل على تبحره فى التاريخ وسعة حفظه للتراجم والأخبار ، وله المختلف والمؤتلف ذيل به كتاب ابن ماكولا ، والمتفق والمفترق فى نسبة رجال الحديث إلى الآباء والبلدان وجنة الناظرين فى معرفة التابعين والعقد الفائق فى عيون أخبار الدنيا ومحاسن تواريخ الخلائق، وكتاب القمر المنير فى المسند الكبير ذكر فيه الصحابة والرواة وما لكل واحد من الحديث، والكمال فى معرفة الرجال ومعجم الشيوخ ، ونزهة الورى فى أخبار القرى ، والدرة الثمينة فى أخبار المدينة ، ومناقب الإمام الشافعى، وروضة الأوليا فى مسجد إيلياء والزهر فى محاسن شعراء العصر ، والأزهار فى أنواع الأشعار ، ونزهة الطرف فى أخبار أهل الظرف ، وغرر الفؤاد حافل فى ست مجلدات، وسلوة الوحيد وأخبار المشتاق بأخبار العشاق ، ومجموع نحا فيه نحو نشوار المحاضرة للتنوخى التقطه من أفواه الرجال ، والشافى فى الطب وغير ذلك،

وأنشد لنفسه قال :

وقائل قال يوم العيد لى ورأى
تململى ودموع العـــين تنهمر
مالى أراك حزينا باكيا أسفا
كأن قلبك فيه النار تستعر ؟
فقلت : إنى بعيد الدار عن وطن
وعلق الكف والأحباب قد هجروا

ونظر إلى غلام تركى حسن الصورة فرمد من يومه فقال :

وقائل قال قد نظرت إلى وجه مليح فاعتادك الرمد

فقلت : إن الشمس المنيرة قد   يعشى بها الناظر الذى يقد

وقال أيضاً :

إذا لم تكن حافظا واعيا   فجمعك للكتب لا ينفع

أتنطق بالجهل فى مجلس   وعلمك فى البيت مستودع ؟»

ولقد ركز ياقوت فى ترجمته لهذا الرجل على كتبه ومؤلفاته إلى جانب نسبة ومكانته وشيوخه وشعره وسوف يتضح فيما يأتى الملامح العامة للكتاب وأهم خصائصه ومناهجه من خلال الترجمة للأدباء .

ملامح معجم الأدباء ومزاياه :

١ — إن معجم الأدباء معجم عام ترجم فيه ياقوت لكل من اشتغل بالعلم والأدب واللغة والنحو والكتابة وغيرها، فلم يقصره على طبقة واحدة من الرجال كالنحويين أو المؤرخين بل جمع فيه كل أولئك وغيرهم كما يقول فى المقدمة :

(١) «وجمعت فى هذا الكتاب ما وقع لى من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين ، وأصحاب الرسائل المدونة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة ، وكل من صنف فى الأدب تصنيفا أو جمع فى فنه تأليفا» .

ولعل اهتمام ياقوت بالترجمة للوراقين وأصحاب الخطوط هو نوع من الألفة لقديم المهنة فلقد اشتغل فى مستهل حياته بنسخ الكتب بالأجرة

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ ص ٤٨

فحصل فوائد كثيرة من مطالعة مايقع له من الكتب ، واستفاد من هذا التحصيل فى تأليف كتبه ومنها هذا المعجم.

أما جمعه لهذه الطوائف الكثيرة من العلماء والأدباء فى مؤلف واحد فهو الذى جعل كتابه يصل إلى ماوصل اليه من السعة وكبر الحجم ، وأنا أرى أن صاحبنا قدم النحويين فى عباراته السابقة لان معظم تراجم الرجال فى عصره وقبل عصره كانت منصرفة إلى النحاة مثل كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » للقفطى « ومراتب النحويين » لابى الطيب اللغوى « وأخبار النحويين » لمحمد بن عبد الملك التاريخى « طبقات » النحويين لابى سعيد السيرافى وغيرها كثير .

وقوله « كل من صنف فى الأدب تصنيفا » كلمة عامة شاملة يدخل فيها كل من عرف بالتصنيف واشتهر بالتأليف ، وهو لم يذكر فى عبارته الشعراء — وإن كانت كلمة الأدباء تضمهم ؛ لأن له كتابا خاصا بأخبار الشعراء ذكره ابن خلكان تحت اسم « معجم الشعراء » وهذا الكتاب مفقود ولا نستطيع الحكم عليه إلا بما قاله ياقوت عنه من أنه سار فيه على نظام معجم الأدباء وجمع فيه أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ، ووضع فيه كل من غلب عليه الشعر ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها.

ولم يقصر ياقوت كتابه على أدباء عصر دون عصر بل ترجم لكل من خدم الأدب العربى إلى عهده وزمانه ، كما ترجم لأدباء أحياء فى عصره مثل على بن يوسف القفطى الذى توفى بعد ياقوت بعشرين عاما ، وترجم للسكاكى وقال عنه :

(١) « ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، وصنف مفتاح العلوم فى اثنى

---

(١) معجم الأدباء حـ ٢٠ صـ ٢٩

عشر عاما أحسن فيه كل الإحسان وله غير ذلك ، وهو اليوم حى ببلدة خوارزم.

كما ترجم ياقوت لبعض النساء مثل حفصة بنت الحاج الركونى وهى من أهل غرناطة شاعرة ، أديبة ، مشهورة بالحسب والأدب والجمال والمال .

ولم يقصر ياقوت معجمه على أدباء إقليم دون إقليم وإنما جعله لكل البلدان يقول فى المقدمة : أيضاً :

(١) . . . بل جمعت للبصريين والكوفيين، والبغداديين، والخراسانيين والحجازيين ، واليمنيين ، والمصريين، والشاميين ، والمغربيين، وغيرهم على اختلاف البلدان ، وتفاوت الأزمان حسب ما اقتضاه الترتيب وحكم بوضعه التبويب .

٢ — رتب ياقوت الأعلام فى معجمه على نظام حروف الهجاء مثلما فعل فى معجم البلدان و المشترك وضعا والمفترق صقعا قال :

(٢) «وجعلت ترتيبه على حروف المعجم ، أذكر أولا من أول اسمه «ألف» ثم من أول اسمه [باء] ثم [تاء] ثم [ثاء] إلى آخر الحروف، والتزم ذلك فى أول حرف من الاسم وثانية وثالثه ورابعه ، كما التزم ياقوت بهذا المنهج فى الآباء فأحمد بن إسحاق قبل أحمد بن إسماعيل وهكذا .

وإذا اتفق الرجال فى أسمائهم وأسماء آبائهم ، فإن صاحبنا يلجأ إلى تاريخ الوفاة فيقدم فى الذكر من تقدمت وفاته على من تأخرت،فنراه يقدم

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ صـ ٥١

(٢) معجم الأدباء حـ ١ صـ ٥١

مثلا « الحسن بن عبد الله المرزبانى السيرافى » على « الحسن بن عبد الله ابن سعيد » لأنه توفى قبله ، ولم ينظر إلى الترتيب المعجمى بين الأجداد .

وهذه الطريقة تجعل لمن يترجم له موضعا واحدا لا يتقدم عنه ولا يتأخر عليه ، فالأعلام كلها تخضع لهذا الترتيب حيث يجتمع الفقيه والمحدث والشاعر والأديب ، ويجتمع رجل من القرن الأول مع رجل من القرن الثانى أو الخامس أو ما بعدهما ، وهكذا .

واذا كانت هذه الطريقة مقبولة فى كتب البلدان فإنها تشكل صعوبة فى كتب الرجال ، فى هذا المعجم ، ومثله كتب كثيرة ، يصادف القراء عسرا ومشقة بسبب ترتيب الأعلام المترجم لهم على النظام الهجائى بحسب الاسم لا بحسب الشهرة أو الكنى ، فلا بد للقارىء الذى يكشف عن الترجمة لشخص أن يكون عالما بالاسم الأول على الأقل ، ولا تجدى معرفته بالشهرة أو الكنية أو اللقب ، لأنها لم تدخل فى الترتيب ، والحق أن فى ذلك صعوبة تضيع كثيرا من الجهد والوقت فى البحث عن ترجمة لعلم معين ، وإن كانت هذه الصعوبة قد تذللت إلى حد ما بالنسبة لمعجم الأدباء فى طبعته الأخيرة لأنه يضم الألقاب أو الكنى إلى جانب الاسم فى الفهارس الموجودة فى آخر كل جزء .

٣ — أراد ياقوت أن يسلك فى معجمه طريق الإيجاز فى الكتابة عن الأدباء قال :

(١) « مع إيثارى الإختصار والإعجاز فى نهاية الإيجاز » وأمام هذه الرغبة فى الإختصار بقصد صغر الحجم وكبر النفع نراه قد حذف الأسانيد والعنعنات إلا فيما ندر .

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٤٩

ولكن من يتصفح المعجم يكشف عن عدم التزام ياقوت بهذا المنهج الذي أشار إليه في المقدمة ، وإنما تنوعت تراجمـــه للرجال بين الطول والإيجاز مما يوحي بأن المعجم قد كتب في مدى طويل وعلى أزمان متباعدة فيمكن أن يكون صاحبنا قد نسي ما ألزم به نفسه في المقدمة من الإيجاز لا الإطالة ، فلما مضى في التأليف أطال كثيراً في بعض الرجال ، واعتدل القدر بين يديه في بعضهم ، وأوجز كثيراً جداً في البقية الباقية .

ترجم ياقوت لأبي حيان التوحيدي في ثمان وأربعين صفحة ، وترجم للخطيب البغدادي في ثلاث وثلاثين صفحة ، وترجم لبديع الزمان الهمذاني في اثنين وأربعين صفحة : ونفس القدر تقريباً لجحظة البرمكي ، وترجم لنفطويه في حوالى عشرين صفحة ، وترجم لابن فارس صاحب كتابي « المجمل » و « مقاييس اللغة » في ثمان عشرة صفحة .

ومن التراجم الطويلة التي تزيد عن خمسين صفحة ترجمته لإبراهيم بن هلال الصحابي في أكثر من سبعين صفحة ، وترجمته لأسامة بن منقذ في قرابة ستين صفحة . وترجمته لأبي سعيد السيرافي في ثمان وثمانين صفحة ، وترجمته لأبي العلاء المعري في أكثر من مائة وعشر صفحات . ولقد بلغ الصاحب القمة عند ياقوت حين ترجم له في مائة وخمسين صفحة ، وهذه أطول ترجمة في المعجم حسب تتبعي لأجزائه العشرين .

ولقد ساعد على الإطالة في هـذه الترجمة ما دار حول حياة الصاحب من ضجة ، وما أثاره في حياته من خصومات ومنازعات ، وما كان في شخصيته من متناقضات جعلت ياقوتا يفرد كتابه لما قاله عنه أبو حيان التوحيدي في كتابه « أخلاق الوزيرين » وفيه من التحامل أكثر مما فيه من النصفة لأديب من كبار أدباء العربية ، وبعد انتهاء ياقوت من عرض

كلام أبي حيان عنه يعرض لما كتبه أبو منصور الثعالبي في كتابه « اليتيمة » عن الصاحب .

وبالنظرة إلى التراجم الطويلة نرى أسبابها عديدة ولعل منها مكانة المترجم له في الأدب واللغة ومنزلته بين أدباء عصره ، وماتركه من تأليف وتصانيف ثم يأتي بعد ذلك التقاء ياقوت به أو عدمه .

فالصاحب بن عباد قد ترك تراثاً ضخماً من الفنون الأدبية ومنها الشعر وكتب عنه كثيرون وكان وزيراً يجمع الأدباء والشعراء في مجلسه .

وأبو العلاء المعري شاعر ناقد لعصره ومجتمعه ، كتب عنه كثيرون فلابد أن يلقى عناية واهتماماً من ياقوت فيعبر عنها بعشرات من صفحات المعجم يفردها للحديث عن حياته وشعره وأقوال العلماء فيه ، وقد وصفه ياقوت فقال :

« (١) كان غزير الفضل ، شائع الذكر ، وافر العلم ، غاية الفهم ، عالماً باللغة ، حاذقاً بالنحو ، جيد الشعر ، جزل الكلام ، شهرته تغني عن صفته ، وفضله ينطق بسجيته » .

كما ساعد على طول ترجمة أبي العلاء ما ذكره ياقوت من الرسائل المتبادلة بين أبي العلاء ونصر بن موسى بن عمران .

أما التراجم القصيرة فكترجمته للأعلم الشنتمري في أقل من صفحة وترجمته لإسماعيل الحيوي في سبعة أسطر ونصف وترجمته لنصر الله بن إبراهيم الدينوري في ثلاثة أسطر ونصف . ولعل أكثر التراجم إيجازاً

---

(١) معجم الأدباء حـ ٣ ص ١٠٨

ترجمته لأحمد بن عبد الله الضرير ، وهو من تلاميذ عبد القاهر ، وترجمته لابن رضوان النحوى وكلاهما فى سطر واحد يضاف إليه كلمة واحدة .

إن الفرق كبير بين ترجمته للصاحب بن عباد وأبى العلاء المعرى وترجمته لابن رضوان فأين سطر واحد أو سطران مثلا من مائة وخمسين صفحة يمكن أن يتشكل منها كتاب مستقل ؟

لقد سبق أن تعرضت لبعض الأمور التى تسهم فى الإطالة والإسهاب فى الترجمة ، ولقد ذكرت قبل ذلك أيضاً أن الأدباء والنقاد قد استقبلوا الطبعة الأولى لهذا الكتاب بالترحاب والإعجاب ، وأثنوا على الناشر خيراً فلما صدرت الطبعة الأخيرة بإضافات جديدة بعد العثور على صفحات من الكتاب تركت فى الطبعة السابقة وأضيفت إلى الطبعة الأخيره رأينا الأستاذ محمد كرد على فى كتابه « كنوز الأجداد » ينكر الفصول الأخيرة من الكتاب بعد الإشادة به قال :

«(١) ومعجم الأدباء لم يصل إلينا إلا ناقصاً ، وما نشر على أنه من ياقوت ينادى على نفسه بأنه ليس له بل هو مدسوس عليه ، ويتجلى ذلك لمن يعارض بين التراجم التى هى من محصول قلمه والفصول الأخيرة من الكتاب وقد ألصقت به إلصاقاً ، فالفرق بين بين إضافة ياقوت فى الترجمة للرجال والاقتضاب المخزى فى التراجم التى نحلوها له » .

ولقد أضاف الأستاذ محمد عبد الغنى حسن إلى الاتهام الموجه إلى هذا الكتاب هذه العبارة التى يقول فيها :

---

(١) كنوز الأجداد ص ٣٢٤ طبع المجمع العلمى العربى بدمشق ١٩٥٠ م .

«(١) ومع احترامنا لرأى الصديق العلامة الجليل ، فإننا نقول: إن هذا الاقتضاب المخزى لم يكن فى الفصول الأخيرة من الكتاب فحسب ، ولكن الأجزاء الأولى من الكتاب لا تسلم التراجم فيها من الاقتضاب والإيجاز المخل ، فإن تراجم أحمد بن الحسن السكونى ، وأحمد بن الحسن الفلكى ، وابن اليمان وابن رضوان وعشرات غيرها من التراجم المقتضبة جداً هى فى الجزء الثالث الذى يبلغ أجزاؤه عشرين جزءاً .

إذن فوجود التراجم المختصرة بالأجزاء الأخيرة لا يؤيد رأى الأستاذ محمد كرد على .

كما أضيف إلى ما قاله الأستاذ محمد عبد الغنى حسن من أن الأجزاء الأخيرة من المعجم قد عمرت هى الأخرى ببعض التراجم الطويلة ، وبهذا نقول : إن التراجم المطولة تسرى فى كل الكتاب مثل التراجم الموجزة .

ولكن للحقيقة أقول : إن الأجزاء الأخيرة كثرت فيها التراجم المختصرة التى كتبت فى صفحة أو صفحتين ، فيمكن أن يكون ياقوت قد أعدها فى أخريات أيامه ، ولم تسعفه قوته على النهوض بمثل ما قام به فى أول الكتاب ، أو أن يكون الناسخ الأول للكتاب قد اختصر فى تراجمه الأخيرة ، ومع ذلك لا يمكن إنكارها لأننا نرى صاحبنا يتحدث فيها عن أحداث ومواقف من صميم سيرته الشخصية وحياته الخاصة . يقول عن الكاتب الأديب النحوى ياقوت بن عبد الله بالجزء التاسع عشر .

(٢) « ... وتوفى فى السنة التى عدت فيها من خوارزم إلى الموصل سنة

---

(١) مجلة الثقافة السنة ١٩٥٢ العدد ٦٩٢ فى ١٩٥٢/٣/٣١ ص ١٤

(٢) معجم الأدباء ج١٩ ص ٣١٣

ثمان عشرة وستمائة عن سن عالية » . إننا نؤكد أن العديد من التراجم مفقود ، ونقرر فى الوقت نفسه أن التراجم الموجزة من عمل ياقوت ومن صنع يراعه .

٤ — من مناهج ياقوت فى هـــذا المعجم أنه اهتم بتواريخ المواليد والوفيات لمن يترجم لهم ففى المقدمة يقول :

(١) « ولم آل جهداً فى إثبات الوفيات وتبيين المواليد والأوقات » إن العبارة هنا دقيقة ومحددة ، فهو قد قدم الوفيات على المواليد فى الذكر لأنه يعلم أن الميلاد صعب الضبط ، عسير التقييد بخلاف الوفاة ، لأن الشخص عندما يولد لا يعلم ماذا يكون من شأنه ومستقبله ، فلا تكون هناك حاجة أو ضرورة إلى الاهتمام بتاريخ مولده ، فإذا مات تكون شهرته أومكانته دالة عليه ، ومنبهة إليه .

ولقد اهتم كتاب التراجم ومؤرخو الإسلام بالوفيات أكثر من المواليد لهذا السبب ، ويشهد بذلك عدد كبير من المؤلفات جعلت جل اهتمامها البحث عن الوفيات ، وصدرت عناوينها بالإشارة إلى ذلك مثل « وفيات الأعيان » و « الوافى بالوفيات » .

ومن الصفحات الأولى لهذا المعجم نشاهد الاهتمام بتحرى المواليد والوفيات ففى نقد ياقوت لكتاب من الكتب التى أخذ منها ذكر أنه لم لا يستحسنه لأنه لايعبأ بالوفيات والأعمار .

وصاحبنا يؤرخ الميلاد أو الوفاة باليوم من الأسبوع والتاريخ من الشهر والسنة يقول فى ترجمته لنصر بن الحسن العيلانى :

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٩

« (١) وقد أدركته صغيرا ولم ألقه توفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة » .

وفى ترجمته للعماد الأصبهانى يقول :

« (٢) ولد بأصبهان يوم الإثنين ثانى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة ونشأ بها » .

ويذكر أحيانا التاريخ من الشهر والسنة ولا يذكر اليوم يقول فى ترجمته للمبارك بن المبارك الكرخى :

« (٣) مات فى ثامن ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، أدركت زمانه ولقيت ببغداد أوانه إلا أنى لم أره لصغر السن حينئذ ، والاشتغال فى ذلك الزمان بغير هذا الشأن » .

وفى بعض الترجمات لا يذكر من تاريخ الميلاد أو الوفاة إلا السنة يقول فى ترجمته لمحمد بن يحي التميمى :

« (٤) ... فاستوطن سرقسطة إلى أن مات بها سنة عشرة وأربعمائة » .
كما تأتى بعض الترجمات المختصرة التى لم يطل فيها نفس ياقوت بدون ذكر لتاريخ الوفاة أو المولد مثل ترجمته لأحمد بن أعثم الكوفى وأحمد ابن أبى الأسود القيروانى .

ولياقوت منهج فى إثباته للمواليد والوفيات يكشف عن دقته وتحريه

---

(١) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٢٢
(٢) المرجع السابق ج ١٩ ص ١١
(٣) المرجع السابق ج ١٧ ص ٥٦
(٤) المرجع السابق ج ١٩ ص ١٠٨

وفى سبيل ذلك نراه يسأل المترجم لهم من معاصريه عن تاريخ ولادتهم ، ففى ترجمته لإبراهيم بن محمد الخوارزمى يقول :

« (١) سألته عن مولده فقال : كانت ولادتى فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين وخمسمائة » .

كما كان يستخبر الناس عن تاريخ وفاة من يترجم لهم ، ويقول فى ترجمته لأحمد الفرغانى .

« (٢) وكانت وفاته — كما أخبرنى المصريون بها — فى سنة اثنتى عشرة وستمائة عند كونى بها » .

كما نجد صاحبنا يربط بين وفاة أحد الأعلام المترجم لهم . وبين بعض الأحداث التى وقعت له فى حياته ، يقول فى ترجمته لياقوت بن عبد الله الرومى :

« (٣) وتوفى فى السنة التى عدت فيها من خوارزم إلى الموصل سنة ثمان عشرة وستمائة » .

غير أن صاحب معجم الأدباء لا يسلم بما ينقـــله عن الآخرين من تواريخ المواليد والوفيات ، ولكنه يتبع المنهج العلمى الدقيق فى التحرى والتحقيق ، ففى ترجمته لأحمد بن فارس بن زكريا اللغوى ينقل عن ابن الجوزى تاريخ وفاته وهى سنة « تسع وتسعين وثلاثمائة » ثم يقول بعد ذلك :

---

(١) معجم الأدباء جـ ٢ ص ١٥

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٠٦

(٣) المرجع السابق جـ ١٩ ص ٣١٣

(١) « ووجد بخط الحميدى أن ابن فارس مات فى حدود (٢) سنة ستين وثلاثمـائة ، وكل منهما لا أعتبار به ، لأنى وجدت خط كفه على كتاب «الفصيح» تصنيفه ، وقد كتبه فى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة » .

وأنا أرى أن معرفة ياقوت بالخطوط وكثرة بحثـه وأطلاعه جعلته يتعرف على خط ابن فارس ، فلا يسلم بمـا وصل إليه من تواريخ ليقرر التاريخ الحقيقى لوفاته بعـد ذلك وهو « شهر صفر سنة خمس وتسعين وثلاثمائه .

لم يكن يكتفى بسؤال الشخص عن مولده أو سؤال آخر عن تاريخ وفاة من يترجم له وإنما كان يسأل كثيرا من العارفين ويكرر الأسئلة ويتحرى الحقيقة حتى يهتدى إلى وجه الصواب .

يقول بصدد ذلك :

(٣) « وكنت بحلب فى سنـة إحدى عشرة وستمائة ، فى منزل القاضى الأكرم ، والصاحب الأعظم أبى الحسن على بن يوسف ، بن إبراهيم الشيبانى فتجاربنـا أمر الجوهرى ، وما وفق له من حسن التصنيف ، ثم قلت له : ومن العجب أنى بحثت عن مولده ووفاته بحثـــا شافيا ، وسألت عنهما الواردين من نيسابور ، فلم أجد مخبرا من ذلك » .

لقد كشفت هـــذه العبارة عن اهتمام ياقوت بالبحث والتحرى عن تاريخ يمكن أن يتجاهله ولـكنه بحاثه مدقق لا يهدأ له جفن حتى يصل إلى الحقيقة ولو كانت تاريخا لمولد أو وفاة .

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ١٠٦

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٨٢

(٣) معجم الأدباء ج ٦ ص ١٥٨

٥ ـ أعتمد ياقوت على عدة وسائل فى جمع مادته العلمية لتأليف هذه الموسوعة الكبيرة فى تراجم الرجال .

أولها : الرسائل الخاصة التى كان يتلقاها من العلماء فى ذلك الوقت ، فالمعروف عن ياقوت أنه صاحب موهبة وفن فى كتابة الرسائل ، فهو يكتب إلى معارفه من المشتغلين بالعلم والأدب ويتلقى الرسائل التى يأخذ منها الفوائد والأخبار التى يضمها لتراجمه عن الرجال ، كما كان يطلع على الرسائل المتداولة بين الأدباء ليتلقى منها ما يفيده من أخبار ، وكان ينقد بعضها رغم إفادته منها ، ففى ترجمته للحسين بن على بن ناهوج الأسكاف يعرض لعدة رسائل متداولة بين العلماء ويذكرها مع نقده لها .

إن معجم الأدباء عامر بالرسائل التى تلقاها ياقوت من الآخرين ، والنموذج الآتى يوضح ما فى هذه الرسائل من أخبار وآراء تتعلق بشخص المترجم له .

(١) « كتب إلينا القاضى الأشرف يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيبانى القفطى من بلاد اليمن ، وكان قد سافر إلى هناك وأقام ، قال : مما أخبركم به أن أبا إبراهيم إسحاق الفارابى ، مصنف ديوان الأدب ممن ترامى به الأغتراب ، وطوح به الزمان المنتاب إلى أرض اليمن ، وسكن زبيد ، وبها صنف ديوان الأدب ، ومات قبل أن يروى عنه ، وكان أهل زبيد قد عزموا على قراءته عليه فحالت المنية دون ذلك ، قال : وكانت وفاته فيما يقارب سنة خمسين وأربعمائة والله أعلم » .

ثانيا : السماع عن العلماء الذين التقى بهم فى البلاد التى أقام فيها أو ارتحل إليها وربما سمع من الشخص الذى يترجم له ، ولكنه لا يكتفى بما سمعه

---

(١) معجم الأدباء جـ٢ صـ ٦٢

منه بل يلجأ إلى الآخرين لاستخبارهم عما سمع ففى ترجمته لأسعد بن مهذب مماتى قال :

(١) « وكان له نوادر حسنة حادة ، منها ما حدثنى به الصاحب القاضى الأكرم قال ... » .

ويذكر ياقوت النادرة .

ولقد ذكر صاحبنا بعض الرواة الذين تناقلوا بعض الأخبار التى سمعها ولا تطول الرواية عموما فيما يذكره من إسناد قال فى ترجمته لعلى ابن عبدالله الناشىء :

(٢) « قال ابن عبد الرحيم ، حدثنى أبو عبد الله الخالع قال : حدثنى الناشىء قال : كان جدى وصيف مملوكا ... » .

ويذكر الرواية .

ثالثا : الكتب والمؤلفات ، وهى التى تعنى بالذكر عند الحديث عن المراجع والمصادر ، ومعجم الأدباء من أوائل المؤلفات العربيـــة التى أهتمت بذكر مراجعها فى مقدمة الكتاب ومتنه ، ففى المقدمة نرى ياقوتا ينبه على أهم الكتب التى أستفاد منها ونقل عنها ولم يكتف بذلك بل وقف منها موقف الناقد الصيرفى يكشف عن أقدارها ، ويبين قيمتها فيقول عن كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدى :

(٣) « ثم جمع فى ذلك أبو بكر محمد بن حسن الإشبيلى الزبيدى كتابا

---

(١) المرجع السابق جـ ٦ صـ ١١٨
(٢) معجم الأدباء جـ ١٣ صـ ٢٨١
(٣) المرجع السابق جـ ١ صـ ٤٧

لم يقصر فيه ، وهو أكثر هذه الكتب فوائد وأكثرها تراجم وفوائد ، وقد نقلنا فوائده أيضاً إلى هذا الكتاب » .

فلم يكن صاحبنا حاطب ليل فيما يتصل بمراجعه ومصادره ، ولكنه كان يتخيرها بدقة وينقدها بعناية ويتحرى أكثرها صوابا ، قال فى مقدمة معجمه الأدبى :

(١) « من كتب العلماء المعول فى هذا الشأن عليهم ، والمرجوع فى صحة النقل اليهم » .

ولم يقتصر على ما ذكره من مراجع ومصادر فى المقدمة ولكنه فى كل موطن من الكتاب يروى فيه خبرا أو ينقل أثرا يذكر مصادره ومراجعه فنشاهده يقول مثلا :

« قال السمعانى فى النسب ... » و « قال ابن جنى فى الخصائص » و « قال أبو حيان فى كتاب محاضرات العلماء .... » و « قال محمد بن إسحاق النديم فى كتابه الفهرست .. » و « ذكر ابن عساكر فى تاريخ دمشق... » وهكذا .

ولقد ذكر ياقوت فى معجمه كثيرا من المؤلفات ، واحتفظ بنصوص كثيرة منها قد ضاع فيما ضاع من تراث العرب ، ولم نعد اليوم نعرف عن كثير منه إلا اسمه فقط .

ولقد سار ياقوت على منهج صحيح فى التأليف عندما ذكر مواضع نقله ومواطن أخذه من كتب الآخرين قال :

(٢) « وأثبت مواضع نقلى ومواطن أخذى » فى ترجمة على بن المبارك

---

(١) المرجع السابق جـ ١ صـ ٤٩ (٢) معجم الادباء جـ ١ صـ ٤٩

اللحيانى صاحب كتاب النوادر ينقل ياقوت عن أبى الطيب اللغوى ويثبت موضع نقله قال :

(١) « .. قال أبو الطيب اللغوى فى كتابه مراتب النحويين ، وممن أخذ عن الكسائى أبو الحسن على بن حازم الحتلى اللحيانى من لحيان بن هذيل ابن مدركة بن إلياس بن مضر صاحب كتاب النوادر » وبالرجوع إلى كتاب مراتب النحويين نجد ياقوتا ينقل عنه بصدق وأمانه ثم يضيف إلى مانقله بما يساعد على إتمام الخبر حتى يسير بكتاباته نحو الكمال .

قال أبو الطيب :

(٢) « وممن أخذ عن الكسائى أبو الحسن على الأحمر وأبو الحسن على ابن حازم اللحيانى من بنى لحيان صاحب النوادر » .

ومما يتعلق بمسألة الكتب أيضا نؤكد أن صاحبنا إذا ترجم لعلم من الأعلام ذكر مؤلفاته قلت أم كثرت ليكون القارىء على علم بانتهاج المترجم لهم ، ففى ترجمته لأحمد بن عبد الله الرقى ذكر ياقوت أن ما عمله من كتب هذا الرجل هو خمسة وتسعون كتابا ثم يذكرها بالاسم مكتملة وهذا بلا شك عمل ضخم وانتاج غزير من هذا المؤلف وحرص فى الوقت نفسه من ياقوت على إيراد هذا العدد الكبير من المؤلفات .

وفى ترجمة على بن محمد المدائنى ذكر أسماء كتبه التى صنفها فاستغرق ذكرها إحدى عشرة صفحة من المعجم .

---

(١) المرجع السابق جـ ١٤ صـ ١٠٦

(٢) مراتب النحويين صـ ١٤٢ دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٤ م تحقيق الاستاذ « محمد أبو الفضل إبراهيم » .

وهو لا يكتفى بذكر وإحصاء المؤلفات للمترجم لهم وإنما يعمد إلى نقد بعضها وبيان موضوعها ، ويذكر إذا كان قد اطلع عليها أم لا .

٦ — فى الترجمة للأعلام الشعراء يذكر ياقوت بعضا من أشعارهم من قصائد ومقطوعات مع التعليق عليها ونقدها وبيان قيمتها ، والموازنة بينها وبين غيرها أحيانا .

وهو يعتمد على ذوقه فى الاختيار .

ولا يقتصر اختياره على فن واحد من الشعر بل يختار من كل الفنون من مدح ورثاء وغزل وهجاء .. إلخ ، ويختار من كل الأقطار ومن كل العصور فالمعجم بلا شك سجل حافل وديوان كبير لفنون الشعر بعامة حتى القرن السابع الهجرى .

ففى مجال القصائد الطويلة نرى قصيدة البحترى وهى من غرر الشعر فى الأوصاف يقولها فى وصف ديوان كسرى ، واستغرقت أربع صفحات من الكتاب .

وفى ترجمة الحسين بن على الأصبهانى الطغرائى أورد ياقوت له عددا من القصائد الطوال وقدم لإحداها فقال :

(١) « ومن شعر مؤيد الدين الطغرائى قصيدته التى تداولها الرواة وتناقلتها الألسن ، المعروفة بلامية العجم ، وقد رأيت أن أوردها بتمامها إعجابا بها قال :

أصالةُ الرأى صانتنى عن الخطل
وحلية الفضل زانتنى لدى العَطَل

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٠ ص ٥٩

مجدى أخيرا ومجدى أولا شَرَعٌ
والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطَفَل(١)

الأبيات :

وفى ترجمة الحسين بن عبد الله البغدادى تتجلى معرفة ياقوت للشعر رواية ودراية يقول :

(٢) « وهو صاحب القصيدة الرائية التى نسبت للشيخ الرئيس ابن سينا وليست له » ، وقد ذلت هذه القصيدة على علو كعبه فى الحكمة والاطلاع على مكنوناتها ، وقد سارت بها الركبان وتداولها الرواه وهى . . . » ويذكر القصيدة .

ولقد بلغ غرام ياقوت بالشعراء مداه فى ترجمته للحسين بن الحسن الواسانى فتكاد الترجمة تقتصر على قصائد الشعر إلا من سطور قليلة كشف فيها عن هوية الرجل تقرأ له :

(٣) « ومن أجود شعره قصيدته النونية التى وصف بها دعوة عملها فى خرايا من قرى دمشق قال :

من لعين تجود بالهَمَلان   ولقلب مـدلة حيران(٤) ؟
يا خليلى اقصرا عن ملامى   وارثيا لى من نكبتى وارحمانى

---

(١) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب ، والعطل : الخلو من الشىء ، وشرع : سواء ، رأد : وقت ، والطفل : الشمس قرب الغروب .
(٢) معجم الأدباء حـ١٠ صـ٢٤
(٣) المرجع السابق حـ٩ صـ٢٢٣
(٤) الهملان : الفيض .

ويختار منها مائة وسبعة وثلاثين بيتا ثم يقول بعد انتهائها :

(١) « والقصيدة كلها غرر ولطائف ، أجاد وأحسن فيها كل الإحسان وأبان عن مقاصده بها أحسن بيان »

ويعرض لقصيدة أخرى طويلة نحو مائه وأربعين بيتا ويختار منها الأبيات التى تتناسب مع ذوقه وميوله .

وإذا اختار ياقوت نماذج من شعر الهجاء حـــرص على أن يكون المختار خاليا من المجون والسخف مما يكشف عن خلق فاضل وذوق رفيع متحضر ، لذا نراه يقول فى ترجمة حماد عجرد :

(٢) « وكان بين حماد وبشار بن برد ومطيع بن إياس أهاج كثيرة أعرضنا عن ذكرها لما فيها من السخف والمجون »

كما حفل المعجم بالعديد من المقطوعات الشعرية التى اختارها ياقوت بعناية للتعبير بها عن موهبة من يترجم لهم .

وتكاثر استعانته بالمقطوعات ليتمكن من التمثيـــل لكل فنون الشعر التى برع فيها من يترجم له ، فليس من منهجه أن يكتفى بقصيدة طويلة لشاعر فى المدح مثلا ويترك فنون شعره الأخرى دون أن يمثل لها ، وهنا يلجأ إلى المقطوعات أو الأبيات المفردة ولقد تعرض صاحبنا لمسائل نقدية متعددة من خلال اختياره للنماذج الشعرية .

٧ — ومن مناهج ياقوت فى هـذا المعجم أنه يذكر نسب من يترجم لهم وشيئا من أخبارهم التاريخيـة وبعض نكاتهم ومنثورهم ما هو مرآة للحياة الأدبية والعلمية والاجتماعية فى الأعصار الستة الأولى للإسلام .

---

(١) معجم الأدباء جـ٩ صـ٢٦٣

(٢) المرجع السابق جـ١٠ صـ٢٥٣

فى الأنساب ألف صاحبنا كتابه « المقتضب من جمهرة النسب ، وهو ذو أذن واعية وعقلية مدركة حافظة لمعظم أنساب العرب وغـــيرهم من الأعاجم الذين اتصل بهم ، وعاش بينهم ، وعرف لغتهم ، وعند الخوف من خيانة الذكرة يلجأ إلى المؤلفات العربية التى اهتمت بالأنساب ودونتها كى تسعفه فى تتبع نسب من يترجم له

ومعجم ياقوت حافل بالأعلام الذين يترجم لهم مع الإطالة فى ذكر أنسابهم .

فى ترجمته لعلى بن هبة الله بن ماكولا يذكر نسبه فيقول :

(١) « هو على بن هبة الله بن جعفر بن علكان بن محمد بن دلف ابن أبى دلف القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمرو شيخ بن معاوية بن خزاعى بن عبد العزيز بن دلف .. »

ويواصل كتابته عن نسبه ثم يبين شهرته وأباه وعمـــه ليربط بين الجميع قال :

(٢) « المعروف بابن ماكولا ، وهو ابن الوزير أبى القاسم هبة الله بن ماكولا وزير جلال الدوله بنى بويه ، وكان عمه أبو عبد الله الحسن بن جعفر قاضى القضاة ببغداد ... إلخ »

وفى ترجمة أحمد بن على بن المأمون لجأ ياقوت إلى ابن له فأخذ منه جزءا مكتوباً بخط والده اعتمد عليه صاحبنا فى النسب والترجمة فتمكن من كتابة نسبه فى صفحة ونصف وأخباره فى أكثر من ثمانى صفحات ، قال :

---

(١) معجم الأدباء جـ١٥ صـ١٠٢

(٢) المرجع السابق جـ١٥ صـ١٠٢

(١) « سألت ولده أبا محمد ، وعبد الله بن أحمد عنه ، فأعطانى جزءا بخط والده هذا وقد ضمنته ذكر نفسه ، وذكره ، فنقلت منه جميع ما أذكره فى هذه الترجمة إلا ما أبينه فقال : أنا أحمد بن على بن هبة الله .. » إلى آخر نسبه .

وإذا كان ياقوت يهتم بالأنساب فإنه لم يغفل الألقاب ، ولكنه ينبه عليها ، ويهتم بها ، وإذا ترجم لرجل يشترك مع آخرين فى لقب من الألقاب ذكرهم جميعا وفرق بين أسمائهم .

يقول فى ترجمته لعلى بن سليمان الأخفش :

(٢) « وهو الأخفش الصغير ، وهناك الاخفش الأكبر ، وهو أبو الخطاب عبد الحميد وقد ذكر ، والأوسط ، هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة ، وقد مر فى بابه ، وهناك أخفش آخر ، وهو عبد العزيز بن أحمد المغربى الأندلس وقد ذكر فى بابه أيضا .. » .

نقل صاحبنا كثيرا من أخبار الرجال عن طريق الأدب والعلم التى ذاعت وانتشرت فى عصره ، ففى ترجمة على بن الحسن المعروف بشميم الحلى ينقل بعضا من أخباره عن الفقيه الآمدى .

والخبر صورة من مجلس أدبى ارتفع عليه لواء الشعر ، قال :

(٣) « حدثنى الفقيه قال : بلغنى أن الحلى قدم إلى أسعرت فتسامع به أهلها فقصدوه من كل فج ، وكان فيهم رجل شاعر فأنشده الرجل شعرا استجاده الحلى فقال لقائله : إنى أرفع هذا الشعر عن طبقتك ، فإن كنت فى دعواك صادقا فقل فى معناه الآن شيئا آخر ففكر ساعة فقال :

---

(١) المرجع السابق جـ٤ صـ١٧٥

(٢) المرجع السابق جـ١٣ صـ٢٤٦

(٣) المرجع السابق جـ١٣ صـ٦٦

وما كل وقت فيه يسمح خاطرى
بنظم قريض يقتضى لفظه معنى
ولم يبح الشرع المبــين تيمما
بترب وبحر الأرض فى ساعة معنا

فقال له الحلبى : ويحك اسجد ، ويلك اسجد ، فإن هذا موضع من مواضع سجدات الشعر ، وأنا أعرف الناس بها » .

وفى ترجمة بكر بن محمد المازنى النحوى ينقل ياقوت عن المبرد والزبيدى والأصفهانى وغيرهم بعضاً من مجالس اللغة والنحو والأدب، والأمثلة كثيرة جداً ، لأن الأدب فى العصر العباسى قد قوى وازدهر لأسباب كثيرة منها تشجيع الخلفاء والأمراء وفتح مجالسهم لزعماء الشعر ورواة الأخبار فلا ننسى ما كان يدار فى مجالس سيف الدولة وهارون الرشيد والواثق وغيرهم.

ولقد اعتنى ياقوت بتصوير هذه المجالس ونقل ما كان يدار فيها اعتماداً على رواة ثقات أو تآليف صحيحة فى الأدب ونقده ، ولذا نرى معظم تراجمه للأعلام لا تخلو من تصوير لهذه المجالس التى امتدت إلى عهده ، وكان هو نفسه واحـداً من الذين شاركوا فى إدارة هذه المجـالس الأدبيـة برفقة أصدقائه فى مرو وبغداد وحلب وغيرها .

كما اهتم ياقوت أيضاً بنقل الـكثير من المناظرات التى حفل بها العصر العباسى والتى اشترك فيها بعض الرجال المترجم لهم ، وتختلف المناظرة بين الطول والقصر حسب موضوعها وإلمـام ياقوت بهـا ففى ترجمة محمد بن إدريس الشافعى يسجل مناظرة بينه وبين إسحاق بن راهوية فى خمس صفحات ، وهى تدور حول فهم العقيدة من خلال القرآن والحديث النبوى وقد قدم لها ياقوت فقال :

« نقلت من تاريخ نيسابور للحاكم ، ومن كتاب مناقب الشافعى للآبرى

وجمعت بين الخبرين قصداً للإختصار مع نسبة كل قول إلى قائله»(١) ويذكر المناظرة بعد أن ذكر قبلها كثيراً.

ويختار العديد من المناظرات التي تختلط بالنوادر فتثير بذلك ضحك الناس، ففي ترجمته لعلي بن عبد الله الناشيء يعتمد على أبي عبد الله الخالع في رواية بعض المناظرات التي عرفت عن «أبي الحسين» كنية الناشيء، يقول:

(١) «ومنه حكايته المشهورة مع الأشعري الذي ناظره فصفعه فقال: ما هذا يا أبا الحسين؟ فقال: هذا فعل الله بك فلم تغضب مني؟ فقال: ما فعله غيرك، وهذا سوء أدب وخارج عن المناظرة، فقال: ناقضت: إن أقمت على مذهبك فهو من فعل الله وإن انتقلت فخذ العوض، فانقطع المجلس بالضحك وصارت نادرة.

قال عبيد الله الفقير إليه تعالى مؤلف هذا الكتاب: لو كان الأشعري ماهراً لقام إليه وصفعه أشد من تلك ثم يقول له: صدقت، تلك من فعل الله بي وهذه من فعل الله بك فتصير النادرة عليه لا له».

لم يكن ياقوت يسلم بالأخبار والروايات التي ينقلها عن الآخرين بل كان يوازن بين الرواية والرواية في كثير من المواضع فيقوى واحدة ويضعف الأخرى عندما يستند إلى دليل أو حقيقة تاريخية من نص موثوق به، ففي ترجمته لإبراهيم بن ممشاذ الأصبهاني يذكر روايتين الأولى تقول: إنه تسخط صحبة أولاد المتوكل فتركهم ولحق بيعقوب بن الليث، وتقول الثانية إنه أنفذ في أيام المعتمد رسولا عنه وعن الموفق إلى يعقوب

---

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢٩٣

(٢) معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢٨٥

ابن الليث، وهنا يجد ياقوت نفسه أمام روايتين فلا يسكت ويكتفى بإثباتهما فى كتابه وإنما يحكم عليهما بسند ودليل قوى لا يحتمل المناقشة فيقول:

(١) «قلت : والأولى من هاتين الروايتين أوضح فى أنه هو الذى لحق بيعقوب ، يدل على ذلك أنه كتب من عند يعقوب إلى المعتمد » :

أنا ابن المكارم من نسل جم
وحائز إرث ملوك العجم
وحي الذى باد من عزهم وعفّ عليه طوال القدم

إلى أن يقول فى هذه القصيدة :

فقل لبنى هاشم أجمعين هلموا إلى الخلع قبل الندم

فياقوت ذو عقلية تاريخية مدققة لا تقبل رواية على علاتها ، بل يوازن بينها وبين غيرها ، ويختار الأصح منها التى تستند إلى دليل أو حجة قوية .

ولا يجزم صاحبنا فى مسألة دون أن تكون لديه الأدلة القوية المتينة التى يستند عليها ، فإذا كان الدليل قوياً لديه وقابضاً عليه بكلتا يديه لجأ إلى أفعال اليقين والثبوت ، وإذا لم يتأكد من الخبر أو الرواية لجأ إلى أفعال الظن والحسبان .

ففى ترجمته لأحمد الباشانى يقول :

(٢) «المؤدب صاحب كتاب غريبى القرآن والحديث السابق إلى الجمع بينهما فى علمنا » .

---

(١) المرجع السابق حـ٢ صـ١٧
(٢) معجم الأدباء حـ٤ صـ٢٦٠

ويقول ترجمة أحمد الوارق :

(١) « صاحب الخط المليح الرائق ،والضبط المتقن الفائق أظنه ابن أبى الغنائم الأديب » .

إن هذه الأمثلة تكشف لنا بوضوح كم كان ياقوت دقيقاً فى استعمال ألفاظه وعباراته ، ودقيقاً أيضاً فى حكمه على الأخبار والروايات استناداً إلى الأدلة القوية وعندما يفقد الدليل يترك الألفاظ توحى وتعبر عن رأيه من تلقاء نفسها .

٨ — أهتم ياقوت فى معجمه برواية القصص والحكايات التى ينقدها ويحكم عليها ، وهى تختلف طولا وقصراً ، وحقيقة وخيالا ففى ترجمته للحريرى يروى عنه بعض الحكايات من خلال مقاماته ، ويعرض لقصة المقامة الحرامية ، ويصف كتاب المقامات للحريرى فيقول :

(٢) « فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الألفاظ وانقادت له نور(٣) البراعة حتى أخذ بأزمتها ، وملك ربقتها ، فاختار ألفاظها وأحسن نسقها حتى لو أدعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره(٤) ولا يرد قوله ، ولا يأتى بما يقاربها فضلا عن أن يأتى بمثلها ، ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والإتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر » .

روى صاحبنا بعض القصص التى تندر بها الرجال الذين يترجم لهم

---

(١) معجم الأدباء حـ ٤ صـ ٢٦٤

(٢) « « حـ ١٦ صـ ٢٦٧

(٣) نور : جمع نوار : وهى البقرة النافرة .

(٤) يدفع فى صدره : أى يزاحمه .

وأثبتها فى كتابه لانه يعرف أن الناس يتشوقون إلى سماع الحكايات وسردها والتحدث بها فى المجالس، وفى ترجمة أحمد الكاتب يروى واحدة منها فيقول :

(١) « حدثنى شيخ كبير قال : تنبأ فى مدينة أصبهان رجل فى زمن أبى الحسين بن سعد فأتى به ، وأحضر العلماء والعظماء والكبراء كلهم فقيل له من أنت ؟ فقال : أنا نبى مرسل فقيل له : ويلك : إن لكل نبى آية فما آيتك وحجتك؟ فقال: ما معى من الحجج لم يكن لأحد قبلى من الأنبياء والرسل، فقيل له : أظهرها : فقال : من كان منكم له زوجة حسناء ، أو بنت جميلة أو أخت صبيحة ، فليحضرها إلى أحبلها بابن فى ساعة واحدة فقال : أبو الحسين بن سعد : أما أنا فأشهد أنك رسول ، واعفنى من ذلك فقال له رجل : نساء ماعندنا : ولكن عندى عنز حسناء ، فاحبلها لى: فقام يمضى، فقيل إلى أين ؟ قال أمضى إلى جبرائيل وأعرفه أن هؤلاء يريدون تيسا ولا حاجة بهم إلى نبى » فضحكوا منه وأطلقوه » .

وفى ترجمة محمد بن أحمد الدقاق المعروف بابن الخاضبة يروى ياقوت حكاية عن السمعانى صاحب كتاب « الأنساب» وهى تصور ابن الخاضبة وهو فى عسرة وضيق يد ، وذات ليلة ، وهو يكتب لعبت أمامه فأرتان، ثم تقدمت إحداهما لتقدم له دينارا كل ساعة ، وفى النهاية أتت له بالجليدة التى كانت فيها الدنانير ووضعتها فوقها ثم أخذ الدنانير وصرفها فى مهم له. رأى ياقوت أن هذه الحكاية المروية عن شيخ جليل وعالم كبير عجيبة غريبة فذكرها وترك الناس تتندر بها قال :

« وهذه حكاية على ما يروى من الإستحالة ، وقد أوردتها أنا لثقة موردها وتحريه فى الرواية ، فإن صحت فقد فزت بحظ من العجب ، وإلا فاجعلها كالسمر تستمتع به » .

---

(١) معجم الأدباء ج ٣ ص ٣٩

٩ — ترجم ياقوت فى معجمة لكثير من الأدباء المعاصرين له فتمكن من الإحاطة بكثير من جوانب حياتهم ،والإلمام بكثير من أطراف سيرتهم بما لا ييسره البعد فى الزمن والتطاول فى المدى .

فالالتقاء بالأشخاص المترجم لهم فى حياتهم وأخذ أخبارهم عنهم مباشرة أوعن طريق ذويهم يسر لياقوت أن يحكم عليهم حكما صحيحاً بدون تحيز أو مجاملة على حساب الحق أو محاباة على حساب التاريخ .

ولقد التقى صاحبنا بالكثير من أهل عصره أخذ عنهم وترجم لهم فأنصفهم ولم ينتقص من أقدارهم ، قال فى سمية ياقوت بن عبد الله الرومى .

(١)«اجتمعت به فى الموصل سنة ثلاث عشرة وستمائة فرأيته على جانب عظيم من الأدب والفضل النباهة والوقار، وقد أسن وبلغ من الكبر الغاية ورأيت كتباً كثيرة بخطه يتداولها الناس ويتغالون بأثمانها بينها عدة نسخ من الصحاح للجوهرى والمقامات الحريرية » .

وترجم للقاسم بن الحسين الخوارزمى فأخذ عنه معظم الترجمة، كذلك محمد بن أحمد الانصارى ،والقاسم بن القاسم الواسطى، وعمر بن أحمد المعروف بابن العديم ، والقفطى ، والحسن بن محمد الكاتب وغيرهم كثير .

وفى كتابة ياقوت لمعاصريه لا يكتفى بذكر مؤلفاتهم وأقوالهم من شعر ونثر ، وإنما يلجأ إلى صفاتهم الخلقية فيقدم للقارىء صورة عنها كما شاهدها ولمسها بنفسه ، يقول فى ترجمته للحسن بن محمد الكاتب :

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٧ صـ ٢٣٠

(٢) المرجع السابق حـ ١٩ صـ ٣١٢

(١)« وكان — رحمه الله — من الأدباء والعلماء الذين شاهدناهم ، زكى النفس ، طاهر الأخلاق عالى الهمة . حسن الصورة ، مليح الشيبة ، ضخم الجثة ، كث اللحية طويلها ، طويل القامة ، نظيف اللبسة ، ظريف الشكل وهو ممن صحبته فحمدت صحبته ، وشكرت أخلاقه » .

وربما لم يتلق ياقوت بمعاصرين له وهم قلة بالنسبة للنوع الأول لحرصه على ملاقاة كل معاصريه والأخذ عنهم فى معظم البلاد التى ارتحل إليها .

فى ترجمته لمعاصره أسعد بن مهذب لم يذكر أنه التقى به ولهذا أخذ أخباره عن القفطى .

وفى ترجمته للمبارك بن محمد الشيبانى المعاصر له أيضاً نراه يأخذ مادة الترجمة عن أخيه عز الدين أبى الحسن على بن محمد بن الأثير .

أن تراجم ياقوت لمعاصريه تكشف عن دقته وتحريه للحقيقة العلمية فلم يتحيز ولم يجامل أو يتحامل على أحد بل كان ينأى عن اتهام أهل الظنون بما قد يحتاج إلى دليل ، وهو حينئذ يلجأ إلى صيغة البناء للمجهول أو إلى قوله « والله أعلم بصحة ذلك » .

نرى ذلك فى ترجمته لمعاصره محمد بن نصر الله الدمشقى الأنصارى فبعد أن ذكر مولده وأدبه وأخلاقه قال :

(٢)« ويقال : إنه يخل بالصلاة ويصل ابنة العنقود(٣) ، ورماه أبو الفتح ابن الحاجب بالزندقة والله أعلم بصحة ذلك » .

كان ياقوت على علاقة طيبة بأهل زمانه فلم ينتقص من أقدارهم ، ولم

---

(١) معجم الأدباء حـ ٩ ، صـ ١٨٤

(٢) « « حـ ١٩ ، صـ ٨٢

(٣) قوله : ويصل ابنه العنقود : كناية عن مداومة شرب الخمر .

يحاول الغض من شأنهم، ولكننى أتعجب من مبالغة ياقوت فى مدح القفطى والإشادة بكرمه وعطفه فى كل موطن يأتى له ذكر فيه ، ويبدو أنه أكرم ياقوتا وأحسن إليه فأراد صاحبنا أن يرد له الجميل بكلمات من الثناء والشكر .

١٠ — اتبع ياقوت فى معجمه منهج المعاينة التاريخية ، وأنا أعتقد أن هذا المنهج قد جاء إليه من كثرة الأسفار والرحلات العديدة، فهو قد يسمع الحكاية هنا والحكاية هنا وقد تختلف الحكايات عن شىء واحد فلا يجد صاحبنا إلا الإطلاع ومعاينة الأمر بنفسه لينفض الخلاف وتتقرر الحقيقة التى تؤكدها قوة المعاينة .

لقد ذكر فى مقدمة الكتاب أنه سيترجم فيه لأصحاب الخطوط المعينة من باب الحنين إلى سابق مهنته ، فإذا رأى خطاً لواحد من هؤلاء ذكر أنه رآه، ويحدد موضع الرؤية .

ففى ترجمته لعلى بن نصر الزنبق يقول :

(١) « رأيت بخطه كتباً أدبية لغوية ونحوية فوجدته حسن الخط متقن الضبط » .

وفى ترجمته لاحمد بن شرام الغسانى يقول :

(٢) « وكان جيد الخط والضبط ، صحيح الكتابة، وجدت خطه فى كتاب أمالى الزجاجى » .

وفى ترجمته لأحمد القرشى الوراق يقول :

(٣)« وإنما ذكرناه لما اشترطنا فى أول الكتاب ، من ذكر أرباب الخطوط المنسوبة ، فذكرناه لما وصفه به ابن عساكر من جودة الخط ، وأما أنا فلم أرى من خطه شيئا » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٥ صـ ٩٧

إن مميزات هذا المعجم كثيرة وليست مقصورة على ما سبق بيانه ففى اللغة نرى صاحبنا يهتم بفنونها من النحو والصرف وشرح الألفاظ وتوضيح التراكيب ، وفى الفنون الكلامية يتدخل فى مناقشة كثير من قضايا العقيدة والفلسفة والمنطق ، وفى البلاغة يترجم لأصحابها ، ويناقشهم فى علومها ومسائلها .

فالمعجم دائرة كبيرة للمعارف وموسوعة عامة فى الأدب وتراث ضخم فى اللغة وديوان زاخر بكل فنون الشعر ، هذا بالإضافة إلى مافيه من أخبار الرجال العام منها والخاص .

الفصل الرابع

معجم الأدباء

بين نزهة الألباء ووفيات الأعيان

بين معجم الأدباء و نزهة الألباء

— ١ —

ذكرت كتب التراجم أكثر من رجل ينسب إلى الأنبار ، أذكر منهم اثنين نالا شهرة أكبر من غيرهما لما قدماه من تآليف وتصانيف .

أولهما : أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى النحوى اللغوى الذى ألف كتباً كثيرة فى علوم القرآن واللغة والحديث والنحو مثل كتاب الأضداد وغريب الحديث والواضح فى النحو والسبع الطوال .

توفى ليلة النحر من ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة من الهجرة وله ترجمة فى معجم الأدباء ونزهة الألباء

ثانيهما : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبى عبيد الله بن سعيد الأنبارى الملقب بكمال الدين ، وهو أكثر من الأول تأليفا وشهرة فى عالم اللغة والأدب ، وهو صاحب كتاب « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء »

أخذ العلم عن أبيه فى الأنبار(١) ثم انتقل إلى بغداد وتلقى فيها عن شيوخ

---

(١) مدينة على الفرات ، وتوجد مدينة اخرى بهذا الاسم فى إيران .

أفذاذ منهم أبو منصور الجواليقى وابن الشجرى ، واستطاع أن يصل إلى درجة الإمامة فى العلم حتى يأخذ الناس عنه .

توفى ليلة الجمعة سابع شعبان — أو تاسع شعبان كما جاء فى بغية الوعاة — سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

ترجم له محقق نزهة الألباء ترجمة نقلها عن ابن قاض شهبة صاحب كتاب طبقات اللغويين والنحويين ، ثم ذكر مؤلفاته وأحصاها فى ستة وسبعين كتاباً ، وهى محصول كبير لهذا الرجل القدير ، قــدم لها محقق الكتاب فقال :

(١) « وحسبه من التاريخ أن سارت كتبه فى البلاد ، وتدارسها الناس على مر الأجيال وغنيت بها الخزائن ودور الكتب فى كل مكان » ومما ذكره منها .

١ — أسرار العربية « مطبوع »

٢ — الإغراب فى جدل الإعراب « مخطوط »

٣ — الإنصاف فى مسائل الخلاف بين نحاة الكوفة والبصرة «مطبوع»

٤ — نزهة الألباء فى طبقات الأدباء « مطبوع »

وروى له السيوطى فى البغية هذه الأبيات(٢)

إذا ذكرتك كاد الشوق يقتلنى ... وأرقتنى أحزانٌ وأوجاع

---

(١) نزهة الألباء لأبى البركات عبد الرحمن بن الأنبارى ص ه من المقدمة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — دار نهضة مصر ١٩٦٧ م

(٢) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطى ج ٢ ص ٨٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم — مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٦٤ م

وصار كلى قلوبا فيك دامية
للسقم فيها وللآلام إسراع
فإن نطقتُ فكلى فيك ألسنة
وإن سمعت فكلى فيك أسماع

— ٢ —

صدر كتاب نزهة الألباء فى طبقات الأدباء فى طبعته الأخيرة عام ١٩٦٨ م عن دار نهضة مصر للطبع والنشر بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم(١) الذى ذكر فى مقدمته لهذه الطبعة أنه لم يكتف بالرجوع إلى نسخ الكتب الخطية ، وإنما رجع أيضاً إلى الكتب التى نقل عنها ابن الانبارى والكتب التى شاركته فى موضوعه وذكر قائمة بها ومنها مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى ، ومعجم الأدباء لياقوت .

ولقد تصفحت الكتاب فوجدت ميزة فى تحقيقه لاتتوفر لكثير من كتب التراجم المطبوعة وهى ذكره لطائفة مع المراجع والمصادر التى كتبت عن الرجال الذين يترجم لهم فى الكتاب ، فإذا بدأ ابن الانبارى حديثه عن رجل ذكر المحقق كل المراجع التى كتبت عنه بأرقام أجزائها وصفحاتها .

فعند الترجمة لأبى الأسود الدؤلى ذكر المحقق اثنين وخمسين مرجعا كتبت عنه . ولقد سار على هذا النهج فى كل الأعلام التى ترجم لها ابن الأنبارى .

---

(١) خدم الاستاذ محمد أبو الفضل المكتبة العربية بمجموعة كبيرة من كتب التراث قام بتحقيقها ، ودفعها إلى المطبعة لترى النور وتصل إلى أيدى القراء بعد عهود طويلة من الحبس والاختزان لعل منها بعد نزهة الألباء ، إنباه الرواة ، ومراتب النحويين وطبقات النحويين واللغويين وبغية الوعاة وغيرها كثير .

وهذا الكتاب عام فى الترجمة لكل طبقات الرجال ، وإن كانت نزعة صاحبه فى اللغة والنحو دفعته إلى الإكثار من تراجم اللغويين والنحاة والأدباء ، وقل أن تجد فيه لغير هؤلاء .

بدأ الكتاب بمقدمة مختصرة فى بضعة سطور حيث جعلها للحديث عن اسم الكتاب وموضوعه فلم يحدد فيها منهجاً ، ولم يرسم فيها خطة ، وإنما قال بعد أن حمد الله وصلى على نبيه :

(١) فقد ذكرت فى هذا الكتيب الموسوم بنزهة الألباء فى طبقات الأدباء معارف أهل هذه الصناعة الأعيان ومن قاربهم فى المعرفة والاتقان ، وبيان أحوالهم وأزمانهم على غاية من الكشف والبيان ، فالله ينفع به ، إنه الكريم المنان »

وأردف هذه المقدمة بمقالة من صفحة ونصف فى موضوع بعنوان : أول من وضع علم العربية فتكلم عن أبى الأسود وعن علم النحو .

ثم بدأ بعد ذلك تراجم الرجال حيث رتبها حسب سنى الوفاة ، لا حسب حروف الهجاء كما شاع فى عصره .

وصل عدد التراجم التى تكلم عنها صاحب نزهة الالباء إلى مائة وإحدى وثمانين ترجمة بدأها بأبى الاسود الدؤلى وختمها بترجمة ابن الشجرى ، والكتاب مطبوع فى أربعمائة وثمانين صفحة فى جزء واحد .

وإن كان ابن الانبارى لم يحدد منهجة فى المقدمة فإن تراجمه تكشف عن هذا المنهج الذى نشير إليه فيما يأتى :

١ — إذا ترجم لأحد الرجال ذكر نسبه باختصار ثم يشير إلى لقبه

---

(١) نزهة الألباء ص ٣

أو كنيته إذا كان من أصحاب الألقاب أو الكنى . يقول فى ترجمة عنبسة الفيل .

(١) « فأما عنبسة الفيل ، فهو عنبسة بن معدان، وكان معدان رجلا من أهل ميسان(٢)

ويقول فى ترجمة خلف الأحمر :

(٣) « وأما أبو جعفر خلف بن حيان المعروف بخلف الأحمر . فإنه كان مولى أبى بردة بن أبى موسى » .

٢ — يذكر ابن الأنبارى فى تراجمه للرجال الفنون التى برعوا فيها والمعارف التى اشتهروا بها أمام الناس، حتى يقف القارىء على حقيقة المترجم له من البداية ، يقول فى ترجمته لابن شقير :

(٤) « وأما أبو بكر أحمد بن الحسين بن الفرج بن شقير النحوى فإنه كان عالما بالنحو ، وكان على مذهب الكوفيين »

ويقول فى ترجمته لأبى بكر الصولى بعد أن ذكر كنيته واسمه :

(٥) « فإنه كان عالما بفنون الآداب ، حسن المعرفة بآداب الملوك والخلفاء حاذقا بتصنيف الكتب ، وكان نديما لجماعة من الخلفاء وجمع أشعارهم ودون أخبارهم »

٣ — إذا ترجم صاحب النزهة لأحد الأعلام ذكر شيوخه وتلاميذه يقول فى ترجمته لأبى بكر الصولى أيضا :

---

(١) نزهة الألباء ص ١٢

(٢) ميسان : إقليم واسع بين البصرة والكوفة .

(٣) نزهة الألباء ص ٦٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٥١

(٥) المرجع السابق ص٢٧٣

(١) « وأخذ عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب وأبى العباس محمد بن يزيد المبرد وأبى العيناء ، وروى عنه المرزبانى وغيره »

٤ — عندما يترجم لأحد الرجال يذكر بعض تصانيفه وتآليفه ليعرف الناس قدره ، وحتى يكون حكمهم عليه من واقع ماسود قلمه من صفحات

يقول فى ترجمة الثعالبى :

(٢) « وصنف كتباً كثيرة منها ، كتاب يتيمة الدهر ، وسحر البلاغة وكتاب فرائد القلائد ، وكتاب سر الآداب ، إلى غير ذلك من الكتب »

٥ — من صميم منهج هـــذا الكتاب أنه يذكر لمن يترجم لهم تواريخ الميلاد قليلا وتواريخ الوفاة غالباً ، وهو يكتفى بذكر السنة وربما ذكر اليوم والشهر إلى جانبها ، ففى ترجمته لعبد الله بن المعتز يقول :

(٣) « وولد لسبع بقين من شعبان سنة أربع وأربعين ومائتين . ثم يقول وقتل فى شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين »

وفى ترجمة ابن كيسان يكتفى بذكر تاريخ وفاته فيقول :

(٤)« وتوفى سنه تسع وتسعين ومائتين »

٦ — يذكر ابن الانبارى لمن يترجم له بعضا من أشعاره وشيئا من أخباره ، ليكون دليـــلا على ماتقدم من حقائق للرجال ، ففى ترجمته لأبى عبد الله اليزيدى يقول :

---

(١) المرجع السابق ص

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٥

(٣) المرجع السابق صـ ٢٣٤

(٤) نزهة الألباء ص ٢٣٦

(١)« وكان شاعراً مجيداً ، وله :

كيف يطيق الناس وصف الهوى
وهو جليـــل ما له قـــدر

بل كيف يصفو لحليف الهـوى
عيش ، وفيـه البين والهجـــر »

وله أيضاً :

الهوى أمر عجيب شأنه تارة يأس وأحيانا رجا
ليس فيمن مات منه عجب إنما يعجب ممن قـــد نجا

ومن الأخبار التى رواها ابن الأنبارى فى ترجمة المتنبى هذا الخبر الذى يكشف عن مقدرة أبى الطيب على الحفظ والادراك . يقول :

(٢)« وقال أبو الحسن محمد بن على العلوى كان المتنبى وهو صبى ينزل فى جوارى بالكوفة ، وكان أبوه يعرف بعبدان السقا ، يستقى لنـا ولأهل المحلة . ونشأ هو محباً للعلم والأدب والقراءة وأكثر من ملازمة الوراقين فأخبرنى وراق كان يجلس إليه ، قال لى :

ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان السقا قلت له : كيف ؟ قال اليوم كان عندى ، وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعى يكون نحواً من أربعين ورقة ليبيعه ، فأخـذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : أريد بيعه ، وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه ، فهذا يكون إن شاء الله تعالى بعـد شهر : فقال له ابن عبدان : فإن كنت قد حفظته فى هـذه

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٥

المدة ، فمالى عليك ، قال : أهب لك الكتاب . قال : فأخذت الدفتر من يده، فأقبل يتلوه على إلى آخره ، ثم استلبه ، فجعله فى كمـــه وقام ، فتعلق به صاحبه ، وطلب بماله فقال له : مالك إلى ذلك سبيل ، وقد وهبته لى . قال فمنعناه منه وقلنا : أنت شرطت على نفسك هذا للغلام ، فتركه » .

— ٣ —

يتفق معجم الأدباء ونزهة الألباء فى النواحى التالية :

١ — الترجمة لكل الطبقات التى اشتغلت بالعلم والأدب واللغة . فالكتاب من كتب التراجم العامة التى سبق الحديث عنها .

فلقد ترجم ابن الأنبارى ليونس بن حبيب وهو من أكابر النحويين، وترجم لأبى العلاء المعرى وأبى الطيب المتنبى وهما من أعظم الشعراء إن لم يكونا أعظم الشعراء فعلا ، وترجم لابن خالويه وهو من كبار أهل اللغة، وكتب عن الصاحب بن عباد ، وهو أديب مصنف مفكر شاعر صاحب بلاغـــة وفصاحة ، وكتب عن عالم القراءات أبى عبد الله اليزيدى وعالم الأنساب هشام بن الكلبى ، وإمام التفسير والحديث والبلاغة والنحو أبى القاسم الزمخشرى . فكتاب نزهة الألباء قد كثرت تراجمه لأهل اللغة والأدب والنحو ، وقلت أمام الطبقات الأخرى كما كشفت الأمثلة السابقة عن ذلك .

وإذا كان الكتابان قـــد اتفقا فى الترجمة لكل الطبقات فإن معجم الأدباء قـد توسع كثيراً فى طبقات المترجم لهم بحيث لم يترك ياقوت مشتغلا بالنحو واللغة والنسب والقراءة والأخبار والتاريخ إلا سلكه فى كتابه ثم ترجم للوارقين وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة .

والطبقات الأخيرة التى ذكرتها لم يدخلها ابن الأنبارى فى كتابه ، وإن النظرة إلى حجم الكتابين لتكشف عن سعة الباع وطول النفس فى معجم الأدباء .

٢ — اختلاف التراجم بين الطول والقصر ، ففى معجم الأدباء كتب ياقوت عن أحد الأعلام سطراً وكلمة ، وكتب عن الصاحب بن عباد مائة وخمسين صفحة ، وبين هذا وذاك تختلف أحجام التراجم طولا وقصراً ، وهكذا الحال فى نزهة الألباء ، تختلف تراجمه طولا وقصراً ، فلقد ترجم ابن الأنبارى لأبى بكر العطار النحوى فى سطر ونصف وهذه أقصر ترجمة فى الكتاب ، وترجم لأبى عبد الله العمانى فى سطرين ، وترجم للثعالبى فى خمسة أسطر وكتب عن الصاحب بن عباد ثلاث صفحات ، وكتب عن أبى الحسن الكسائى تسع صفحات أما ترجمته لأبى العلاء المعرى والمبرد ففى إحدى عشرة صفحة ، ولقد بلغ أبو سعيد الأصمعى القمة عند ابن الأنبارى حيث ترجم له فى ثلاث عشرة صفحة لتكون هذه الترجمة أطول ما كتب فى هذا الكتاب من تراجم الرجال .

٣ — كما يتفق الكتابان فى عدم ذكر الأسانيد والعنعنات فى الروايات التاريخية والأخبار الأدبية إلا فى حالات نادرة .

وإذا كانت مسألة ذكر السند ضرورية فى كتب الحديث والتفسير فإنها فى كتب الأدب والتراجم غير ذات موضوع ولا تدعو إليها ضرورة مقتضية ولا حاجة ملحة ، فالأخبار الأدبية أو قصائد الشعر التى تذكر فى هذين الكتابين ، وأمثالها لا تحتاج إلى ذكر سلسلة طويلة من الاسناد فى الروايات كما فعل الخطيب البغدادى فى كتابه الكبير « تاريخ بغداد » .

غير أن صاحب معجم الأدباء يثبت هذه الأسانيد فى أحيان قليلة

أو نادرة عند ذكر حالة من الأنساب يحتاج سردها إلى بعض العنعنات، ولكنها لم تطل كثيراً.

٤ — كما انفـــق الكتابان فى ذكر المواليد والوفيات للمترجم لهم وصاحب معجم الأدباء أكثر اهتماما بذكر المواليد، وله منهج واضح فى البحث عنها وتحريها حتى أنه كان يسأل المترجم لهم المعاصرين له عن تاريخ ولادتهم أو يسأل أصحابهم المتصلين بهم، وإذا بعد العصر والزمان بينه وبين المترجم لهم فلا يجد أمامه إلا المؤلفات فلا يختار إلا الصحيح منها حتى يصل إلى الحقيقة التى يطمئن إليها بينما نجد أكثر التراجم عند ابن الانبارى خالية من ذكر المواليد وهى تأتى له حسب ورودها فى كتب السابقين.

كما جاءت تراجم كثيرة عند صاحب النزهة عارية من ذكر تواريخ الوفاة وإذا كان قد رتب تراجمه على أساس التقدم فى زمن الوفاة فكيف وضع الرجال الذين ذكروا بدون تواريخ الوفاة فى مكانهم الذى شغلوه بالكتاب فلم يذكر تواريخ الوفاة لكل من المفضل الضبي وأبى عبد الله اليزيدى وأبى الحسن اللحيانى وأبى عبد الرحمن العدوي وغيرهم كثير، وهذا يوحى بشىء من الارتجالية فى ترتيب التراجم.

وكان صاحب معجم الأدباء أكثر اهتماما وأكثر دقة وتحرياً من صاحب النزهة، فنهج ياقوت هو منهج الباحث المدقق الذى يسأل الناس قبل الكتب ويعمد إلى الروايات فيحققها ويتحراها ويختار الأصوب من تاريخ الوفاة.

ولقد ترجم صاحب نزهة الألباء لمحمد بن أحمد بن كيسان وذكر تاريخ وفاته فقال:

(١)«وتوفى سنة تسع وتسعين ومائتين، وذلك فى خلافة أبى الفضل جعفر المقتدر بالله تعالى بن المعتضد»، واكتفى بهذه العبارة التى لم يحدد مصدرها.

ولما ترجم ياقوت لابن كيسان ذكر التاريخ السابق، ولم ينقله عن ابن الانبارى وإنما أخذه عن الخطيب البغدادى، قال:

(٢)«مات فيما ذكره الخطيب لثمان خلون من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين فى خلافة المقتدر».

وبالموازنة بين العبارتين نرى ياقوتاً قد ذكر اليوم والشهر زيادة عن ابن الأنبارى، والأهم من ذلك أنه حدد المصدر الذى نقل عنه، والأكثر أهمية أنه لم يكتف بالعبارة السابقة التى نقلها عن الخطيب، وإنما قال فى نهاية الترجمة بعد أن تعرض لبعض المسائل والتواريخ التى برع فيها قلمه قال:

(٣)«والذى ذكره الخطيب — لا شك — سهو فإنى وجدت فى تاريخ أبى غالب همام بن الفضل بن المهذب المغربى أن كيسان مات فى سنة عشرين وثلاثمائة».

ولقد قرأ ياقوت عن بعض المجالس التى حضرها ابن كيسان فى تاريخ متأخر عن الذى حدده الخطيب فاندفع إلى المراجع الأخرى التى أسعفته بالتاريخ الثابت المحقق.

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٣٥
(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ١٣٧
(٣) المرجع السابق ج ١٧ ص ١٤١

٥ — اتفق هذان الكتابان فى الاستشهاد ببعض آثار المترجم له من الشعر أو النثر ، ولكن صاحب المعجم كان أكثر استشهاداً وأوسع ميدانا من صاحب النزهة حيث كان فى أكثر الأحيان يذكر القصائد الطوال ، ويختار أكثر من قصيدة للمترجم له أما صاحب النزهة فإنه كان يكتفى بالبيت أو الأبيات ولم يذكر من القصائد فى كتابه إلا نحو ثلاث فقط جاءت اثنتان منها بمعجم الأدباء والقصيدة الثالثة لشاعر مشهور .

أحدهما لمحمد بن اليزيدى فى مدح مؤرج السدوسى عندما أهداه كساء ، والقصيدة من تسعة أبيات كما وردت فى النزهة والمعجم ومطلعها :

ساشكر ما أولى ابن عمرو مؤرج
وأمنحـــه حسن الثناء مع الود

أغـــر سدوسى نماه إلى العـــلا
أب كان صبا بالمكارم والمجد

وهذه هى القصيدة الوحيدة بالنزهة التى علق عليها ابن الانبارى قال :

(١)« ولو كانت هذه الأبيات فى مقابلة حلة من سندس الجنة لوفت بشكرها ، لما تضمنته من حسن ألفاظها ومعانيها ، ولقد كسا اليزيدى مؤرجا من ثياب ثنائه ما هو أنق وأبق من كسائه ، فرحمة الله عليهما » .

ثم يذكر ابن الانبارى قصيدة لأبى الحسن الحاجب ، وهى من ثلاثة عشر بيتا لتكون بذلك أطول شاهد من الشعر فى هذا الكتاب ، وهى فى المعجم أيضاً .

---

(١) نزهة الألباء ص ١٣٢

وقد قدم صاحب النزهة فى كتابه قصيدة ثالثة من تسعة أبيات فى مدح أبى البركات الشريف من أحد تلاميذه ، وهذه القصيدة هى التى لم تذكر بمعجم الأدباء .

ولقد وضع ابن الأنبارى كتابه مختصراً فلم يسمح بأن تحتله قصائد طويلة من الشعر .

إن كثيراً من التراجم المعقودة لكبار الشعراء جاءت خالية من الشعر تماما مثل ترجمة أبى الطيب المتنبي وترجمة أبى العلاء المعرى .

فى الترجمة للمبرد ذكر شعـــراً فى رثائه ونسبه لثعلب ، تقول الأبيات :

ذهب المبرد وانقضت أيامه   وليذهبن مع المبرد ثعلب

بيت من الآداب أضحى نصفه   خربا وباقى النصف منه سيخرب

فتزودوا من ثعلب فبكأس ما   شرب المبرد عن قريب يشرب

أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه   إن كانت الأنفاس مما يكتب(١)

وقطع النثر التى يختارها ابن الأنبارى قليلة جداً وأكثرها منقول عن الآخرين .

أما معجم الأدباء فهو موسوعة كبيرة وخزانة عامرة بقصائد الشعر ومقطوعاته من كل عصوره وفنونه وأقطاره ، اختارها ياقوت بعناية

---

(١) نسب ياقوت هذه الأبيات إلى أبى بكر بن العلاف فى ترجمة ثعلب اعتماداً على رواية ابن كامل القاضى مع اختلاف كبير بين الروايتين فى الكلمات وعدد الأبيات .

ونقدها بدقة اعتمادا على ذوقه وإحساسه ، كما انتقى كثيراً من الرسائل والخطب والأمثال لكبار الأدباء وزعماء الكلمة ليتفوق الكتاب على نزهة الألباء بل على نظرائه جميعاً بصدد هذا الاختيار .

٦ — اتفق الكتابان فى ذكر مؤلفات من يترجم لهم غير أن صاحب المعجم كان يستقصى كل المؤلفات بينما يكتفى صاحب النزهة بذكر بعضها .

ففى الترجمة لابن كيسان ذكرت نزهة الألباء كتبه فقالت :

(١) « وكان لابن كيسان مصنفات كثيرة منها المهذب فى النحو وشرح الطوال إلى غير ذلك » .

واعتبر الكتاب أن عبارة « إلى غير ذلك » كافية لبيان مؤلفات ابن كيسان أما ياقوت فلا يلجأ إلى مثل هذه العبارة وإنما يقول :

(٢) « وله من الكتب : كتاب المهذب فى النحو ، كتاب غلط أدب الكاتب ، كتاب مصابيح الكتاب ، كتاب الهجاء والخط ، كتاب غريب الحديث نحو أربعمائة ورقة ، كتاب الوقف والابتداء ، كتاب القراءات ، كتاب التصاريف ، كتاب الشاذانى فى النحو ، كتاب المسائل على مذهب النحويين ، كتاب ما اختلف فيه الكوفيون والبصريون ، كتاب الفاعل والمفعول ، كتاب المختار فى علل النحو ثلاث مجلدات أو أكثر . . . » .

وكان صاحب المعجم يتحرى عن كثير من المؤلفات فيذكر إطلاعه عليها وتأكده منها ، ولم نر هذه الميزة عند صاحب النزهة .

وإذا كتب صاحب المعجم عن كتاب ذكر موضوعه والخط الذى

---

(١) نزهة الألباء ص ٢٣٥

(٢) معجم الأدباء جـ ١٧ ص ١٢٩

كتب به وأجزاءه ، وعدد أوراقه فى عبارة موجزة تتناسب مع حجم الكتاب وأهميته .

كما يجعل ياقوت من بعض الكتب موضوعا لحديث طويل ممتد ، ويختار فى أحيان كثـــيرة بعض السطور من الكتب التى يتحدث عنها لتكون شاهد إثبات ودليل صدق على ما يقول وهناك أدلة كثيرة على هذه الحقائق .

يقول فى ترجمة العماد الأصبهانى :

(١) « وله من المصنفات : خريدة القصر وجريدة العصر ذيل به زينة الدهر لأبى المعالى سعد بن على الحظيرى الوراق ، جمع العماد فى هذا الكتاب شعراء الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية والمغرب وفارس ممن كان بعد المائة الخامسة إلى ما بعد سنة سبعين وخمسمائة ، وهو يدخل فى عشر مجلدات لطيفة » .

ثم يكتب بعد ذلك فى أكثر من صفحتين عن كتاب أنشأه العماد الأصبهانى عن صلاح الدين الأيوبى والأمثلة كثيرة .

إن ياقوتاً رجل عليم بالكتب وازن لأقدارها بصير بما فيها أما كتابه فهو موسوعة كبيرة فى أسماء الكتب ونفائس التراث العربى بالإضافة إلى تراجم الرجال .

أما وجوه الاختلاف بين الكتابين فنلاحظها فى المسائل التالية :

١ — سار ياقوت فى ترتيب معجمه على نظام حروف المعجم فبدأ بمن إسمه إبراهيم فأحمد وهكذا ، وإذا إتفق الرجال فى الأسم الأول لجأ إلى أسماء الآباء إلى غير ذلك .

وكنت قد ذكرت نقداً لهذا المنهج عند الحديث عن ملامح معجم

---

(١) المرجع السابق ج ١٩ ص ٢٠

الأدباء وأوضحت أن القارىء يصادف صعوبة ومشقة فى البحث عن ترجمة لرجل معين ، لأن الترتيب بحسب الأسماء لا بحسب الشهرة أو الكنى

فالذى يريد أن يصل إلى ترجمة أبى العلاء المعرى لابد أن يعرف اسمه واسم أبيه وهو أحمد بن عبد الله كما أنه لابد أن يسقط القارىء من حسابه لقب الصاحب بن عباد ويفتش عند ترجمته من خلال اسمه وهو « اسماعيل ابن عباد بن العباس » ولكن التردد كثيراً على المراجع وكتب التراجم ييسر هذه الصعوبة بالاضافة إلى الفهارس التى تحملها الطبعات الأخيرة لمعجم الأدباء وغيره من الكتب .

أما كتاب نزهة الألباء فأعلامه مرتبة حسب سنى الوفاة فأبو العباس محمد ابن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى المعروف بالمبرد يسبق أبا العباس أحمد بن يحيى بن يزيد بن سيار الشيبانى المعروف بثعلب لأن الأول توفى سنه خمس وثمانين ومائتين ، أما الثانى فوفاته فى إحدى وتسعين ومائتين .

وهذه الطريقة من وجهة نظرى صعبة معقدة بل هى أصعب من طريقة الترتيب الهجائى بكثير لأن الإنسان يمكن أن يحفظ قدراً كبيراً من الأسماء الأولى للأعلام ولا يتيسر له أن يحفظ تواريخ وفياتهم .

وكيف يكون الحال لو جهل ابن الأنبارى تواريخ الوفاة لعدد من الرجال ممن يترجم لهم — لابد أن تكون مسألة الترتيب عند ذلك ارتجالية وغير ذات موضوع وهذا ما حدث بالضبط — ذكر بعض الأعلام بدون أن يذكر تواريخ وفياتهم ، ولو كان هذا الكتاب موسوعة كبيرة لازداد الأمر تعقيداً ، ومع ذلك لا يلقى المتصفح لهذا الكتاب صعوبة كبيرة فى البحث عن مكان الترجمة لرجل من الرجال ، لأن الكتاب صغير الحجم قليل التراجم بالنسبه لغيره من الكتب وبطبعته الأخيرة فهرس ذكرت فيه أسماء الرجال إلى جانب ألقابهم وكناهم .

٢ ــ إذا كان الكتابان قد اتفقا فى اختلاف تراجمهما بين الطول والقصر فإنهما قد اختلفا فى حجم الترجمة للرجال فياقوت يكتب عن الرجل صفحة وصفحتين وعشرين صفحة ، بل إن كثيراً من الرجال كتب عنهم ياقوت أكثر من خمسين صفحة بحيث لا يترك شيئا من أخباره دون أن يحدث القارىء عنها .

ولقد ذكر ياقوت فى مقدمة كتابه أنه قصد صغر الحجم وكبر النفع ، ومع هذا القصد جاء الكتاب إموسوعة كبيرة فى تراجم الرجال ، ولم تقتصر السعة على طول التراجم بل شملت العدد الوفير فى التراجم ، إن ألفا وسبعين ترجمة ضمها هذا الكتاب ليست عملا هينا مع العلم بأن الكتاب لم يصل إلينا كاملا .

أما نزهة الألباء فإنه كتاب صغير الحجم يترجم للرجل فى نصف صفحة ، والتراجم التى تزيد عن هذا القدر ليست كثيرة ، وهو يعرف بالمترجم لهم عبارات موجزة مركزة منقولة فى معظمها عن الآخرين ، كما أنه يترجم المشاهير من أعلام اللغة والأدب والنحو ولا يتعداها إلى الطبقات الأخرى إلا نادراً .

٣ ــ عقد ياقوت مقدمة لكتابه من إحدى وعشرين صفحة ، وهى مقدمة طويلة لم أقرأ أطول منها مما تيسر لى الاطلاع عليه من كتب التراجم والطبقات ولقد ملأها صاحبنا بكثير من الفوائد ، ووضع فيها معظم مناهجه فى الترجمة للرجال فأعطى القارىء مفاتيح كتابه ينتقل بها من ترجمة إلى أخرى .

أما السطور المعدودة التى قدم بها ابن الأنبارى كتابه فلا تسمى مقدمة وإنما هى إفتتاحية الكتاب لم يعرض فيها منهجا ، ولم يشرح بها خطة ولا توازن بما كتبه ياقوت فى صفحات مقدمته .

٤ — ذكر ياقوت فى مقدمة معجمه مجموعة من الكتب التى اعتمد عليها ونقل منها ، وأشار فى متن الكتاب إلى ما اعتمد عليه من مصادر ومراجع مقرونة بأسماء أصحابها فتراه يقول مثلا « ذكره أبو الحسن البيهقى فى وشاح الدمية ... » و « قد ذكره أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبى فى كتاب يتيمة الدهر .. » و « قال أبو حيان فى أخلاق الوزيرين » .

فكتاب ياقوت حافل بمئات من أسماء المراجع والمصادر التى انقطعت صلتنا بها نتيجة اختزانها أو ضياعها ، وأمام هذا الضياع الذى لحق بكثير من تراث العرب حفظ لنا معجم الأدباء نصوصاً ونقولا كثيرة منسوبة لأصحابها ومحددة من أولها إلى آخرها .

أما ابن الأنبارى فلا يذكر مصادره ومراجعه لا فى المقدمة، ولا فى المتن ، ويكتفى بقوله :

« قال أبو عبيدة . . » أو « قال ابن سلام ... » أو « قال الجاحظ » دون أن يوضح ويحدد المراجع التى قالوا فيها مقولاتهم حتى يمكن الرجوع إليها والاستئناس بها .

ففى ترجمته لابن دريد ينقل عن الأدباء والمؤرخين فنشاهده يقول : « قال الحسن بن عبد الله بن سعيد اللغوى ... » و « حكى أبو القاسم الحسن بن بشير الآمدى ... » و « قال حمزة بن يوسف ... » إلى آخر الترجمة دون أن يذكر كتاباً أو مرجعاً لمن نقل عنهم .

وفى معجم الأدباء يترجم ياقوت لابن دريد فى سبع عشرة صفحة وينقل عن الآخرين بهذه الطريقة : « وقال أبو الطيب اللغوى فى مراتب النحويين .. » و « قال أبو منصور الأزهرى فى مقدمة كتاب التهذيب.. » و « ذكر أبو البيهقى المعروف بالسلامى فى كتاب النتف والطرف » و « قرأت بخط أبى سعيد السمعانى من المذيل . » و « قرأت فى التحبير » ، « وهو كتاب من مجموعة كتب كثيرة لأبى سعيد السمعانى ينقل عنها ياقوت » .

ويقول : «وقرأت فى التاريخ الذى ألفه أبو محمد عبد الله بن أبى القاسم عبد المجيد بن بشران الأهوازى » كما نقل عن كتب كثيرة ولم يشر إليها وإنما ذكر أصحابها .

فلقد ذكر فى ترجمة ابن دريد أيضاً نقـــولا عن الخطيب البغدادى وأبى على التنوخى ومحمد بن إسحاق النديم ولم يذكر معهم أسماء كتبهم فى هذه الترجمة لأنه لم يرد أن يقلق القارىء بين كل صفحة وأخرى فيذكر تاريخ بغداد مع الخطيب أو نشوار المحاضرة مع أبى على أو الفهرست مع محمد ابن إسحاق فهو يذكرها فى أحيان كثيرة ،ويتركها فى أحايين أخرى رحمة بالقارىء من تكرار لا داعى له .

ولم يكتف ياقوت بذكر مراجعه فى كتابه ، وإنما وقف منها موقف الناقد البصير فيكشف عن أقدارها ويزنها ويبين قيمتها كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

٥ — لا تظهر شخصية ابن الأنبـــارى فى نزهته إلا قليلا لأن معظم ما يكتبه عن الرجال منقول عن السابقين، واقتصر دوره على الترتيب والتنظيم لما جمعه من معلومات ومعارف .

وفى معجم الأدباء نرى صاحبنا ينقـل عن الآخرين ولكنه لا يسلم بالصحة الكاملة لما ينقله أو يصل إليه ، فهو يستخدم عقله ويجهد ذهنه فيما أمامه من روايات وأخبار .

فإذا تراجم لرجل ذكر مقدمة عنه فى بدء الترجمة يلخص فيها مذهبه، ويبرز مكانته ويقدمه للقارىء فى عبارات أدبية بليغة — نقرأ له فى بداية الترجمة لأبى حيان :

(١) « . . . . وكان جاحظياً يسلك فى تصانيفه مسلكه ويشتهى أن

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٥ ص ٥

ينتظم فى سلكه«هو شيخ فى الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة(١) ومحقق الكلام ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ، وعمـــدة لبنى ساسان ، سخيف اللسان قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، الذم شأنه والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه واسع الدراية والرواية» .

ولقد تحدثت قبل ذلك عن الكيفية التى كان ياقوت يتعـــامل بها مع الروايات فيقوى رواية ويضعف أخرى ويلجأ إلى أفعال الحسبان والظن عندما لاينتهى يقينه إلى الجزم فى مسألة ما ، ولا يكتفى بالقراءة للروايات وإنما يتحقق منها بالسؤال عنها إذا وجد مكنة إلى ذلك .

ففى ترجمة عمر بن أحمد المعروف بابن العديم يكتب عن بيت ينسب إليه هذا الرجل وهو بيت أبى جرادة التى اشتهر فى حلب وبرزت سمعته بمن نسب إليه من الأدباء والشعراء والفقهاء والعباد والزهاد ،وفى حديث ياقوت عن هذا البيت ينقل رواية عن واحد من أهل هذا البيت مفادها : أنه لايوجد واحد منهم إلى زمن النبى ﷺ دون أن يختم القرآن ، وكان يمكن لياقوت أن يكتفى بما جاء فى هذه الرواية ويسلم به ، ولكنه يلجأ إلى السؤال عنها فيقول :

(٢) «وهذه منقبة جليلة لا أعرف لأحد من خلق الله شرواها(٣) وسألت عنها قوما من أهل حلب فصدقوها» .

٦ — ترجم ياقوت لكثير من الرجال الذين عاصرهم حيث التقى بهم

---

(١) للدكتور زكى إبراهيم كتاب بعنوان : أبو حيان التوحيدى أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء .

(٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٦

(٣) شرواها : مثلها .

أو سمع عنهم ، وهذه المعاصرة أتاحت له أن يكتب عنهم بدقة من خلال منهجه فلم يجامل ولم يتحامل على أحد .

ولقد جعلت المعاصرة أحكامه صحيحة على الرجال محيطة بكثير من نواحى حياتهم ملمة بجوانب كثيرة من أطراف سيرتهم ، ونحن لم نعرف عنه إلا الدقة والأمانة عند الحكم على الآخرين فلم نره يجامل واحدلقربه منه أو يتحامل على أحد لمجرد الاختلاف فى رأى ، وإنما كان همه تقديم الكلمة الصحيحة والرأى الصائب .

والذين عاصرهم وترجم لهم فى كتابه كثرة كثيرة منهم أبو يعقوب السكاكى ويحي بن سعيد الشيبانى ويحي بن سعيدالبغدادى وابن سناءالملك والعماد الأصبهانى ومحمد بن عبد الله المرسى وأحمد الخورانى والقفطى يكتب ياقوت عن محمد بن عبد الله بن المرسى فيقول :

(١) (خرج من بلاد المغرب سنة سبع وستمائة ، ودخل مصر وسار إلى الحجاز ودخل مع قافلة الحجاج إلى بغداد ، وأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالنظامية ، ورحل إلى خراسان ، ووصل إلى مرو الشاهجان ، وسمع بنيسابور وهراه ومرو ولقى المشايخ وعاد إلى بغداد . وأقام بحلب ودمشق ورأيته بالموصل ثم حج ورجع إلى دمشق ثم عاد إلى المدينة فأقام على الاقراء ثم انتقل إلى مصر وأنا بها سنة أربع وعشرين وستمائة ولزم النسك والعبادة والانقطاع أخبرنى أن مولده بمرسية(٢) سنة سبعين وخمسمائة ... إلخ .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٨ ص ٢١٠

(٢) مرسية : بضم أوله ، وسكون الراء وكسر السين المهملة وياء مفتوحة خفيفة .

وهاء . مدينة بالأندلس (معجم البلدان) حـ ٥ ص ١٠٧

أما ابن الأنبارى فمنهجه فى نزهته يقتضى أن يكتب عمن توفوا ليدخلوا فى ترتيب الكتاب فلم يكتب عن معاصر له إلا ابن الشجرى الذى توفى قبل تأليف الكتاب بزمن طويل فلم يتيسر لصاحب النزهة من الكتابة عن معاصريه مثلما تيسر لياقوت فى معجمه .

هذه هى أهم الفروق بين كتاب من جزء واحد وآخر من عشرين جزءاً بين كتاب يكتفى فيه بالنقل عن الآخرين وآخر تبرز فيه شخصية المؤلف ويثبت وجوده ولا يغيب عن صفحات كتابه . فلكتاب نزهة الألباء فضل السبق ولمعجم الأدباء فضيلة الإجادة وحسن التبويب ودقة الاختيار .

بين معجم الأدباء ووفيات الأعيان

— ١ —

ولد أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان بإربل سنة ثمان وستمائة وسمع بها صحيح البخارى من ابن مكرم الصوفى وأجاز له المؤيد الطوسى ، وروى عنه المزى والبرزالى و تفقه بالموصل على ابن يونس، وأخذ بحلب عن ابن شداد .

قدم الشام فى شبيبته ثم دخل مصر وسكنها وناب بها فى القضاء ثم ارتحل إلى الشام لتولى مسئولية القضاء به فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة ولم يشغله القضاء عن قرض الشعر وكتابة التاريخ فعمل سيرة للملك الظاهر وأوصل نسبه بجنكيزخان .

ولابن خلكان أشعار رائعة فى موضوعات متعددة أختار منها هذه الأبيات :

كأننى يوم بان الحى عن إضم
والقلب من سطوات البين مذعور

ورقاء ظلت لفقد الإلف ساجعة
تبكى عليه اشتياقاً وهو مأسور

يا جيرة الحى هل من عودة فعسى
يفيق من نشوات الشوق مخمور

إذا ظفرت من الدنيا بقربكم
فكل ذنب جناه الدهر مغفور

توفى صاحب الوفيات فى سادس رجب سنة إحدى وثمانين وستمائة من الهجرة بعد أن ترك كتابه « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » شاهداً على عظمته ونبوغه ومقدرته على التأليف والاعداد .

— ٢ —

حظى هذا الكتاب بشهرة كبيرة لم يصل إليها كتاب يشاركه فى موضوعه فلقد ترجم إلى الفارسية فى القرن التاسع الهجرى ، وترجم إلى التركية فى القرن الثالث عشر الهجرى ، وترجم إلى الفرنسية فى القرن التاسع عشر الميلادى ، ونشر فى طبعات عديدة ، كان أولها بتحقيق المستشرق فرديناند وستنفيلد بين عامى ١٨٣٥ م ، ١٨٥٠ م فى اثنى عشر جزءاً ، ثم أضاف إليها الجزء الثالث عشر للزيادات فى النسخ المختلفة ، وللفهارس العامة .

ولقد اعتمد وستنفيلد على خمس مخطوطات مختلفة لهذا الكتاب ، واستطاع أن يوفق بينها ليصل عدد التراجم إلى خمس وستين وثمانمائة ترجمة .

أما الطبعة الأخيرة فقد قام بالتعليق عليها الدكتور إحسان عباس واستعان بتحقيق وستنفيلد للكتاب كما استأنس بمخطوطتين أخريين من المتحف البريطانى وجعل هذه الطبعة فى سبعة أجزاء وأضاف إليها جزءاً ثامناً خاصاً بالفهارس المفصلة ، وصدرت عن دار الثقافة ببيروت فى عام ١٩٦٨ م .

رسم ابن خلكان خطته لهذا الكتاب فى المقدمة الموجزة التى افتتحه بها ، وهى تقع فى صفحتين ونصف من القطع المتوسطة وأشار فيها إلى الكتاب فقال :

« (١) هذا مختصر فى التاريخ، دعانى إلى جمعه أنى كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من أولى النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر فوقع لى منه شىء حملنى على الاستزادة وكثرة التتبع ».

ثم تابع حديثه فى المقدمة عن منهج الكتاب، وأشار فى آخرها إلى الاسم الذى اختاره لهذا المؤلف وهو :

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان »، وهو اسم طويل اقتصر الناس منه على المقطع الأول وهو « وفيات الأعيان ».

رتب ابن خلكان كتابه بالقاهرة سنة أربع وخمسين وستمائة أى قبل وفاته بسبعة وعشرين عاماً، وهذه أهم ملامح هذا الكتاب :

١ — اختار المؤلف طريقة الترتيب الهجائى بدلا من الترتيب حسب السنين حتى يكون أقرب مأخذاً وأسهل تناولا يقول :

« (٢) فاضطررت إلى ترتيبه، فرأيته على حروف المعجم أيسر منه على السنين، فعدلت إليه، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثانى حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها على غيره، فقدمت إبراهيم على أحمد ليكون أسهل للتناول ».

ويعترف ابن خلكان بأن ترتيب الكتاب حسب حروف الهجاء

---

(١) وفيات الأعيان حـ ١ صـ ١٩ تحقيق إحسان عباس — دار الثقافة بيروت لبنان.

(٢) وفيات الأعيان حـ ١ صـ ٢٠

يفضى إلى تأخير المتقدم وتقديم المتأخر فى العصر . وإدخال من ليس من الجنس بين المتجانسين ، ويسلم بأن المصلحة أحوجت إلى ذلك .

٢ — لم يقصر ابن خلكان كتابه على طائفة مخصوصة أو طبقة معينة وإنما جعله عاماً لكل من له شهرة بين الناس ، فقد ترجم لأبى نواس وأبى تمام وأبى العلاء وهم شعراء ، وترجم لأبى سعيد السيرافى وأبى على الفارسى وابن الدهان وهم نحاة ، وترجم للغويين أمثال ابن خالويه وأبى على القالى وترجم للأدباء مثل بديع الزمان وابن طباطبا وابن عبد ربه كما ترجم لطوائف متعددة من الرجال مثل الفقهاء والفلاسفة والمتصوفين والخطباء والوزراء والكتاب والنساخ والمؤرخين والرواة والمحدثين والأطباء والسلاطين وأمراء الجيوش وأصحاب النوادر والحكايات . كما ترجم لعدد كبير من النساء ، ولم يذكر أحداً من الصحابة رضوان الله عليهم لكثرة المصنفات حولهم ، وترجم لجماعة يسيرة من التابعين مثل القاضى شريح والحسن البصرى ، وكتب عن جماعة كبيرة من الأفاضل الذين شاهدهم ونقل عنهم أو كانوا فى زمنه ولم يلتق بهم .

لقد سلك فى كتابه أنواعاً من الرجال لا علاقة لهم بالأدب واللغة وإنما ترجم لهم لمجرد الشهرة التى حققوها بين الناس ، يقول :

(١) « ولم أقصر هذا المختصر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء ، بل كل من له شهرة بين الناس ويقع السؤال عنه ذكرته وأثبت من أحواله بما وقفت عليه ، مع الإيجاز كيلا يطول الكتاب » .

ولم يجعل كتابه خاصاً بأهل قرن بعينه ، وإنما ترجم فيه لرجال القرن

---

(١) المرجع السابق حـ١ ص ٢٠

الأول حتى منتصف القرن السابع ، وهو امتداد زمنى طويل يضاف إلى الامتداد السابق فى نوعية الطبقات التى ترجم لها .

٣ — ذكر فى متن كتابه المراجع والمصادر التى أخذ منها ونقل عنها، وهو يذكرها مقرونة بأصحابها يقول : «وذكر العماد الكاتب فى (الخريدة) و« قال الخطيب فى (تاريخ بغداد) « وقال الوزير ابن المغربى فى كتاب (أدب الخواص) » وهكذا .

كما كان ينسب الأقوال إلى أصحابها من الرواة وأهل الثقة والذين عاصرهم والتقى بهم وهم أهم من الكتب وأصدق من السطور .

٤ — أشار المؤلف فى المقدمة إلى أنه سيسلك منهج الإيجاز فى التراجم حتى لا يطول الكتاب ، ولقد طالت بعض التراجم إلى حد ما مثل ترجمة الحجاج بن يوسف وهى فى ست وعشرين صفحـــة ، كما قصرت بعض التراجم مثل ترجمة ابن القطان وهى فى ثمانية سطور ، وتتراوح معظم التراجم بين صفحة وخمس صفحات، فلقد ترجم لعلم الدين الشاتانى فى صفحة واحدة ، وترجم لابن خالويه فى صفحتين ، وترجم للشاعر المشهور حيص بيص فى ثلاث صفحات ، كما ترجم لأبى بكر الشبلى فى أربع صفحات ، وكتب عن دعبل الخزاعى خمس صفحات ، والتراجم التى تزيد عن هذا القدر قليلة .

وهو لا يلتزم بمنهج معين من حيث طول التراجم وقصرها كسائر كتاب هذا الفن .

٥ — ولقد أثبت تواريخ الوفاة للمترجم لهم ، كما ذكر تواريخ مواليدهم عند القدرة عليها قال : « وأثبت وفاته ومولده إن قدرت عليه » والاسم الذى اختاره ابن خلكان لكتابه يوحى باهتمامه فى تحديد الوفيات، وهو يذكرها محققة باليوم والشهر والسنة غالباً ، ولقد قرأت فى هذا

الكتاب كثيراً واطلعت على معظم تراجمه فلم أجد ترجمة خالية من تاريخ الوفاة ، ولعل الذى سهل لابن خلكان ذلك — بعد جهده الكبير — أنه اختار أعيان الناس ليكتب عنهم، ونهايتهم — غالباً — معروفة للمورخين وأهل الأدب واللغة .

كما أنه يذكر تاريخ المواليد إن قدر عليها يقول فى ترجمته للخطيب البغدادى :

[1] « ولد فى جمادى الآخرة سنة أثنتين وتسعين وثلاثمائة ، يوم الخميس لست بقين من الشهر ، وتوفى يوم الاثنين سابع ذى الحجة سنة ثلاث وستين وأربعمائة ببغداد رحمه الله تعالى » .

ومن الأعلام التى ترجم لها واكتفى بتاريخ الوفاة ولم يذكر تواريخ الميلاد أبو ثور صاحب الشافعى وابن أبى سهل الكاتب وأبو طالب أحمد ابن بكر العبدى النحوى وأبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن القطان ، وهو فقيه شافعى كبير .

وهو يحقق تواريخ المواليد والوفيات التى يصل إليهـــا ففى ترجمته لثعلب ذكر أكثر من تاريخ لمولده ثم اختار منها واحداً ودلل على صحته ، وفى ترجمة الحسن بن رشيق القيروانى صاحب كتاب العمدة ذكر تاريخين لوفاته الأول فى سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، وقال عن هذا التاريخ إنه أصح من التاريخ الثانى الذى قرأه بخط بعض الفضلاء وهو فى سنة ست وخمسين وأربعمائة » .

٦ — حقق مؤلف هـــذا الكتاب أنساب المترجم لهم ، وردها إلى

---

(١) المرجع السابق ج١ ص٩٢

أصولها ، فإذا ترجم لرجل ضبط من نسبه ولقبه ما يحتاج إلى ضبط خوفا من التصحيف يقول :

« (١) ورفعت نسبه على ما ظفرت به ، وقيدت من الألفاظ مالا يؤمن تصحيفه » .

وفى ترجمة ابن الدهان النحوى يستطرد فى ذكر نسبه فيقول :

(٢) « أبو محمد سعد بن المبارك بن على بن عبد الواحد بن عبد الله بن سعيد بن محمد بن نصر بن عاصم بن عباد بن عصام بن الفضل بن ظفر بن غلاب بن حمد بن شاكر بن عياض بن حصن بن رجاء بن أبى بن شبل بن أبى اليسر كعب الأنصارى رضى الله عنه المعروف بابن الدهان النحوى البغدادى » .

وفى ترجمته للقاضى شريح يذكر نسبة ويضبط منه ما يحتاج إلى ضبط ويختار الطريق الصحيح لنسبه بعد أن ذكر ما حوله من خلاف .

والحقيقة أن ابن خلكان قد بذل جهداً كبيراً فى ضبط الأسماء والألقاب والكنى بالحركات والحروف مثل ضبطه للبساسيرى ورؤية وابن خالويه ونفطويه وجحظه ، وغيرهم كثير .

٧ — قال فى مقدمة كتابه :(٣)(وذكرت من محاسن كل شخص مايليق به من مكرمة أو نادرة أو شعر أورسالة ليتفكه به متأمله ولا يراه مقصوراً على أسلوب واحد فيمله ، والدواعى إنما تنبعث لتصفح الكتاب إذا كان مفننا).

---

(١) المرجع السابق ﺣ١ ص ٢٠

(٢) المرجع السابق ﺣ٢ ص ٣٨٢

(٣) المرجع السابق ﺣ١ ص٢٠

ولقد نجح صاحب الوفيات إلى حد كبير فى هذا الاختيار الذى أشار إليه ، والكتاب عامر بالدرر واللطائف والشواهد كثيرة ، ففى ترجمته لابن زيدون مثلا يختار من شعره أكثر من نموذج ويقدم لواحد منها فيقول :

(١) (ومن بديع قلائده قصيدته النونية التى منها :

تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لبعدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
بالأمس كنا وما يخشى تفرقنا ... واليوم نحن ومايرجى تلاقينا

وهى طويلة ، وكل أبياتها نخب ، والتطويل يخرج بنا عن المقصود).

وهو يختار القصائد الطويلة للشعراء ويعلق عليها ولكنه يكثر من اختياره للمقطوعات لانها مختصرة ومؤدية للغرض .

وفى ترجمته للصاحب بن عباد يذكر بعضاً من نوادره ، وهذه هى الأخيرة منها يقول :

(٢) (وحبس بعض عماله فى مكان ضيق بجواره ، ثم صعد السطح يوما فاطلع عليه فرآه فناداه المحبوس بأعلى صوته ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم (فقال الصاحب) اخسأوا فيها ولا تكلمون (ونوادره كثيرة).

كما اختار بعض المكرمات والنوادر الأخرى عند ترجمته للقاضى إياس وأبى دلامه وغيرهم ومن الرسائل الموجزة التى مثل بهما للقاضى شريح قال :

---

(١) المرجع السابق حـ١ ص١٤٠
(٢) المرجع السابق حـ١ ص ٢٣٠

(١)« وكتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون : أما بعد فإنك أنت الذى بعين من لا يعجزه من طلب ولا يفوته من هرب ، والمكان الذى خلفته لم يعجل امرأ حمامه ولم يظلمه أيامه ، وإنك وإياهم لعلى بساط واحد ، إن المنتجع من غير ذى قدرة لقريب والسلام ».

٨ — إذا ترجم صاحب الوفيات لرجل وكانت له تآليف وتصانيف حرص على إثباتها مكتفياً منها بما تدعو إليه الحاجة ، ويعرف ببعض منها مما أطلع عليه أو وقف على خبر له ، يقول فى ترجمة الصاحب ابن عباد :

(٢) « وصنف فى اللغة كتاباً سماه « المحيط » وهو فى سبع مجلدات ، رتبه على حروف المعجم ، كثر فيه الألفاظ وقلل الشواهد فاشتمل من اللغة على جزء متوفر . وكتاب «الكافى» فى الرسائل وكتاب « الأعيان وفضائل النيروز » وكتاب «الإمامة » يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ويثبت إمامة من تقدمه وكتاب« الوزراء» وكتاب « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى »وكتاب « أسماء الله تعالى وصفاته».

وفى ترجمة ابن خالويه يتحدث عن كتاب له فيقول :

« ولابن خالويه المذكور كتاب كبير فى الأدب سماه « كتاب ليس» وهو يدل على اطلاع عظيم فإن مبنى الكتاب من أوله إلى آخره على أنه ليس فى كلام العرب كذا وليس كذا » .

---

(١) المرجع السابق حـ٢ ص٤٦٣

(٢) المرجع السابق حـ١ ص٢٣٠

— ٣ —

ترجم ابن خلكان فى كتابه لياقوت فكتب عن حياته ومؤلفاته ونقل بعض العبارات من مقدمة معجم الأدباء التى حددفيها ياقوت منهجه فى هذا الكتاب ويشكل ما كتبه ابن خلكان عن ياقوت أهمية كبيرة لأنه يكشف لنا اطلاع ابن خلكان على معجم الأدباء حيث تأثر به تأثراً ملحوظا عند تأليف كتابه ، وإذا كان ابن خلكان لم ينقل عن ياقوت إلا عند الترجمة له حسب مراجعتى ومطالعتى لأجزاء الكتاب فإن صفحات الوفيات تكاد تنطق بالتأثر بمعجم الأدباء ، ولهذا نرى أن الكتابين يكملان بعضهما ويتفقان فى وجود شبه كثيرة نكشف عن بعضها فيما يلى :

١ — يبدأ كل كتاب منهما بمقدمة ضافية ففى مقدمة ياقوت الطويلة يشرح منهجه المفصل لتأليف كتابه فيتحدث عمن سبقوه فى الكتابة ،ويذكر كتبهم وينقدها ويكتب عن طبقات الرجال المترجم لهم،وعن ترتيب الكتاب واثبات مواضع النقل ومواطن الأخذ ، ثم يمدح كتابه فأبان بذلك قيمته ونبه الناس إلى فضيلته، وهى مقدمة سابغة جمع فيها كثيراً من الفوائد الجليلة التى يحرص الأدباء والمؤرخون عـلى إيداعها بطون الصفحات الأولى لمؤلفاتهم .

وإذا رجعنا إلى مقدمة ابن خلكان رأيناه يتحدث عن منهجه باقتضاب، من حيث الترتيب وإثبات الوفيات والمواليد ورفع النسب وتقييد الألفاظ التى تحتمل التصحيف ، وذكر بعض المحاسن للأشخاص المترجم لهم من شعر ونثر ، ثم يختمها بتحديد اسم الكتاب وبيان السنة التى جمعه فيها ، وهى مقدمة موجزة لم تستغرق أكثر من صفحتين ونصف فلا تصل إلى مقدمة ياقوت من حيث الإطاله وجمع الفوائد وشرح المنهج .

٢ — اتفق الكتابان فى النظام الذى سارا عليه فى ترتيب الأعلام

المترجم لهم، ولقد حدد ياقوت منهجه فى الترتيب تحديداً كاملا، فهو يرتب الأسماء حسب حروف الهجاء، وعند اتفاق الأعلام فى الاسم الأول يلجأ إلى الترتيب بين أسماء الآباء فاذا اشترك المترجم لهم فى أسمائهم وأسماء آبائهم اعتبر سنة الوفاة هى الفيصل فى التقديم والتأخير فيقدم من تقدمت وفاته على من تأخرت، والتزم بهذا المنهج ولم يحد عنه.

كما سار ابن خلكان أيضا على نظام الترتيب الهجائى مفضلا إياه على الترتيب حسب السنين، وهو يركز فى ترتيبه على أسماء الأعلام، ولكنه لا يعبأ بأسماء الآباء أو سنوات الوفاة عندما يشترك الرجال فى الاسم الأول، ولا يراعى فى الترتيب إلا الحرفين الأولين من الاسم، ولا ينظر إلى الحرف الثالث وما بعده، فلقد قدم جعفر بن يحيى البرمكى على جعفر بن سابق مع أن الالتزام بالترتيب الهجائى المتكامل يقتضى عكس ذلك.

٣ — اتفق الكتابان فى محمدة لابد من الإشارة إليها، وهى الحرص على ذكر المراجع والمصادر التى اعتمد عليها المؤلفان فى إعداد كتابيهما.

ومعجم الأدباء من أوائل الكتب التى أثبتت مصادرها ومراجعها فى مواطنها فعندما يترجم ياقوت لرجل يذكر الكتب التى اعتمد عليها ونقل منها مقرونة بأسماء أصحابها. ولما كان من شأنه الإطالة فى معظم تراجمه كان لا بد أن يحتاج إلى عدد كبير من المؤلفات ليغطى بها توسعه وإطالته.

ولقد اهتم صاحب الوفيات أيضاً بذكر مراجعه ومصادره فى متن الكتاب لكنها لا تصل من حيث التنوع والكثرة إلى ما فى معجم الأدباء، ففى ترجمة الصاحب ابن عباد ينقل عن كتاب «أخلاق الوزيرين»

لأبى حيان التوحيدى و كتاب «مشارب التجارب» لأبى الحسن البيهقى و كتاب «اليتيمة» للثعالبى، وينقل عن كتاب «الروزنامجرة»، ولم يحدد صاحبه كما نقل عن آخرين ولم يذكر كتبهم، وترجم ابن خلكان للصاحب فنقل عن كتاب «اليتيمة» للثعالبى و كتاب التاجى للصابى يقول:

«(١)وذكر الصابى فى كتاب «التاجى» إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة بن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به، ثم سمى به كل من ولى الوزارة بعده».

وبمناسبة المراجع والمصادر أحب أن أؤكد أن هذين الكتابين يتفقان فى ذكر العديد من الكتب للمؤلفين المترجم لهم ومعجم الأدباء يعتبر موسوعة فى أسماء الكتب والمؤلفات فإذا ترجم لرجل ذكر كل مصنفاته وإذا ترجم له ابن خلكان اختار منها مجموعة كبيرة، ففى ترجمة أبى على الفارسى ذكر ياقوت له أربعة وعشرين كتابا وليس منها كتاب الإيضاح وكتاب التكملة اللذان ألفهما لعضد الدولة، وذكر ابن خلكان اثنى عشر مؤلفاً بعد أن ذكر فى مقدمة كلامه عنه كتابى الإيضاح والتكملة.

ومن مؤلفات أبى على التى ذكرت فى الكتابين الحجة و كتاب التذكرة وكتاب المقصور والممدود و كتاب المسائل العسكرية و كتاب الأغفال وهذا الكتاب فى المسائل التى اغفلها الزجاج من المعانى وأصلحها أبو على، إلى غير ذلك من مؤلفات هـــذا العالم اللغوى التى وصلت فى مجموعها إلى خمسة وعشرين مؤلفاً إن لم تزد عن ذلك.

٤ — وأمام ذكر أنساب المترجم لهم وضبط الأسماء التى لا يؤمن تصحيفها نرى ابن خلكان يولى هذه المسألة جل اهتمامه فهو يقيد الأسماء

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٢٢٩

بالحركات والحروف . ففى ترجمة أبي سليمان الخطابى البستى نراه يضبط كلمة الخطابى ثم يضبط البستى ويذكر كذلك أنها نسبة الى بست وهى مدينة من بلاد كابل بين هراه وغزنة كثيرة الأشجار والأنهار ويبدو أن ابن خلكان قد عانى من مشكلة التصحيف عند تأليف كتابه فلجأ إلى هذا التقييد والضبط أما معجم الأدباء فهو يذكر الأنساب ويحققها ويعتمد على الكتب الصحيحة والرواة الثقات فى إثباتها ولكنه لا يلجأ إلى ضبط الأسماء التى تحتمل التصحيف إلا نادرا . والظاهر لى أنه أكتفى فى الضبط بالحركات ومن الألفاظ التى ضبطها بالحروف الى جانب الحركات « ابن فورجة » وهو : محمد بن حمد بن عبد الله ضبطه فقال :

«(١)ابن فورجة بضم الفاء وسكون الواو وتشديد الراء المفتوحة وفتح الجيم ، حتى هذا الضبط لم يسلم لياقوت فلقد ضبطه صاحب فوات الوفيات «فوزجه» بضم الفاء وسكون الواو وفتح الزاى وتشديد الجيم .

٥ — اتفق الكتابان فى مسائل كثيرة متعددة تتعلق برواية الأشعار والأخبار ، فالمؤلفان ينقيان الشعر المختار مما فيه من سخف وفحش ، فإذا انتقى أحدهما قصيدة أو مقطوعة أسقط الأبيات التى تحمل بعض الألفاظ الخارجة ونبه القارىء إلى ذلك ، وهذا يكشف عما كان يتحلى به هذان الشيخان القديران من ذوق وورع وحسن خلق ، فابن خلكان يتعرض لما كان بين البارع الدباس والشريف أبي يعلى بن الهبارية من مداعبات لطيفة ، ويذكر أن الشريف كتب للبارع قصيدة يعاتبه فيها وأولها :

يا ابن ودى وأين منى ابن ودى
غيرت طرفه الرياسة بعـدى

---

(١) معجم الأدباء جـ١٨ ص١٨٨

يقول بعد أن ذكر هذا البيت :

«(١) ولولا ماأودعها من السخف والفحش لذكرتها، ثم يعرض لجوابها من البارع المذكور بقصيدة له اختار ابن خلكان منها ثمانية عشر بيتا وقال بعدها :

«(٢) ونقتصر من هذا القصيدة على هذه الأبيات ، ففيها سخف لا يليق ذكره وغيره مما لا حاجة إليه» .

وفى ترجمة حماد عجرد يقول ياقوت حول هذا الموضوع بعد أن اختار شعرا لحماد :

«(٣) وكان بين حماد وبشار بن برد ومطيع بن إياس أهاج كثيرة أعرضنا عن ذكرها لما فيها من السخف والمجون» .

وفى رواية الشعر يسلك المؤلفان منهج التحقيق والتثبت والمراجعة والتروى فى إسناد الشعر إلى صاحبه .

ويعرض ابن خلكان لمسألة الأخذ بين الشعراء عندما يترجم لبشار والعراقى الخطيب وغيرهما مثلما يفعل ياقوت مع من يترجم لهم من الشعراء

وياقوت من أوائل الرواة والمؤرخين الذين حرصوا على إسناد الأشعار إلى أصحابها ، ولا يسلم بما نقل إليه فى رواية الشعر .

وإذا رويت الأبيات لرجلين أشار إليهما معتمداً على ذاكرته وكثرة محفوظه يقول :

---

(١) وفيات الأعيان حـ ٢ ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق حـ ٢ ص ١٨٣ .

(٣) معجم الأدباء حـ ١٠ ص ٢٥٣ .

(١) وحدث الزجاج قال : أنشدنا أبو العباس المبرد :

في انقباض وحشمة فإذا رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها وجئت ماجئت غير محتشم

قال عبيد الله الفقير : وهذان البيتان يرويان لمحمد بن كناسة ، وقد رواهما آخرون لأبي نواس » . وعبيدالله الفقير هو مؤلف معجم الأدباء .

وفي مجال رواية الأخبار يحرص المؤلفان على التحري والتحقيق ومعارضة الروايات بعضها ببعض فياقوت لايرجح رواية على رواية إلا إذا كان مستنداً إلى دليل قوى ، وقابضاً عليه بكلتا يديه، فإذا لم يتيسر له الدليل الذي يرتاح إليه لجأ إلى أفعال الظن والحسبان فيقول مثلا أظن ، أحسب ، إلخ . وهو لا يرضى إلا بالروايات الصحيحة ويرفض مايخالفها ، بالاعتماد على البراهين القوية فلنقرأ له ما كتبه عن المسعودي المؤرخ الكبير وصاحب كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » .

« (٢) ... ذكره محمد بن إسحاق النديم فقال . هو من أهل المغرب » ثم يقول ياقوت . « وقول محمد بن إسحاق : إنه من أهل المغرب غلط ، لأن المسعودي ذكر في السفر الثاني من كتابه المعروف بمروج الذهب وقد عدد فضائل الأقاليم ووصف هواها واعتدالها ثم قال : وأوسط الأقاليم بابل الذي مولدنا به ، وإن كانت ريب الأيام أنات بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين إليه إذ كان وطننا ومسقطنا » ويواصل ياقوت النقل عن المسعودي ثم يقول في نهاية هذا الموقف :

« (٣) فهذا يدلك على أن الرجل بغدادي الأصل ، وإنما انتقل إلى

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ صـ ١٤٣ .
(٢) المرجع السابق حـ ١٣ صـ ٩٠ .
(٣) المرجع السابق حـ ١٣ صـ ٩٣ .

ديار مصر فأقام فيها ، وهو يحكى فى كتبه كثيراً ويقول : رأيت أيام كونى بمصر كيت وكيت » .

وفى الترجمة لأبى تمام يذكر ابن خلكان موقفاً له تناقله الرواة ، فلا يسلم بقصته ويقول :

(١) « وهذه القصة لاصحة لها أصلا » ويعتمد فى تفنيدها على كتاب « أخبار أبى تمام » لأبى بكر الصولى .

٦ — اتفق الكتابان فى الترجمة لعدد كبير من الطبقات ، فياقوت قد ترجم لمن كان أديباً أولغوياً أو نحوياً أو اشتغل بفن له اتصال بهذه العلوم ، ولا يعنيه أن يكون المترجم لهم مشهورين أو مغمورين فلقد انفرد بالترجمة لعشرات وعشرات من الأدباء والعلماء والمؤرخين ، وهذا واحد ممن انفرد ياقوت بالترجمة لهم « أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبدالله عالم نيسابورى فى القراءات . ذكر محقق معجم الأدباء أنه لم يترجم له سوى ياقوت ولقد تأكد لى صدق هذا الكلام بعد المراجعة الدقيقة لمجموعة من كتب التراجم مثل وفيات الأعيان ونزهة الألباء ومراتب النحويين وإنباه الرواة وبغية الوعاة .

ومن الذين انفرد ياقوت بالترجمة لهم الأديب ثابت بن أبى ثابت التميمى والنحوى الشهير جبر بن على الربعى .

كما ترجم ابن خلكان لطبقات كثيرة من الرجال على أساس شهرتهم بين الناس ومكانتهم فى المجتمع ومن هنا أضاف إلى كتابه أنواعا أخرى من طبقات الرجال ليست لهم صلة بالأدب وإنما ترجم لهم لمجرد الشهرة مثل الخلفاء والأمراء والسلاطين وقادة الجيوش ، فلقد ترجم ابن خلكان

---

(١) وفيات الأعيان حـ ٢ صـ ١٥ .

للمستعلى الفاطمى وسليمان بن عبد الملك والسلطان سنجر السلجوقى وأسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين وهؤلاء ليست لهم أدنى صلة بالأدب وفنونه حتى يدخلهم ياقوت فى سلك كتابه عن الأدباء .

كما ترجم الكتابان لعدد كبير من النساء ففى معجم الأدباء ترجم ياقوت لعدد قليل من النساء بالنظر إلى وفيات الأعيان فلقد ترجم لحفصة بنت الحاج الركونى وفاطمة بنت الأقرع الكاتبة ، وحميدة بنت النعمان بن بشير الأنصارى وترجم ابن خلكان فى كتابه لعدد أكثر من النساء ، مثل السيدة سكينة بنت اسماعيل العدوية وزبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور وغيرهن كثيرات .

٧ — عنى ابن خلكان عناية كبيرة باثبات تواريخ الوفاة للمترجم لهم ، ويكفى أنه جعل عنوان كتابه « وفيات الأعيان » والعنوان يوحى بغرض المؤلف ، وهو حفظ الوفيات حتى لا تضيع على يد الزمان .

ولقد حاول — قدر جهده — أن يؤرخ لميلاد المترجم لهم فنجح فى مهمته نجاحا منقطع النظير ولقد قرأت له وهو يؤرخ الميلاد بخلافة أو حادثة عندما يعجز عن التأريخ باليوم والشهر والسنة ففى ترجمته لأبى بكر عبدالرحمن بن مخزوم القرشى ذكر أنه ولد فى خلافة عمر بن الخطاب كما بذل ياقوت فى معجمه جهداً كبيراً فى التاريخ للمواليد والوفيات ولكنه لا يصل بحال من الأحوال إلى صنيع ابن خلكان ، وربما يكون ياقوت معذوراً فى الأعلام التى تركها دون أن يذكر موالدها أو وفياتها وعذره راجع إلى أنه يؤرخ لكثير من المغمورين الذين لا يعرف الناس عنهم شيئاً فضلا عن تاريخ مولد أو وفاة .

وأنا اعتقد أن ابن خلكان لو جعل من منهجه الترجمة لهؤلاء لما استطاع أن يفعل شيئاً أكثر مما قام به ياقوت .

٨ — اتفقت تراجم الكتابين فى التنوع بين الطول والإيجاز ، فأعلام الرجال ومشاهير الأدب واللغة يفسح لهم ياقوت كتابه وينسى أنه التزم بمنهج ارتضاه فى المقدمة ، وهذا المنهج يفرض عليه أن يتبع سبيل الايجاز فى التراجم ولكنه يطيل فيكتب الخمسين أو الثمانين أو فوق المائة من الصفحات فى رجل واحد ، وفى غمرة هذا النسيان يعرض لكل ماقيل وكتب عنه ، لا يكتفى بما ينقله عن الآخرين ولكنه يناقش ويعترض وينقب عن الأخبار الصحيحة ، ويعرض للتفاصيل الدقيقة التى تطيل فى الترجمة للرجال ففى ترجمة محمد بن إدريس الشافعى يكتب أكثر من ثلاث صفحات عن مؤلفاته ، وفى ترجمة محمد بن الحسن الحاتى ينقل مخاطبة جرت بينه وبين أبى الطيب المتنبى يرويها ياقوت كما وجدها فى عشرين صفحة وهذه من الشواهد الطويلة حيث وصلت ترجمة الحاتى بسببها إلى سبع وعشرين صفحة . بعكس ابن خلكان الذى يميل إلى التركيز والدقة فلا يكثر من النقول ولا يختار منها إلا المختصر الموجز ، ويكرر دوما « إلى غير ذلك » « وأكتفى بهذا . » ففى ترجمة ابن رشيق القيروانى يقول .

(١) « وكانت بينه وبين أبى عبدالله بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى وقائع ومجريات يطول شرحها وقصدنا الاختصار »

مع أن هذا القصد من ابن خلكان أشار إليه ياقوت أكثر من مرة بدءا بالمقدمة التى يقول فيها :

(٢) « مع إيثار الاختصار » ثم يصف كتابه بأنه مختصر فى كثير من المواضع ففى ترجمة إبراهيم بن هلال الصابى يقول :

---

(١) وفيات الأعيان حـ ٢ ص ٨٩ .

(٢) معجم الأدباء حـ ١ ص ٤٩ .

«(١) وكان بينه وبين الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد مراسلات ومواصلات ومتاحفات وكذلك بينه وبين الرضى أبي الحسين محمد بن الحسن الموسوى ، مودة ومكاتبات أذكر منها مايليق باختصارنا هذا.

كتب ابن خلكان عن أبي اسحاق الزجاج أقل من صفحتين وكتب عنه ياقوت مايقرب من اثنتين وأربعين صفحة ، وكتب ابن خلكان عن بديع الزمان صفحتين وكتب عنه ياقوت مايقرب من اثنتين وأربعين صفحة ، كما ترجم ابن خلكان للطغرائى فى ست صفحات ، وترجم له ياقوت فى ثلاث وعشرين صفحة وربما تكون قصيدة الطغرائى المعروفة بلامية العجم هى التى أطالت ترجمته عند ابن خلكان بالنسبة لبقية التراجم، وإن كان ياقوت أيضا قد اشترك مع ابن خلكان فى إثبات هذه القصيدة فى معجمه ، ولقد اتفقنا فى رواية عدد أبياتها وهى تسعة وخمسون بيتا وإن كان هناك خلاف بسيط فى بعض الكلمات.

٩ — ولقد اتفق هذان الكتابان فى أن مؤلفيهما ترجما لعدد كبير من الرجال المعاصرين لهم فلم تغير المعاصرة شيئا من الحقيقة ، فالرجلان لم يجاملا أحداً أو يتعصبا لشخص، ولم يتحاملا على رجل بالتشنيع أو التشهير على حساب الحقيقة والواقع.

كان ياقوت عادلا فى الحكم على المترجم لهم لإحساسه بالظلم الذى وقع عليه فى بدء حياته كما اشتغل ابن خلكان قاضيا فانقلب أثر عمله على كتابته وهو متأثر إلى حد بعيد بياقوت ، فلقد أدرك من حياته ثمانية عشر عاما ولكنه لم يلتق به ، ولقد ذكر فى آخر الترجمة له بوفيات الأعيان أنه سمع الناس يثنون عليه بعد وفاته وكتب عن مؤلفاته ولابد أنه قد تأثر بها حتى عند الحكم على معاصريه.

---

(١) المرجع السابق جـ٢ ص٢٣

كما اتفق الكتابان فى مسائل أخرى سبق الحديث عنهما من خلال التعريف بهما كالاتفاق فى حذف الأسانيد والمنعنات فى الروايات والأخبار التاريخية حتى لا تطول التراجم أكثر مما طالت عند ياقوت غالبا وعند ابن خلكان أحياناً.

كما اتفق الكتابان فى ذكر شيوخ وتلاميذ من يترجم لهم وإن كان ياقوت قد اهتم بهذه المسألة أكثر من ابن خلكان.

— ٤ —

إن وجوه الشبه كثيرة بين هذين الكتابين للتقارب فى زمن التأليف ولتأثر ابن خلكان بياقوت وللاتفاق فى موضوع الكتابين وهو الترجمة لمعظم طبقات الرجال، ومع ذلك فهناك بعض الجوانب القليلة التى يختلف فيها الكتابان، ولا اعتبرها تفصل بينهما أو تباعد بين منهجيهما.

١ — ذكر ياقوت فى مقدمة معجم الأدباء طائفة من الكتب التى أطلع عليها وأخذ منها، وهى ليست كل مراجعه، فلقد ذكر فى متن الكتاب مئات المراجع التى أطلع عليها، وهذه فى حد ذاتها إشارة لطيفة من ياقوت إلى من سبقوه ومنهج سليم فى الكتابة والتأليف ولم يكتف بذلك بل أدار قلمه تجاه هذه الكتب فنقدها وبين موضوعها وأسماء مؤلفيها، وأشار إلى حجم إفادته منها وعدد مجلداتها إن قدر على ذلك.

بينما لم يكتب ابن خلكان فى مقدمته الموجزة شيئا عمن تقدموا عليه فى فن الترجمة للرجال ولم يذكر كتابا واحداً يمكن للقارىء أن يرجع إليه ويأنس به.

واكتفى بقوله فى المقدمة.

«(١) فعمدت إلى مطالعة الكتب الموسومة بهذا الفن».

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩

كما أن المراجع التى ذكرها فى متن كتابه لا تمثل شيئاً أمام مئات المراجع التى ذكرها ياقوت فى معجمه .

٢ — انتهى إلينا كتاب وفيات الأعيان فى صورة أكثر سلامة وصحة من الصورة التى انتهى اليها كتاب معجم الأدباء .

فلقد وصل كتاب الوفيات إلى أيدى القراء كاملا وكان ذلك راجعاً إلى كثرة النسخ المخطوطة لأصل هذا الكتاب .

ففى مقدمة الطبعة الأخيرة يتحدث محقق الكتاب عن اطلاعه على أكثر من سبع نسخ من مخطوطات الكتاب ، ويشرح كيف استطاع أن يوفق بينها حتى يخرج الكتاب وهو أقرب إلى الكمال بينما اعتمد محقق معجم الأدباء على نسخة واحدة منقولة عن الأصل ، وهى مكتوبة بخط غير جيد ، وبها نقص كبير وأمام هذه النسخة الوحيدة من نوعها اضطر الناشر عند طبع الكتاب ومراجعته إلى الاعتماد على الكتب التى نقل عنها ياقوت أو التى نقلت عنه واستعارت منه مثل كتاب الوافى بالوفيات للصفدى وبغيـــة الوعاة للسيوطى وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبى والفهرست لابن النديم واليتيمة للثعالبى وغيرها .

ولقد ظهر الكتاب وهو يحمل بعض الأغلاط المطبعية تصدى لبيانها وتوضيحها جمهرة كبيرة من العلماء على صفحات الجرائد والمجلات منذ خرجت نسخته الوحيدة إلى المطبعة لأول مرة فى بداية هذا القرن .

ولقد وصل إلينا الوفيات كاملا بينما وصل معجم الأدباء ناقصاً ، وأرى أن معظم هذا النقص فى الأسماء التى تبدأ بحرف العين خاصة .

أشار ياقوت فى معجم البلدان إلى أنه ترجم لعين القضاة عبد الله بن محمد بمعجم الأدباء ، ولم أعثر له على ترجمة كما أشار ياقوت ، كما بحثت

عن ترجمة أبي البركات عبد الرحمن بن الأنبارى ، فلم أعثر له على ترجمة ، وأنا أعلم أن ياقوتاً لا يمكن أن يفوته الترجمة لهذا الرجل صاحب نزهة الألباء لأن هذا الكتاب من المؤلفات التى تحدث عنها ياقوت فى مقدمة المعجم ومن تحدث عن كتبهم فى المقدمة ترجم لهم فى متن الكتاب باستثناء أبي البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن الأنبارى التى لا بد أن تكون ترجمته قد ضاعت فيما ضاع من تراجم الكتاب .

ومن الأخطاء المطبعية التى لاحظتها بعد كثرة مطالعتى لهذا الكتاب ما ورد فى ترجمة أبي بكر بن الأنبارى محمد بن القاسم ، وهو ليس صاحب نزهة الألباء قال ياقوت :

«(١) وكانت ولادة أبي بكر بن الأنبارى يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب سنة إحدى وسبعين ومائة » والصواب » سنة إحدى وسبعين ومائتين « كما جاء بنزهة الألباء .

ومن أخطاء التصحيف يقول ياقوت فى ترجمة ابن عساكر :

«(٢) ومن حديث أهل رندين وجيرين . . » والصواب » أهل زبدين وجسرين » وهما قريتان بدمشق يقول ياقوت عن الثانية بمعجم البلدان :

«(٣) وجسرين : بكسر الجيم والراء وسكون السين والياء آخره نون : من قرى غوطة دمشق » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٨ ص ٣١٣

(٢) المرجع السابق حـ ١٢ ص ٨٠

(٣) معجم البلدان حـ ٢ ص ١٤٠

وهذه أخطاء راجعة إلى الطباعة وإلى نسخة الكتاب الوحيـــدة التى كتبت بخط صعب على الناشرين تحقيقه واصلاح ما وقع فيه من سهو ، وهذا الكتاب كما قلت قبل ذلك محتاج إلى إعادة طبع وتنقيح وتهذيب .

٣ — الفرق الأخير الذى يمكن ملاحظته عندمطالعة الكتابين هو كثرة شواهد ياقوت من الشعر والنثر لأن معظم من كتب عنهم لهم صلة بالأدب وكتابه معجم للأدباء ، إلى جانب أن صاحبنا يملك هياما وحباً للشعر ، فهو يرويه وينقده ويفسره ويبرهن على ذلك بكثرة الشواهد التى غلبت على كتابه .

بينما تقل هذه الشواهد عند ابن خلكان لأنه التزم بالمنهج الذى قرره فى المقدمة وهو الاختصار والإيجاز كما أنه ترجم لجمهرة غفيرة من الرجال الذين ليست لهم أدنى صلة بقرض الشعر أو ابداع النـــثر فلا مجال إذن للاستشهاد بهذين الفنين .

إن رجلا كبديع الزمان يجسد عطاء ياقوت لكتابه فهو ينقل عنه الشعر والرسائل والمقامات ويذكر ما كان بينه وبين أبى بكر الخوارزمى ، وينقل عن كتاب وشاح الدمية لأبى القاسم البيهقى بينما يكتب عنه ابن خلكان فى صفحات قليلة لا توازن بما قدمه ياقوت له من لوحات أدبية رائعة .

• • •

وبعد فإننى أعتبر أن كتابى وفيات الأعيان ومعجم الأدباء يتمم كل منهما الآخر ، والكتابان يقدمان صورة مبدعة لفكر وأدب العرب فى أزهى عصورهم ، ولكل كتاب منهما — رغم الاشتراك فى أمور كثيرة — سمة يتميز بها .

فالمعجم موسوعة كبيرة فى الأدب شعره ونثره وإفاضة فى الترجمة لألف وسبعين علما من أعلام النهضة العربية .

والوفيات كتاب يجنح إلى التاريخ ، ويكتب عن رجال ليست لهم صلة بالأدب ، ومن كتب عنهم من الأدباء كانوا أعلاما وأعيانا ، وكانت كتابته مركزة حول المسائل التى يحتاج إليها القارىء من ضبط الوفيات والمواليد والاستشهاد بقدر معتدل مما أبدعوه ، ولقد كتب ابن خلكان خمسا وستين وثمانمائة ترجمة منها عدد لغير الأدباء فاعتبره ابن شاكر الكتبى مقصراً فى حق بعض الرجال الذين كتب عنهم باقتضاب أو تركهم دون أن يكتب عنهم فوضع الكتبى كتاب « فوات الوفيات » ليستكمل ما فات ابن خلكان وهـــذا لا يقلل من قيمة الوفيات ولا يزيد من أهمية معجم ياقوت فالكتابان عظيمان فى قدرهما جليلان فى نفعهما ، وهما من أهم ما تتحلى به المكتبة العربية لما فيهما من أدب ولغة وتاريخ .

الباب الثالث

ياقوت الحموى : أديباً

الفصل الأول : كتابة الإنشاء .

الفصل الثانى : كتابة التأليف .

الفصل الثالث : ياقوت شاعراً .

الفصل الرابع : ياقوت فى ميزان الأدب والتأليف .

الكتابة عند ياقوت

— ١ —

ظلت الكتابة الفنية فى قوتها مع بداية العصر العباسى الثانى الذى بدأ فى سنة ٣٣٤ ﻫ حيث سقطت بغداد فى أيدى البويهيين ، وخضعت الخلافة العباسية لسلطانهم ، وكان لوزيرهم ابن العميد جهود جبارة فى ازدهار الكتابة من حيث الاهتمام بالمعنى إلى جانب اللفظ ، واستعمال السجع القصير الفقرات ، والاعتدال فى استعمال بعض أنواع البديع بغير إفراط أو تقصير ، والاقتباس من كلام البلغاء والحكماء ، والاستناد إلى الحكم المأثورة ، واستخدام معانى الشعر حتى كادت بعض الكتابة تكون شعراً منثورا .

والحقيقة التى لا يمكن إغفالها أن ابن العميد قد حاول السير على طريقة الجاحظ فى الكتابة ونجح فى ذلك نجاحاً كبيراً بفضل ثقافته الأدبية والعلمية وموهبته فى كتابة الرسائل،وحفظه للغة والنحو ودواوين الشعراء من الجاهلية والإسلام بالاضافة إلى الترف الذى ساد فى عصره ، والمكانة التى احتلها فى دائرة الحكم ، وذلك كله مما جعله كاتباً من أعظم كتاب العربية وأرفعهم منزلة فى صناعة الكتابة .

ولم يكن ابن العميد وحده الحامل للواء الكتابة فى بدء هذا العصر بالقرن الرابع الهجرى وإنما كان هناك من اشترك معه فى هذه المكانة أو تأثر به فى أساليبه القوية وهم مجموعة كبيرة ، منهم الصاحب بن عباد وهو وزير فارسى مثل ابن العميد ، وأبو حيان التوحيدى الذى وضع فى ابن العميد وابن عباد كتابه « مثالب الوزيرين » وكان يلقب بالجاحظ الثانى ، وامتد تأثير هؤلاء إلى القرن الخامس الهجرى .

وفى القرن السادس ظهرت مجموعة من كتاب النثر الفنى لم يصلوا إلى ما وصل إليه ابن العميد وزملاؤه من الشهرة والعطاء لهذا الفن ، وتأكد الناس أن ابن العميد هو خاتم فرسان الكتابة وبلغائها حتى قيل : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

ومن أعلام القرن السادس فى فن الكتابة القاضى الفاضل وزير صلاح الدين ومدبر مملكته فى الحروب الصليبية المتوفى سنة ٥٩٦ﻫ وعماد الدين الأصبهانى واسامة بن منقذ وغيرهم .

ومع هؤلاء أخذت الكتابة طريقها إلى التكلف والإسراف فى المحسنات البديعية والصناعة اللفظية من الجناس والتورية والطباق والسجع .

وربما أسهم فى صيرورة الكتابة إلى هذا الضعف أسباب كثيرة منها عدم الحرص على استعمال الفصحى نتيجة لا تساع الاختلاط بين العرب والعجم وفساد الذوق الناشىء عن هذا الاختلاط ومنها ماسلكه بعض الأدباء من الجمع بين قول الشعر وكتابة النثر .

ولم يلق الكتاب فى نهاية هذا العصر مالاقوه فى بدايته من العناية والرعاية فانصرفوا إلى الاشتغال بالنسخ والاتجار فى الكتب .

— ٢ —

وقد ظهرت فى هذا العصر فنون جديدة فى عالم الكتابة منها القصص والمقامات والرسائل الديوانية والإخوانية والتوقيعات ، وهذه وغيرها تدخل تحت ثلاثة أنواع من الكتابة وهى كتابة الإنشاء وكتابة التأليف وكتابة الدواوين وإن كانت الأخيرة تبعد كثيراً عن حقل الدراسة الأدبية إذ لا متسع فيها للنثر الفنى أو الأسلوب الجمالى .

— ٣ —

أجاد ياقوت فى الكتابة وأعطاها كل اهتمام وعناية ولا زالت مؤلفاته تشهد بنبوغه وتفوقه فى هذا الفن بعكس الشعر الذى قلت بضاعته فيه بحيث لا يعد من الشعراء المشهورين ، فقد ركز اهتمامه على الكتابة والتأليف حتى برز فى ذلك ، فهو رجل ذو أسلوب معتدل وعبارة رصينة فى التأليف ، ويبدو لى أن حياته الجافة قد انعكست على أسلوبه فجاء معظمه قوياً جزلا فى جمله ومفرداته محدداً دقيقا بعيداً عن الحشو والفضول، وهو عند ذلك متأثر بالسابقين حيث أطلع على ما كتبوه وسجلوه .

وإذا كنا قد عرفنا أنه عاش فى العصر العباسى الثانى فإننا نجد ملامح هذا العصر تنعكس أيضا على بعض كتاباته التى جاءت مسجوعة مكبلة بقيود الصنعة ، وهو عند ذلك متأثر بطريقة القاضى الفاضل فى الكتابة من حيث الالتزام بالسجع وعدم تساوى السجعات ، والتعبير عن المعنى الواحد بجمل متعددة ، واستخدام بعض المحسنات الأخــرى كالجناس والمطابقة والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والتضمين من مأثور القول وأطايب الشعر وكثرة الصور الخيالية وتزاحمها ، وقهر المعنى لحساب اللفظ .

ونؤكد أن هذا التأثر كان فى نطاق ضيق محدود ، لأن طبيعة الحياة التى عاشها أتاحت له أن يوسع دائرة أطلاعه ليجعل من معظم سابقيه كأنهم معاصرون له يتلقى منهم ويأخذ عنهم .

ولقــد كتب فى موضوعات متعددة ، كتب عن الأدباء والشعراء والمؤرخين وأصحاب الرسائل ، وكتب عن البلدان والتاريخ والأنساب وكتب فى النقد والبديع والسياسة وكتب فى الجدل والمناظرات والمعارك الأدبية ، وكتب عن رحلاته وأسفاره فقدم للقراء قطعا أدبية رائعة فى وصفه

الطبيعة والناس، كما كتب عن سيرته الذاتية وحياته القلقة المضطرب به مما يمكن أن نعتبره نماذج رائعة لأدب الحرمان والفقر الذى كان صدى لحياة المحرومين والمكدودين من أمثاله .

— ٤ —

وكل هذا العطاء المسطر فى آلاف الصفحات المكتوبة المطبوعة يدخل تحت نوعين من الكتابة .

النوع الأول : هو كتابة الإنشاء الذى يتمثل فى رسائله ومقدمات كتبه وبعض المقالات الأدبية، وفى هذا النوع يتجلى النثر الفنى بخصائصه وسماته كما تناوله ياقوت فى مختلف الكتابات الإنشائية .

النوع الثانى : هو كتابة التأليف ، وهذا معظم نثره حيث الكتابة الأدبية العلمية بالأسلوب المرسل ، وسوف تتضح الفروق بين هذين النوعين فى الفصلين التاليين .

الفصل الأول

كتابة الإنشاء

اخترت كتـابة الإنشاء كتعبير عن النثر الأدبي استناداً إلى عبارة لياقوت فى هذا الصدد فهو يقول فى ترجمة ابن البواب :

«وكان لابن البواب يد باسطة فى الـكتابة أعنى الإنشاء وفصاحة وبراعة، ومن ذلك رسالة أنشأها فى الـكتابة وكتبها إلى بعض الرؤساء ونقلتها من خط الحسن بن الجوينى الـكاتب أولها ...»(١) ويذكر الرسالة .

ولقد كان النثر الفنى معروفاً فى عصر ياقوت بالإنشاء وبهذا المعنى كتب القلقشندى بعد ذلك كتابه بعنوان «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» وكان ديوان الـكتابة معروفا بديوان الإنشاء، وهذه ألوان الـكتابة الإنشائية الفنية التى تناولها ياقوت .

أولا : الرسائل الإخوانية :

الرسائل فى العصر العباسى الثانى نوعان : ديوانية ، وهى الرسائل التى كانت تـكتب لتصريف شئون الدولة وتتخذها وسيلة لإقرار الحكم وتصريف المشكلات ، ومع تناولهـا للمسائل السياسية كانت نماذج رائعة فيها متعة أدبية ، ولم يهتم الأدباء بهذا النوع كثيراً .

وإخوانية، وهى النوع الآخر الذى شاع فى العصر العباسى الثانى ،

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٥ ص ١٣٠

المقابل للرسائل الديوانية ، والرسائل الإخوانية هى التى تكون بين الأصدقاء لتصوير عاطفة الشوق أو العتاب أو التعزية ، ولا تتصل بالحياة الرسمية ومتطلباتها . ولياقوت رسالة إخوانية طويلة ، وقبل أن نعرض لها لابد أن نذكر اهتمامه الكبير بفن كتابة الرسائل ، ولو جمعت الرسائل التى ذكرها فى مؤلفاته سواء أكانت من تأليفه أو من اختياره لتشكل منها مجلد كبير فى هذا الفن .

ففى معجم البلدان رسالة من محمد ﷺ لأكيدر من أهل دومة الجندل ، ورسالة من أحمد بن الضحاك الفلكى إلى صديق له يصف « شعب بوان » وهى قطعة نثرية رائعة . وكان صاحبنا ينقد الرسائل الإخوانية ، التى يطلع عليها ويذكرها فى كتابه ، ففى معجم الأدباء يثبت رسالة من أحمد بن ثوابة لصديق له ثم يعقب عليها بإضافة فيقول :

« لا شك أن أكثر ما فى هذه الرسالة مفتعل مزور ...»(١) .

ويذكر بعد هذا الحكم أسبابه التى استند إليها مشفوعة بالأدلة والقرائن .

ويمكن أن نفهم اهتمام ياقوت بالرسائل الإخوانية بتصريحه فى مقدمة معجم الأدباء بأنه سوف يترجم لأصحاب الرسائل ثم يكتب فى معجمه عن ابن العميد والرشيد الوطواط وآدم الهروى وأحمد الضبي الوزير والحسن القطان وإبراهيم بن هلال الصابى والخوارزمى وبديع الزمان صاحب المقامات وعلى بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح وهؤلاء من أصحاب الرسائل المدونة بمعجم الأدباء .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٤ صـ ١٧٣

رسالة إلى القفطى :

كتب ياقوت رسالة أدبية طويلة من الموصل بعد أن عاد إليها من خوارزم طريد التتر وهو يصف فيها حالته وماجرى له فى طريق العودة من الضائقة والتعب، وما تعرض له الإسلام والوطن من احتلال وعدوان، وأرسلها إلى الوزير جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيبانى القفطى وزير صاحب حلب حينئذ ، ولقد توسع ياقوت فى مدحه توسعا كبيراً ، وكتبها إليه فى سنة سبع عشرة وستمائة . وهذه الرسالة موجودة بكتاب « إنباه الرواه على أنباه النحاه » فى حوالى اثنتى عشرة صفحة وأثبتها ابن خلكان فى كتاب « وفيات الأعيان » . والرسالة موجودة بمعجم الأدباء فى ست عشر صفحة من القطع المتوسط(١) .

بدأها ياقوت بقوله(٢) : « بسم الله الرحمن الرحيم . أدام الله على العلم وأهليه ، والإسلام وبنيه ، ما سوغهم وحباهم ، ومنحهم وأعطاهم ، من سبوغ ظل المولى الوزير(٣) ، أعز الله أنصاره وضاعف مجده واقتداره ،

---

(١) اختار اليافعى من هذه الرسالة أجزاء كثيرة فى كتابه « مرآة الجنان وعبرة اليقظان » وذكرها المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى كاملة فى كتابه «ملامح أدبية » كما أشار إليها معظم من ترجموا لياقوت ، وذلك لأهميتها وطولها وصدقها فى التعبير .

(٢) معجم الأدباء حـ ١ ص ٢٤

(٣) زاد القفطى فى إنباه الرواة ما يقرب من أربعة سطور بعد كلمة «الوزير » والزيادة كلها تعديد لألقابه مثل « من سبوغ ظل مولانا مالك الرق ، ولى النعم ، والوزير الصاحب الكبير ... الخ .

ونصر ألويته وأعلامه ، وأجرى بإجراء الأرزاق فى الأفاق أقلامه، وأطال بقاه ، ورفع إلى عليين علاه ، فى نعمة لا يبلى جـــديدها ، ولا يحصى عددها(١) ولا عديدها(٢) ولا ينتهى إلى غاية مديدها ولا يفـل حدها ولا حديدها ، ولا يقل وادها ولا وديدها(٣) وأدام دولته للدنيا والدين، يلم شعثه، ويهزم كرثه(٤) ويرفع مناره ويحس بحسن أثره آثاره، ويفتق نوره وأزهاره ، وينير نواره ، ويضاعف أنواره ، وأسبغ ظله للعلوم وأهليها ، وللآداب ومنتحليها ،وللفضائل وحامليها ، يشيد بمشيد فضله بنياتها، ويرصع بناصح مجده تيجانها ، ويروض بيانع علائه زمانها، ويعظم بعلومه الشريفة بين البرية شأنها ، ويمكن فى أعلى درج الإستحقاق إمكانها ومكانها .

ويرفع بنفـاذ الأمر قدره للدول الإسلامية ، والقواعد الدينيـة ، يسوس قواعدها ، ويعين مساعدها ، ويهـين معاندها ، ويعضد بحسـن الإيالة(٥) معاضدها ، وينهج(٦) بجميل المقصد مقاصدها ، حتى يعود حسن تدبيره غرة فى جبهة الزمان، وسنة يقتدى بها من طبع على العدل والإحسان يكون له أجرها مـادام الملوان(٧) وكر الجديدان(٨) وما أشرقت من الشرق شمس وارتاحت إلى مناجاة حضرته الباهرة نفس) .

---

(١) فى إنباه الرواة «عدها» .

(٢) لا تغاير بين المعطوف والمعطوف عليه .

(٣) الوديد : المحب .

(٤) الشعث : المتفرق ، وكرثه الغم : اشتد عليه .

(٥) الإيالة : السياسة .

(٦) ينهج : يبين ويوضح .

(٧) فى انباه الرواه «ما دار الملوان» .

(٨) الملوان : اليل والنهار ، وكذلك الجديدان ، وقيل : أن الملوين هما طرفا الليل والنهار .

ويستمر ياقوت فى المدح والإشادة بالقفطى، ويطيل فى ذلك مع انتقاء الألفاظ واختيار العبارات، ثم ينتقل إلى الحـــديث عن نفسه فيشرح تحركاته وتنقلاته بين البقاع والمواضع يقول :

« (١) وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف، وانفصل عن مقر العز اللباب، والفضل المنيف أراد استعتاب الدهر الكالح، واستدرار خلف (٢) الزمن الغشوم الجامح، اغـــتراراً بأن فى الحركة بركة، والاغتراب داعية الاكتساب، والمقام على الاقتار ذل وانتقام، وجليس البيت فى المحافل سكيت :

وقفت وقوف الشك ثم استمرلى
يقينى بأن الموت خـــير من الفقر

فودعت من أهلى وبالقلب ما به
وسرت عن الأوطان فى طلب اليسر

وباكية للبين قلت لها اصبرى
فللموت خير من حياة على عسر

سأكسب مالا أو أموت ببـــلدة
يقل بها فيض الدموع على قبرى

فامتطى غارب الأمل إلى الغربة وركب ركب التطواف مع كل صحبة قاطع الأغوار والأنجاد، حتى بلغ السد أو كاد، فلم يصحب (٣) له دهره الخئون ولارق زمانه المفتون ....، ثم يقول :

---

(١) معجم الأدباء جـ ١ ص ٢٨ .

(٢) الخلف، بالكسر : حلمة ضرع الناقة، والكلام على الاستعارة .

(٣) أصحب : انقاد .

« (٢) وهيهات مع حرفة الأدب ، بلوغ وطر ، أو إدارك أرب ، ومع عبوس الحظ ابتسام الدهر الفظ ، ولم أزل مع الزمان فى تفنيد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب (١) .

والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها ، ويعلل المعيشة ، ويرجيها ، متقنعاً بالقناعة والعفاف ، مشتملا بالنزاهة والكفاف . غير راض بذلك الشمل (٣) ولكن مكره أخاك لا بطل (٤) ، متسلياً بإخوان قد ارتضى خلائقهم ، وأمن بوائقهم ، عاشرهم بالألطاف ورضى منهم بالكفاف ، لا خيرهم يرتجى ، ولا شرهم يتقى .. » .

ثم يكتب ياقوت عن مقامته بمرو الشاهجان ويذكر فى أسلوبه المسجوع مالقيه من كرم وسخاء أهلها . ويكتب عما حدث فيها من خراب ودمار بسبب العدوان التترى ، وقد أطال فى حديثه عن هذه المدينة بمعجم البلدان ، وأطال أيضاً فى حديثه عنها بهذه الرسالة يقول : (٥) « وكان المقام بمرو الشاهجان (٦) ، المفسر عندهم بنفس السلطان ، فوجد بها من كتب

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٢٩ .

(٢) قوله : « رضيت من الغنيمة بالإياب » مثل ضمنه امرؤ القيس قوله :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

(٣) الشمل بفتح الشين والميم : القليل من الرطب ومن المطر .

(٤) هذا مثل رواه الميدانى فى مجمع الأمثال ، وهو من كلام رجل يسمى أبو حنش خال بيهس الملقب بنعامة ، وهو يضرب لمن يحمل على ماليس من شأنه . مجمع الأمثال ج ٣ ص ٣٤١ طبعة الحلبى .

(٥) معجم الأدباء ج ١ ص ٣١ .

(٦) مرو الشاهجان : هى أشهر مدن خراسان وقصبتها ، وتسمى =

العلوم والآداب وصحائف أولى الأفهام والألباب ، ما شغله عن الأهل والوطن ، وأذهله عن كل خل صفى وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص ، وقابلها بعقم لا يزمع عنها محيص . فجعل يرتع فى حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويسرح طرفه فى طرفها ، ويتلذذ بمبسوطها وتتفها ، واعتقد المقام بذاك الجناب ، إلى أن يجاور التراب .

إذا ما الدهر يمتنى بجيش
طليعته اغتمام واغتراب (١)

شننت عليه من جهتى كمينا
أسيراه الذبالة والكتاب (٢)

وبت أنه من شيم الليالى
عجائب من حقائقها ارتياب

بها أجلو همومى مستريحا
كما جلى همومهم الشراب

إلى أن حدث بخراسان ماحدث من الخراب ، والويل المبير والتباب وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الأرجاء ، رائعة الأنحاء ، ذات رياض أريضة (٣)

= مرو العظمى . وفى معجم البلدان ج ٥ ص ١١٣ قال ياقوت : « وأما الشاهجان فهى فارسية معناها نفس السلطان ، لأن الجان هى النفس أو الروح والشاه هو السلطان سميت بذلك لجلالتها عندهم » .

(١) فى إنباه الرواة « واكتئاب » .

(٢) الذبالة : الفتيلة .

(٣) أريضة : معجبة للعين زكية .

وأهوية صحيحة مريضة ، وقد تغنت أطيارها ، فتمايلت طربا أشجارها ، وبكت أنهارها ، فتضاحكت أزهارها ، وطاب روح نسيمها ، فصح مزاج إقليمها ، ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب زقاق خمر السحائب، فسقت مروجها مدام الطل فنشأ على أزهارها حبات كاللؤلؤ المنحل ، فلما رويت من تلك الصهباء أشجاره رنحها من النسيم خماره(١) فتدانت ولا تداني المحبين ، وتعانقت ولا عناق العاشقين يلوح من خلالها شقائق(٢) وقد شابه(٣) اشتقاق الهوى بالعليل فشابه شفتي غادتين دنتا للتقبيل ، وربما اشتبه على النحرير(٤) بائتلاف الخمر ، وقد انتابه رشاش القطر ، ويريه بهاراً يبهر ناضره، فيرتاح إليه ناظره ، كأنه صنوج(٥) من العسجد ، أو دنانير من الابريز(٦) تنقد ، ويتخلل ذلك أقحوان(٧) تخاله ثغر المعشوق إذا عض خد عاشق . فلله درها من نزهة وامق ، ولون رائق . . . ، ويواصل ياقوت حديثه عن خراسان فيعرض في لوحة فنية رائعة بطولة أهلها وعظمة سلطانها وفضائل علمائها ، ويصور الخراب والدمار الذي لحق بها على يد التتر أبلغ وأجمل تصوير قال :

---

(١) الخمار بضم الخاء : بقية السكر

(٢) الشقائق نبات أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة

(٣) شابه : خالطه

(٤) النحرير : الحاذق الماهر العاقل المجرب

(٥) صنوج جمع صنجة : وهي الميار يتخذ من النحاس ويضرب بعضه ببعض .

(٦) الإبريز : الذهب الخالي الصافي

(٧) الأقحوان بضم الهمزة : نبات له زهر أبيض ، في وسطه كتلة صفراء وأوراق زهر مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان الجميلة

« (١) فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والالحاد ، وتحكم فى تلك الأستار أولو الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمحو من السطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للاصداء والغربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح فى أراجيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنيس ويرثى لمصابها إبليس .

كأن لم يكن فيها أوانى كالدمى وأقيال ملك فى بسالتهم أسد

فمن حاتم فى جوده وابن مامه

ومن أحنف إن عد حلم ومن سعد ؟

تداعى(٢) بهم صرف الزمان فأصبحوا

لنا عبرة تدمى الحشا ولمن بعد

« فإنا لله وإنا إليه راجعون ، من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت فى العضد . وتوهى الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنخب لب الجليد ، وتسود القلب وتذهل اللب .

فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه ناكصا ، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيسا ، بقلب واجب(٣) ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب فتوصل ، وما كاد حتى استقر بالموصل ، بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير مرة على البوار

---

(١) معجم الأدباء جـ١ ص ٣٤

(٢) تداعى بهم .. إلخ أى نزلت حوادث الزمان ونوائبه فصدعتهم من تداعى البناء إذا سقط بعضه تلو بعض

(٣) واجب : مضطرب

والثبار(١) ، لأنه مر بين سيوف مسلولة وعساكر مغلولة ، ونظام عقود محلولة، ودماءمسكوبةمطلوله(٢) وكان شعاره كلما علا قتبا(٣)أوقطع سبسبا(٤) «لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا(٥) ... » .

ويبكى ياقوت حظه ويندب أيامه ولم يجد شيئاً يسلى به خاطره، ويعزى به قلبه فتعلق بأمل ضعيف فى إزاحة هذه العلل والأوصاب بعد وصوله إلى الموصل فى الحالة السيئة التى كشفت عنها العبارة السابقة .

وفى نهاية الرسالة يشرح ضعفه وآلامه خلال نزوله بالموصل، ويطلب من القفطى أن ينظر إليه بعين الرضا وأن يضمه بمجلسه وكنفه قال :

«(٦) والمملوك الآن بالموصل مقيم ، يعالج لما خر به من هـذا الأمر المقعد المقيم ، يزجى وقته ، ويمارس حرفته وبخته، تكاد تقول له باللسان القويم «فالله إنك لفى ضلالك القديم »(٧) يذيب نفسه فى تحصيل أغراض هى لعمر الله أعراض ، من صحف يكتبها . وأوراق يستصحبها ، نصبه فيها طويل ، واستمتاعه بها قليل ، ثم الرحيل .

وقد عزم بعد قضاء نهمته(٨) وبلوغ بعض وطر قرونته(٩) أن يستمد

---

(١) الثبار : الهلاك

(٢) مطلولة : مهدرة

(٣) القتب بالتحريك : أكاف صغير على قدر سنام البعير

(٤) السبسب : الصحراء

(٥) سورة الكهف : آية ٦٢

(٦) معجم الأدباء ح١ ص ٣٧

(٧) سورة يوسف آية ٩٥

(٨) نهمته : حاجته

(٩) قرونته : نفسه

التوفيق ، ويركب سنن الطريق،عساه أن يبلغ أمنيتهمن المثول بالحضرة ، وإتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة،ويلقى عصا الترحال بفنائها الفسيح ، ويقيم تحت ظل كنفها إلى أن يصادفه الأجل المريح ، وينظم نفسه فى سلك مماليكها بحضرتها ، كما ينتمى إليها فى غيبتها ، إن مدت السعادة بضبعه ، وسمح له الدهر بعد الخفض برفعه ، فقد ضعفت قواه عن درك الآمال ، وعجز عن معاركة الزمان والنزال إذ ضمت البسيطة إخوانه ، وحجب الجديدان أقرانه ، ونزل المشيب بعذاره،وضعفت قوى أوطاره،وأنقض باز الشيب عن غراب شبابه فقنصه ، وتبدلت محاسنه عند أحبابه مساوى وخصصة(١) وأكب نهار الحلم على ليل الجهل فوقصه ، واستعاض من حلة الشباب القشيب خلق الكبر والمشيب .

وشباب بان منى وانقضى　　قبل أن أقضى منه أربى

ما أرجى بعده إلا الفنا　　ضيق الشيب على مطلبى

ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات وما أقل غناء الباكى على من عد فى الرفات .

تنكر لى مذ شبت دهرى فاصبحت　　معارفه عندى من النكرات

إذا ذكرتها النفس حنت صبابة　　وجادت شؤون العين بالعبرات

إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى　　ويوسعنى من ذكره حسرات

فكيف ولما يبق من كأس مشربى　　سوى جرع فى قعره كدرات

وكل إناء صفوه فى ابتدائه　　وترسب فى عقباه كل قذاة

---

(١) خصصة : فقراً من الخصاصة

والمملوك تيقن أنه لا يتفق لهذا القدر الذى مضى إلا النظر إليه بعين الرضا ، ولرأى المولى الوزير الصاحب ، كهف الورى فى المشارق والمغارب فيما يلاحظه منه بمادة مجده مزيد مناقب ومراتب ، والسلام .

ولقد اخترت من هذه الرسالة الطويلة نماذج لأهم ما أراد ياقوت أن يتحدث عنه وليس هناك ما يدعو إلى إثباتها كاملة لإطالتها .

بين ياقوت والقفطى :

كشفت هذه الرسالة عن العلاقة التى ربطت بين ياقوت والقفطى ، ونستطيع أن نفهم هذه العلاقة بتتبع ما كتبه كل واحد منهما عن الآخر .

فلقد ترجم ياقوت فى كتابه « معجم الأدباء » للقفطى ، وكتب عنه ياقوت ما يقرب من ثلاثين صفحة : والقفطى هو : على بن يوسف بن ابراهيم ابن عبد الواحد بن موسى الشيبانى التيمى القفطى أحد الكتاب المشهورين المبرزين فى النظم والنثر ، وكان أبوه القاضى الأشرف كاتباً أيضاً ومنشئا ، وكانت امه من قضاعة ، وقد ولد سنة ثمان وستين وخمسمائة بمدينة قفط ، من الصعيد الأعلى بمصر ، ونشأ بالقاهرة .

ولقد كان والده ناظراً علي بيت المقدس ثم ترك العمل وتزهد وأقام باليمن إلى أن مات بها فى رجب سنة أربع وعشرين وستمائة .

وكان القفطى رجلا جماعاً للكتب محباً للأدب يقول الشعر فى أغراضه المختلفة ، وقد ذكر ياقوت مؤلفاته وهى ثمانية عشر كتاباً منها كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » . أقام القفطى فى حلب عندما عمل وزيراً لصاحبها الملك العزيز بن عبد الملك الظاهر غازى بن أيوب .

ولقد وصفه ياقوت بهذه الصفات فى معجم الأدباء قال :

«(١) ونشأ بالقاهرة . اجتمعت بخدمته فى حلب فوجدته جم الفضل، كثير النبل ، عظيم القدر ، سمح الكف ، طلق الوجه حلو البشاشة وكنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل وأرباب العلم ، فما رأيت أحداً فاتحه فى فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه الحديث وعلم القرآن والأصول والمنطق والرياضة والنحو والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الاطلاق إلا قام به أحسن قيام ، وانتظم فى وسط عقدهم أحسن انتظام » .

وفى معجم البلدان نرى ياقوت يهدى هذا الكتاب الكبير إلى القفطى فى عبارة تفيض إجلالا لشأنه وتنويهاً بمكارمه يقول :

«(٢) ثم أهديت هذه النسخة بخطى إلى خزانة مولانا الصاحب الكبير، العالم الجليل الخطير ، ذى الفضل البارع ، والإفضال الشائع ، والمحتد الأصيل . والمجد الأثيل ، والعزة القعساء ، والرتبة الشماء ، الفائز من المكارم بالقدح المعلى ، المتقلد من المكارم بالصارم المحلى، إمام الفضلاء، وسيد الوزراء ، السيد الأجل الأعظم ، القاضى جمال الدين الأكرم ، أبى الحسن على بن يوسف بن إبراهيم بن عبدالواحد الشيبانى ثم التيمى، حرس الله مجده وأسبغ ظله وأهلك نده ونصر جنده وهزم ضده . إذ كنت منذ وجدت فى حل وترحال ، ومبارزة للزمان ونزال ، أسأل منه سلما ولا يزيدنى إلا هضما » .

وهذه العبارة المسجوعة لا أرى أنها تختلف فى شكلها عن الرسالة

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٥ ص١٧٩

(٢) معجم البلدان حـ ١ ص ١٤

السابقة. فإذا جئنا إلى حديث ياقوت عن مدينة قفط نراه يكتب عن القفطى بهذا الأسلوب الذى يفيض بعبارات الود والاحترام ، ويكتب عن أبيه وإخوته يقول :

«(١) وكلهم كتاب علماء فضلاء لهم تصانيف وأشعار وآداب وذكاء وفطنة وفضل غزير » .

ولقد فهم ياقوت رجال عصره فأعطى كل ذى حق حقه ، ولم يتطاول أو يتحامل على أحد فكشف بذلك عن سمو أخلاقه ونبل مروءته لذلك اكتسب عطف الناس وحبهم وهذا ابن خلكان المعاصر له يستمع إلى الناس فى حلب وهم يثنون عليه بعد عام من وفاته . وهذه شهادة حق دل عليها الواقع ، وصدقها التاريخ .

فإذا راجعنا ما كتبه القفطى عن ياقوت وجدنا العجب العجاب. ذكر أن ياقوتاً بعث إليه بالرسالة السابقة من الموصل بعد أن وصل إليها من خوارزم طريد التتر وطلب منه اللجوء إليه مستجيراً به من أحداث الزمان . وتحدث عنه فى كتاب « إنباه الرواه» حديث الزارى المستخف. والمنعم الممتن ، ونال من علمه وأخلاقه ، فوصفه بعسر الفهم وسوء المخبر، واتهمه بالانحراف عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وذكر أن له كتابين ، أحدهما فى الرد على ابن جنى عند كلامه فى الهمزة والألف من كتاب « سر الصناعة » والثانى فى « أوزان الأسماء والأفعال الحاصرة لكلام العرب » وأوضح القفطى أن ياقوتاً لم يأت بشىء فى الكتاب الأول وخلط الغث بالثمين فى الكتاب الثانى .

والحقيقة أن هذه الاتهامات باطلة لأن لصاحبنا عشرة كتب ذكرناها

---

(١) معجم البلدان ج٤ ص٣٨٣

قبل ذلك وأشار إليها ياقوت نفسه فى كتاباته وليس منها هذان الكتابان المذكوران على لسان القفطى ، ولو افترضنا الصحة فى كلامه وأن هذه الكتب لم تصل إلينا فلماذا لم يذكر كتبه الأخرى مثل معجم الأدباء أو المشترك وضعا أو المقتضب فى النسب أو المبدأ والمآل فى التاريخ أو غيرهما وهو كثير ؟ ولماذا لم يذكر معجم البلدان وهو الكتاب المهدى له من ياقوت ؟.

والذى فهمته أن القفطى كان رجلا متجنياً بطبعه لا يحاسب ضميره فيما يكتب ، وكان مغروراً بمكانته الاجتماعية وبمركزه فى الحكم ، ولقد كتب عن ياقوت بقلم الوزارة لا بقلم الحقيقة ، فجاءت كتابته مشوهة ينفر منها أصحاب الأذواق السليمة ، ولا يثق فيها المؤلفون والمحققون(١) . ولقد قرأت ترجمته لياقوت فوجدته يحمل على ابن الأثير كذلك ، ويتهمه بالسرقة والتلفيق ، وعدم توصيل كتب ياقوت إلى محل وقفها ببغداد ، ولم يذكر مع ذلك دليلا واحداً لهذا الحكم حتى يمكن للقارىء أن يثق فى كتابته ويرضى بأحكامه .

ويبدو أنه ذكر رسالة ياقوت فى كتابه لما فيها من عبارات المدح والإشادة بكرمه وعلو منزلته ، فياقوت يضفى عليه مجموعة من الألقاب الفخمة ، ويكرر له الدعاء بمثل قوله : آدام الله علوه وأطال الله بقاءه، وآدام الله عزه .. إلخ .

---

(١) لقد وجهنى الأستاذ المشرف على رسالتى إلى العالم الكبير محمود محمد شاكر فالتقيت به مراراً فى منزله ، وذكر لى فى يوم الخميس ٩/ابريل سنة ١٩٨١م رأيه فى القفطى قال : «إنه رجل متغطرس ووقح » ولم يمانع الدكتور محمد رجب البيومى فى إثبات هذا الرأي.

كلمة أخيرة حول رسالته إلى القفطى :

وعندما ترجم ابن خلكان لياقوت حرص على نقل هـــذه الرسالة بأكملها مع أن حجمها بالنسبة إلى الترجمة التى أوردها لياقوت تزيد على الضعف ، ولم يذكر سبباً لذلك مع أنه ليس من منهجه فى كتابه الإطالة أو ذكر الرسائل الطويلة المشابهة لرسالة ياقوت أو ما يقترب منها ، والذى اعتقده أن ذلك راجع إلى أسلوبها الأدبى المسجوع .

ولقد عرف العصر العباسى الثانى الكثير من الرسائل المطولة وبخاصة رسائل المديح والشكوى ووصف الأهوال والمتاعب . ولاشك فى أن هذه الرسالة تعطينا أهم الملامح لكتابة الرسائل فى هذا العصر من نواح كثيرة . ولابد أن ابن خلكان قـــد وضع ذلك فى ذهنه وهو يذكرها كاملة فى « وفيات الأعيان » .

ويصف الدكتور أحمد الشرباصى الحالة التى كتب فيها ياقوت هـذه الرسالة فيقول :

«(١)ويظهر أن الوقت الذى كتب فيه ياقوت رسالته كان أشد مرحلة من حياته مرت عليه ، إذ تعرض فيها لأكبر محنة أصابته ، وهى ابتلاؤه بهجوم التتار ، وخروجه من خوارزم فزعا مجرداً من كل شىء ، نادباً ما كان فيه من عيش رغيد ، وما تعرض له الإسلام والوطن من احتلال وعدوان ، ولذلك ركز ياقوت تركيزاً واضحاً على وصف حالته الشديدة فى هذه المدة خلال رسالته إلى القفطى » .

وسوف أستعين بأدلة من هـذه الرسالة عند الكتابة عن خصائص الأسلوب الإنشائى لياقوت وأهم ملامحه .

---

(١) ملامح أدبية ص ٤٥

ثانياً : مقدمات الكتب :

كتب ياقوت مقدمات طويلة لكتبه بأسلوب إنشائى لايختلف فى شكله عن الرسالة السابقة وهو وإن كان يشرح فيها منهجه ويحدد خطته إلا أن أسلوبها مسجوع ، وعباراتها مزدانة بالمحسنات ، وكان حريصاً على أن يعرض هذه المقدمات بأسلوب يختلف عن أسلوبه الذى سار عليه فى التأليف .

ولقد أوضح الدكتور أحمد أحمد بدوى أن مقدمات الكتب التى يلتزم فيها بالسجع والمحسنات ، والتى تكتب بأسلوب أدبى يسير على نسق الرسائل الفنية رأى أن هذه المقدمات من صميم النثر الأدبى قال :

(١) « فقد عنى بعض المؤلفين أن يصنع لكتابه مقدمة يتأنق فيها ويسير على نسق الرسائل الفنية ، فيسجع ، ويجانس ويطابق ، ولو كانت المقدمة لغير كتاب أدبى ، وكانوا يرون من الواجب أن يكون للمقدمة جمالها الأدبى ، وأن تكون لغتها غير اللغة العلمية الخالصة فى بقية أجزاء الكتاب يريدون بذلك أن يؤثروا فى نفوس القراء ، وأن يشوقوهم إلى قراءة كتبهم »

ولاتخرج مقدمات الكتب عند ياقوت عن هذا المنهج ،ففى مقدمة كتابه « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » تقرأ له قوله :

« (٢) الحمد لله الذى تفرد لوحدانيته بصفة الاسم ، وجعل لعباده

---

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب دار نهضة مصر للطباعة والنشر طبعة ١٩٧٩ م ص ٥٩٢

(٢) المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ص ٣

لتعدادهم ، وصف المسمى ثم أشار إلى العكس لانفراد ذاته ، وتعدد صفاته فقال : « ولله الأسماء الحسنى، وشارك بين أجناس خلقه فى كلياتهم والجزئيات وخالف بين صورهم والسمات ليدل على وحدانيته بإشارة لطيفة ، ويظهر لأولى الألباب ربوبيته بنكتة ظريفة .

وأصلى وأسلم على من أقر له بالسبق ، وإن جاء أخيرا الأولون والآخرون المرسل بالهدى ودين الحق ولو كره المشركون محمد ذى الوجه الوضىء والشرف العلى والدين السنى ، وأهدى أفضل التحيات والسلام إلى آله الكرام هداة الإسلام وصحبه الأبرار خيرة الله من الأنام الذين ارتضاهم لصحبته فألقاهم أولى بصائر واجتباهم لنصرته فكانوا خير موازر وأسلم تسليما وأعظم تعظيما . . .

وبعد أن انتهى من هذه الفقرة ذات الصبغة الدينية انتقل إلى الحديث عن الكتاب من حيث موضوعه ومنهجه وعلاقته بمعجم البلدان قال :

«(١) فهذه طرفة طريفة وملحة مليحة تشرئب إليها النفوس بالطباع : ويشترك فى استحسانها أهل الاجماع والنزاع انتخلتها من كتابى الكبير المسمى بمعجم البلدان ، وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان فيما اتفق من أسماء البقاع لفظاً وخطا ووافق شكلا ونقطا ، وافترق مكانا ومحلا ،. واختلف صقعا ومحتلا ... » إلخ

---

(١) المرجع السابق ص ٣

مقدمة معجم الأدباء :

كتب ياقوت فى مقدمة هذا المعجم قطعة أدبية التزم فيها غالباً بالسجع وملأها بالكثير من الألفاظ التى تترد قليلا على ألسنة المتكلمين ولاتجرى بها أقلام بالكتاب كثيراً يقول :

(١)« فمازلت منذ غذيت بغرام الأدب ، وألهمت حب العلم والطلب ، مشغوفاً بأخبار العلماء متطلعاً إلى أنباء الأدباء ، أسأل عن أحوالهم وأبحث عن نكت أقوالهم ، بحث المغرم الصب(٢) والمحب عن الحب(٣) وأطوف على مصنف فيهم يشفى العليل ، ويداوى لوعة الغليل(٤) فما وجدت فى ذلك تصنيفاً شافياً ، ولا تأليفاً كافياً »

ويلتمس ياقوت العذر فيما وقع فى كتابه من خطل وخلل ، ويذكر سبب جمعه وتأليفه لمعجم الأدباء قال :

« (٥) وقد كتب جعفر بن يحيى إلى بعض عماله — وقد وقف على سهو فى كتاب ورد منه — اتخذ كاتباً متصفحا لكتبك ، فإن المؤلف تنازعه أمور وتعتروه(٦) خروق تشغل قلبه ، وتشعب فكره ، من كلام ينسقه ،

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ ص ٤٥

(٢) الصب : العاشق ذو الولع الشديد .

(٣) الحب : المحبوب .

(٤) الغليل : العطش الشديد وحرارة الحب أو الحزن

(٥) معجم الأدباء جـ ١ ص ٥٦

(٦) تعتروه أمور : تتناوبه وتتداوله

وتأليف ينظمه ، ومعنى يتعلق به يشرحه ، وحجة يوضحها والمتصفح لكتاب أبصر بمواضع الخلل من مبتدى تأليفه .

وأنا ، فقد اعترفت بقصوري فيما اعتمدت عن الغاية وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية ، فأسأل الناظر فيه ألا يعتمد العنت ، ولا يقصد قصد من إذا رأى حسنا ستره ، وعيبا أظهره ، وليتأمله بعين الانصاف لا الانحراف فمن طلب عيبا وجد وجد ، ومن افتقد زلل(١) أخيه بعين الرضا فقد فقد فرحم الله أمرأ قهر هواه ، واطاع الانصاف ونواه ، وعذرنا في خطأ إن كان منا ، وزلل إن صدر عنا ، فالكمال محال لغير ذى الجلال فالمرء غير معصوم ، والنسيان في الإنسان غير معدوم ، وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب فقد علم أن كل مجتهد مصيب ، فإنا وإن أخطأنا في مواضع يسيرة فقد أصبنا في مواطن كثيرة ، فما علمنا فيمن تقدمنا وأمنا من الأئمة القدماء إلا وقد نظم في سلك أهل الزلل ، وأخذ عليه شيء من الخطل(٢) وهم هم ، فكيف بنا مع قصورنا واقتصارنا ، وصرف جل زماننا في نهمة(٣) الدنيا وطلب المعاش وتنميق الرياش(٤) الذى مرادنا منه صيانة العرض ، وبقاء ماء الوجه لدى العرض .

ولقد عرض ياقوت بهذا الأسلوب مقدمة كتابه الطويلة التي استغرقت قرابة اثنتين وعشرين صفحة كما نلاحظ تقارب الأسلوب في النماذج المتقدمة مع اختلاف موضوعها .

---

(١) الزلل : الخطأ

(٢) الخطل : الكلام الفاسد ، والحمق والخفة .

(٣) النهمة : الحاجة والشهوة في الشيء .

(٤) الرياش : اللباس الفاخر .

يبدأ صاحبنا مقدمات كتبه بأسلوبه المعتاد مع التركيز على المعانى الدينية والالتزام بالنظام المعهود من حيث البدء بحمد الله والصلاة والسلام على رسوله والترحم على صحابته الأجلاء.

يقول فى مقدمة معجم البلدان :

(١) «الحمد لله الذى جعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا، وبث من ذلك نشوزا ووهادا، وصحارى وبلادا، ثم فجر خلال ذلك أنهارا وأسال أودية وبحارا، وهدى عباده إلى اتخاذ المساكن وإحكام الأبنية والمواطن، فشيدوا البنيان، وعمروا البلدان، ونحتوا من الجبال بيوتا، واستنبطوا آبارا وقلوتا، وجعل حرصهم على تشييد ما شيدوا، وإحكام ما بنوا وعمدوا عبرة للغافلين وتبصرة للغابرين، فقال وهو أصدق القائلين : «أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون»، أحمده على ما أعطى وأنعم، وهدى إلى الرشد وألهم، وبين من السداد وأفهم، وصلى الله على خيرته من أنبيائه والمرسلين، وصفوته من أصفيائه والصالحين محمد المبعوث بالهدى والدين المبين، المنعوت بـ «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وعلى آله الكرام البررة والصحابة المنتجبين الخيرة، وسلم تسليما».

وينتقل ياقوت من خلال الصفحات التالية إلى الحديث عن منهج الكتاب بهذا الأسلوب.

---

(١) معجم البلدان جـ ١ صـ ٧

ثالثاً : مقالات أدبية :

ذكر ياقوت فى بداية معجم الأدباء مقالين الأول عن فضل الأدب وأهله وذم الجهل وحمله وهو فى حوالى ست وعشرين صفحة ، والثانى فى فضيلة علم الأخبار وهو فى عشر صفحات .

جاء فى كلامه عن علم الأخبار قوله .

(١) « فإنه يوصل به إلى كلام ، ويتزين به فى كل مقام ، ويتجمل به فى كل مشهد ، ويحتاج إليه فى كل محفل ، ففضيلة علم الأخبار تنيه على كل علم ، وشرف منزلته صحيحة فى كل فهم ، فلا يصبر على علمه ، ويتقن ما فيه من إيراده وإصداره إلا إنسان قد تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق ثمرته ، واستشعر من عزه ، ونال من سروره . وقديما قيل : إن علم النسب والأخبار من علوم الملوك وذوى الأخطار ولا تسمو إليه إلا النفوس الشريفة ولا تأباه إلا العقول السخيفة ، وقد قالت الحكماء : الكتاب نعم الجليس والذخر إن شئت ألهتك بوادره وأضحكتك نوادره ، وإن شئت أشجتك مواعظه ، وإن شئت تعجبت من غرائب فوائده » .

كما ذكر ياقوت فى خاتمة معجم البلدان مقالا من صفحة واحدة تحدث فيه عن كتابه باختصار، وأنا اقتطع من هذا المقال جزء أختتم به الشواهد النثرية من كتابة ياقوت الإنشائية المتنوعة يقول :

(٢) « إن كتابى هذا أوحد فى بابه ، مؤمر على جميع أضرابه وأترابه

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ ص ٩٢

(٢) معجم البلدان جـ ٥ ص ٤٥٧

لا يقوم لمثله إلا من أيد بالتوفيق ، وركب فى طلب فوائده كل طريق ، فغار وأنجد ، وتقرب فيه وأبعد وتفرغ له فى عمر الشباب وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهـــرت عليه علامات الحرص وأمارته ، نعم وإن كنت استصغر هذه الغاية فهى كبيرة ، واستقلها فهى لعمر الله كثيرة ، وأما الاستيعاب فأمر لا تفى به طول الأعمار ، ويحول دونه مانعا العجز والبوار ، فقطعته والعين طامحة ، والهمة فى طلب الازدياد جامحة ، .. إلخ .

ومن خلال هذا العرض وهذه النماذج المتتابعة نلاحظ أن ما كتبه ياقوت كمقدمات لكتبه أو مقالات أخرى متنوعة لا يختلف فى شيء عن الرسائل الفنية من حيث الشكل الخارجى والإطار العام للجملة .

خصائص الكتابة الانشائية وملامح أسلوبها :

تعد كتابة الإنشاء عند ياقوت قليلة بالنسبة إلى كتابة التآليف ذات الأسلوب العلمى المتأدب ، لأن نثره الأدبى يتمثل فى رسالته إلى القفطى ومقدمات كتبه وبعض المقالات المتنوعة ، وهذه كلها تندرج تحت أسلوب واحد ذى خصائص محددة .

والأسلوب هو طريقة الكتابة أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الإيضاح والتأثير ، وهو يتأثر إلى حد كبير بالعصر والبيئة ، فالأديب الذى عاش فى بيئـــة صحراوية قاحلة ليس كالأديب الذى عاش فى الحاضرة المترفة المضيئة . فلابد أن تميل الألفاظ إلى الجزالة والقوة عند الأول ، وتجنح إلى العذوبة والرقة عند الثانى ، كما يتأثر الأسلوب بالثقافة والطبع وظروف الحياة .

والأسلوب الأدبى عنـــد ياقوت أكثر دلالة على شخصيته من

أسلوبه فى التأليف . لأننا نلحظ فى الأول ذوقه وعاطفته وأخلاقه وخياله وطبيعة حياته ومذهبه فى الحياة وهو يعرض فيه الحقائق رائعة جميلة كما تصورها وأدركها ، فيجمع بذلك بين الإفادة والتأثر ، أما أسلوبه فى التأليف فلا يقصد منه إلا أداء الحقائق وخدمة المعرفة ، وإثارة العقل .

ولعل أحسن نموذج يعرض أمامنا أسلوب ياقوت هو رسالته إلى القفطى ، لأنها أقرب إلى أسلوب الشعر من غيرها ، ولقد وجد فيها متنفساً حرا عن عواطفه ، دون أن يقيد نفسه بوزن أو قافية ، ثم تأتى بعد ذلك النماذج الأخرى .

ولقد تجمعت فى كتابته معظم ملامح النثر الأدبى فى العصر العباسى الثانى ، كما التقت فى أسلوبه ثقافة عصره ، والعصور التى سبقته لكثرة اطلاعه وهيامه بالأدب وعشقه للغة التى تعد أهم عناصر الأسلوب ، ومن خلال متابعتنا لنثره الإنشائى وعرضنا لنماذج منه نلاحظ فيه هـذه الخصائص .

١ — يستعين ياقوت فى كتابته بالقرآن الكريم والحديث الشريف ، وتأتى استعانته بالآية القرآنية إستشهاداً وإقتباساً ، والاستشهاد أن يحدد ما يأخذه من كلامه تعالى ، والاقتباس أن يضمن كلامه شيئا من القرآن الكريم بأن يتصرف فى الآية .

ولقد استشهد بمجموعة من الآيات الكريمة فى رسالته إلى القفطى مثل قوله تعالى : « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين »(١) .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٧

وقوله : «كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين »(١) .

وقوله : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »(٢) .

كما استعان فى رسالته بالآية القرآنية عن طريق الاقتباس أو التضمين فلقد قال : « فجاسوا خلالى تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وهى من قوله تعالى : « فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا »(٣) .

ولقد حرص ياقوت على الجملة القرآنية ، يوردها فى مواطن كثيرة من كتاباته مقتبساً أو مستشهداً ، كما استعان بالحديث النبوى فى كتاباته الإنشائية قليلا ، كمثل قوله ﷺ : « إن من أمتى لمكلمين » وقال المحقق فى هامش معجم الأدباء « وأحسبها الملهمين » ولياقوت شأن آخر مع الحديث فى كتابة التأليف .

٢ — كثرة استشهاده بالشعر ، وهو يستشهد تارة بالبيت المفرد ، وتارة بجملة من الأبيات ، وقد تكرر هذا الاستشهاد فى رسالته نحو اثنتى عشرة مرة ، كما استشهد بالشعر فى مقدمات كتبه والمقالات الأدبية المتنوعه .

والشعر الذى يستشهد به ربما يكون من مقوله ، أو من محفوظه ، ولكنه لم يحدد فى رسالته صاحب البيت أو الأبيات التى استشهد بها إلا مقطوعة واحدة من خمسة أبيات ذكر أنها له جاء فيها :

---

(١) سورة الدخان الآيات ٢٥، ٢٦، ٢٧

(٢) سورة البقرة آية ٢١٦

(٣) سورة الإسراء آية ٥

تنكر لى - مذ شبت - دهرى فأصبحت
معارفه عندى من النكرات
إذا ذكرتها النفس حنت صبابة
وجادت شؤون العين بالعبرات

وأكاد أجزم بأن صاحبنا لم يكن يجهل قائل الشعر الذى يستشهد به ، وإنما كان يهمله حتى لا يكون ذكره مقلقاً لأسلوبه المسجوع .

ونفس الصنيع تقريباً فى مقدمة معجم الأدباء ذكر بعض الأبيات المفردة أو المقطوعات ، ولم يحدد قائلها باستثناء مقطوعتين الأولى له وهى من خمسة أبيات فى مدح كتابه تبدأ بقوله :

فكم قد حوى من فضل قول محبر
ومن نثر مصقاع(١) ومن نظم ذى فهم

ومقطوعة أخرى لمحمد بن سلامة المقرى ذكر أنه قرأها بخط أبى سعد السمعانى . ولا شك فى أن صاحبنا يملك هياماً بالشعر وحبا للجيد منه ، لذلك فهو يقوله وينشده ويستعين به فى كتابته ، ولا يختار منه إلا الجيد المقبول .

٣ — التزم ياقوت بالسجع فى كتابته ، وهو يلجأ إليه كوسيلة بديلة عن الشعر الذى قل إنتاجه منه ، والسجع هو إتفاق الفواصل من الكلام المنثور فى الحرف الأخير مثل قوله :

« فما زلت منذ غذيت بغرام الأدب ، وألهمت حب العلم والطلب ، مشغوفا بأخبار العلماء متطلعا إلى أنباء الأدباء ، أسائل عن أحوالهم ، وأبحث عن نكت أقوالهم ... »(٢) .

---

(١) المصقع والمصقاع : البليغ .
(٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ٤٥

ولقد وقع صاحبنا — كمعظم كتاب عصره — تحت سيطرة السجع ، فالتزم به ، وحرص عليه ، وجاء الكثير منه حلواً مستطاباً كقوله فى فضيلة علم الأخبار :

« فإنه يوصل به إلى كلام ، ويتزين به فى كل مقام ، ويتجمل به فى كل مشهد ، ويحتاج إليه فى كل محفل ، ففضيلة علم الأخبار تنبه على كل علم ، وشرف منزلته صحيحة فى كل فهم »(١). والفقرات فى هذه العبارة متساوية وغير طويلة وليست ملتزمة لذلك كانت مقبولة ، ومما زاد السجع حلاوة أنه أضاف إليه محسناً آخر وهو المزاوجة فى قوله: « ويتزين به فى كل مقام . ويتجمل به فى كل مشهد » .

وأمام تساوى الفقرات نقرأ له عن مدينة خراسان :

« فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم فى تلك الأستار أولو الزيغ والعناد ، فأصبحت تلك القصور كالمحو من السطور ، وأمست تلك الأوطان ، مأوى الأصداء والغربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح فى أراجيها الريح السموم ، يستوحش فيها الأنيس ، ويرثى لمصابها إبليس »(٢) .

ويلاحظ فى هذه العبارات أن كل فقرة تحمل معنى جديداً ، وبها أكثر من محسن بديعى كما عمد فيها ياقوت إلى التشبيه والصور الخيالية ، وتساوت الفواصل فى الطول والقصر . وقد يتكلف صاحبنا السجع أحياناً فيأتى بالكلمة القلقة فى موضعها ، مثل قوله عن معجم الأدباء :

« وما عسى أن يأتى به ، وليس فى أبناء جنسه له نظير ، وما كان فى

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٥

(٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ٣٤

أمته رجل خطير لاستيلاء التقليد على العالم والبليد ، فهم لا ينظرون ما قيل، إنما يسألون عمن قال »(١) . فكلمة « والبليد » متكلفة وغير مناسبة للمعنى، والأنسب أن يقول « على العالم والجاهل » .

ويبدو التكلف أكثر وضوحاً عندما يخالف قواعد النحو من أجل السجع ، وفى هذا الصدد نقرأ له من حديثه عن معجم الأدباء :

« واعلم أنى لو أعطيت حمر النعم(٢) وسوادها ومقانب(٣) الملوك وبنودها(٤) لما سرنى أن ينسب هذا الكتاب إلى سواى ، وأن يفوز بقصب سبقه(٥) إلاى ، لما قاسيت فى تحصيله من المشقة ، وطويت فى تكميله من طوال الشقة(٦) »(٧) .

وقول : « إلاى » استعمال شاذ قضى به السجع ، لأن ياء المتكلم ضمير متصل لا يقع بعد إلا ، ولأنه ضمير نصب قام مقام ضمير الرفع .

٤ — ولا يكتفى ياقوت بالسجع ، وإنما يستخدم بعض المحسنات الأخرى مثل المزاوجة أو الازدواج . وهو التناسق بين أجزاء الجمل فى الكلمات والنغم دون التزام السجع مثل قوله عن فضيلة علم الأخبار :

---

(١) المرجع السابق حـ ١ ص ٦٤

(٢) النعم : الإبل ، وتطلق على البقر والغنم .

(٣) المقانب جمع مقنب وهى : جماعة من الخيل تجتمع للغارة .

(٤) البنود جمع بند : وهو العلم الكبير ، فارسى معرب .

(٥) قصب السبق : كناية عن الغلبة ، وأصله أنهم كانوا ينصبون فى حلبة السباق قصبة فمن سبق اقتلعها وأخذها ليعرف أنه السابق .

(٦) الشقة : السفر البعيد والمسافة التى يشقها المسافر .

(٧) معجم الأدباء حـ ١ ص ٦١

« ويتزين به فى كل مقام ، ويتجمل به فى كل مشهد ، ويحتاج إليه فى كل محفل »(١) والجناس من المحسنات التى يستعملها ياقوت كثيراً يقول فى مقدمته لمعجم الأدباء :

« الحمد لله ذى القدرة القاهرة ، والآيات الباهرة ، والآلاء الظاهرة(٢)» فبين القاهرة والباهرة والظاهرة سجع وجناس ناقص ، والطباق مثل قوله عن مدينة خراسان :

« فأصبحت تلك القصور كالممحو من السطور ، وأمست تلك الأوطان مأوى للأصداء والغربان ، يتجاوب فى نواحيها البوم ، ويتناوح فى أراجيها الريح السموم »(٣) .

والطباق بين « أصبحت » و « أمست » .

ونجد المقابلة فى قوله :

« وأما من عرف بالتصنيف ، واشتهر بالتأليف ، وصحت روايته ، وشاعت درايته وقل شعره وكثر نثره فهذا الكتاب عشه ووكره ، وفيه يكون ثناؤه وذكره(٤) وإلى جانب المقابلة فى قوله : « قل شعره وكثر نثره » نجد السجع فى فقرات عبارته السابقة والطباق بين « روايته ودرايته » .

٥ — تكثر فى كتابته الصور البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية فهو يقول فى رسالته إلى القفطى عن مدينة مرو :

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ٩٢
(٢) » » جـ ١ ص ٤٥
(٣) » » جـ ١ ص ٣٤
(٤) معجم الأدباء جـ ١ ص ٥٠

(١) « فوجد بها من كتب العلوم والآداب ، وصحائف أولى الأفهام والألباب ، ما شغله عن الأهل والوطان ، وأذهله عن كل خل صفى وسكن فظفر منها بضالته المنشودة وبغية نفسه المفقودة فأقبل عليها إقبال النهيم الحريص ، وقابلها بمقام لا يزعج عنها محيص ، فجعل يرتع فى حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها » .

ولقد صور ياقوت نفسه فى إقباله على الكتب والمؤلفات بمرو بإقبال النهم الحريص ، وهو تشبيه يعكس حبه للكتب وعشقه للقراءة وعدم شبعه منها ، وفى الحديث : « منهومان لا يشبعان منهوم بالمـــال ومنهوم بالعلم » والنهم والحريص صيغتان للمبالغة أسهمت فى حسن التشبيه وجودته .

ويكتب عن نفسه فيقول . (٢) « فامتطى غارب الأمل إلى الغربة . وركب ركب التطواف مع كل صحبة . قاطع الأغوار والأنجاد حتى بلغ السد أو كاد ، فلم يصحب له دهره الخئون ولا رق له زمانه المفتون .

إن الليالى والأيام لو سئلت
عن عيب أنفسها لم تكتم الخبر

فكأنه فى جفن الدهر قذى ، وفى حلقه شجا ، يدافعه بنيل الأمنية حتى أسلمه إلى ربقة الموت » .

وهذه العبارة عامرة بالاستعارات مثل فامتطى غارب الأمل ، دهره الخئون ، جفن الدهر ، وبالتشبيه مثل « ركب ركب التطواف . فكأنه فى جفن الدهر قذى وفى حلقه شجا . وهذه الجملة صورة مؤلفة من التشبيه والاستعارة .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١ ص ٣١
(٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ٢٨

وقوله : حتى بلغ السد أو كاد ، كناية عن طول الجهدوالسفر وقوله: ربقة الموت كناية عن الموت .

٦ — يضمن ياقوت كتابته الإنشائية بعض الحكم والأمثال، ولصاحبنا باع طويل فى قول الحكمة التى يسوقها من خلال نثره مثل قوله عن معجم الأدباء :

(١) « فالكمال محال لغير ذى الجلال ، فالمرء غير معصوم، والنسيان فى الإنسان غير معدوم وإن عجز عن الاعتذار عنا والتصويب ، فقد علم أن كل مجتهد مصيب ، فإنا وإن أخطأنا فى مواضع يسيرة ، فقد أصبنا فى مواطن كثيرة » .

وكقوله :

(٢) « رب غيث غب البارقة ومغيث تحت الخافقة »(٣) وإن كانت الحكمة هنا ثقيلة والجملة الثانية شبه تكرار للأولى لأنها لا تؤدى معنى جديداً .

وقد يستعين صاحبنا بالحكمة التى ليست من إنشائه ولكنه ينسبها إلى صاحبها كقوله :

(٤) « قال قيس بن ساعدة الذى حكم له النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه يبعث أمة وحده : « أبلغ العظات السير فى الفلوات ، والنظر إلى محل الأموات » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ ص ٥٧

(٢) المرجع السابق حـ ١ ص ٤٨

(٣) غب : بعد ، والخافقة : مهب الريح .

(٤) معجم البلدان حـ ١ ص ٨

ويذكر ياقوت فى كتابه بعض الأمثلة كقوله :

(١) « ولم أزل مع الزمان فى تفنيد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب » .

وقوله : « حتى رضيت من الغنيمة بالإياب مثـــل ضمنه أمرؤ القيس فى قوله :

وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وقال ياقوت :

(٢) « والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها، ويعلل المعيشة ويرجيها متقنعا بالقناعة والعفاف ، مشتملا بالنزاهة والكفاف ، غير راض بذلك الشمل(٣) ولكن مكره أخاك لا بطل » والمثل هو : مكره أخاك لا بطل» وهو يضرب لمن يحمل على ما ليس من شأنه .

٧ — سلك ياقوت منهج الاطناب (٤) فى نثره الفنى ، لذا نراه يكرر فى الألفاظ والمعانى بقصد توكيدها ، ويكثر من المترادفات ، فيقول فى رسالته إلى القفطى :

(٥) « حتى يعود حسن تدبيره غرة فى جبهة الزمان وسنة يقتدى بها من طبع على العدل والإحسان ، يكون له أجرها مادام الملوان ، وكر الجديدان ، وما أشرقت من الشرق شمس » فلا يختلف قوله : وكر

---

(١) معجم الأدباء ﺣ ١ ص ٢٩

(٢) المرجع السابق ﺣ ١ ص ٣٠

(٣) الشمل : القليل من الرطب والمطر .

(٤) الاطناب : زيادة اللفظ على المعنى لفائدة ، فإن كانت لغير فائدة فهى حشو وتطويل .

(٥) معجم الأدباء ﺣ ١ ص ٢٥

الجديدان ، عن قوله: « مادام الملوان ، ولم يضف قوله: « وما أشرقت من الشرق شمس ، جديداً إلى المعنى سوى تأكيده وبسطه .

كما نلاحظ التكرار فى الألفاظ فى مثل قوله : (١) « فقد ضعفت قواه عن درك الآمال ، ثم يقول بعده : « وضعفت قوى أوطاره » .

وصاحبنا يكثر من المترادفات التى تساعده على التزام السجع ، يقول عن كتابه معجم البلدان :

(٢) « إن كتابى هذا أوحد من بابه ، مؤمر على جميع أضرابه وأترابه ، لا يقوم لمثله إلا من أيد بالتوفيق ، وركب فى طلب فوائده كل طريق » فكلمة « أترابه » مرادفة لكلمة : « أضرابه » .

كما يميل كثيراً إلى الاستطراد ، فعندما تستهويه ناحية معينة لها أثر فى كلامه يستطرد إليها ثم بعد قليل يعود إلى ما كان فيه ، وهذا الاستطراد متوفر فى مقدمته الطويلة لمعجم الأدباء فهو يتحدث عن الكتاب ثم يستطرد إلى بعض المسائل الجانبية ، ثم يعود إلى الحديث عن كتابه .

٨ — تبدو فى أسلوبه ثروته اللفظية ومقدرته اللغوية ، فعندما نقرأ له شيئاً من نثره الفنى نحس كأنه جمع مفردات اللغة كلها فى جعبته يخرج منها ما يحتاج إليه يقول :

(٣) « ولو اشتغل الناس كلهم بنوع من العلم واحد لضاع باقيه ، ودرس(٤) الذى يليه ، وإن الله جل وعز جعل لكل علم من يحفظ جملته ،

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ ص ٣٨

(٢) معجم البلدان حـ ٥ ص ٤٥٧

(٣) معجم الأدباء حـ ١ ص ٥٢

(٤) درس : ذهب أثره .

وينظم جوهرته ، والمرء ميسر لما خلق له ، ولست أنكر أنى لو لزمت مسجدى ومصلاى ، واشتغلت بما يعود بعاقبة دنياى فى أخراى لكان أولى وبطريق السلامة فى الآخرة أحرى ، ولكن طلب الأفضل مفقود واعتماد الأحرى غير موجود ، وحسبك بالمرء فضلا ألا يأتى محظوراً ، ولا يسلك طريقاً غروراً »(١) والعبارة المسجوعة تكون مقبولة إذا كانت ألفاظها سهلة لينة متداولة — ولقد قرأت بعض المقاطع التى يهتم فيها بحشد الألفاظ الصعبة وجمع الكلمات الغريبة حتى ولو كان ذلك على حساب المعنى، يقول عن معجم الأدباء :

(٢) « فهو لا ينفق إلا على من جبل على العلم طبعه ، وعمر بحب الفضل ربعه ، فظل للآداب خدينا ، ولصحة العقل قرينا ، وقد عجنت بالظرافة طينته وسيرت باللطافة سيرته »(٣).

وتوجد فى مقدمة معجم البلدان بعض الكلمات الغريبة مثل النشوز ومعناها المرتفعات ، والقلوت ومعناها : الحفر أو العيون .

٩ — يكثر ياقوت من استخدام الجمل الدعائية ، فهو يدعو للقفطى فى رسالته له ويكرر الدعاء عشرات المرات فهو يقول :

(٤) « أعز الله أنصاره ، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر ألويته وأعلامه وأجرى بإجراء الأرزاق فى الآفاق أقلامه ، وأطال بقاه ، ورفع إلى عليين علاه » .

---

(١) الغرور : الانخداع بالباطل .
(٢) معجم الأدباء حـ ١ ص ٥٥
(٣) ينفق من نفق أى راج ، وربعه : داره ، وخدينا : حبيبا ، والظرافة : الكياسة وحسن الهيئة .
(٤) معجم الأدباء جـ ١ ص ٢٤

ويواصل دعاءه بهذه الجمل المتلاحقة ثم يتجه إلى الله عسى أن يستجيب دعاءه ويستمع لندائه فيقول :

(١) « اللهم رب هذه الأرض المدحية والسموات العلية ، والرياح المسخرة والبحار المسجرة اسمع ندائى واستجب دعائى ، وبلغنى فى معاليه ما نؤمله ونرتجيه بمحمد وصحبه وذويه »(٢) .

وهو كثيراً ما يكرر قوله : « أدام الله علوه » وقوله : « أطال الله بقاءه » وقوله : أدام الله عزه » .

١٠ — يعمد ياقوت إلى المبالغة كثيراً ، ونلحظها فى حديثه عن مرو وخراسان يكتب عن الثانية فيقول :

(٣) « وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الأرجاء رائعة الأنحاء ، ذات رياض أريضة وأهوية صحيحة مريضة ، وقد تغنت أطيارها ، فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أنهارها ، فتضاحكت أزهارها ، وطلب روح نسيمها ، فصح مزاج إقليمها ... »(٤) .

وتصل المبالغة إلى أقصى مداها عندما يمدح على بن يوسف القفطى ويشيد بفضله وكرمه ولا أجد أكثر تعبيراً عن ذلك من العبارة التى أهدى بها ياقوت كتابه معجم البلدان إلى القفطى تقول هذه العبارة :

---

(١) المرجع السابق حـ١ ص ٢٧

(٢) المدحية : المبسوطة ، والمسجرة : المملوءة.

(٣) معجم الأدباء حـ١ ص ٣١

(٤) قوله : « ذات رياض أريضة » أى عريضة معجبة للعين زكية ، وقوله : « وأهوية صحيحة مريضة » أى : ليست شديدة فتؤذى وتضر أى أنها رقيقة .

(٤) « ثم أهديت هذه النسخة بخطى إلى خزانة مولانا الصاحب الكبير ، العالم الجليل الخطير ، ذى الفضل البارع ، والإفضال الشائع ، والمحتد الأصيل والمجد الأثيل ، والعزة القعساء ، والرتبة الشماء . والفائز من المكارم بالقدح المعلى ، المتقلد من المكارم بالصارم المحلي ، إمام الفضلاء ، وسيد الوزراء ، السيد الأجل الأعظم ... » .

ويبالغ ياقوت فى الحديث عن كتبه ومؤلفاته ، فيقول مثلا عن معجم الأدباء :

(٢) « ولو أنصف أهل الأدب لاستغنوا به عن المآكل والمشرب ، ولكنى أخاف أن يأتيه النقص من جهة زيادة فضله ، وأن يقعد بقيام جده عظم خطره ونبله(٣) ، واستشعر له أمرين منبعهما من قـــلة الإنصاف واجتناب الحق والانحراف ... » .

ويواصل كتابته عن هذين الأمرين ، وهما كونه مملوكا ، والثانى : قصور الهمم الغالب على أكثر الأمم .

ولقد وصلت المبالغة إلى الأرقام التى أسرف ياقوت فى استعمالها ، وهو يتحدث عما كان يحدث له لو تأخر فى بلاد خوارزم وخراسان قال :

(٤) « وألحق بألف ألف ألف ألف ألف هالك أو يزيدون » .

ولقد علق الدكتور أحمد الشرباصى على هذا الرقم وهو يتحدث عن نظرته إلى رسالة ياقوت قائلا :

---

(١) معجم البلدان حـ ١ ص ١٤

(٢) معجم الأدباء حـ ١ ص ٦٣

(٣) نبله : شرفه وفضله .

(٤) معجم الأدباء حـ ١ ص ٣٦

(١) « لعله قد ذكر هذا الرقم وهو يترنح من هول الدمار الذى رآه ، فجعل يكرر كلمة « ألف » وكأنه لا يعى ما يعطيه هذا التكرار من مضاعفة هائلة فى الأعداد ، وماذا كان عليه لو أنه أضاف كلمة « ألف » مرة أخرى أو مرتين أو ثلاث مرات ، والسطور أمامه واسعة وكلمة « ألف » سهلة الكتابة ، ولكن العقل المتخيل لا يستطيع أن يتسع لقصور هذه الأرقام » .

١١ — شاعت فى كتابة ياقوت ألقاب التفخيم والتعظيم ، ولقد انتقلت هذه الألقاب إلى العرب من الفرس الذين تعودوا ذلك فى بلادهم من قبل فنشروه فى المجتمع العربى الإسلامى من بعد . وكان صاحبنا واحداً من الذين تنقلوا بين المجتمعين العربى والفارسى ، ولذا كان طبيعياً أن تكثر هذه الألقاب فى نثره الفنى ، ولا يجد أمامه من رجال السياسة والحكم سوى الوزير القفطى فيضفى عليه فى رسالته إليه مجموعة من الألقاب الفخمة مثل القاضى الأكرم ، وزير صاحب حلب والعواصم ، المولى المقر العالى المولوى ، المحل الأكرم العلى ، الحضرة الشريفة ، الجناب الشريف ، مقر العز اللباب ، كهف الورى فى المشارق والمغارب .

١٢ — نشاهد بعض الثقل فى أسلوبه عند تتابع الإضافات فى كتابته كقوله :

(٢) « وقد عزم بعد قضاء نهمته(٣) وبلوغ بعض وطر قرونته » .

١٣ — يذكر ياقوت فى أسلوبه بعض الألفاظ التى لا تحسن ولا تجمل ،

---

(١) ملامح أدبية ص ٥٧

(٢) معجم الأدباء جـ ١ ص ٣٧

(٣) نهمته : حاجته . قرونته : نفسه .

فهو يخلع على الدهر عدة أوصاف غير محببة ولا مناسبة من الوجهة الدينية ، فلقد وصف الدهر فى رسالته إلى القفطى عدة أوصاف قال عنه : الدهر الكالح ، الدهر الخئون ، الدهر الفظ ، الزمان الخئون، ويبدو أن صاحبنا لم يكن قد اطلع على الحديث الذى يقول : « لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله » وفى رواية : « فإن الله هو الدهر » أو اطلع عليه ولم يقصد بسبه للدهر المعنى الظاهر للحديث ، لأننا نعرف توفر النزعة الدينية عنده وظهورها كثيراً فى كتابته .

١٤ — تكشف كتابة ياقوت عن طبيعة حياته وبيئته وعصره فى جلاء تام ، فمعظم كتابته تدور حول الوصف المتنوع للحياة ، بما فيها من مظاهر الطبيعة والناس . ولقد بدت نزعته للعروبة مع أنه رومى ، وظهر حبه للكتب من خلال حديثه عنها بتوسع وإفاضة ، وكتب عن البلدان والأوطان فأظهر حرمانه وضياعه وفقد وطنه ، كما نراه يفتخر بأعماله ومؤلفاته .

وعندما نقرأ له نراه يحشد أسلوبه بطائفة كبيرة من الألفاظ التى نستشف منها الصلة الوثيقة التى ربطت بينه وبين المؤلفات العربية نسخاً وقراءة ومتاجرة .

وقطعة أدبية من تأليفه كرسالته إلى القفطى يمكن أن تكشف عن عصرها وهو عصر كتابة الرسائل الإخوانية بالأسلوب المزخرف المسجوع المليء بالألقاب وعبارات الثناء والدعاء ، ولقد عرض ياقوت لبعض القضايا الأدبية والنقدية من خلال هذا اللون من الكتابة وسوف نتحدث عنها فى مكانها من هذا البحث .

* * *

وبهذا العطاء للكتابة الفنية ، نقول بلا حرج : إن صاحبنا كان من

أبرز كتاب عصره بما أعطى من موهبة عظيمة فى الكتابة والتأليف ، ولا يتقدم عليه فى عصره إلا القاضى الفاضل الذى خدمه مركزه السياسى ومكانته فى الدولة الأيوبية ، وربما لو أعطى ياقوت شيئا من الأمان والاطمئنان لتفوق على كل معاصريه بلا منازع أو شريك ، وربما تحقق له ذلك ، ولكن ضياع معظم كتبه يمنعنا من تقرير هذا والجزم به والانتهاء إليه .

الفصل الثاني

كتابة التأليف

كتابة التأليف :

كان لياقوت إلى جانب كتابته الفنية كتابة تأليفية ، تتسم إلى جانب طابعها العلمي بسمات أدبية ، ولكنها لا ترقى على كل حال إلى مستوى الكتابة الفنية ، فالكتابة التأليفية هي التي يشيع فيها الأسلوب المترسل السلس الدقيق المرتب ، وليس معنى ذلك أن تأتي العبارة جافة مقتصرة على الفكر وسرد الحقائق . وإنما يعرض أفكاره بأسلوب يتخير فيه الألفاظ وينتقي العبارات بدون اسراف في المحسنات أو التقيد بالصور الخيالية .

ولقد سار ياقوت في نثره التأليفي على هذا المنهج فلم يتقيد بالسجع ولم يلتزم التشبيه أو الاستعارة ، وكل هذه تأتي عفواً بدون قسر . وهو هنا يسخر اللفظ لخدمة المعنى على العكس من كتابة الإنشاء التي يسيطر فيها السجع وتتقهقرت المعاني أمام محسن ربما يكون بارداً ممقوتا .

والحقيقة أن الأسلوب هنا يختلف كثيراً عن الأسلوب الإنشائي وسوف تتضح أوجه الخلاف عند الحديث عن ملامح هذه الكتابة .

كتب ياقوت معظم نثره من هذا اللون الذي تبدو فيه ثروته اللغوية وسعة ثقافته ووفرة محصوله، وتظهر شخصيته هنا كثيراً ، ولا تختفي وراء عبارات منمقة أو ألفاظ مرصوصة ، وتتضح أيضاً نزعته الأدبية في حديثه

عن الشعر والكتابة والخطابة والنقد ،وتبرز نزعته العلمية والتاريخية عندما يكتب عن اللغة والتاريخ والدين والسياسة والأنساب .

ولقد أسهم بجهد كبير فى تصوير الحياة العقلية فى العصر العباسى الثانى بصراحة مطلقة وليس بالرمز أو الإشارة .

وجد صاحبنا فى الأسلوب المرسل الذى يسهل هضمه وسيلة لتوضيح المعنى وبسط الفكرة بلغة فصيحة سليمة بعيدة عن الأعوجاج ، وهذا شىء لم نقله فى حديثنا عن الكتابة الإنشائية .

ولنقرأ له بعض النماذج النثرية لنتعرف على طريقته فى الكتابة .

كتب عن مرو يقول :

(١) « وبمرو جامعان للحنفية والشافعية يجمعهما السور ، وأقمت بها ثلاثة أعوام فلم أجد بها عيباً إلا مايعترى أهلها من العرق المدينى فإنهم منه فى شدة عظيمة قل من ينجو منه فى كل عام ، ولولا ماعرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات لما فى أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة بهـــا . فإنى فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر فى الدنيا مثلها كثرة وجودة : . »ويذكر هذه الخزائن مفصلا القول فى أعداد الكتب التى تشتمل عليها ، ويشرح كيف استفاد منها فيقول .

(٢) وكانت سهلة التناول لايفارق منزلى منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتى دينار ، فكنت أرتع فيها ، واقتبس من فوائدها ،

---

(١) معجم البلدان حـ ٥ صـ ١١٤

(٢) المرجع السابق جـ ٦ صـ ١١٤

وأنسانى حبها كل بلد وألهانى عن الأهل والولد ، وأكثر فوائد هــذا الكتاب(١) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن ، وكثيراً ما كنت أترنم عند كونى بمرو بقول بعض الأعراب .

أقرية الوادى التى خان إلفها
من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعالى أطارحك البكاء فإننا
كلانا بمرو الشاهجان غريب

وكان صاحبنا يميل فى قطع من نثره التأليفى إلى شىء بسيط من السجع ولكنه لم يلتزمه .

كتب عن أبى حيان التوحيدى يقول :

(٢)« وكان متفنناً فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظياً يسلك فى تصانيفه مسلكه ، ويشتهى أن ينتظم فى سلكه ، فهو شيخ فى الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء ، وعمدة لبنى ساسان سخيف اللسان ، قليل الرضا عند الإساءة إليه والاحسان الذم شأنه ، والثلب دكانه ، وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ... »

ولقد كتب ياقوت شيئا كثيراً فى النسب بأسلوب علمى جاف ، ولكنه

---

(١) يقصد معجم البلدان .
(٢) معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٥

كان دقيقاً غير مضطرب فيما كتب ، ولا يكشف عنه مؤلفه عن ذلك فحسب ، وإنما يدل عليه أيضاً تراجمه للرجال التي كانت تبدأ غالبيتها بسلسلة من النسب المتصل الذي يمتد إلى القبائل العربية القديمة ، ولا حاجة لنا في هذا اللون ، لأن الحديث هنا عن كتابة التآليف ذات اللون الأدبي كما سبق التمثيل لها

أما موضوعات كتابة التأليف فكثيرة جداً لأنه موسوعة كبيرة لا يكتفي بموضوعات محددة ينحصر في نطاقها ، وهذه طبيعة عصره من حيث سيولة التأليف وكثرة الموضوعات . فمؤلف واحد كمعجم البلدان نجد فيه عن كل فنون الشعر وعن روائع القصائد العربية ، ونجد فيه دراسات متناثرة عن علوم اللغة والدين والسيرة والفقه والأنساب والتاريخ والطبيعة والفلك والجغرافية ، ثم حديثاً ذاتياً عن ياقوت نفسه وغير ذلك كثير وكثير ، وبهذا لا يمكن تحديد الموضوعات التي تحدث عنها في كتبه وبخاصة معجماه الكبيران للأدباء والبلدان ، ولكننا سوف نختار أبرز ما كتب عنه أو عرض له من خلال كتبه ومعجمه .

١ — وصف الرجال والبلدان والشعوب والطبيعة ومظاهر الحياة :

لقد كان ياقوت بارعاً في وصف مايعرض له من الحياة ، مما رأته عيناه ، أو جرى في خاطره ، وهو يصور الأشياء الحسية والمعنوية تصويراً مفصلا بأسلوبه المرسل الدقيق ، وكان اهتمامه بالأشياء الحسية أكثر من غيرها ، لأن حياته وعمره وتجاربه فرضت عليه نمطاً من الكتابة لا يتعداه إلا قليلا .

وصاحبنا يقدم وصفه للأشياء كاملا متكاملا ، ويقدم للقارىء مالم يرد بخاطره أو يجول في ذهنه . وهو رجل واقعي في عبارته وأسلوبه ، يفضل الدقة والوضوح من أجل الحقيقة ويرفض في كتابته أية مبالغة

لجذب القارىء وإثارة انتباهه ، وطريقته فى الكتابة سهلة ميسرة مقبولة لايلتزم فيها سجعا ولا يلح على الصور الخيالية إلا بقدر مايسعفه الموقف أو يوحى به التصوير .

ولهذا نجد فاصلا كبيراً بين عبارتيه فى الإنشاء والتأليف ، فهو يستخدم أسلوبين أو نمطين من الكتابة ، واللغة عنده عجينة لينة يأخذ منها ويتحكم فيها ، ويقدم للقارىء مايتناسب مع الموضوع الذى يتكلم فيه .

ولقد أجاد فى وصف الأزهار والرياحين والجداول والمنازل والقصور والنسيم والأطعمة والفواكه والسفن والدواب والجيوش وأيام الشتاء والصيف ولم يترك شيئا رآه وعاينه إلا أجرى فيه قلمه ، بل إننا نعجب عندما نراه يصف الأقلام والأحبار تعبيراً عن الصلة الكبيرة التى ربطته بهما .

جاء فى حديثه عن أذربيجان :(١) « وهو صقع جميل ، ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال ، وفيه قلاع كثيرة ، وخيرات واسعة ، وفواكه جمة مارأيت ناحية أكثر بساتين منها ، ولا أغزر مياها وعيونا ، لايحتاج السائر بنواحيها إلى حمل إناء . لأن المياه جارية تحت أقدامه أين توجه ، وهو ماء بارد عذب . وأهلها صباح الوجوه حمرها ، رقاق البشرة ، ولهم لغة يقال لها الأذرية لايفهمها غيرهم . وفى أهلها لين وحسن معاملة ، إلا أن البخل يغلب على طباعهم ، وهى بلاد فتنة وحروب ، ماخلت قط منها ، فلذلك أكثر مدنها خراب وقراها يباب » .

وعندما يتحدث صاحبنا عن بلد ينشر عليه ثوب الوصف حتى يصل به إلى كل أثر واضح أو علامة بارزة يصف « آمد » (٢) فيقول :

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٢٨

(٢) بلد بالعراق على نهر دجله ، وكانت قديما من أعظم ديار بكر وأجلها وأشهرها ذكرا . انظر معجم البلدان جـ ١ ص ٥٦

(١) « وهو بلد قديم حصين ركين مبنى بالحجارة السود على نشز(٢) دجله محيطة بأكثره مستديرة به كالهـــلال، وفى وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين، يتناول ماؤها باليد ، وفيها بساتين ونهر يحيط بها السور .

وعندما يكتب ياقوت عن همذان يركز فى معظم حديثه عن شتائها المفرط فى البرودة ولعل فى عبارته التالية مايعبر عن ذلك قال :

(٣) « ولاشك عند كل من شاهد همذان بأنها من أحسن البلاد وأنزهها وأطيبها وأرفهها ، ومازالت محلا للملوك ومعدنا لأهل الدين والفضل إلا أن شتاءها مفرط البرد بحيث قد أفردت فيه الكتب ، وذكر أمره بالشعر والخطب » .

ويكتب عن البرودة كمظهر من مظاهر الطبيعة ، ويتيسر له ذلك بعد زيارته لخوارزم حيث عانى هو نفسه من بردها الشديد يقول .

(٤) « وقد كنت اجتهدت أن أكتب شيئا بها فما كان يمكننى لجمود الدواة حتى أقربها من النار وأذيبها ، وكنت إذا وضعت الشربة على شفتى التصقت بها لجمودها ..

وصاحبنا يكتب عن الشعوب ، فلقد كتب عن التتار والأتراك والروم والعرب والفرس ، ولقد طال حديثه عن التتار وتكرر كثيراً ، خاصة عندما كتب عن المواضع والبلاد التى تضررت بعدوانهم ، ولأنه قد

---

(١) معجم البلدان جـ ١ صـ ٥٦

(٢) النشر : المكان المرتفع من الأرض .

(٣) معجم البلدان جـ ٥ صـ ٤١٢

(٤) المرجع السابق جـ ٢ صـ ٣٩٨

تضرر هو الآخر وترك خراسان وخوارزم على كره منه راجعاً إلى الموصل ثم إلى حلب .

ومن كتب عنهم ياقوت البربر فقال :

«(١) والبربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشاً وأسرعهم إلى الفتنة ، وأطوعهم لداعية الضلالة ، وأصغاهم لنمق الجهالة ، لم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط ، ولهم أحوال عجيبة واصطلاحات غريبة ، وقد حسن لهم الشيطان الغوايات ، وزين لهم الضلالات حتى صارت طباعهم إلى الباطل مائلة وغرائزهم فى صد الحق جائلة ، فكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا ، وكم زعم فيهم أنه المهدى الموعود به فأجابوا داعيه ولمذهبه انتحلوا ، وكم ادعى فيهم مذاهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرمة واستباحوا الفروج بغير حق ، ونهبوا الأموال واستباحوا الرجال ، لا بشجاعة فيهم معروفة ، ولكن بكثرة العدد وتواتر المدد » .

ولا أدري لماذا وصف البربر بكل هذه الصفات ؟؟

وكما يصف ياقوت الشعوب يصف الرجال فى أسلوب وصفى رائق مستطاب مسجوع فى بعض فقراته ، كتب عن الحسن بن محمد الكاتب يقول :

«(٢) وكان — رحمه الله — من الأدباء العلماء الذين شاهدناهم ، زكى النفس ، طاهر الأخلاق ، عالى الهمة ، حسن الصورة ، مليح الشيبة ، ضخم الجثة ، كث اللحية طويلها ، طويل القامة ، نظيف اللبسة ، ظريف الشكل ، وهو ممن صحبته فحمدت صحبته ، وشكرت أخلاقه . . . ثم يقول :

---

(١) معجم البلدان جـ ١ صـ ٣٦٩

(٢) معجم الأدباء جـ ٩ صـ ١٨٤

(١) وكان من المحبين للكتب واقتنائها ، والمبالغين فى تحصيلها وشرائها وحصل له من أصولها المتقنة ، وأمهاتها المعينة . ما لم يحصل أحد للكثير. ثم تقاعد به الدهر و بطل عن العمل . فرأيته يخرجها . و يبيعها وعيناه تذرفان الدموع كالمفارق لأهله الأعزاء . والمفجوع بأحبائه الأوداء . فقلت له : هون عليك — أدام الله أيامك — فان الدهر ذو دول وقد يسعف الزمان ويساعد . وتراجع دوله العز وتعاود فتستخلف ما هو أحسن منها وأجود . فقال : حسبك يابنى :هذه نتيجة خمسين سنة من العمر انفقتها فى تحصيلها . وهب أن المال تيسير . والأجل يتأخر — وهيهات — فحينئذ لا أحصل من جمعها بعد ذلك إلا عـلى الفراق . الذى ليس بعده تلاق . وأنشد بلسان الحال :

هب الدهر أرضانى وأعتب صرفه
وأعقب بالحسنى وفك من الأسر

فمن لى بأيام الشباب التى مضت
ومن لى بما قد مر فى البؤس من عمرى ؟

ثم أدركته منيته . ولم ينل أمنيته :

ولياقوت صور رائعة فى الوصف لدقتها وشمولها وتنوعها .فهو يكتب عن التاج وهو اسم لدار مشهورة جليلة المقدار . واسعة الأقطار ببغداد من دور الخلافة العظيمة . ويقدم وصفاً للأسماك والطيور عندما يكتب عن جزيرة تنيس . ويقدم مزيداً من اللوحات الفنية عندما يكتب عن الأنهار والبحار .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٩ صـ ١٨٥

ولقد وصل وصفه إلى الكتب التي أطلع عليها فعندما يكتب عن الحريرى يصف كتابه عن المقامات فيقول :

«(١) ولقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب ألفته فانه بين حقيقة الجودة والبلاغة . واتسعت له الألفاظ. وانقادت له نور البراعة حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها(٢). فاختار ألفاظها .وأحسن نسقها حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره ولا يرد قوله ولا يأتى بما يقاربها فضلا عن أن يأتى بمثلها . ثم رزقت مع ذلك من الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر.

ولا يختلف إنسان مع ياقوت حول المكانة التى احتلتها مقامات الحريرى ويبدو أنه وجد أن العبارة المرسلة لا تتناسب مع قدر هذه المقامات فجاء أسلوبه مزيناً ببعض المحسنات والاستعارات ولكنها غير ملتزمة .

ولقد كان صاحبنا حريصا على تحرى الصدق عندما يكتب أو يقرأ لقد أطلع على الرسالة التى كتبها أحمد بن فضلان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة ، والتى وصف فيها رحلته من بغداد إلى أن عاد اليها حيث زار بلاد فارس وخوارزم وغيرها ، ولقد تناول ياقوت هذه الرسالة فقرة فقرة بالتعليق وإبداء الرأى فكان يقول : « وهذا كذب » و « هذا كذب أيضا » و « هذا صحيح» وصاحبنا يتحرى الحقيقة فى وصفه الأشياء

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ صـ ٢٦٧

(٢) نور : جمع نوار و « هى البقرة النافرة » والأزمة : جمع زمام وهو حبل القياد . والربقة : حبل فيه عدة عرى يشد به البهم .واحده ربقة

وهذه هى روح التأليف التى سرت فى دمه وعروقه وعبر عنها فى صفحات كتبه ومؤلفاته .

٢ — كتابة التاريخ :

سجل ياقوت تاريخ عصره كما رآه وشاهده . وكتب عن العصور السابقة معتمداً على المراجع وكتب السابقين وأقوال الرواة . وهو يعرض مادته العلمية بالأسلوب الذى يلائمها مع التصوير الدقيق للأحداث بلا تكرار أو غموض . والمفروض أن يكتب بلا غضب أو انفعال . ولكننى قرأت قطعاً كثيرة من كتاباته التاريخية . كان يبدو فيها منفعلا . وكان انفعاله صادراً عن غضب عظيم لما أصاب العالم الإسلامى على عهده من هجوم التتار .

والذى يطالع كتابته عن البلدان التى أصيبت بعدوانهم سوف يحزن لمقولته ويغضب من إبادتهم لخلق الله . ولن تقر عينه إلا إذا اطلع على المؤلفات التى ظهرت بعد ياقوت . وكتب عن هزيمتهم من المسلمين فى عين جالوت ورجوعهم القهقرى لابسين أثواب الهزيمة والذل .

ولقد كتب عن تاريخ الغزوات والحروب والدول مثل الفاطمية والبويهية والسلاجقة والأيوبية ، كما كتب عن سيرته وحياته ورحلاته الخاصة . وهو يؤرخ الأدب فيشير إلى أعمال الرجال ومؤلفاتهم . ويكتب عن المجالس الأدبية التى درات رحاها فى حلب وبغداد وغيرها . ولا ينحرف فى كتابته التاريخية عن الأسلوب المرسل مع التركيز على الحقائق وطرح الخيال إلا فى المواقف التى ينفعل لها كما ذكرت . لأنه أولا وآخرا يسجل حاضره ويؤرخ لماضيه ولقد وصفه الأستاذ على أدهم فى كتابه « بعض مؤرخى الإسلام » بالمؤرخ الجامع وأرجع ذلك إلى سعة اطلاعه وكثرة

تحصيله (١) . وهذه بعض النماذج والأمثلة لكتابته التاريخية . كتب عن حطين يقول :

(٢) كان صلاح الدين يوسف بن أيوب قد أوقع بالأفرنج فى منتصف ربيع الآخر سنة ٥٨٣ وقعة عظيمة منكرة ظفر فيها بملوك الأفرنج ظفراً كان سببا لافتتاحه بلاد الساحل وقتل فرعونهم أرنساط صاحب الكرك والشوبك ، وذلك فى موضع يقال له : حطين بين طبرية وعكا ، بينه وبين طبرية نحو فرسخين ، بالقرب منه قرية يقال لها : خياره ، بها قبر شعيب ، عليه السلام » .

وكما كتب ياقوت عن حروب الأفرنج « الصليبين » كتب عن سيطرة الأتراك على مركز الخلافة العباسية يقول فى حديثه عن سامراء :

(٣) « فلما ولى المستعين ، وقويت شوكة الأتراك ، واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بنى العباس لم تزل سر من رأى فى تناقض للاختلاف الواقع فى الدولة بسبب العصبية التى كانت بين أمراء الأتراك إلى أن كان آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقسام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله أمير المؤمنين » .

ويكتب ياقوت عن هجومين عنيفين على نيسابور الأول من الغز فى سنة ٥٤٨ والثانى من التتر فى سنة ٦١٨ هـ .

والغز من القبائل التركية التى كانت تسكن فى إقليم ماوراء النهر ،

---

(١) « راجع بعض مؤرخى الإسلام » للأستاذ على أدهم ص ١٣١ « دار نهضة مصر » .

(٢) معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٧٦ .

وكانوا مسلمين وساعدهم ضعف السلاجقة فى المغرب على تكوين قوة كبيرة تصادم بالسلطان «سنجر» زعيم الأتراك السلاجقة ، ولقد فعل الغز بنيسابور مالا يفعل ، وارتكبوا ماحرمه الشرع والدين فقتلوا الكبار والصغار والقضاة والعلماء فى البلاد كلها .

ومما قاله ياقوت فى ذلك (١) : «وأصابها الغز فى سنة ٥٤٨ بمصيبة عظيمة حيث أسروا الملك سنجر وملكوا أكثر خراسان وقدموا نيسابور ، وقتلوا كل من وجدوا واستصفوا أموالهم حتى لم يبق فيها من يعرف وخربوها وأحرقوها ، ثم اختلفوا فهلكوا ، واستولى عليها المؤيد أحد مماليك سنجر فنقل الناس إلى محله منها يقال لها : «شاذياخ» ، وعمرها وسورها ، وتقلبت بها أحوال حتى عادت أعمر بلاد الله وأحسنها وأكثرها خيراً وأهلا وأموالا ، لأنها دهليز المشرق ولابد للقفول من ورودها وبقيت على ذلك إلى سنة ٦١٨ ، خرج من وراء النهر الكفار من الترك المسمين بالتتر ، واستولوا على بلاد خراسان ، وهرب منهم محمد بن تكش ابن ألب أرسلان خوارزم شاه وكان سلطان المشرق كله إلى باب همذان وتبعوه حتى أفضى به الأمر إلى أن مات طريداً بطبرستان فى قصة طويلة »

وكتب ياقوت عن هجومين آخرين على بلدة كبيرة من أعيان بلاد ماوراء النهر وهى «أسفيجاب» ، والهجوم الأول من خوارزم شاه والثانى من التتر ، ولم تكد هذه البلدة تشم نفسها من الهجوم الأول حتى قضى عليها التتر قضاء مبرماً قال ياقوت :

(٢) «ثم تبع ذلك حوادث فى سنة ٦١٦ التى لم يجر منذ قامت السموات

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٣٢ .

(٢) معجم البلدان جـ ١ ص ١٧٩ .

والأرض مثلها، وهو ورود التتر، خذلهم الله، من أرض الصين، فأهلكوا من بقى هنالك متماسكا فيمن أهلكوا من غيرهم، فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرقة غير حيطان مهدومة وآثار من أمم معدومة وقد كان أهل تلك البلاد أهل دين متين وصلاح مبين ونسك وعبادة، والإسلام فيهم غض الجنى حلو المعنى يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه لم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء، ولكن يفعل الله بعباده مايشاء، ويحكم مايريد .

رمت بهم الأيام عن قوس غدرها
كأن لم يكونوا زينة الدهر مرة

وما زال جور الدهر يغشى ديارهم
يكر عليهم كرة ثم كرة

فأجلاهم عنها جميعا فأصبحت
منازلهم للناظر اليوم عبرة

ولقد سجل ياقوت فى مؤلفاته قصص الفتوح الإسلامية، وكتب بإفاضة عن جهود الأبطال المسلمين فى نشر الإسلام ورفع لوائه .

وفى حلب يكتب عن بيت أبى جرادة، وهو بيت مشهور عند أهل حلب على زمان صاحبنا، ويذكر أن أهله وناسه أدباء شعراء فقهاء عباد زهاد قضاة يتوارثون الفضل كابرا عن كابر وتاليا عن غابر، ويؤرخ للخطابة الدينية والسياسية، وينقل إلى مؤلفاته كثيراً من الخطب المتنوعة لواصل ابن عطاء وشميم الحلى وغيرهما، ويؤرخ لمجالس الأدب كمجلس سليمان ابن عبد الملك الذى كان يتوافد عليه الشعراء وفى مقدمتهم الفرزدق الشاعر المشهور .

ويكتب عن مجالس هارون الرشيد وسيف الدولة ، وعن مجالس السمعانيين فى مرو ، ويكتب عن رجل من أهل الأدب فيقول :

(١) «ومن عجيب مارأيته وشاهدته : أنى وردت آمد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأنا فى عنفوان الشباب وريعه ، فبلغنى أن بها على بن الحسن بن عنتر المعروف بالشميم الحلى ، وكان من العلم بمكان مكين ، واعتلق من حباله بركن ركين ، إلا أنه كان لايقيم لأحد من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزنا ، ولا يعتقد لأحد فضيلة ، ولا يقر لأحد بإحسان فى شىء من العلوم ولا حسن ، فحضرت عنده وسمعت من لفظه ازراءه(٢) على أولى الفضل وتنديده(٣) بالمعيب عليهم بالقول والفعل ، ويذكر ياقوت أن هذا الرجل لم يكن يقيم لأحد وزنا إلا لثلاثة رجال الأول : المتنبى فى مديحه خاصة ، والثانى : ابن نباته فى خطبه ، والثالث : الحريرى فى مقاماته .

والحقيقة أن صاحبنا لم يترك فنا أدبيا إلا كتب عنه وترجم لزعمائه، فهو يؤرخ للنثر الفنى من خلال حديثه عن ابن العميد وأبى حيان التوحيدى والصاحب بن عباد والعماد الأصبهانى ، ويؤرخ للمقامات عندما يترجم لبديع الزمان والحريرى، ويسجل تاريخ الشعر من خلال كتابته عن أعداد كثيرة من الشعراء ، ولقد طال نفسه فى الكتابة عن أبى العلاء المعرى لتفوقه فى النثر إلى جانب الشعر .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ صـ ٢٦٧

(٢) إزراءه : عيبه

(٣) تنديده : تصريحه بالعيب عليهم وتقبيح شأنهم .

٣ ــ الكتابة الدينية :

تتضح الروح الدينية فى مؤلفات ياقوت ، فعندما يؤلف كتابا، يذكر أنه فعل ذلك استجابة لنداء الله سبحانه وتعالى ، وتنفيذا لأوامر رسوله ﷺ ، وهو يسجل تاريخ الأنبياء والرسل من خلال حديثه عن الأماكن التى نشأوا بها أو ارتحلوا إليها ، ويستعين بالكتب المقدسة وأقوال الرسل وما نقله مترجماً عن الأمم الأخرى كأهل الصين والهند والروم والفرس وغيرها .

ويكتب عن أهل بيت الرسول وعشيرته وعن الصحابة، كما عقد فصلا فى معجم الأدباء خاصا بعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكتب عن أمهات المؤمنين ، وعن حديث الإفك ، وموقف الصحابة منه وبخاصة حسان بن ثابت وصفوان بن المعطل وكتب عن مناسك الحج كالوقوف بعرفة والسعى بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت ، وذكر قصة الحجر الأسود وكيف أخذه القرامطة إلى الأحساء من أرض البحرين ثم أعادوه بعد غيبة استمرت اثنتين وعشرين سنة ، وكتب عن عبادة الأصنام وعن الأحجار التى اتخذها الناس آلهة من دون الله ويشرح كيف بذل الرسول وأصحابه الجهد الكبير فى إزاحة هذه العبادة عن أرض العرب ذاكراً أن الصحابة رضوان الله عليهم عملوا على تنفيذ قول الرسول ﷺ « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب».

كما كتب عن الأماكن التى وردت فى القرآن الكريم كسد يأجوج ومأجوج وبابل ومنازل ثمود ، ويذكر قصة أصحاب الأخدود فى كتابته عن نجران.

ولقد عاش صاحبنا فى عصر مليء بالحروب والمعارك كحروب

الصليبيين التى كان يعبر عنها بحروب الفرنجة، وحروب كل من التتر والأتراك والفرس والروم مع العرب .

وفى حديثه عن هذه الحروب وغيرها يشعرنا بخوفه على الدين ، ويكرر دعاءه بنصرة الإسلام ودحر الكفر وأهله ، ويعبر دائماً عن ضعفه أمام الله ، فنراه يكتب عن نفسه قائلا : «قال عبيد الله الفقير إليه» أو يقول: «قال أفقر عباد الله إلى الله» وعندما ينتهى حديثه من موضوع ما كان يقول : «والله أعلم» ويكرر هذه العبارة كثيرا(١).

ولقد كان صاحبنا على اتصال قوى بالله ، واستطاع أن يعبر عن هذه الصلة فيما كتب ، وعندما قرأنا له لم نجد صعوبة فى فهم عقيدته وروحه الدينية ، لأنه كان صادقا فى عباراته وأحكامه.

يمزج ياقوت فى مؤلفاته بين الكتابة التاريخية والكتابة الدينية لدرجة لا يستطيع القارىء معها أحيانا أن يحدد هوية ما يقرؤه إن كان أدبا أو تاريخا أو كتابة فى الدين أو اللغة ، ولنقرأ له بعض ما كتبه عن « فدك » لندرك كيف تجمعت فى كتابته كل هذه المواصفات يقول :

(٢) «وفدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله ، ﷺ ، فى سنة سبع صلحا ، وذلك أن النبى ﷺ ، لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلا ثلث واشتد بهم الحصار راسلوا رسول الله ﷺ ، يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وفعل ، وبلغ ذلك أهل فدك فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يصالحهم على النصف من ثمارهم

---

(١) انظر على سبيل المثال « الجزء الثانى من معجم البلدان الصفحات ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٣٨ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٧١

(٢) معجم البلدان جـ ٤ صـ ٢٣٨

وأموالهم فأجابهم إلى ذلك فهى مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت خالصة لرسول الله ، ﷺ وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة ، وهى التى قالت فاطمة ، رضى الله عنها : إن رسول الله ، ﷺ نحلنيها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أريد لذلك شهوداً ، ولها قصة واستطرد ياقوت فى ذكر القصة معتمدا على أصح الأقوال والروايات .

وأمام الروح الدينية التى تسرى فى مؤلفات ياقوت نرى مسألة نريد أن نحسم القول فيها تتصل بما نحن فيه ، وهى المسألة التى قيل فيها : أنه ذكر عليا رضى الله عنه بما لا يسوغ له ذكره .

ولقد كان القفطى أول من تحدث فى هذا الموضوع ، وتصرف فيه من جاء بعده بالزيادة أو النقصان كابن خلكان وابن العماد الحنبلى وغيرهما .

قال القفطى :(١) « وكان شديد الانحراف عن على بن أبى طالب عليه السلام ، يرتكب فى أمره مالا يرتكبه أحد من مصنفى الفرق ، حتى كأنه قد طالع شيئا من مذهب الخوارج ، فاشتبك فى رأسه منه ما لم يزل ، ولما دخل دمشق قعد فى بعض أسواقها يناظر بعض من يتعصب لعلى بن أبى طالب عليه السلام ، وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكره عليا بما لم يسغ وجاريا على عادته فى ذلك فثار الناس عليه ثورة كادوا أن يقتلوه لما سمعوه منه ، وقدر الله له السلامة ، فخرج عن دمشق منهزماً ...

ولا ينبغى أن يؤخذ هذا الكلام على أنه قضية مسلمة وحقيقة تاريخية صادقة لأننا قد تفهمنا نفسية القفطى وعرفنا طبيعته فى الإساءة إلى الآخرين ولقد سبق أن تحدثت عن طبيعة العلاقة بين الرجلين ورأى كل منهما فى

---

(١) انباه الرواة ج ٤ ص ٧٦.

الآخر، وذكرت رأى الأستاذ محمود شاكر فى القفطى، والأستاذ صلاح الدين المنجد يرى نفس الرؤية فى حكمه على الرجلين حيث قال :

[١]« ولابد أن نقرر هنا أن ياقوتا كان نبيلا كل النبل فيما يذكره عن القفطى فى معجم الأدباء وفى إهدائه معجمه إلى خزانته [٢] فى حين لا تجد مبررا لتهجم القفطى على ياقوت، فى خلقه وفى الطعن على علمه . كان نبيلا فى رد الجميل إلى القفطى بما صنعه وأثنى عليه، وكان القفطى لئيما فى طعنه ومنه ... »

وهو هنا يذكر أن ياقوتا كان متعصبا على الإمام على كرم الله وجهه، وليس هنا ما يمنع أن تكون هذه واحدة من افتراءات القفطى خاصة وأننا لم نجد مسألة واحدة كان فيها صادقا عندما كتب عن ياقوت . ولقد تناقل المؤرخون هذه التهمة ولم يفطنوا إلى نفسية القفطى وإلى ما يحمله من خبث ولؤم. ولم يطالعوا ما كتبه المتهم فى شأن الإمام على كرم الله وجهه . ولو فعلوا ذلك لتأكدوا أن المتهم البرىء مظلوم، ولا شىء فيها على الإطلاق يؤيد القفطى ويقوى حجته، ولنقرأ بعض ما كتبه ياقوت عن على كرم الله وجهه فى معجم الأدباء :

[٣]« أخباره عليه السلام كثيرة، وفضائله شهيرة، إن تصدينا لاستيعابها وانتخاب محاسنها كانت أكبر حجما من جميع كتابنا هذا . مات صلوات الله عليه يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة أربعين من الهجرة، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، ومدة

---

(١) أعلام التاريخ والجغرافيا ص ٧٠ مؤسسة التراث العربى - بيروت - سنة ١٩٥٩ م .
(٢) راجع مقدمة معجم البلدان لياقوت .
(٣) معجم الأدباء ج ١٤ ص ٤٢ .

عمره ، فيها خلاف على ما نذكره فيما بعد ، ولابد من ذكر جمل من أمره على سبيل التاريخ يستدل بها على مجارى أموره ، ونتتبعها بذكر ولده ومن أعقب منهم ومن لم يعقب ، وذكر شيء مما صح من شعره وحكمه ، ويذكر ياقوت الشيء الكثير مما أشار إليه. كما نجده يترضى على الإمام على ، أى يقول رضى الله عنه فى كل موضع يأتى فيه ذكره ، ففى حديثه بمعجم البلدان عن قفط والنجف وحلب والنخيلة وغيرها يذكر عليا بالخير ، وفى حديثه عن صفين يترضى على الإمام دون معاوية ونفس الصنيع فى كتابته عن حمص يقول :

(١) « إن أشد الناس على على ، رضى الله عنه بفصين مع معاوية كان أهل حمص وأكثرهم تحريضا عليه وجدا فى حــــربه ، فلما انقضت تلك الحروب ، ومضى ذلك الزمان صاروا من غلاة الشيعة حتى أن فى أهلها كثيراً من رأى مذهب النصيرية وأصلهم الإمامية الذين يسبون السلف ، فقد التزموا الضلال أولا وأخيراً فليس لهم زمان كانوا فيه على صواب » .

بصفين

ويبدو من هذه الكتابة حبه لعلى وكرهه للغلو والتطرف وبعده عما وصف به من قبل القفطى ومن جاء بعده — كما أن صاحبنا لم يذكر شيئا يمكن أن نصل به إلى حقيقة ما جرى ، إذا كان هناك شيء من هذا قد حدث .

والرأى الأخير والقول الفصل فى هذا الموضوع هو أن صاحبنا برىء من هذه التهمة لفقد الثقة فى شخص المتهم وعدم توفر الأدلة التاريخية لذلك . أو أن يكون هناك شيء بسيط قد حدث فى هذا الموضوع ، لكنه لا يصل بحال من الأحوال إلى الصورة التى ادعاها القفطى ، والتى قصد من ورائها إلحاق الأذى والضرر بياقوت الذى عرفه الناس مؤلفا يقظا وكاتبا لا يشق له غبار أسلوبا ومنهجا .

---

(١) معجم البلدان جـ٢ ص ٣٠٤

هذه بعض الموضوعات التى كتب فيها وبرع قلمه فى تصويرها من خلال حديثه عن البلدان وتراجمه للرجال وكتابته عن الأنساب كما سبق عرض ذلك وبيانه .

خصائص كتابة التأليف وملامح أسلوبها :

يكشف النثر التأليفى لياقوت عن سعة علمـــه واطلاعه وتفوقه فى الـكتابة بأسلوب مرسل غالبا فى عصر سيطر فيه البديع على معظم ألوان الـكتابة .

ولقد ذكرت فى كتابة الإنشاء أن صاحبنا ترسم خطا القاضى الفاضل وسار على طريقته ، أما فى كتابة التأليف فإنه سلك مسلكا خالف فيه الـكتاب المؤلفين فى عصره من حيث اليسر والسهولة والوضوح والتحرر من التزام السجع أو الالحاح على المحسنات ، والصور البلاغية الأخرى ، ويمكننا أن نلخص ملامح طريقته فى كتابة التأليف على النحو التالى :

١ — الاستشهاد بالقرآن ، ففى كتابة الإنشاء التى سبق الحديث عنها يستشهد بالآية القرآنية أو يضمن كتابته شيئا منها ، ولـكنه هنـا يقتصر على الاستشهاد ونقل الآية بدون تصرف ، وربما استطرد فى شرحها وبيان مناسبتها ثم يعود إلى حديثه ، وربما استشهد بكثير من الآيات التى تأتى متتابعة ، وكثيراً ما يكون ذلك فى الـكتابة الدينية عندما يتحدث عن الأماكن المقدسة أو عن نبى من أنبيـاء الله أو يترجم لأحد الصحابة أو التابعين ، ومما كتبه عن مكة .

(١) « وسماها الله تعالى أم القرى فقال: ولتنذر أم القرى ومن حولها ، وسماها الله تعالى البلد الأمين فى قوله تعالى : والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، وقال تعالى : لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ١٨٢

البلد ، وقال تعالى: وليطوفوا بالبيت العتيق ، وقال تعالى: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس ، وقال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : رب أجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام وقال تعالى أيضا على لسان إبراهيم عليه السلام : ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ».

وتتأكد استعانته بالآية القرآنية في مجال أحاديثه اللغوية ، وهو يعتبر القرآن مرجعاً للغة وأساسا لقواعد النحو والصرف والبلاغة وغيرها ، ويحرص ياقوت على ربط كتابته بالقرآن الكريم ففي حديثه عن مصر يقول :

(١) « وإن مصر خزائن الأرضين كلها وسلطانها سلطان الأرضين كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لملك مصر : اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ، ففعل فأغاث الله الناس بمصر وخزائنها ، ولم يذكر ، عز وجل في كتابه مدينة بعينها بمدح غير مكة ومصر فإنه قال : أليس لي ملك مصر ، وهذا تعظيم ومدح ».

٢ — يستعين بالحديث النبوي كثيراً ، وهو يذكره في وسط كلامه، ويكثر استشهاده في الكتابة ذات الصبغة الدينية، وعلى كل فاستعانته بالحديث هنا أكثر من استعانته به في كتابة الإنشاء ، يقول عن المقدس .

(٢) « وعن النبي ﷺ أنه قال : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام ومسجد بيت المقدس ، وإن الصلاة في بيت المقدس خير من ألف صلاة في غيره ، وأقرب بقعة في الأرض من السماء البيت المقدس ، ويمنع الرجال من دخولها ويهلك يأجوج دونها ، وأوصى آدم عليه السلام ، أن يدفن بها وكذلك إسحاق وإبراهيم ، وحمل يعقوب

---

(١) المرجع السابق ج ٥ ص ١٣٧

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص ١٦٦

من أرض مصر حتى دفن فيها ، وأوصى يوسف عليه السلام ، حين مات بأرض مصر أن يحمل إليها ، وهاجر من كوثى إليها ، وإليها المحشر ومنها المنشر . .

ولقد حرص ياقوت على الاستشهاد بالحديث فى كل موضع يتيسر فيه ذلك مع حذف الأسانيـــد حتى لا يضخم حجم كتابته ، وربما ذكر الحديث معناه مع إشارته إلى ذلك يقول :

(١) « وفى حديث ميمونة بنت كردم أن أباها قال للنبى ﷺ إنى نذرت أن أذبح خمسين شاة على بوانة(٢) فقال ﷺ : هناك شىء من هذه النصب ؟ فقال : لا ، قال : فأوف بنذرك ، فذبح تسعا وأربعين ، وبقيت واحدة فجعل يعدو خلفها ويقول : ألهم أوفى بنذرى حتى أمسكها فذبحها ، وهذا معنى الحديث لا لفظه » .

٣ — نلمح فى كتابة ياقوت استعانته بالأمثال التى يذكرها كما قيلت ويشرح أصلها وموردها وهو يذكر المثل ثم يتابع شرحها وبيان مناسبته ، وأحيانا يذكر قصته ثم يذكر المثل فى مكانه من القصة بحيث يأتى أسلوبه متسلسلا مترابطا ، كتب عن حرق عمر بن هند لبنى تميم فقال :

(٣) « ... وكان من حديث ذلك أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند كان مستودعا فى بنى تميم فقتل فيهم خطأ فحلف عمرو بن هند ليقتلن به مائة من بنى تميم ، فأغار عليهم فى بلادهم بأوراه فظفر منهم بتسعة وتسعين رجلا فأوقد لهم ناراً وألقاهم فيها ، فمر رجل من البراجم(٤) فشم رائحة حريق

---

(١) المرجع السابق جـ ٥ ص ٥٠٥

(٢) بوانه : هضبة وراء ينبع قريبة من ساحل البحر .

(٣) معجم البلدان حـ ١ ص ٢٧٤

(٤) البراجم : خمسة رجال من بنى تميم : قيس وعمرو وغالب وكلفه والظليم بنو حنظلة بن مالك بن زيد مناه بن تميم ، اجتمعوا وقالوا : نحن =

القتلى فظنه قتار الشواء فمال إليه ، فلما رآه عمرو بن هند قال : ممن أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، قال : إن الشقى وافد البراجم ، فأرسلها مثلا ، وأمر به فألقى فى النار وبرت يمينه ، فسمت العرب عمرو بن هند محرقا » .

وفى النوع السابق من الكتابة لم يستطع ياقوت التخلص من السجع ليشرح الأمثال التى يستعين بها بمثل صنيعه فى كتابة التأليف ، وهو فى كل كتابته لا يذكر المثل إلا فى المناسبة التى تتطلبه .

٤ — ساق ياقوت أسلوبه التأليفى مرسلا غالباً فلم يخضعه لسيطرة البديع ، لأنه مشغول بتوضيح الحقائق لا بتنميق الأسلوب ، والموضوعات العلمية التى كتب عنها بهذا الأسلوب لم يكن يصلح معها التزام بالسجع أو الجناس أو المزاوجة ، وهو فى أسلوبه المرسل باحث مفكر ينصرف اهتمامه إلى المعنى أولا ، ولكنه حين ينتهى إلى موقف مثير أو حادثة مؤلمة تتحول كتابته إلى كتابة فنية تجمع عناصر النثر الفنى .

كتب عن القفطى فى أسلوب مرسل يقول :

(١)« ونشأ بالقاهرة اجتمعت بخدمته فى حلب فوجدته جم الفضل ، كثير النبل ، عظيم القدر سمح الكف ، طلق الوجه حلو البشاشة ، وكنت ألازم منزله ويحضر أهل الفضل وأرباب العلم ، فما رأيت أحد فاتحه فى فن من فنون العلم كالنحو واللغة والفقه والحديث وعم القـــرآن والأصول والمنطق والرياضة والجرح والتعديل وجميع فنون العلم على الإطلاق إلا قام به أحسن قيام » .

= كبراجم الكف فغلب عليهم . معجم البلدان ج١ ص ٣٧٤ — وبراجم الكف هى رؤس السلاميات من ظهـــر الكف إذا قبض القابض كفه نشزت وارتفعت .

(١) معجم الأدباء ج ١٥ ص ١٧٩

وقد يظهر السجع فى أسلوبه فى مواضع قليلة من نثره التاليفى مثل قوله عن ابن العديم :

(١) « إن الله عز وجل عنى بخلقته فأحسن خلقه وخلقه وعقله وذهنه وذكاءه ، وجعل همته فى العلوم ومعالى الأمور ، فقرأ الأدب وأتقنه ، ثم درس الفقه فأحسنه ، ونظم القريض فجوده ، وأنشأ النثر فزينه ، وقرأ حديث الرسول وعرف علله ورجاله ، وتأويله وفروعه وأصوله وهو مع ذلك قلق البنان جواد بما تحوى اليدان » .

وكثيراً ما تأتى عبارته العلمية خالية من الزخرفة اللفظية عنـــدما ينصرف اهتمامه إلى مشاهداته بدقة وعناية ، يقول عن نهر جيحون .

(٢) « وقد شاهدته وركبت فيه ورأيته جامداً ، وكيفية جموده أنه إذا اشتد البرد وقوى كلبه جمد أولا قطعا ثم تسرى تلك القطع على وجه الماء فكلما ماست واحدة الأخرى التصقت بها ولا تزال تعظم حتى يعود جيحون كله قطعة واحدة ، ولا يزال ذلك الجامد يثخن حتى يصير ثخنه نحو خمسة أشبار وباقى الماء تحته جار » .

وبهذه الشواهد تتضح لنا طبيعـــة أسلوبه التأليفى من حيث الدقة والتسلسل والعناية فى وصف المشاهدات والأخذ من المحسنات بحساب وبدون إسراف وعندما يحتاج الموقف إلى شىء منها ، كما أنه يعتمد فى أسلوبه على الألفاظ السهلة والعبارات الواضحة التى تساعده فى تأدية غرضه .

٥ — جاءت بعض المقاطع من كتابة التاليف وقد اشتمل أسلوبها على التشبيه والاستعارة والكناية التى جاءت عفواً بلا تكلف أو إسراف .

---

(١) معجم الأدباء ج١٦ ص ١٣٧

(٢) معجم البلدان ج٢ ص ١٩٧

كتب عن الحسن بن محمد الكاتب يقول :

(١) « وكان من المحبين للكتب واقتنائها ، والمبالغين فى تحصيلها وشرائها ، وحصل له من أصولها المتقنة وأمهاتها المعينة ، ما لم يحصل أحد للكثير ، ثم تقاعد به الدهر وبطل عن العمل ، فرأيته يخرجها ويبيعها وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لأهله الأعزاء والمفجوع بأحبابه الأوداء » والتشبيه فى هذه العبارة حسن بسيط غير متكلف يتناسب مع هذا اللون من الكتابة .

ويقول عن العماد الأصبهانى :

(٢) « ثم لزم العماد من ذلك اليوم(٣) باب السلطان صلاح الدين ينزل لنزوله ويرحل لرحيله ولم يغش مجالسه ملازما لخدمته حتى قربه واستكتبه واعتمد عليه فتصدر وزاحم الوزراء وأعيان الدولة وعلا قدره وطار صيته » والتشخيص واضح فى قوله : علا قدره وطار صيته .

ومن الكنايات القليلة التى جاءت فى كتابته ما قاله فى شأن محمد ابن نصر الله الدمشقى :

(٤) « وهو مولع بالهجو ، وله فى ذلك قصيدة طويلة سماها مقراض الأعراض ، ويقال : انه يخل بالصلاة ويصل ابنه العنقود ورماه أبو الفتح ابن الحاجب بالزندقة والله أعلم بصحة ذلك » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ٩ ص ١٨٥

(٢) المرجع السابق حـ ١٩ ص ١٨

(٣) اليوم الذى التقى فيه بصلاح الدين الأيوبى فى حمص عند إستيلائه على قلعتها .

(٤) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٨٢

أبنة

وقوله : ويصل ابنه العنقود ، كناية عن مداومة شربه للخمر ، وهى من ألطف الكنايات ، كما لا يخفى التشخيص بالمكنية فى قوله : « ورماه أبو الفتح ابن الحاجب بالزندقة » .

صقعا

٦ — كثيراً ما نرى فى كتاباته التأليفية قطعاً من الشعر المختار المناسب للمقام الذى يكتب فيه ويختلف استشهاده بالشعر من كتاب لآخر، ففى معجم الأدباء تسنح أمامه الفرصة ليستشهد بالعديد من المقطوعات والقصائد بينما نراه فى معجم البلدان يميل إلى المقطوعات أكثر من القصائد ، ويقل استشهاده بالشعر فى كتابه « المشترك وضعا والمفترق صقعا » ويندر أن نجد بيتا فى كتابه « المقتضب من جمهرة النسب » فاستعانته بالشعر ترجع إلى الموضوع الذى يكتب فيه وعلى كل فمعظم نثره لا يخلو من الشعر بكل فنونه وأغراضه وينقل كثيراً من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ومالك بن الريب المازنى وكثير عزة والمتنبى والبحترى وأبى تمام ، جاء فى كتابته عن شعب بوان قوله :

(١) « وذكر بعض أهل الأدب أنه قرأ على شجرة دلب تظل عينا جارية بشعب بوان :

متى تبغنى فى شعب بوان تلقنى
لدى العين ، مشدود الركاب إلى الدلب

وأعطى ، وأخوانى ، الفتوة حقها
بما شئت من جد وما شئت من لعب

يدير علينا الكأس من لو رأيته
بعينيك ما لمت المحب على الحب

وذكر لى بعض أهل فارس أن شعب بوان واد عميق ، والأشجار

---

(١) معجم البلدان ج١ ص٥٠٤

والعيون التى فيه إنما هى من جلهتيه(١)، وأسفل الوادى مضايق تجتمع فيها تلك المياه وتجرى، وليس فى أرض وطيئة البتة بحيث تبنى فيه مدينة ولا قرية كبيرة، وقد أجاد المتنبى فى وصفه فقال :

مغانى الشعب ، طيباً ، فى المغانى
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها
غريب الوجه واليد ، واللسان
ملاعب جنة ، لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان »

وصاحبنا يستشهد بالشعر لأقل مناسبة، ولا يرى غضاضة فى الاستشهاد بقصيدة طويلة قد تصل أبياتها إلى الخمسين أو تزيد عن ذلك.

وفى معجم الأدباء تراه يتحدث عن الرجال ويختار من جيد شعرهم ما يبرهن به على مواهبهم ، ويدلل به فى الوقت نفسه على ذوقه وحسن اختياره ، والكتاب حافل بالمئات من القصائد والمقطوعات .

٧ — كما يستشهد ياقوت بالشعر ينقل إلى كتابته أيضاً قطعاً من النثر التى يذكرها منسوبة إلى أصحابها غالباً . وتكثر نقوله فى المسائل التاريخية، حيث لا تساعده مشاهداته ورحلاته على تصويرها بأسلوبه المرسل غالباً، فلا يكون أمامه إلا المؤلفات التى يأخذ منها ما يحتاج إليه عاملا فيه قلمه بالدراسة والنقد .

وتطول شواهده فى معجم الأدباء عن غيره من المؤلفات، لأنه يترجم فيه للرجال ويحتاج معه للنقل عنهم والتمثيل لأقوالهم . ففى ترجمته لاسامة

---

(١) جلهتا الوادى : ناحيتاه وحرفاه .

ابن منقذ ينقل عن عماد الدين الأصبهانى من كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » فيقول :

(١)« قال العماد : وأسامه كاسمه ، فى قوة نثره ونظمه يلوح من كلامه أمارة الإمارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة العبارة ، حلو المجالسة ، حالى المساجلة ، ندى الندى بماء الفكاهة ، عالى النجم فى سماء النباهة ، معتدل التصاريف مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة دمشق المغبوطة ، ثم نبت به كما تنبو الدار بالكريم ، فانتقل إلى مصر ، فبقى بها مؤمراً مشاراً إليه بالتعظيم ».

وفى ترجمة الصاحب بن عباد ينقل عن كتاب «أخلاق الوزيرين» لأبى حيان التوحيدى وفى ترجمة شميم الحلى ينقل له خطبة دينية فى ثلاث صفحات، وفى ترجمة محمد بن الحسن الحاتمى ينقل مناظرة بينه وبين المتنبى وفى حديثه عن بوان يذكر رسالة من أحمد بن الضحاك الفلكى إلى صديق له يصف شعب بوان ، وفى كتابته عن الناصرة ينقل عن الإنجيل.

ونستطيع أن نذكر بكامل الثقة أن مؤلفات ياقوت تحتوى على قطع رائعة من النثر العربى فى الأعصار الستة الأولى للإسلام ، وكانت النقول غالباً فنية رائعة بمعجم الأدباء، وعلمية دقيقة بمعجم البلدان وقليلة نادرة بالمؤلفات الأخرى وهى تختلف طولا وقصراً حسب الموضوع الذى يكتب عنه ، ولم يكن يسلم بكل ماقيل أو بكل مانقل ، وإنما كان ينقده نقداً صحيحاً مستنداً إلى الأصول والقواعد .

٨ — اهتم ياقوت فى كتابته التاليفية باللغة اهتماما كبيراً ، فهو يشرح المفردات ، ويبين أصلها ومشتقاتها. ومعانيها المتعددة ، ويفسر الألفاظ التى يكثر ورودها فى نثره ، ويسعى لتوضيح بعض القواعد النحوية والصرفية.

---

(١) معجم الأدباء جـ٥ ص ١٩٢

جاء فى كتابته عن الأديرة :

(١) الدير : « بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون فى المصر الأعظم إنما يكون فى الصحارى ورؤوس الجبال ، فإن كان فى المصر كان كنيسة أو بيعة ، وربما فرق بينهما فجعلوا الكنيسة لليهود والبيعة للنصارى » .

ويستطرد فى ذكر المشتقات المفصلة للكلمة التى يكتب عنها كقوله فى مناه :

(٢) «لم أقف على أحد يقول فى اشتقاقه ، وأنا أقول فيه ما يسنح لى فإن وافق الصواب فهو بتوفيق الله وإلا فالمجتهد مصيب ، فلعله يكون من المنا ، وهو القدر وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل ، قال: ومناه أى قدره .

ولا تقولن لشىء سوف أفعله　　حتى تبين ما يمنى لك المانى

أى ما يقدر عليك ، فكما نسبوا الفعل إلى القدر نسبوا القدر إليه وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل ، ويجوز أن يكون من المنا وهو الموت كأنه لما نسب الموت إليه سمى به ، ويجوز أن يكون من مناه الله بحبها أى ابتلاه كأنه أراد أنه المبتلى ، ويجوز أن يكون من منوت الرجل ومنيته إذا اختبرته أى أنه الخبير ، وألفه يجوز أن تكون منقلبة عن ياء كقولهم مناه يمنيه فى قدره ، وأن تكون منقلبة عن واو كقولهم فى تثنيته منوان: وهذا اسم صنم فى جهة البحر مما يلى قديدا بالمشلل على سبعة أميال من المدينة وكانت الأزد وغسان يهلون له ويحجون إليه » .

---

(١) معجم البلدان جـ٢ صـ٤٩٥

(٢) معجم البلدان جـ٥ صـ٢٠٤

نرى كيف أطال ياقوت فى هذه المقدمة اللغوية لبيان مشتقات الكلمة، وهذا حرص لا يتأتى إلا لمن ملك زمامها، وتفقه فى معانيها ومفرداتها .

وعندما تأتى إليه كلمة أعجمية يبادر بذكر معناها باللغة العربية، ولا يسمح بفكرة وجود أصل غير عربى لها إلا فى حالات نادرة، ففى حديثه عن ميا فارقين قال : إن معناها مدينة الشهداء وذكر كثيراً من قواعد النحو والصرف فى حديثه عن وادى الشياطين وفلسطين ووادى السباع وأجا، وإذا ذكر علما لشخص أو اسما لمدينة لا ينسى أن يوضح أصل التسمية مثلما فعل فى حديثه عن المزدلفة عندما ذكر تسعة أوجه فى سبب تسميتها .

٩ — تتسم ألفاظه بالدقة والوضوح وتأدية الغرض ، وتبرز الدقة فى أسلوبه من خلال كتابته عن الأنساب ، فهو يروى عن أبى الفضل بن طاهر عن عبد الرحمن بن أبى حاتم عن أبيه الذى قال : إنه من موالى تميم بن حنظلة بن غطفان ، ولكن صاحبنا ينبرى لتغليط هذا النسب قائلا :

(١) « وهذا وهم ولعله أراد حنظلة بن تميم ، وأما غطفان فإنه لاشك فى أنه غلط لأن حنظلة هو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وليس فى ولده من اسمه تميم ولا فى ولد غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان من اسمه تميم بن حنظلة البتة على ما أجمع عليه النسابون إلا حنظلة بن رواحة ابن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان . وليس له ولد غير غطفان وليس فى ولد غطفان من اسمه تميم » .

ولا نرى صاحبنا يعتمد على كلمة مبهمة غامضة أو عبارة لاتؤدى غرضها ولا يسلم بما يقرأ بل يزنه بميزان النقد ، وبمقدار عطائه للقراءة كان عطاؤه للكتابة ذات الموضوعات المتعددة .

---

(١) معجم البلدان جـ٢ صـ٢١١

١٠ - يتخلل نثره كثير من النوادر واللطائف التى يذكرها فى ثنايا كتابته عندما يجد المناسبة لإيرادها ، كتب عن محمد بن القاسم الهاشمى يقول :

(١) « وكان فصيحاً بليغاً من ظرفاء العالم آية فى الذكاء واللسن وسرعة الجواب فمن لطائفه : أنه شكا تأخر أرزاقه إلى عبيد الله بن سليمان فقال له: ألم نكن كتبنا لك إلى ابن المدبر فما فعل فى أمرك ؟ قال : جرنى على شوك المطل(٢) وحرمنى ثمرة الوعد فقال : أنت اخترته ، فقال : وما على وقد «اختار موسى قومه سبعين رجلا » فما كان منهم رشيد « فأخذتهم الرجفة» واختار النبى ﷺ ابن أبى شرج كاتباً فلحق بالمشركين مرتداً ، واختار على بن أبى طالب أبا موسى الأشعرى حكما فحكم عليـــه ، وحجبه بعض الأمراء ثم كتب إليه يعتذر منه فقال : تجبهنى(٣) مشافهة وتعتذر إلى مكاتبة » .

ويذكر فى شأنه أيضاً هذه النادرة . قال :

(٤) « وقال أبو العيناء : مررت يوماً فى درب بسر من رأى فقال لى غلام : يامولاى ، فى الدرب حمل سمين والدرب خال فأمرته أن يأخذه وغطيته بطيلسانى ، وصرت به إلى منزلى . فلما كان من الغد جاءتنى رقعة من بعض رؤساء ذلك الدرب مكتوب فيها . جعلت فداك ، ضاع لنا

---

(١) معجم الأدباء جـ١٨ ص٢٧٧

(٢) قوله : جرنى على شوك المطل يقصد :التسويف بوعد الوفاء مرة بعد أخرى .

(٣) تجبهنى : تؤنبنى حتى أنكس رأسى .

(٤) معجم الأدباء جـ١٨ ص ٢٩٥

بالأمس حمل فأخبرنى صبيان دربنا أنك أنت أخذته فأمر برده متفضلا فكتب إليه :

يا سبحان الله ؟ ما أعجب هذا الأمر ، مشايخ دربنا يزعمون أنك بغاء وأكذبهم أنا ولا أصدقهم ، وتصدق أنت صبيان دربك أنى أخذت الحمل ؟ قال : فسكت ولم يعاودنى .

١١ — تكشف كتابته عن شخصيته وبيئته ، ولا شك فى أن أسلوبه عنوان له وواجهة لعصره ومجتمعه ، وقاموس لذوقه وحياته . ففى كتابته نراه يتدثر بدثار العالم الباحث المنصف الذى يعترف بعجزه ولا يأبى المعونة العلمية تأتيه ممن يقدر ففى حديثه عن بلاد الروم يقول :

(١) « وفى أخبار بلاد الروم أسماء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر فى كتابى هذا ومن كانت عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئاً منها علماً فقد أذنت له فى إصلاحه مأجورا » ، ونفهم من قوله هذا تواضعه وتقبله للنقد والتوجيه .

ونراه يحتاط فى نقله ، ولا يتحمل تبعة ما لا يقطع بثبوته وصدقه جاء فى كلامه عن الصين :

(٢)« وهذا شىء من أخبار الصين الأقصى ، ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فإن كان صحيحاً فقد ظفرت بالغرض ، وإن كان كذباً فتعرف ما تقوله الناس ، فإن هذه بلاد شاسعة ما رأينا من مضى إليها فأوغل فيها ، وإنما يقصد التجار أطرافها » .

---

(١) معجم البلدان جـ ٢ ص ٩٨

(٢) معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٤٠

وهو يذكر كثيراً من الألفاظ الفارسية التى يعربها فيكشف بالتالى عن اختلاطه بأهل فارس وإن كان قد ذكر ذلك صراحة ، كما اعترف بنقله عن كتبهم واستفادته منها وهذا ما جعلنى أعتمد على مؤلفاته عندما كتبت عن حياته ، لأنها أصدق وأدق من كتابات الآخرين .

١٢ — يميل ياقوت فى كتابته إلى البسط والتفصيل ، فإذا كتب عن رجل ذكر مراحل حياته وما وقع له فيها من أفراح وأتراح ، ويذكر كل ما يتعلق بأسرته ونسبه وأساتذته وأشعاره وأخباره وكتبه وآثاره ، ولا يترك واحدا من البحار والأنهار والآبار والأديرة دون أن يبسط القول فيه بطريقته المعهودة مع المتابعة والوعى لما يسطر قلمه . فعندما يكتب عن العزى وهى صنم غطفانى يبسط كلامه عن عبادة الأصنام عند العرب على اختلاف قبائلهم ، ويشرح كيف قاوم الإسلام هذه العبادة فى حرب شديدة الأوار ، بالسنان واللسان .

١٣ — تبدو ثقافة ياقوت واضحة فى كتابته وأسلوبه ، وكل الشواهد السابقة التى ذكرناها تكشف بجلاء عن تنوع هذه الثقافة ، فلم يترك فنا من فنون الأدب دون أن يكتب عنه ويبدى فيه رأيه ، وتتضح ثقافته أكثر فى كتاباته التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية . فصاحبنا موسوعة ضخمة وعبقرية فذة نادرة ، لا تتكرر كثيرا .

١٤ — يذكر ياقوت فى كتاباته بعض الجمل الاعتراضية التى تكون غالبا للدعاء ، مثل قوله عن الحسن بن محمد الكاتب :

(١) « وكان — رحمه الله — من الأدباء العلماء الذين شاهدناهم ، زكى النفس ، طاهر الأخلاق ، على الهمة حسن الصورة » . . . « ثم يقول فى ترجمته أيضا :

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٨٤

« فقلت له : هون عليك — آدام الله أيامك — فإن الدهر ذو دول ، وقد يسعف الزمان ويساعد وترجع دولة العز وتعاود ...» .

* * *

إن الشواهد الكثيرة التي دللنا بها على طبيعة هذا الأسلوب التأليفى تكشف عن تنوع هذا الأسلوب وتبين سهولته ووضوحه ودقته، وتبرز صاحبنا كاتبا محققا مدققا بين الألفاظ والمعانى ، ويعتمد على الحقائق والمشاهدات البارزة ، ويملك اللغة التي يصوغ بها عبارته لينة منسابة، تجمع بين الفكر والفن أو بين العقل والعاطفة وهذه الخصائص المجتمعة لا تكاد تتوافر لرجل عاش فى عصر ياقوت .

---

(١) المرجع السابق جـ ٩ ص ١٨٦

الفصل الثالث

ياقوت الحموي شاعراً

انصرف ياقوت إلى الكتابة عن الأدباء والبلدان والتاريخ واللغة والنقد والأنساب، وبرز في هذا الاتجاه على عكس الشعر الذي قلت بضاعته فيه، ولعله وجد في السجع نوعا من التعويض عن القريض. ولقد تمكنت من العثور على بعض القصائد والمقطوعات مبعثرة في مؤلفاته.

ولكن هذا القدر اليسير لا يمكن أن يكون هو كل ما انتجته وجادت به قريحته لأنه يملك قدرة على صوغ هذا الفن، وليس معقولا أن تغيب وتختفي هذه القدرة طيلة حياته إلا من مقطوعات وقصائد معدودة لا تصلح لتكوين ديوان أو لجعل صاحبنا شاعرا بين الشعراء. كما عثرت على مجموعة أخرى من القصائد والمقطوعات وردت في كتبه في ثنايا كتابته، ولم أشأ أن أتحدث عنها لعدم التأكد من نسبتها إليه.

ولقد كان ياقوت ذواقة للشعر وراوية له ينتقى أجوده وينقده ويشرحه ويذكر مناسبته مما يؤكد قدرته ومعرفته بصناعته. وإذا كان إنصرافه إلى الكتابة قد شغله حتى عن حياته الخاصة، فلا عجب في أن يشغله عن الشعر، حتى لا نرى له من آثاره إلا القليل الذي تعرفنا عليه.

وها نحن أولئك نعرض لما وقفنا عليه من شعره لعلنا نستطيع من خلاله أن نقف على خصائصه ومدى قدرته فيه.

أولا : الغزل والحنين :

١ — أبرز قصيدة لياقوت فى هذا اللون الشعرى هى التى قالها عندما كان فى نيسابور ومرت به بعض التجارب العاطفية التى استجاب لجيشانها وثورتها فصاغ فيها شعراً يدل على صدق عاطفته ورهافة حسه فى تصوير ما مر عليه وشعر به .

ومناسبة هذه القصيدة يحكيها ياقوت نفسه فيقول :

«(١)وكنت قدمت نيسابور فى سنة ٦١٣، وهى الشاذياخ ، فاستطبتها وصادفت بها من الدهر غفلة خرج بها عن عادته واشتريت جارية تركية لا أرى أن الله تعالى خلق أحسن منها خلقا وخلقا وصادفت من نفسى محلا كريما ، ثم أبطرتنى النعمة فاحتججت بضيق اليد فبعتها فامتنع على القرار وجانبت المأكول والمشروب حتى أشرفت على البوار فأشار على بعض النصحاء باسترجاعها ، فعمدت لذلك واجتهدت بكل ما أمكن فلم يكن إلى ذلك سبيل لأن الذى اشتراها كان متمولا وصادفت من قلبه أضعاف ما صادفت منى ، وكان لها إلى ميل يضاعف ميلى إليها فخاطبت مولاها فى ردها على بما أوجبت به على نفسها عقوبة فقلت فى ذلك ...» .

ويذكر القصيدة وهى :

ألا هل ليالى الشاذياخ تؤوب ؟
فإنى إليها ، ما حييت طروب(٢)

---

(١) معجم البلدان جـ٣ ص ٣٠٦

(٢) الطرب : خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور ، وطروب : مشتاق .

بلاد بها تصبى الصبا ويشوقنا الـ
ـشمال ويقتاد القلوب جنوب(١)

لذاك فؤادى لا يزال . مروعا
ودمعى لفقدان الحبيب سكوب(٢)

ويوم فـــراق لم يرده ملالـة
محب ولم يجمع عليه حبيب(٣)

ولم يحد حاد بالرحيل ولم يزع
عن الإلف حزن أو يحول كثيب(٤)

أئن ومن أهواه يسمع أنتى
ويدعو غرامى وجده فيجيب(٥)

وأبكى فيبكى مسعدا لى فيلتقى
شهيـــق وأنفاس له ونحيب(٦)

على أن دهرى لم يزل مذ عرفته
يشتت خـــلان الصفا ويريب(٧)

---

(١) تصبى : الصبوة : جهلة الفتوة واللهو من الغزل . والصبا والشمال والجنوب : رياح

(٢) مروعا : خائفا (٣) ملاله : سئما

(٤) حدا الابل : ساقها ، وزعه يزعه أى كفه ، ويزع يفصل ويمنع ، والألف : الأليف والحزن ما غلظ من الأرض ، والكثيب : المجتمع من الرمل

(٥) الوجد : المحبة

(٦) الشهيق : رد النفس ، والنحيب : رفع الصوت بالبكاء

(٧) يشتت : يفرق ، خلان : أصدقاء ، راب يريب ويريبك الدهر إذا رأيت منه ما يكرهك ويؤلمك .

ألا يا حبيبا حال دون بهائه
على القرب باب محكم ورقيب(١)
فمن يصح من داء الخمار فليس
من خمار للمحب طبيب(٢)
بنفسى أفدى من أحب وصاله
ويهوى وصالى ميله ويثيب(٣)
ونبذل جهدينا لشمل يضمنا
ويأبى زمانى ، إن ذا لعجيب(٤)
وقد زعموا أن كل من جد واجد
وما كل أقوال الرجال تصيب(٥)

يتمنى ياقوت أن تعود إليه ليالى الشاذياج التى قضاها بجوار محبوبته، فهو مشتاق إليها وإلى رياحها الناعمة لذا فهو يبكى عليها ويسكب دمعه لفقدانها . ولم يكن هذا الفراق تعبيراً عن إرادته أو تلبية لرغبة محبوبته. وهو يعانى آلام الفرقة ولوعة البعد مع أنه لم يرحل عن مكان المحبوبة ولم تضرب الجبال والرمال سدا منيعاً يفصل بينهما فهو بعيد عنها لكنه قريب منها تسمع أنته وتستجيب محبتها لغرامه وهواه. وعندما يبكى تتجاوب معه بشهيقها وأنفاسها ونحيبها .

(١) البهاء : الحسن .
(٢) الخمار : بقية السكر . وخمار المرأة : ما تغطى به رأسها .
(٣) أثاب الرجل : رجع إليه جسمه وصلح بدنه .
(٤) شمل : اجتماع ، يقال : جمع الله سبحانه شمله أى ما تشتت من أمره
(٥) جد : اجتهد ، وتصيب من أصاب ، والصواب من الخطأ

ثم يلقى بالتبعة على الدهر الذى يشتت الخلان والأحباب ، وينقم على الأبواب المحكمة التى تفصله عنها ، ويذكر أنه إذا كان هناك من يفيق من صرعة الخمر فإن صريع الحب لا يفيق ، ويتمنى صاحبنا أن يفدى بنفسه وروحه من يحب وصاله ، ولكن الزمن يعانده ويأبى هذا الوصال .

ولقد زعم الناس أن لكل مجتهد نصيبا ، ولكن ذلك لم يتحقق معه لعجزه الكامل عن رد محبوبته برغم اجتهاده وسعيه فليس كل أقوال الرجال تصيب وتقع موقع الصحة والنفاذ .

وقفه مع هذه الأبيات :

اختار ياقوت لهذه القصيدة طائفة من الألفاظ الرقيقة المنتقاة التى تلائم الموضوع ، فوصف الشوق وذكر البعاد ومخاطبة المحبوب لا يصلح لها إلا هذا اللون من الألفاظ العذبة .

ولقد جاءت عبارته سهلة لينة معبرة عن غزله المهذب ، فهو يقول . « ويقتاد القلوب جنوب» ، « أئن ومن أهواه يسمع أنتى » ، « لم يحد حاد بالرحيل» ، « بنفسى أفدى من أحب وصاله ... » إلخ .

وفى محاولة للتوفيق بين الوزن واللغة نراه يقصر الممدود فى قوله : «خلان الصفا» ، والاستفهام فى قوله : «هل ليالى الشاذياخ تؤوب ؟ يعبر عن تمنيه ويكشف عن لهفته وحسرته ، وكلمة «سكوب» توحى بكثرة الدمع وشدة الحزن فهى صيغة مبالغة من سكب . والنداء فى قوله : « يا حبيبا » يعبر عن الشوق والاخلاص والحب ، وقوله : « نبذل جهدينا » يدل على العلاقة الوثيقة بينه وبين محبوبته وتجاوبها معه ورغبتها فى العودة إليه .
وقوله : إن ذا لعجيب إشارة للقريب وتأكيد للجملة .

ولقد عبر ياقوت عن غضبه فى البيت الأخير عندما قال : « وقد زعموا أن كل من جد واجد » واعتبره زعماً لعدم تحقيقه فى هـذا الموقف العاطفى .

ولم يكثر من المحسنات لأن الغزل الصادر عن القلب لا يتوارى خلف الأساليب المزخرفة ، وإن كنا نجد جناساً فى قوله : « فليس من خمار خمار للحب طبيب » .

تـكشف هذه الأبيات عن ذوقه وأدبه وتقديسه للحب ، فلم يتطرق فيها إلى أوصاف محبوبته الحسية والجسمانية ، لأن المقام مقام عشق حقيق وعاطفة جياشة بالشوق واللهفة ، ولم يخرج أسلوبه عن المألوف فى مثل هذه المواقف العفيفة .

ويلق المسئولية على الدهر كسائر بني عصره مرة فى قوله : على أن دهرى ... البيت وأخرى فى قوله ويأبى زمانى ... إن ذا لعجيب .

نرى بعض الخيال فى هذه الأبيات كقوله : يقتاد القلوب جنوب وهو تشخيص بالمكنية وقوله : ولم يحد حاد بالرحيل ، كناية عن الإقامة وعدم الرحيل ، وتؤدى بعض المكنيات الأخرى دورها كقوله : يدعو غرامى وجده فيجيب — يهوى وصالى ميله — يأبى زمانى ، والاستعارة الأخيرة أكثر قبولا وأفضل موقعاً .

قال ياقوت هذه القصيدة فى موقف عاناه ومر به فهو صادق فى تجربته ، صادق أيضاً فى عاطفته الحزينة الملتاعة ، ولقد نجح إلى حد كبير فى الملائمة بين صدق عاطفته وصور خياله وأسلوبه .

والأفكار فى هذه القصيدة ليست عميقة ولـكنها صادقة ، والأبيات مقبولة على كل حال من رجل كاتب أديب مؤرخ .

* * *

٢ — لياقوت قصيدة أخرى عاطفية قالها عندما كان فى مدينة مرو يتشوق فيها إلى العراق وهى بمعجم البلدان .

قال(١) :

تحيـة مغرى بالصبابة مغرم معنى بعيد الدار والأهل والهم(٢)

تراها إذا ما أقبل الركب هاجرت وتسرى إذا ما عرسوا نحو تكتم(٣)

أحملها ريح الجنوب مع الصبا إلى أرض نعم . وافؤادى من نعم !

واكنى بنعم فى النسيب تعلة ، وأفدى بها من لا أقول ولا أسمى(٤)

وأرتاح للبرق العراقى إن بدا وأين من الماجان أرض المخرم؟(٥)

سلام على أرض العراق وأهلها وسقى ثراها من ملث ومرزم(٦)

---

(١) معجم البلدان حـ ٥ صـ ٣٢

(٢) مغرى : مولع ، والصبابة : رقة الشوق وحرارته .

(٣) تسرى : تسرى ليلا ، والمعرس : الذى يسير نهاره ويعرس أى ينزل أول الليل ، وقيل التعريس النزول فى آخر الليل ، وعرس المسافر : نزل فى وجه السحر ، انظر لسان العرب . وتكتم : من أسماء زمزم سميت بذلك لأنها مكتومة قد اندفعت منذ أيام جرهم حتى أظهرها عبد المطلب انظر معجم البلدان حـ ٢ صـ ٣٨

(٤) التعلة : ما يتعلل بها .

(٥) الماجان : نهر كان يشق مدينة مرو . راجع معجم البلدان حـ ٥ صـ ٣٢ و « أرض المخرم » بالعراق ، وهى محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى وفيها كانت الدار التى يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية خلف الجامع المعروف بجامع السلطان — راجع معجم البلدان حـ ٥ صـ ٧١

(٦) ألث المطر إلثاثا أى دام أياماً لا يقلع . ومرزم وردت هكذا=

بلاد هرقنا قهوة اللهو بعدها ففقدى لها فقد الشبيه بالرغم[١]

* * *

ولقد كنى عن محبوبته بنعم ، ولم يشأ أن يذكر إسمها ليتأكد أدبه الجم وذوقه الرفيع .

كما روى له ابن خلكان مقطوعة شعرية يتغزل فيها بغلام تركى رمدت عينه فوضع عليها عصابة سوداء .

قال[٢] :

ومولد للترك تحسب وجهه بدراً يضيء سناه بالأشراق
أرخى على عينيه فضل وقاية ليرد فتنتها عن العشاق
تالله لو أن السوابغ[٣] دونها نفدت فهل لوقاية من واق

ونحن نرى أن صاحبنا هنا مقلداً لبنى عصره عندما قال شعراً فى هذا الفن الذى ظهر فى العصر العباسى ، ونلحظ تشبيهاً مقبولا حسناً فى البيت الثالث .

= مضبوطة فى معجم البلدان والصواب مرزم لعدم ورود الأول فى أساس البلاغة : هبت أم مرزم : وهى الشمال لأنها تأتى بنوء المرزم ومعه المطر والبرد ، وفى لسان العرب نقلا عن اللحيانى : المرزم من الغيث والسحاب الذى لاينقطع رعده .

(١) هرقنا من هرق وهو شاذ والصواب هراق وأهرق وأهراق .

(٢) معجم الأدباء حـ ١ ص ٤٠ .

(٣) السوابغ ، جمع سابغة : وهى الدرع الواسعة يتقى بها .

ثانياً : الهجاء :

قال ياقوت قصيدة فى هجاء مدينـــة « أرخشميثن » وهى من أعمال خوارزم عندما كان بها ولم تطب له الإقامة فيها ، يذكر ياقوت مناسبة هذه القصيدة فيقول :

(١) « وكنت قد وصلتها من ناحية مرو بعد أن لقيت من ألم البرد ، وجمود نهر جيحون على السفينة التى كنت بها وقد أيقنت أنا ومن فى صحبتى بالعطب ، إلى أن فرج الله علينا بالصعود إلى البر ، فكان من البرد والثلوج فى البر ، ما لا يبلغ القول إلى وصف حقيقته ، وعدم الظهر الذى يركب فوصلت إلى هذه المدينة بعد شدائد ، فكتبت على حائط خان سكنته إلى أن تيسر المضى إلى الجرجانية ، واختصرت بعض الاسم ليستقيم الوزن : قال :

ذممنا رخشميثن ، إذ حللنا ... بساحتها ، اشدة ما لقينا
أتيناها ، ونحن ذوو يسار ... فعدنا ، للشقاوة ، مفلسينا
فكم برداً لقيت بلا سلام ... وكم ذلا وخسرانا مبينا
رأيت النار ترعد فيه بردا ... وشمس الأفق تحذر أن تبينا(٢)
وثلجا تقطر العينان منه ، ... ووحلا يعجز الفيل المتينا(٣)

---

(١) معجم البلدان جـ ١ ص ١٤١

(٢) ترعد . من الصوت الذى يسمع من السحاب ، والمقصود برعده النار أن تفزع وتهتز من شدة البرد .

(٣) الفيل المتين : تعبير ركيك وكان يمكنه أن يقول : « الفيل البدينا » .

وكالأنعام أهلا ، فى كلام ... وفى سمت ، وأفعالا ودينا(١)
إذا خاطبتهم قالوا : بفسا ... وكم من غصة قد جرعونا(٢)
فأخرجنا ، أيا رباه ! منها ... فإن عدنا ، فإنا ظالمونا ،
وليس الشأن فى هذا ، ولكن ... عجيب أن نجونا سالمينا ،
ولست بيائس ، والله أرجو ، ... بعد العسر من يسر يلينا

* * *

قال ياقوت فى أعقاب هذه الأبيات :

(٣) « وأما ذمى لذلك البلد وأهله إنما كان نفثة مصدور اقتضاها ذلك الحادث المذكور وإلا فالبلد وأهـــله بالمدح أولى ، وبالتقريظ أحق وأحرى » .

ويذكر فى بداية القصيدة أن ذمه لهذا البلد كان بسبب مالقيه بساحتها عندما مر بها ، وكلمة رخشميثن كلمة أعجمية ثقيلة فى البيت الأول وفى البيت الثانى مقابلة جميلة بين أتيناها وعدنا وبين اليسار والإفلاس ، ثم يصور ياقوت ما لقيه من بردها وذلها ويبالغ فى تصوير حالة البرد بهذه المدينة فيستخدم « كم » الدالة على الكثرة والمبالغة ، ويذكر أن النار ترعد من شدة البرد فما بالك بالإنسان ؟ والشمس غائبة تحذر أن تظهر والثلج يقطر العينين والوحل يعجز الفيل المتين ثم شبه أهلها بالأنعام فى الكلام

(١) السمت : الهيئة .

(٢) الغصة : « الشجى » أى العسر فى بلع الماء ، وكلمة « بفسا » كلمة غير معروفة .

(٣) معجم البلدان جـ ١ ص ١٤٢

والسمت والأفعال والدين ، ويذكر أن رائحتهم منتنه ، وأنه كان يأكل طعامه بغصة وبدون قبول واستساغة .

ويتجه إلى الله بالدعاء أن يخرجه من هذه المدينة ، ثم يصف نفسه بالظلم إن عاد إليها ؛ وليس الشأن فى ذلك ، وإنما الأمر العجيب حقاً هو خروجه منها سالماً ، ومع هذا فهو غير يائس فالله سبحانه وتعالى يغير الأحوال ويبدل الأمور من عسر إلى يسر .

مع قبول التشبيه فى البيت السادس نراه يفصـــل بين المعطوف والمعطوف عليه بما يعد فى البلاغة وجهاً للشبه . وبالبيت الأخير تقابل العسر واليسر .

وهذه القصيدة تعبر عن الحياة القلقة المضطربة التى عاشها ياقوت وتصف رحلة من رحلاته العديدة التى قام بها إلى المشرق .

* * *

ثالثاً : المدح والفخر :

لياقوت عدة مقطوعات فى هذا اللون الشعرى منها ماقاله فى كمال الدين عمرو بن أحمد المعروف بابن العديم يقول :

(١) « ودخلت إلى كمال الدين المذكور يوما فقال لى : ألا ترى أنا فى السنة الحادية والثلاثين من عمرى ، وقد وجدت فى لحيتى شعيرات بيضاء فقلت أنا فيه :

هنيئاً كمال الدين فضلا حبيته ونعماء لم يخصص بها أحد قبل(٢)

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٥٦ ، ٥٧

(٢) حبيته : أعطيته من حبا يحبو حبوة والحباء : العطاء .

لداتك فى شغل بداعية الصبا
وأنت بتحصيل المعالى لك الشغل(١)

بلغت لعشر من سنينك(٢) رتبة
من المجد لايسطيعها الكامل الكهل

ولما أتاكم الحكم والفهم ناشئا
أشابك طفلا كى يتم لك الفضل

* * *

وهذه مقطوعة أخرى يفتخر ياقوت فيها بكتابه « معجم الأدباء » وينوه بفضله يقول(٣) :

فكم قد حوى من فضل قول محبر
ومن نثر مصقاع ومن نظم ذى فهم(٤)

ومن خبر حلو طريف جمعته على قدم الأيام للعرب والعجم

يرنح أعطافى إذا ماقرأته
كما رنحت شرابها إبنة الكرم(٥)

---

(١) لداتك : أترابك .

(٢) الصواب : « سنيك » ولكنه أجراه على لغة من يعربه بالحركات على النون .

(٣) معجم الأدباء حـ ١ ص ٥٩

(٤) المصقاع والمصقع : البليغ

(٥) يرنح : يميل ، وأعطافى : جوانبى ، والكرم : العنب ، وابنة الكرم الخمرة ، وهمزة « ابنه » مقطوعة هنا لضرورة الشعر .

ولو أنى أنصفته فى محبتى
لجلدته جلدى ، وصندقته عظمى[1]

عزيز على فضلى بألا أطيعه
على بذله للطائفين على العلم

ولو أنى أسطيع من فرط حبه
لما زال من كفى ولا غاب عن كمى

يحمل البيت الثالث تشبيها حسنا عندما صور ترنيح جوانبه عند قراءة الكتاب بترنيح الخمر لشرابها ، وكنى عن الخمر بابنة الكرم ؛ وفى البيت الرابع مبالغة مقبولة : والأبيات تغلب عليها الصنعة، ولقد أنشدها ياقوت عندما رفض أن يقدم هذا الكتاب لأهل عصره كى ينسخوه خوفاً عليه من الضياع أو السرقة ، وقال فى ذلك :

[2] « فوجدت فى نفسى شحاً عليهم ، وبخلا بعطف جيدة إليهم لأنه منى بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوداوين[3] من العين والجنان[4] مع كونى غير راض لنفسى بذلك المنع ولا حامد لها على ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جبلت ، وسجيه إليها جبرت » .

(١) صندقته : جعلت عظمى صندوقه ، وهذا اشتقاق غريب .
(٢) معجم الأدباء حـ ١ ص ٥٨
(٣) السوداوان : حدقة العين وحبة القلب .
(٤) الجنان : القلب .

رابعاً — الشكوى والنصيحة :

عاش صاحبنا حياته مغلوباً على أمره ناقماً على دهره ، ويبدو هذا واضحاً فى معظم كتابته وهو لا ينسى أن يشتكى دهره بلسان الشعر أيضاً يقول فى رسالته إلى القفطى التى سبق التعرض لها مقدماً لمقطوعة من الشعر فى الشكوى[1] :

« ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات ، وما أقل غناء الباكى على من عد فى الرفات .

١ — تنكر لى مذ شبت دهرى فأصبحت
معارفه عندى من النكرات

٢ — إذا ذكرتها النفس حنت صبابة
وجادت شؤون العين بالعبرات[2]

٣ — إلى أن أتى دهر يحسن ما مضى
ويوسعنى من ذكره حسرات

٤ — فكيف ولما يبق من كأس مشربى
سوى جرع فى قعرات كدرات[3]

٥ — وكل إناء صفوه فى ابتدائه
وترسب فى عقباه كل قذاة[4]

---

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٣٨

(٢) شؤون جمع شأن : وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٣) جرع جمع جرعة : وهى حسوة من الماء ، وقعره : عمقه ، وكدرات جمع كدر أى عكر غير صاف .

(٤) قذا من القذى : وهو مايسقط فى العين والشراب .

يذكر أن دهره قد تنكر له عندما مرى الشيب به فساءت أواخر حياته كالكأس يصفو أولها وتستقر الشوائب فى آخرها ، كما تحولت معارف حياته ومعالم أيامه إلى نكرات مجهولة ، تحن إليها نفسه صبابة وشوقاً ، وتجود أعينه حزنا بالدموع على مافات .

وعندما اعتدل حاله وصلح زمانه تبسم له الدهر ، لكن بعد فوات الأوان وتقدم السن وانهزام العمر ، فلم يبق من كأس حياته إلا كل مكدر عسكر .

نلاحظ فى البيت الأول تورية ياقوت ببعض المصطلاحات النحوية « معارفه » و « النكرات » .

ويتعجب بالاستفهام فى البيت الرابع ، ويجعل حياته كأساً فارغاً إلا من بعض البقايا العسكرة .

ويختم هذه المقطوعة بحكمة صادرة من رجل خبير بالحياة حذر من عنادها وتقلبها .

روى ياقوت مقطوعة من الشعر لشمس المعالى قابوس إلى عضد الدولة وقد أهدى له سبعة أقلام :

قد بعثنا إليك سبعة أقلا ... م لها فى البهاء حظ عظيم(١)

مرهفات كأنها ألسن الحيـ ... ـات قد جاز حدها التقويم(٢)

---

(١) البهاء : الحسن والظرف.

(٢) قوله : كأنها ألسن الحيات . . إلخ أى أنها تشبه الحيات فى الحدة والأثر غير أنها معدلة بخلاف ألسن الحيات .

وتفاءلت أن ستحوى الأقاليـ   م بها كل واحد إقلـيم

• • •

وبعد أن ذكر ياقوت أبيات قابوس قال فى تقديمه لمقطوعة شعرية من إنتاجه :

(١) « وكتبت فى سنة سبع وستمائة قد توجهت إلى الشام وفى صحبتى كتب من كتب العلم أتجر فيها، وكان من جملتها كتاب صور الأقاليم للبلخى نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير فقلت فى نفسى : لو كانت هذه النسخة لمن يجتدى بها بعض الملوك ويكتب معها هذه الأبيات ، وقلتها ارتجالا « لكان حسنا ، والأبيات فى معنى أبيات قابوس ولم أكن شهد الله وقعت عليها (٢) ولا سمعتها وهى :

ولما رأيت الدهر جار ولم أجد
من الناس من يعدى على الدهر عدواكا (٣)
ركبت الفلا يحدو بى الأمل الذى
يدنى على بعـد التنائف مثواكا (٤)
ورمت بأن أهدى إليك هدية
فلم أر مايهديه مثلى لشرواكا (٥)

---

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٢٥ .
(٢) وقعت عليها : عثرت عليها .
(٣) قوله : من يعدى عـلى الدهر : أى من يستعدى على الدهر أى يستنصر به عليه .
(٤) الفـلا : الصحراء ، يحدو بى : يبعثنى ويسوقنى ، يدنى : يقرب ، التنائف : جمع تنوفه : البرية لاماء فيها ولا أنيس ، المثوى : مكان الإقامة .
(٥) شرواك : مثلك .

فجئتك بالأرضين جمعاً تفاؤلا
لعلمي بأن الفال رائد عقباك (١)
فخذ هذه واستخدم الفلك الذي
براه إلهي كي يدور ببغياكا (٢)

وما صنفه ياقوت بصدد هذه المقطوعة قاله من خلال مقطوعة أخرى ذاكراً أن معظم ماينسب إلى الشعراء من سرقات راجع إلى توارد الخواطر فلقد روى أبياتا لجعفر بن محمد الموصلي وهي :

أيها القرم الذي أعوزنا فيه النديد (٣)
وأعانته على المجد مساع وجدود ، (٤)
عجل النجح فإن المطل بالوعد وعيد

ثم قال ياقوت بعد أورد هذه الأبيات مقدما أيضا لمقطوعة من الشعر :

(٥) « هذا معنى عن لي من قبل أن أقف على هذه الأبيات ، وكنت أعجب كيف فات الأوائل لاشتماله على مطابقة التجنيس وحسن المعنى مدة، حتى وقفت على ماههنا ، فعلمت أن أكثر ماينسب إلى الشعراء من السرقات، إنما هو من توارد الخواطر ، ووقوع حافر على حافر وأما أبياتي فهي :

---

(١) الأرضين : ملحق بجمع المذكر السالم ومفرده أرض وسكنت راؤه للضرورة والرائد : الجاسوس ، وعقبى الشيء : آخرته .

(٢) براه : مخفف برأه أي خلقه ، وببغياك : أي بما تبغيه وتطلبه .

(٣) القرم : السيد العظيم والنديد : الند والتشبيه .

(٤) الجدود : جمع جد .

(٥) معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٠٤ .

ياسيدا بذ من يمشى على قدم علماً وحلماً وآباء وأجدادا (١)
ماذا دعاك إلى وعد تصيره
بالخلف والمطل والتسويف إبعادا
لاتعجلن بوعد ثم تخلفه
فيثمر المطل بعد الود أحقادا
فالوعد بزر لطف القول منبته
وليس يجدى إذا لم يلق حصادا

يخاطب ياقوت من فاق غيره فى المنزلة والمكانة لكنه مخلف للوعد ناقض للعهد يلجأ إلى التسويف الذى يثمر الأحقاد ولا فائدة فى وعد يفتقد الوفاء والالتزام .

خامساً — الوصف :

كتب ياقوت فى تقديمه لمقطوعة من الشعر يصف فيها مرو ويتشوق إليها ، كتب يقول : (٢) « وكنت عند كونى بمرو(٣) عرض على شيخنا فخر الدين أبو المظفر عبدالرحيم بن تاج الاسلام أبى سعد السمعانى — تغمدهما الله برحمته — جزءا يشتمل على رسائل للحسن القطان إلى الرشيد الوطواط محشوة بالسب والثلب (٤) تصريحا لاتعريضا ويلزمه الحجة فى

---

(١) بذ : فاق وسبق :

(٢) معجم الأدباء جـ ٩ صـ ٩٥ .

(٣) مرو هى أشهر مدن خراسان ، وكانت تسمى « مرو الشاهجان » أقام فيها ياقوت ثلاث سنوات وتركها بسبب هجوم التتر .

(٤) الثلب : شدة اللوم والأخذ باللسان وثلم الأعراض .

أنه نهب كتبه ، وسلبه نتيجة عمره ويستحسب الله عليه . وضاق نطاق الزمان من تحصيلها وكتبها وقلت :

وكم منية خلفت خلفى وبغية
ومن حاج نفس حال من دونها الترك (١)

إذا ذكرتها النفس حنت وأرزمت
وودت لفرط الوجد أدركها الفتك (٢)

سلام على تلك الديار وقدست
نفوس بمثواها ذوى العلم والنسك (٣)

يذكر ياقوت أن تركه لمرو حال دون تحقيق آمانيه وأحلامه . ومن فرط وجده وغرامه بهذا البلد تمنى أن يموت به وتلقى نفسه الحتف على أرضه ، ثم يبعث بسلامه إلى هذا الموضع وإلى من دفن به من أهل العلم والنسك .

* * * * *

إن هذه النماذج التى عثرنا عليها قليلة جداً لا تجعل صاحبنا شاعرا يضاف إلى قائمة الشعراء فهو كاتب قبل أى شىء آخر .

وهذه القصائد والمقطوعات نجد فيها بعض التجارب التى صاغ فيها ياقوت شعراً مقبولا مطبوعا يدل على معرفته بفن الشعر وقدرته عليه ،

---

(١) حاج : مفردها حاجه .

(٢) أرزمت الناقة : حنت إلى وليدها . وأدركها الفتك أى لو أدركتها الفتك عوملت لو معاملة أن لحذفت مثلها لأنهما مصدريتان — وذكر محقق معجم الأدباء أنه لو قال : لو نالها الفتك لكان أسلم .

(٣) بمثواها : بموتها .

وشعره جيد على كل حال يتسم فى عمومه بالسهولة واليسر ووضوح المعانى غير أنه شعر تقليدى لايرقى فيه إلى مستوى الشعراء الجيدين فهو شاعر متوسط بالنسبة لشعراء عصره . ولعل قصيدته الغزلية التى سجلناها فى مطلع نماذجه هى أصدق تجربة شعرية عبرت عن عاطفة صادقة جياشه فى أسلوب جيد يفيض بالعذوبة والسلاسة ، والصور الحزينة الملائمة لجوه النفسى الحزين .

كما أن بعض المقطوعات جاء نتيجة الاستعانة بالعقل والتفكير قبل الاستعانة بلهيب العاطفة وثورة الوجدان ، وهذا كل مانستطيع قوله من خلال ما وصلنا من شعره .

الفصل الرابع

ياقوت الحموى فى ميزان النقد

لقد ذكرت فى الفصول السابقة عرضاً لأدب ياقوت وأبنت عن طريقته فى الكتابة ومنهجه فى التأليف وجمعت ما وصلنا من شعره، وسوف تتضح مكانته أكثر فى الفصول التالية من الرسالة.

ولقد عقدت هذا الفصل لعرض وبيان نظرات القدماء والمحدثين إلى أدبه من كتابة وتأليف وشعر وسوف أبدأ بالقدماء.

أولا : نظرة القدماء لياقوت :

تردد صاحبنا على القفطى بحلب أكثر من مرة ، ثم عاش أخيراً إلى جواره، وكان القفطى وزيراً ذا نفوذ وسلطان، وكان أديباً شاعراً مؤلفاً لكنه مع ذلك كان رجلا لئيما كما سبق أن ذكرت، فوصف ياقوتا بصفات ليست فيه ، ونعته فى كتابه «إنباه الرواة» بنعوت لا يصح معها أن يترجم له فى هذا الكتاب وهكذا أساء هذا الرجل لياقوت عن قصد ونظر إليه نظرة اشمئزاز وازدراء، ولم يذكر واحداً من كتبه على كثرتها ، وألصق به كثيراً من التهم التى تم الرد عليها بروح العدل والنصفة.

ابن خلكان :

ترجم ابن خلكان لياقوت ترجمة مسهبة ؛ ونقل فيها عن ثلاثة من المعاصرين لياقوت وهم القفطى من خلال كتابه السابق ، وابن المستوفى

صاحب « تاريخ أربل » وابن النجار صاحب « تاريخ بغداد »[1] وذكر مؤلفاته ، ونقل بعضا من مقدمة معجم الأدباء وأثبت الرسالة الطويلة التى أرسلها إلى القفطى[2] ، وذكر له شعراً رواه عن ابن النجار .

وهكذا رد ابن خلكان لصاحبنا اعتباره ، وكان يمكن أن يقوى هذا الرد لو ظهر الكتابان اللذان نقل عنهما إلى جانب كتاب القفطى المطبوع فى أربعة أجزاء .

وختم ابن خلكان ما قاله عن ياقوت بهذه العبارة :

«[3] وكان الناس عقيب موته يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه ، ولم يقدر لى الاجتماع به» .

بدأ الناس يتنبهون لياقوت بعد وفاته ويذكرون فضله ويشيدون بأدبه وينقلون عنه فى الأدب والتاريخ والجغرافية والأنساب واللغة ... الخ .

وممن جاء بعده ونقـــل عنه من القدماء ابن شاكر الكتبى فى «فوات الوفيات» وأبو الفداء فى «تقويم البلدان» والصفدى فى «الوافى بالوفيات» والسيوطى فى «بغية الوعاة» .

والكتابان الأخيران أكثر المؤلفات أخذاً ونقلا . وندر أن تجد أحدا من القدماء لم ينقل عن ياقوت . والذين جاءوا بعد ابن خلكان ، وترجموا لياقوت ولم يزيدوا شيئا عما قاله فى وفيات الأعيان ، ونذكر منهم اليافعى

---

(١) هذا الكتاب يتفق اسمه مع كتاب «تاريخ بغداد» أو مدينة السلام للخطيب البغدادى.

(٢) سبق الحديث عنها.

(٣) معجم الأدباء جـ ١ صـ ٤٠ (بالنقل عن وفيات الأعيان)

صاحب « مرآة الجنان » وابن العماد الحنبلى فى «شذرات الذهب».

وهكذا نلاحظ أن القدماء لم يتنبهوا لياقوت فى حياته كثيرا ثم فوجئوا بمؤلفاته بعد وفاته فترجموا له ، ونقلوا عنه ، ونظروا إلى نثره الفنى من خلال القطع الأدبية المتعددة المبثوثة فى كتبه . كما تناقلوا رسالته الطويلة التى بعث بها إلى القفطى ، وتعرفوا على قليل من شعره ، واعتمدوا اعتمادا كبيرا على نثره التأليفى .

ثانياً — ياقوت فى نظر المعاصرين :

نظر المعاصرون لياقوت نظرة تقدير واعجاب بعد أن أزيل تراب النسيان عن بعض كتبه وخرجت للناس مطبوعه محققة ، وكان فى مقدمتها معجماه الكبيران للأدباء والبلدان . وممن اهتموا به وكتبوا عنه .

محمد كرد على :

كتب الأستاذ محمد كرد على دراسات مطولة عن ياقوت فى جملة أعداد من مجلته « المقتبس » التى كان يصدرها بالقاهرة فى بداية هذا القرن . كتب فى المجلد الثالث منها عن معجم الأدباء قائلا(١) :« لا جرم أن إحياء معجم الأدباء مما يقفنا على أمور كثيرة كنا نجهلها من قبل، وفيه من الشعر والنثر والمحاضرات والنكات ما هو مسرة للقلب وقرة للعين،وقال :(٢) .

« وقد توسع ياقوت الرومى صاحب معجم البلدان فى ترجمة بعض من خدموا الأدب العربى إلى عهده ، وذكر من نكاتهم وأخبارهم ومنثورهم

---

(١) المقتبس : السنة الثالثة : ١٣٢٦هـ ١٩٠٨م ص : ٤١٥

(٢) المقتبس السنة الرابعة ص ١٣٢ هـ ١٩٠٩م ص : ٤٣٨

ونظامهم ماهو مرآة الحياة الاجتماعية والأدبية والعلمية فى الأعصار الستة الأولى للاسلام ».

وكتب دراسة عن ياقوت بمجلة الرسالة (١) فى سنتها الخامسة . فلقد ترجم له بإسهاب ووفاه حقه بأمانه ، وأورد بعضا من شعره ، وعرف بكتبه المطبوعة ، ومما قاله :

« (٢) ولو عاش ياقوت ورأى بعد أكثر من سبعة قرون كتابيه «معجم الأدباء» و«معجم البلدان» اللذين لا يستغنى عنهما باحث ولا أديب ، وأنهما من الكتب الأمهات التى حوت كل طريف مفيد تزيد على القرون حسنا ، وتبين حاجة الناس إليها لا غتبط وعرف أن ما كان يقوله الناس فيه ، قالوا فى أمثاله فى كل عصر ثم ذهب لغط المتقولين والطاعنين وثبت علم العالمين والمتأدبين والباحثين ، وفى الدراسة التى عقدها لياقوت بكنوز الأجداد كتب عن معجم البلدان قائلا .

« (٣) ومن معجم البلدان فقط يتألف ديوان لطيف من المقاطيع والقصائد التى استشهد بها ، وكتب فى عجائب البلدان والخليقة ، وأخلاق الناس وعاداتهم ودرجة الرفاهية والثروة فى عصره أوقبل عصره . ويفيض فى كلامه على الحواضر يذكر من خرج منها من الأعيان ، ولا سيما رجال الحديث ، وقد تظفر فيه بتراجم مطولة لرجال أغفل بعض مصنفى الطبقات ذكرهم ».

---

(١) مجلة أسبوعية كان يصدرها فى القاهرة أحمد حسن الزيات فى المدة من ١٩٣٣ إلى ١٩٥٣ م .

(٢) الرسالة السنة الخامسة (١٩٣٧ م) العدد ٢٢٣ ص ١٦٤٧

(٣) كنوز الأجداد ص ٣٢٢ مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٥٠

صلاح الدين المنجد :

كتب فى مجلة الثقافة فى سنتها السابعة مقالين متتاليين عن منهج الشك والنقد عند ياقوت من خلال تأليفه لمعجم البلدان ، ومما قاله :

« (١) وياقوت ذو شخصية جبارة عالمة ، جدير بالاحترام والتقدير إذا نظر إلى نشأته والظروف القاسية التى مرت به وأحوال العصر الذى ألف فيه كتابه ، فأصله الذى كان يخشى أن يكون معرة له ، ورقه الذى كان قيداً فى عنقه وعذابه فى حياته ، وذوقه الألم والجوع والخوف والقلق فى عصره المضطرب ، ثم إتيانه بالشىء الجيد ، كل أولئك يزيد قيمة مؤلفاته وقيمته هو نفسه » .

وقال فى كتابه « أعلام التاريخ والجغرافيا » بعد أن ذكر ثقافة ياقوت وسعة اطلاعه « (٢) ومن هنا كانت ثقافته واسعة جدا ، متنوعة ليس لها لون واحد أو صفة غالبة ، ونعتقد أن معجم البلدان خير نتاج له يمثل هذه الثقافة الواسعة المتنوعة المنظمة ، فى هـذا المعجم يبدو ياقوت مؤرخا للبلدان بما يذكر من فتوحها أو أخبار تاريخها ، ولغويا بما يذكر من اشتقاق اسمائها وصيغتها ، وجغرافيا بما يذكر من أقاليمها وأوصافها ، ونسابة مؤرخا بما يذكر من رجالها الذين نسبوا اليها سواء أكانوا أمراء أو علماء أو زهادا أو كتابا ، وسنى وفياتهم وولادتهم وآثارهم وأخبارهم وأديبا بما يروى من الأشعار التى قيلت فيها » .

---

(١) الثقافة السنة السابعة العدد ٣٥٩ ص ٩

(٢) أعلام التاريخ والجغرافيا ج ١ ص ٨٣ مؤسسة التراث العربى — بيروت سنة ١٩٥٩ م .

ثم يقول بعد أن عرض لمؤلفاته :

« (١) ففى هـــذه الآثار كلها يبدو ياقوت مؤرخا للأعلام وللبلدان وجغرافيا ونسابة واخباريا ولغويا ونحويا وأديبا ، وفى كل ما ألف كان كما ذكرنا حجة ثبتا ، وكان له منهج علمى لا يفارق هذه التواليف » .

ملامح أدبية (٢) :

هذا الكتاب من أكثر الكتب الحديثة اهتماما بياقوت ، بلغت الصفحات المخصصة له خمسا وثمانين صفحة ، كتب فيه الدكتور أحمد الشرباصى عن حياة ياقوت ومؤلفاته وشخصيته الأدبية ، وتحدث عن شعره وأسلوبه فى التأليف ، وجعل الجانب الأكبر من هذه الدراسة عن معجم البلدان ، والجوانب الأدبية واللغوية فيه قال :

« (٣)ولياقوت هيام واضح بتتبع الأشعار المتعلقة بالبلدان والأماكن، والقصور ، مما يجعلنا نؤكد أن نزعته الأدبية كانت تسابق نزعته التاريخية والعلمية بل نجد نزعته إلى الشعر تغلب فى بعض الأحيان غيرها من النزعات» .

ويرى أن أجمل ما قرأه من شعر ياقوت هو قصيدته الغزلية التى قالها

---

(١) المرجع السابق جـ ١ صـ ٧٥

(٢) لفت الدكتور محمد رجب البيومى انتباهى فى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٩ إلى عدة مقالات للدكتور أحمد الشرباصى فى مجلة الأديب اللبنانية عن ياقوت ، وذكر أنه قرأها مقدراً معجباً ، وأخبرت الدكتور أحمد الشرباصى بذلك فقال : إن هذه المقالات هى التى ضمها كتاب « ملامح أدبية » .

(٣) ملامح أدبية صـ ٧٩

فى التجربة العاطفية التى مرت به واستجاب لها فى نيسابور سنة ٦١٣ هـ يقـــول :

« (١) ولقد مرت به بعض التجارب العاطفية التى استجاب لجيشانها ، فصاغ فيها شعرا يدل على صدقه فى تصوير مامر عليه وشعر به » ثم يذكر القصيدة .

أقوال أخرى :

يقول الدكتور زكى محمد حسن (٢) « ومهما يـكن من شىء فقد امتاز ياقوت عن كثير من مؤلفى العرب بملكة النقد التى كانت تتجلى فى روايته بعض الأساطير الذائعة فى عصره وفى حـكمه على تلك الأساطير والتعليل لهـا » .

ويقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن عقلية ياقوت (٣) : « فهى عقلية المؤرخ المتيقظ الذى لا يقبل رواية على علاتها ، ولا يـكتفى من الروايتين بذكرهما ، وانما يحقق ويرجح ويوثق ويضعف، وينفى ويثبت، وبين يديه قوة الدليل » .

وكتب عن مقدمة معجم الأدباء يقول :

« (٤) وتعد مقـدمة ياقوت الرومى لكتابه : إرشاد الأريب (٥)

---

(١) ملامح أدبية ص ٣٠

(٢) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ١٠٦ دار المعارف سنة ١٩٤٥

(٣) علم التاريخ عند العرب ص ٢٢٧

(٤) علم التاريخ عند العرب ص ٢٢٠

(٥) معجم الأدباء .

ما كتب من المقدمات فى كتب التراجم والطبقات فقد مضى الرجل فيها على طبعه الأدبى ، وملأها بكثير من الفوائد ووضع فيها بعض مناهجه فى الترجمة للرجال الذين اختارهم » .

وكتب الدكتور عبد الله الغنيم فى كتابه « مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى يقول :

«(١) إذا كان البكرى أول من مهد الطريق بتأليف المعجم الجغرافى فإن ياقوتا الحموى قد وصل بهذا الفن الجغرافى فى القرن السابع الهجرى إلى غاية كبيرة من الكمال .. » ويواصل موازنته بين البكرى وياقوت(٢)

ويقول الأستاذ على أدهم :

«(٣) والعجيب فى أمر هذا الرجل الذى عاش هذه العيشة القلقة المضطربة أنه ترك طائفة من الكتب بينها كتابان يعدان من أنفس الكتب فى المكتبة العربية وهما كتاب معجم الأدباء الذى سماه ياقوت « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » وكتاب « معجم البلدان » .

ويقول الأستاذ/ إبراهيم الإبيارى :

«(٤) وياقوت الذى عرفت أنه ناثر، فيما سقنا لك من رسالته كان شاعراً معـــدوداً من شعراء عصره ذكره أبو البركات مبارك بن أبى بكر

---

(١) مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ص ١٤٦ الطبعة الثانية ١٩٧٩ م نشر ذات السلاسل للطباعة والنشر — السعودية .

(٢) ذكر لى الدكتور عبدالله الغنيم فى رسالة من الكويت : أنه سيصدر خلال شهر مايو ١٩٨١ كتاب عن « مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموى

(٣) بعض مؤرخى الإسلام ص ١٢٨ مكتبة نهضة مصر .

(٤) تراث الإنسانية : المجلد الأول ص٥٣٦ .

ابن الشعار الموصلي (٦٥٤هـ) في كتابه «عقود الجمان في شعراء الزمان» ودون له شعرا منه ما رواه عن ابن النجار أبي عبد الله محمد بن محمود (٦٤٣هـ) صاحب تاريخ بغداد في غلام تركي وقد رمدت عينيه وعليها رفائد سوداء:

ومولد للترك تحسب وجهه ... بدراً مضىء سناه بالإشراق

ويقول الدكتور / محمد زغلول سلام:

(١)وكانت أشعاره سائرة يتغنى بها، وهي رقيقة لطيفة ...»

وأكتفي بما سبق من أقوال المعاصرين التي تشهد بعظمة ياقوت ونبوغه وتفوقه في التأليف، وموهبته الأدبية في النثر والشعر.

ثالثا: ياقوت في نظر المستشرقين

لا ننكر أن للمستشرقين الفضل الأول في إخراج كتب ياقوت مطبوعة للناس بعد أن تسربت مخطوطات مؤلفاته إلى أوربا بالتدريج، وفي مقدمتهم المستشرق الألماني «فرديناند فوستنفيلد» الذي نشر كتاب «المشترك وضعا والمفترق صقعا» في عام ١٨٤٦ م ثم نشر معجم البلدان بعد ذلك، وعن نشر فوستنفيلد لهذا الكتاب يقول «كراتشكوفسكى» في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي:

«(٢) وكان طبع المعجم في ستة أجزاء في الفترة بين عامي ١٨٦٦ م ١٨٧٣ م إحدى الخدمات الجليلة، بل ربما كانت أجلها. التي طوق بها فرديناند فستنفيلد عنق الاستعراب العالمي».

---

(١) الأدب في العصر الأيوبي ص١١٢ دار المعارف سنة ١٩٦٨

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي ج١ ص٣٣٦ نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم — لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٧

ويذكر أن اسم ياقوت قد ورد ذكره من وقت لآخر لدى علماء مدرسة الاستشراق الهولندية مثل « غوليوس» أو « غرونوفيوس » الذى لفت إليه الأنظار فى بحثه عن نشأة وتطور وفائدة الجغرافيا .

وذكر أن الاهتمام بياقوت كمؤلف قد بدأ مع القرن التاسع عشر يقول «[١] ويرجع الفضل فى هذا قبل كل شىء إلى اثنين من علماء الشمال هما راسموسن (١٨١٤) Rasmussen وفرين Trahn (١٨٢٣) اللذان كانا أول من نقل عن المعجم القطعة المشهورة لابن فضلان، وكان فرين بالذات هو أول من كتب عن شخص ياقوت وعرف به، وقد احتفظ بحثه كما أثبت روزن بقيمته إلى أوائل القرن العشرين » وأورد مجموعـــة من علماء الاستشراق الذين نقلوا عن مخطوطات ياقوت قبل أن تطبع كتبه ومنهم « سنكوسفسكى » الذى نشر ترجمته لرواية ياقوت عن تفليس (١٨٣٨) قال

[٢] وصفه بأنه (كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قديمة فى تاريخ وجغرافية العصور الوسطى . ، وهو قد أبدى الكثير من الغيرة والحماس فى دراسة الأوضاع الجغرافية والأثنوغرافية والسياسية لعصره .

ويحدد كراتشكوفسكى رأيه فى معجم البلدان تحديدا واضحا فيقول :

«[٣]وهو أوسع وأهم بل وأكاد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربى للعصور الوسطى ولتكوين فكرة عن حجمه يكفى أن نذكر أن المتن المطبوع يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعا وتسعين صفحة ، وهو جماع للجغرافيا فى صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات أيضاً»

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٣٣٠

(٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى جـ ١

(٣) المرجع السابق ج ١ : ٣٣٥

كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والانثولوجيا(١) والأدب الشعبي والأدب الفني وذلك في القرون الأولى الستة للهجرة . ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه ، وذلك بين صغيرها وكبيرها ، الخمسة آلاف» ويقول :

«(٢) ومادة ياقوت متنوعة للغاية ، وهو لم يقصر نفسه على العالم الإسلامي وحده كما فعل ممثلو المدرسة الكلاسيكية ، كما وأنه لم يفرد أهمية استثنائية لمواضع جزيرة العرب دون غيرها كما فعل ممثلو المدرسة اللغوية » .

ولقد ركز هذا المستشرق على معجم البلدان وعلى ياقوت كأديب جغرافي مستعينا بما يقرب من أربعين مرجعا لهذه الدراسة ، نصفها تقريبا من المراجع الأجنبية بلغات متعدده مثل الروسية والانجليزية والألمانية والإيطالية والفرنسية .

ومن المستشرقين الذين نقل عنهم (هير Heer) الذي أخرج بحثا في نهاية القرن الماضي تحت عنوان « التاريخ والجغرافيا في معجم البلدان » وركز كلامه على المراجع التاريخية والجغرافية التي اعتمد عليها ياقوت لتاليف معجم البلدان .

ومن المستشرقين الذين اهتموا بياقوت : « المستشرق الإيطالي : Amari Nallinc الذي أشاد به وذكر أن معجم البلدان هو المؤلف الوحيد الذي حفظ شذرات مصنفين مفقودين لمؤلفين من صقلية هما أبو على الحسن (١٠٥٠ م) وابن القطاع (١١٢١ م) حيث اعتمد عليها ياقوت اعتمادا كليا في معلوماته عن الجزيرة » .

---

(١) علم الأجناس والفضائل البشرية .

(٢) تاريخ الأدب الجغرافي العربي جـ ٢١ : ٣٤

كما أشاد زيبولد « Seybold » بياقوت وبمعرفته عن قورسيكا ومالطة وغيرها من خلال كتابه Analecta Arabo· Italice وهو باللغة الإيطالية ومعنى اسم الكتاب « نصوص عربية ايطالية » .

ريجى بلاشير : Regis Blachére

اهتم بياقوت فدرس حياته وثقافته وكتب عن خبرته فى التأليف ، وذلك فى دئراة المعارف الإسلامية وهى باللغة الانجليزية والفرنسية .

Encyclopédie de 1, islame 1V p.1217 -I217

كما أطلعت على دراسة له عن ياقوت فى كتاب اشترك معه فى إعداده « درمون » .

والكتاب مترجم ومطبوع فى باريس تحت اسم « منتجات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » مع تعليقات وتوضيحات بالفرنسية .

كرادى فو Cerra des vaux

ومن أبرز المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بياقوت « كرادى فو » .

وفى كتاب له باللغة الفرنسية .

Les penseurs de l,islam tame, 2. p I4—19.

ومعناه « مفكرو الإسلام »

ذكر فى بداية دراسته أن ياقوتا هو أكبر جغرافى عربى ، وكتب عن كثرة المراجع التى أطلع عليها ، وأشاد بمؤلفاته التي كانت ثمرة لكثرة قراءته وقال عن معجم البلدان إنه من المؤلفات التى يحق للاسلام أن يفخر بها كل الفخر ،وختم بحثه بقطعة أدبية أوردها ياقوت لأحمد الفلكى فى وصف شعب بوان ، مدللا على حسن اختياره وعظمة ثقافته .

ويلاحظ أن المستشرقــــين قد ركزوا فى البداية على ياقوت كأديب

جغرافى ، ثم أشادوا به بعد ذلك كأديب ناقد مؤرخ بعد أن بدأ د . س . مرجليوث فى نشر معجم الأدباء لأول مرة عام ١٩٠٧ م .

ولعل أكثر من اهتموا بياقوت كأديب الأب انستاس الكرملى الذى نشر عنه وعن معجم الأدباء عدة مقالات فى مجلة لغـــة العرب التى كانت تصدر بالعراق(١) .

* * *

ولقد أردت بهذا العرض أن أكشف عن اهتمام رجالات الأدب والفكر بياقوت سواء أكانوا من بنى جلدتنا أو من الغرباء على لغة الضاد إبرازاً لمكانته وتوفية لحقه وإن كانت أعماله المتنوعة أكبر من كل قول وأقوى من كل بيان .

---

(١) راجع المجلة فى السنوات الرابعة صـ ٩٥ إلى صـ ١٠١ والخامسة صـ : ١١١ إلى صـ ١١٢ ، والتاسعـة صـ ٦٣٠ إلى صـ ٦٣٣ ، صـ ٦٩٩ إلى صـ ٧٠٥ . صـ ٧٧٢ إلى صـ ٧٧٨

البَابُ الرّابعُ

ياقوت الحموى ناقـــداً

الفصل الأول

النقـــد التاريخى

إن معظم ما كتبه ياقوت فى الترجمـــة للأعلام والحكم على أعمالهم يدخل فى إطار النقد التاريخى الذى لم يكن معروفا على عصره بهذا الأسم ، ويصدق هذا على نقده للروايات والأخبار والكتب والمؤلفين، فهو مثلا يتحرى الروايات ويحققها ويبين الصحيح منها من الزائف ، ويحكم على المؤلفات بروح عادلة محايدة .

ولقد قام بدور مهم فى هذا النقد ، فلم يكتف عند الحكم على رجل بالاطلاع على مؤلف واحد له ، بل كان يحيط بكل أو بمعظم مؤلفاته ليكون حكمه قريباً من الصحة إن لم يكن صحيحاً .

ولا يستند فى حكمه على الأعلام إلى جهة واحدة أو مؤلف واحد يقرأ فيه ويأخذ منه ، وإنما كان يستقصى معظم ما كتب عن المترجم لهم من عدة مصادر مختلفة . ولقد انصرف إلى هذا النوع من النقد لغرض واحد وهو التأليف الجيد الذى يخدم الحاضر ويعيش للمستقبل ، وهذا ما تشهد به مؤلفاته ، وبخاصة معجماه الكبيران للأدباء والبلدان .

وسوف نعرض فى هذا الفصل لبعض الموضوعات التى يتجلى فيها نقده التاريخى ولقيت منه عناية واهتماما ، وشغلته فى معظم كتبه ومؤلفاته .

أولا : نقد الروايات والأخبار :

احتاج ياقوت عند تأليف كتبه إلى ممارسة نوع خاص من النقد التاريخى ، وقد استلزم ذلك بذل مجهود كبير فى تحرى سير الرواة الذين يصح الاعتماد عليهم ، والأخذ برواياتهم ، ولقد كان صاحبنا واحداً من الذين أخذوا أنفسهم بهذا المنهج ، وعرف قدره وأهميته ، خصوصا عند بحث الروايات والأخبار ، التى اطلع عليها فوجد معظمها يدخل تحت الأوهام والخرافات والأكاذيب المصنوعة ، فلم يجد بدأ من التحرى والتحقيق والموازنة .

أما الروايات التى تستند إلى واقع تاريخى ، أو تقف على أرض ثابتة ، أو يشهد لها القرآن الكريم أو الحديث الشريف بالوقوع فقد اطمأن إليها ، واستشهد بها فى كتابته مثل أخبار الأنبياء والرسل ، وقصة أهل الكهف ، وقصة أصحاب الأخدود ، وقصص العرب فى أيامهم المشهورة التى تتضارب فيها الروايات .

فهو يطمأن إلى خبر سد يأجوج ومأجوج ، ويسلم بأصل هذا الخبر اعتماداً على ما جاء فى القرآن الكريم أما التفاصيل والأخبار التى جاءت حول هذا السد مما لم يذكره القرآن فإنه لم يسلم به ، وإنما جمع كل ما قيل فيه دون أن يقطع بصحته ، وهذا نص عبارته التى اختتم بها حديثه عن هذا الموضوع قال :

(١)« وقد كتبت من خبر السد ما وجدته فى الكتب ، ولست أقطع بصحة ما أوردته لاختلاف الروايات فيه ، والله أعلم بصحته ، وعلى كل حال فليس فى صحة أمر السد ريب ، وقد جاء ذكره فى الكتاب العزيز » .

---

(١) معجم البلدان حـ٣ ص ٢٠٠

وهناك نوع آخر من الروايات أبدى صاحبنا تحفظه بالنسبة لها ، وذكر أنه لا يؤمن بها ، ولا يصدقها ، ولكنه ذكرها فى كتبه ، لأنه وجدها فى مؤلفات الثقات السابقين ، ونبه على خطئها تارة ، وتبرأ منها تارة أخرى قال :

[1]« لقد ذكرت أشياء تأباها العقول ، وتنفر عنها طباع من له محصول لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ... ويقول: وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرىء إلى قارئها من صحتها » .

وأشار إلى سبب ذكره لها فى كتابه «معجم البلدان» مع أنه لا يؤمن بها ولا يصدقها قال :

[2]« لأننى كتبتها حرصا على إحراز الفوائد ، وطلبا لتحصيل القلائد منها والفوائد ، فإن كانت حقا فقد أخذنا منها بنصيب المصيب ، وإن كانت باطلا فلها فى الحق شرك ونصيب ، لأننى نقلتها كما وجدتها فأنا صادق فى إيرادها كما أوردتها ، لتعرف ما قيل فى ذلك حقا كان أو باطلا » .

ولقد أبدى ياقوت شكه وريبه أمام هذه الروايات والأخبار التى يسمعها أو يقرؤها ، ولا يتوانى فى تقريره ذلك وإثباته حتى يخلص من تبعته ، ففى كتابته عن الذرائح « موضع بين كاظمه والبحرين » يقول : [3] « أظنه مرتجلا » ثم يقول عن بيان هذا الموضع بعد أن ذكر شعراً للمثقب العبدى .

---

(١) المرجع السابق حـ ١ صـ ١٢

(٢) المرجع السابق حـ ١ صـ ١٢

(٣) معجم البلدان حـ ٣ صـ ٤

(١)« هكذا وجدته وأنا شاك فيه » .

ولم يكن شكه فى الروايات والأخبار على درجه واحدة ، فهو أحياناً يذكر الرواية ويكتفى بقوله فى نهايتها : « والله أعلم بصحة ذلك » ، وعندما يقوى الشك عنده لا يكتفى بهذه العبارة ، وإنما يلجأ إلى معارضة الروايات بعضها ببعض ، ويبدى فيها رأيه بما إنتهى إليه يقينه ، إستناداً إلى منهجه العقلى ، ومعرفته الكبيرة بمحصول العرب وغيرهم من هـــذه الروايات والأخبار ولتحقيق ذلك إتبع هذه الخطوات :

١ — يورد الخبر ثم يصححه(٢) . ففى كتابته عن الأحقاف ، وهى واد بين عمان وأرض مهرة ينقل عن كتاب العين أن: (٣)« الأحقاف جبل محيط بالدنيا ، من زبرجدة خضراء تلهب يوم القيامة ، فيحشر الناس عليه من كل أفق » ، ولكنه لا يرضى عن الخبر ولا يسلم بما جاء به ، فيسعى إلى تصحيحه وبيان وجه الحق فيه يقول :

(٤)« والصحيح ما روينا عن ابن عباس وابن إسحاق وقتادة أنها رمال بأرض اليمن ، كانت عاد تنزلها » .

ولا يكتفى بهذا التصحيح ، بل يورد ما يدعم قوله ورأيه يقول فى الموضع نفسه :

---

(١) المرجع السابق حـ٣ ص٥

(٢) انظر مجـــلة الثقافة السنة السابعة العدد ٣٦٠ (مقال للأستاذ صلاح الدين المنجد) .

(٣) معجم البلدان حـ١ ص١١٥

(٤) المرجع السابق حـ١ ص١١٥

(١) ويشهد بصحة ذلك مارواه أبو المنذر هشام بن محمد ، عن أبي يحيى، السجستاني عن مرة بن عمر الأبلي عن الأصبغ بن نباتة، قال: إنا لجلوس عند علي بن أبي طالب ذات يوم في خلافة أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، إذ أقبل رجل من حضر موت . . . ، ويذكر الروايه ، ولا يقلق من طولها مادامت تخدم غرضه في تصحيح الأخبار والروايات .

وهو ينقد الروايات ويصححها صارفاً نظره عن موضوعها ، فعندما يكتب عن موضع ويدرك بفطانته اضطراباً في أنساب أهله لا يفوته أن يمحص ما أمامه من أخبار ففي كتابته عن درب حنظلة بالري يذكر عن عبد الرحمن بن أبي حاتم قوله :

(٢) « قال أبي : نحن من موالي تميم بن حنظلة بن غطفان ، ولكنا صاحبنا لا يسلم بهذا فيعقب عليه قائلا :(٣) « وهذا وهم ، ولعله أراد حنظلة بن تميم وأما غطفان فإنه لا شك في أنه غلط لأن حنظلة هو حنظلة بن مالك بن زيد مناه ابن تميم وليس في ولده من اسمه تميم ولا في ولد غطفان بن سعد ابن قيس بن عيلان من اسمه تميم بن حنظلة ألبتة على ما أجمع عليه النسابون . . »

٢ — يذكر الأخبار وينبه إلى بطلانها ، ويذكر أنه قد أوردها لأن الناس يتشوقون إلى سماع وقراءة الأخبار الخارجة عن المألوف .

ففي كتابته عن الإسكندرية ينقل عن أهل السير: أن الاسكندر فليفوس الرومي قتل كثيراً من الملوك وقهرهم ، ووطىء البلدان إلى أقصى الصين

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١١٥

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣١١

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٣١١

وبنى السد وفعل الأفاعيل ، ومات وعمرة اثنتان وثلاثون سنة وسبعة أشهر لم يسترح فى شىء منها ولكن صاحبنا لا يسلم بما جاء فى هذا الخبر ، ويرى أنه عجيب مفارق للعادات ، ولا يتوافق مع العقل ، ولم يجد بعد ذلك إلا فعل الظن يبدأ به رده وتعقيبه على هذه الرواية ، حتى يكون فى الوقت نفسه تعبيراً عن الشك الذى اتخذه ميزاناً أو معياراً ينظر إلى الروايات من خلاله يقول :

(١) « والذى أظنه والله أعلم، أن مدة ملكه أو حدة سعده هذا المقدار، ولم يحسب العلماء غير ذلك من عمره ، فإن تطواف الأرض بسير الجنود مع ثقل حركاتها لاحتياجها فى كل منزل إلى تحصيل الأقوات والعلوفة ومصابرة من يمتنع عليه من أصحاب الحصون يفتقر إلى زمان غير زمان السير ، ومن المحال أن تكون له همة يقاوم بها الملوك العظماء ، وعمره دون عشرين سنة ، وإلى أن يتسق ملكه ويجتمع له الجند وتثبت له هيبة فى النفوس، وتحصل له رياسة وتجربة وعقل يقبل الحكمة التى تحكى عنه يفتقر إلى مدة أخرى مديدة ، ففى أى زمان كان سيره فى البلاد وملكه لها ثم أحداثه ما أحدث من المدن فى كل قطر منها واستخلافه الخلفاء عليها ؟ »

وهذا خبر آخر أشار إليه فى حديثه عن الأحص «موضع بحلب» قال :

(٢) « وينسب إلى أحص حلب شاعر يعرف بالناشى الأحصى ، كان فى أيام سيف الدولة أبى الحسن على بن حمدان ، له خبر ظريف أنا مورده هنا ، وإن لم أكن على ثقة منه . هو أن هذا الرجل الشاعر الأحصى دخل على سيف الدولة فأنشده له قصيدة فيه فاعتذر سيف الدولة بضيق اليد

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٨٢

(٢) معجم البلدان ج ١ ص ١١٤

يومئذ، وقال له : أعذر فما يتأخر عنا حمل المال إلينا، فإذا بلغك ذلك فأتنا لنضاعف جائزتك . . . فخرج من عنده، فوجد على بابه كلاباً تذبح لها السخال وتطعم لحومها . . . فعاد إليه وأنشده هذه الأبيات :

رأيت بباب داركم كلابا
تغذيها وتطعمها السخالا

فما فى الأرض أدبر من أديب
يكون الكلب أحسن منه حالا

ثم اتفق أن حمل إلى سيف الدولة أموال من بعض الجهات على بغال، فضاع منها بغل بما عليه، وهو عشرة آلاف دينار، وجاء هذا البغل حتى وقف على باب الناشى الشاعر بالأحصى فسمع حسه فظنه لصاً فخرج إليه بالسلاح، فوجده بغلا موقراً بالمال، فأخذ ماعليه من المال وأطلقه، ثم دخل حلب، ودخل على سيف الدولة وأنشده قصيدة له يقول فيها :

ومن ظن أن الرزق يأتى بحيلة
فقد كذبته نفسه وهو آثم

يفوت الغنى من لاينام عن السرى
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

فقال له سيف الدولة : بحياتى ! وصل إليك المال الذى على البغل ؟ فقال: نعم . فقال خذه بجائزتك مباركا لك فيه .

٣ — لايقطع بصحة الخبر حتى يسأل أكثر من واحد، ففى كتابته عن « أذرح »، وهو اسم بلد فى أطراف الشام من أعمال السراة، يذكر خبراً عن ابن الوضاح يفيد بأن هذا الموضع من فلسطين فينبرى ياقوت لنقد هذا فيذكر فى البداية أنه غلط، ويذكر صوابه، ويؤكد كلامه بالنقل عن كتاب والأخذ عن راو، ثم يسأل أكثر من واحد من أهل تلك الناحية يقول

(١) « قال ابن الوضاح : هي من فلسطين ، وهو غلط منه ، وإنما هي في قبلي فلسطين من ناحية الشراة ، وفي كتاب مسلم بن الحجاج : بين أذرح والجرباء ثلاثة أيام .

وحدثني الأمير شرف الدين يعقوب بن الحسن الهذباني قال : رأيت أذرح والجرباء غير مرة ، وبينهما ميل واحد وأقل ، لأن الواقف في هذه ، ينظر هذه ، واستدعى رجلا من أهل تلك الناحية ونحن بدمشق ، واستشهده على صحة ذلك ، فشهد به ؛ ثم لقيت أنا غير واحد من أهل تلك الناحية وسألتهم عن ذلك ، فكل قال مثل قوله » .

٤ — يورد الرواية ثم لايقنع بها إذا كانت لها أخت تتعلق بها ، وعند ذلك ينقد مالديه من روايات ويوازن بينهما فيوثق رواية ويضعف أخرى حين تؤيد الأولى حقيقة تاريخية أو دليل موثوق به ، ففي ترجمته لإبراهيم ابن ممشاذ المتوكلي يذكر روايتين الأولى تقول : إنه تسخط صحبة أولاد المتوكل فتركب ولحق بيعقوب بن الليث ، وتقول الثانية : إنه أنفذ في أيام المعتمد رسولا عنه وعن الموفق إلى يعقوب بن الليث ، وبعد أن يذكر تفصيل الروايتين يختار الأولى منهما استناداً إلى شعر قاله ابن ممشاذ يفتخر فيه بنفسه كأعجمي . وينقم على الخلفاء العباسيين :

وعند ضبط المواضع يذكر اختلاف الروايات في الضبط ، وإذا ورد حديث بروايتين مختلفتين نبه إليهما ليقف عليهما القارىء ، ومهما كثرت الروايات عنده فلا يختار إلا الصحيح منها رافضا كل زيف أو باطل يقول في « فدك »(٢)

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٢٩

(٢) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة ، أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحا انظر معجم البلدان ج ٤ ص ٢٣٨

(١) « وفى فدك اختلاف كثير فى أمره بعد النبى ﷺ وأبى بكر وآل رسول الله ﷺ ، ومن رواة خبرها من رواه بحسب الأهواء وشدة المراء، وأصح ماورد عندى فى ذلك ماذكره أحمد بن جابر البلاذرى فى كتاب الفتوح له . . . » ويذكر رواية البلاذرى التى رضى عنها .

٥ — يذكر ياقوت بعض الأخبار ، ويذكر من قالها ليخلص من تبعتها ويصرف القارىء إلى مصدرها الأول ، وهو يحدد أحياناً المؤرخين بأسمائهم فتجده يقول قال الأصطخرى، أو قال أبو عبيد ، أو السمعانى أو أبو منصور الثعالبى أو التنوخى ، ويذكر كتبهم قائلا : وقرأت فى كتاب العين أو قرأت فى كتاب أنساب المواضع لابن الكلبى أو ذكره محمد بن إسحاق النديم فى كتاب الفهرست :

وفى كتابته عند مدينة « رومية » يذكر كثيراً من أخبارها ثم يقول:

(٢) « وجميع ماذكرته ههنا من صفة هذه المدينة هو من كتاب أحمد بن محمد الهمذانى المعروف بابن الفقيه . . . » .

٦ — يذكر الأخبار والروايات ثم ينبه إلى استحالتها ويتبرىء منها تماماً أو يصفها بالكذب والافتعال والتزوير أو أنه نقلها من كتب المنجمين وهى ليست من صناعته ، ولا تعبر عن رأيه ، فعندما يكتب عن « اتل » وهو نهر عظيم فى بلاد الخزر ينقل عن رسالة لأحمد بن فضلان بن راشد ابن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة ، وهم بلغار ذكر فيها أنه رأى رجلا طوله أثنا عشر ذراعا رأسه كأكبر ما يكون من القدور ، وأنفه أكبر من شبر ، وعيناه عظيمتان وأصابعه كل واحد شبر

---

(١) معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٣٩

(٢) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٠٣

فلما سأل عنه أخبروه أنه رجل من يأجوج ومأجوج ، وأن هؤلاء قوم كالبهائم الهاملة عراة حفاة يخرج الله تعالى لهم فى كل يوم سمكة من البحر فيجيء الواحد بمدية فيجتز منها بقدر كفايته و كفاية عياله ، فإن أخذ فوق ذلك ، اشتكى بطنه هو وعياله، وربما مات، وماتوا بأسرهم ، فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت وعادت إلى البحر، وهم على ذلك، ثم يعقب ياقوت على هذه الأخبار قائلا :

«(١) هذا وأمثاله هو الذى قدمت البراءة منه ، ولم أضمن صحته» .

ولقد نقل ياقوت فى معجم البلدان أجزاء كثيرة من رسالة ابن فضلان(٢) التى استقى منها هذه الأخبار السابقة وكان ينقد كل جزء يستشهد به ففى كتابته عن «باشغرد» بلاد بين القسطنطينية وبلغار» ينقل عن هذه الرسالة جزءا يصف أهل تلك البلاد ، ويصور عاداتهم ونظام عباداتهم ، ولكنه لم يتبرىء من كلام ابن فضلان هذه المرة لأنه وجد بمدينة حلب طائفة كثيرة من أهل تلك البلاد فسأل واحداً منهم عن بلادهم وأحوالهم واستمع ياقوت إليه ، ورأى أن ما قاله لا يتناقض مع ما ذكره ابن فضلان إلا أن ابن فضلان يميل إلى المبالغة وتصوير الأشياء والمواقف أكثر مما تحتمل .

وينقل عن ابن فضلان أيضاً عندما كتب فى معجم البلدان عن بلغار

---

(١) معجم البلدان جـ١ صـ ٨٨

(٢) تم العثور على مخطوطة فى مدينة مشهد الإيرانية عام ١٩٢٤ م تشتمل على أربع رسائل ،منها رسالة ابن فضلان . راجع الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى صـ١١٦ ، ١١٧ للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

وخزر وروس ، ولم ينكر شيئاً مما نقله ، غير أنه وصف أجزاء من هذه الرسالة بالكذب عندما استشهد بها فى كتابته عن خوارزم .

والحقيقة أن ياقوتا كان صادقا وموضوعيا فى نقده لهذا الجزء الذي استشهد به مما رواه ابن فضلان حول خوارزم . ينقد جزءاً فيقول عنه « وهذا أيضاً كذب » .

وينقد جزءاً آخر فيقول : « وهذا من رسمهم صحيح » .

ولقد سكت عند نقد بعض الأجزاء من الرسالة لأنه لا يملك الدليل ، أو سكت عنها رضا وقبولا ، ونقد أجزاء أخرى تحدثت عن مواضع وأمكنة زارها أو أقام فيها فعرفها معرفة حقيقية فكان حكمه مطابقا للواقع مدعما بالأدلة . وفى غير هـــذه الرسالة — نرى صاحبنا ينقل كثيراً من القصص الخرافية التى تبرأ منها أيضاً ولـكنه حكاها فى كتابه لورودها فى كتب الرواة الثقات .

ففي كتابته عن الفرات يروى قصة الرمانةالتى ألقاها هذا النهر وقطعت الجسر من عظمها ثم اقتسمها المسلمون فيما بينهم ، وكانوا يرونها من الجنة ويذكر أن هذا باطل لأن فواكه الجنة لم توجد فى الدنيا . يقول :

«(١) ولو لم أر هذا الخبر فى عدة مواضع من كتب العلماء ما استجزت كتابته» وينقل كثيراً من هذه الأخبار التي يتبرأ منها كثيراً فى كتابته عن بغداد ، وروميه والرقيم ، ومدينة النحاس ، والفيل وغيرها كثير .

ولقد ضمت مؤلفات ياقوت عدداً غير قليل من هذه الحكايات الخرافية والقصص الأسطورية التى كان يذكرها ثم يحدد موقفه منها ، وأنا أرى أن هذه الروايات ذا قيمة أدبية عظيمة ، فهى تطلعنا على روح العصر وذوقه ، وتبصرنا بماهية الفكر وطبيعة النقد من خلال الحكم عليها قبولا ورفضا .

---

(١) معجم البلدان ج٤ ص٢٤٢

ولا زالت الأساطير حتى الآن مصدراً ثريا للأدب شعره ونثره، ولقد عاش صاحبنا كثيراً فى البلاد الفارسية ، وتمكن من مطالعة الكثير من هذه الحكايات التى كانت فى البداية نزعة إيرانية ، إنتقلت إلى الأذهان العربية مع حركة الترجمة النشطة فى القرن الثانى من الهجرة .

ثانياً : نقده للرواة :

المقصود بالرواة هم هؤلاء النفر الذين يحفظون الأشعار والأخبار ويروونها للناس ، ونقد ياقوت للرواة امتداد لنقده للروايات ، لأن الحكم على الرواية أيا كان هذا الحكم يستند غالبا على شخص الراوى قبل أى شىء آخر .

والمعروف أن التدوين الحقيقى للأشعار والأخبار قد بدأ مع القرن الثانى الهجرى بفضل مجموعة من الرواة تنافسوا فيما بينهم صدقا وأمانة ودقة ، ثم ازدادت حركة الكتابة والنسخ نشاطا ورواجا فى العصر العباسى فكان ذلك على حساب نشاط الرواة ، فمع هذا النشاط فى التدوين لم تقض الكتابة قضاء كليا على الرواية الشفوية بعد ذلك ، فنقرأ فى مؤلفات ياقوت التى قدمها للناس فى بداية القرن السابع الهجرى نقرأ قوله : أنشدنى فلان ، أو حدثنى فلان ، أو استمعت إلى فلان ، وهكذا .

ولا بد أن نجد رواية الأشعار والأخبار بابا مفتوحا لنا فى مؤلفاته ، لأنه ارتحل إلى أماكن كثيرة والتقى بالعديد من الرجال المعاصرين له الذين لم تتح لهم الفرصة لأن يدونوا على الورق ما حفظوه فى أوعية

---

(١) راجع « الأدب المقارن » للدكتور محمد غنيمى هلال طبعة دار نهضة مصر ص ٢٤٧

صدورهم ، فلقد ترجم مثلا لعشرات من الشعراء الذين لم يتمكنوا من جمع قريضهم فى ديوان أو كتاب ، وذهب هؤلاء الناس وذهب شعرهم إلا النماذج التى رواها ياقوت وغيره ، وأودعوها بطون مؤلفاتهم .

ولقد اقتصر نقد صاحبنا غالبا للرواة المعاصرين له ، إذ أتاحت المعاصرة له أن يعرفهم عن كثب ، وينقدهم عن بصيرة ويقين . وفى مقدمة معجم البلدان يرى أن نقلة الأخبار وأعيان رواة الأشعار محتاجون إلى معرفة الضبط الصحيح للبقاع والأمكنة ومن رأيه أن الراوى لابد أن تتوفر فيه عدة صفات بانتقاصها كلها أو بعض منها لا يكون بذلك أهلا للرواية أو محلا للثقة .

١ — أن يكون صادقا فيما يرويه فى مقدمة معجم البلدان يضع مقياسا لأهل الصدق من الرواة فيقول :

«(١) وإنما يسمى كذابا إذا وضع حديثا ، أو حدث عمن لم يرو عنه، فأما من يروى ما سمع كما سمع ، فهو من الصادقين ، والعهدة على من رواه عنه».

ولقد تبرأ ياقوت كثيراً من الروايات التى تنقل إليه عن أبى دلف مسعر بن المهلهل الشاعر لأنه من وجهة نظره كان يحكى عنه الشريد والكذب.

٢ — أن يكون الرواة أهلا للثقة بحيث لا يرون الأخبار بحسب الأهواء وشدة المراء ، وعليهم أن ينشدوا الحقيقة أولا وأخيراً ، وأمام أهل الثقة من الرواة نجد صاحبنا يقول : حدثنى من أثق به ، وفى حديثه عن شبام من أهل اليمن يقول :

«(٢) وحدثنى بعض من يوثق بروايته من أهل شبام أن فى اليمن أربعة مواضع اسمها شبام» ثم يذكرها مفصلة .

---

(١) معجم البلدان جـ ١ صـ ١٣

(٢) المرجع السابق جـ ٣ صـ ٣١٨

وفى ترجمته لمحمد بن أحمد الدقاق المعروف بابن الخاضبه يروى خبراً عنه عن طريق أبى سعد السمعانى ثم يقول :

«(١) وهذه حكاية على ما يرى من الاستحالة ، وقد أوردتها أنا لثقة موردها وتحريه فى الرواية ، فإن صحت فقد فزت بحظ من العجب وإلا فاجعلها كالسمر تستمع به » .

٣ — يفضل ياقوت أن يكون الرواة من أهل الموضع الذى يكتب عنه أوعلى صلة وثيقة بمن يترجم لهم من الرجال ، فعندما يكتب عن أسعد بن مهذب بماتى ناظر الدواوين بالديار المصرية يعتمد على القفطى للصلة الوثيقة التى ربطت بين الرجلين .

وفى ترجمة القاسم بن الحسين الخوارزمى لا يعتمد على كتاب ينقل عنه وإنما التقى بالمترجم له ليأخذ منه قال :

«(٢) سألته عن مولده فقال : مولدى فى الليلة التاسعة من شعبان سنة خمس وخمسين ، ثم يقول :

«(٣) رأيته شيخا ، بهى المنظر ، حسن الشيبة ، كبيرها ، سمينا بدينا عاجزاً عن الحركة وكان له فى حلقه حوصلة كبيرة ، وقلت له : ما مذهبك ، فقال : حنفى ولكن لست خوارزميا لست خوارزميا يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى فارى رأى أهلها نفى عن نفسه أن يكون معتزليا رحمه الله ، ومثل هذا الرجل كثير .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٧ ص ٢٣٠
(٢) المرجع السابق جـ ١٦ ص ٢٣٨
(٣) المرجع السابق جـ ١٦ ص ٢٣٩

ويوصى صاحبنا بعدم الإسراف فى مدح الرواة أو التعصب لواحد منهم على حساب الآخر ، وينبغى أن يكون التفضيل بينهم على أساس الصدق والثقة ، ففى ترجمته لأبى عمرو إسحاق الشيبانى ينقل عبارة عن ثعلب يتعصب فيها لأبى عمرو الشيبانى على حساب أبى عبيدة يقول :

(١) « قال ثعلب : وكان مع عمرو الشيبانى من العلم والسماع ، عشرة أضعاف ما كان مع أبى عبيدة ، ولم يكن فى أهل البصرة مثل أبى عبيدة فى السماع والعلم » ويرى ياقوت أن هذه العبارة فيها إسراف ومغالطة فيعقب عليها قائلا :

(٢) « ولقد أسرف ثعلب فيما فضل به أبا عمرو ، فإنى لا أقول : إن الله خلق رجلا كان أوسع رواية وعلماً من أبى عبيدة فى زمانه ، فلن يسرف مثله ويفضل أبا عبيدة تعصباً له وردآ على ثعلب » ، وهكذا لم يشأ صاحبنا أن يترك هذه العبارة تمر دون أن يذكر رأيه فيها إنصافاً لمن سبقوه من الرواة .

ثالثاً : نقد الكتب والمؤلفات :

يقصد بنقد الكتب عند ياقوت الحكم على ما جاء بها من أخبار وقضايا ، أو إبداء الرأى فى الكتاب جملة واحدة من حيث الفائدة وتأدية الغرض فى الموضوع الذى يدور حوله ، وتحقيق نسبته إلى صاحبه .

ولقد شغلت سرقة المؤلفات أذهان الكتاب والنقدة فى عصره حتى أن القراء شاركوا المؤلفين فى توجيه التهم إلى كل من اشتغل بالكتابة فلم يسلم منهم إلا القليل .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٨٢

(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص ٨٢

ذكر ياقوت فى ترجمة الحريرى أن من يثق به قد أخبره أن الحريرى قد اتهم بسرقة أربعين مقامة ، ولم يسلم من التهمة إلا بعد أن عمل عشر مقامات وأضافها إلى تلك فحينئذ بان فضله ، وعلموا أنها من عمله .

ولقد ساعد الوراقون والنساخ على رواج هذه القضية فليس من الصعب على واحد منهم أن يرفع اسم المؤلف من فوق كتابه ويلحقه بآخر ، فيشتهر الكتاب بالاسم المنتحل لا بالاسم الحقيقى لصاحبه ، ولقد أشار صاحبنا إلى هذه المسألة فى مقدمة معجم الأدباء ، كما قدم فى مؤلفاته العديد من الكتب وعرف الناس بها ولازال أهل الأدب يتعلقون بما قاله ياقوت عما ضاع من تراث العرب القديم ، والآن نعرض لأهم المسائل التى تكشف عن نقده للكتب والمؤلفات .

١ — سرقة المؤلفات من أصحابها والحاقها بآخرين :

ولقد كتب ياقوت كثيراً حول هذه المسألة لشدة صلته بالكتب قارئاً ومؤلفاً وناسخاً ومتاجراً ، ولما تهيأت له هذه الأمور كان جديراً به أن يكتب عن سرقة المؤلفات كاملة أو سرقة أجزاء منها أو إحداث تغيير طفيف بها لتنسب إلى غير مؤلفيها الحقيقيين .

ففى مقدمة معجم البلدان حمل حملة شديدة على أبى بكر محمد بن موسى الحازمى ، لأنه اختلس كتاباً فيما ائتلف واختلف من أسماء البقاع لأبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندرى النحوى واستجهل الرواة فرواه وادعاه لنفسه .

ويذكر ياقوت أنه كان يجل الحازمى ويرفع قدره قبل أن يعرف فعلته التى ارتكبها فلما علم بها سقط الحازمى من عينه ، ويقرر أن كل ما نقله عن نصر الاسكندرى قد نسبه إليه وترحم عليه ، قال :

(١) « ثم وقفني صديقنا الحافظ الإمام أبو عبد الله محمد بن محمود النجار، جزاه الله خيراً على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهاني، من كتاب ألفه أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري النحوي، فيما ائتلف واختلف من أسماء البقاع، فوجدته تأليف رجل ضابط قد أنفذ في تحصيله عمراً وأحسن فيه عيناً وأثراً، ووجدت الحازمي، رحمه الله، قد اختلسه وادعاه، واستجهل الرواة فرواه ولقد كنت عند وقوفي على كتابه أرفع قدره من علمه، وأرى أن مرماه يقصر عن سهمه، إلى أن كشف الله عن خبيئته، وتمحض المحض عن زبدته، فأما أنا فكل مانقلته من كتاب نصر، فقد نسبته إليه وأحلته عليه، ولم أضع نصبه ولا أخملت ذكره وتعبه. والله يثيبه ويرحمه »(٢).

وذكر ياقوت في مقدمة معجم الأدباء أنه خشي على هذا الكتاب من السرقة فلم يسمح بإعارته لجماعة من أهل عصره مادام في مسودته اقتداء بمحمد بن عبد الملك التاريخي صاحب كتاب « أخبار النحويين » الذي لم يعر كتابه إلا لرجل واحد يثق فيه وهو أبو الحسين محمد بن عبد الرحمن الروزباري الكاتب يقول:

(٣) « فحينئذ خففت عن نفسي هـذا اللوم إذ كان التأسي من أخلاق القوم، وعلمت أن النفوس بخيلة بالنفائس شحيحة بإبراز العرائس ».

ولا شك في أن صاحبنا كان خائفاً على كتابه من السرقة، وهو يخشى

---

(١) معجم البلدان جـ١ صـ١١١

(٢) المحض: اللبن الخالص الذي لم يخالطه الماء حلواً كان أو حامضاً. وتمحض: تخلص وتصفى.

(٣) معجم الأدباء جـ١ صـ٦٢

إن أعاره لسواه أن تتسرب بعض أجزائه إلى من عداه ، فينسبه إلى نفسه ، ويضيع على ياقوت ما بذل من وقت وجهد ، وهو يحدد هذا المعنى قائلا :

(١) « وقد أقسمت ألا أسمح بإعارته ، مادام في مسودته ، لئلا يلح طالب بالتماسه ولا يكلفني إبرازه من كناسه (٢) فحملهم منعي على احتذائه وتصنيف شرواه (٣) في استوائه ، وما أظنهم يشقون غباره ، ويحسنون ترتيبه وإسطاره » (٤) .

ولقد طبق صاحبنا المبادىء التي يدعو إليها على نفسه فأوصى الكتاب بعدم نقل شيء من كتاب لآخر دون الإشارة إلى ذلك ، وهذا منهج علمي سليم في الكتابة والتأليف ، فهو يقول في معجم الأدباء :

(٥) « وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم والمرجوع في صحة النقل إليهم » .

وفي ترجمة الحسن بن علي الإسكافي ذكر ياقوت أن شيخه فخر الدين عبد الرحيم ابن تاج الإسلام أبي سعد السمعاني عرض عليه مجموعة من الرسائل للحسن القطان إلى الرشيد الوطواط يلزمه فيها الحجة في أنه نهب كتبه وسلبه نتيجة عمره ، ويستحسب الله عليه ، ثم تابع ياقوت هذه التهمة ، ولم تهدأ نفسه إلا بعد أن اطلع على مجموعة من رسائل الوطواط إلى القطان ، وفهم منها براءة الوطواط مما اتهم به .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص٦٢

(٢) الكناس : بيت الظبي .

(٣) شرواه : مثله

(٤) الأسطار : ما يكتب ويسطر .

(٥) معجم الأدباء جـ١ ص٤٩

٢ — التعصب وعدم نشدان الحقيقة :

يدعو ياقوت المؤلفين إلى تحرى العدالة فى أحكامهم ، وعدم التهجم على شخص بدون حق ، وأن تكون الموازنة بين الرجال مطابقة للواقع مقررة للحقيقة التى لا ينبغى إغفالها لسبب ما . فى حديثه عن أبى القاسم الآمدى ، يذكر مؤلفاته . ومنها كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، ويشيد بهذا الكتاب ، ويرغب فيه ثم يسعى لنقده ، واصفاً الآمدى بالميل مع البحترى والتعصب على أبى تمام ، ويضرب مثالا لذلك قائلا :(١) « ولأبى القاسم تصانيف كثيرة جيدة مرغوب فيها ، منها « كتاب الموازنة بين البحترى وأبى تمام فى عشرة أجزاء(٢) ، وهو كتاب حسن ، وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه ، ونسب إليه الميل مع البحترى فيما أورده ، والتعصب على أبى تمام فيما ذكره ، والناس بعد على فريقين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحترى وغلبة حبهم لشعره . وطائفة أسرفت فى التقبيح لتعصبه ، فإنه جد

---

(١) معجم الأدباء جـ١ ص ٨٧

(٢) الكتاب مطبوع للمرة الثانية بمطبعة السعادة عام ١٩٥٤ ، نشر المكتبة التجارية وتحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد فى جزء واحد ، وعنوان الكتاب يذكر أبا تمام قبل البحترى أى « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » وياقوت يذكر أن الكتاب فى عشرة أجزاء ولكن يبدو أنه جعل كل عدد من الصفحات جزءاً ، أو جعله فى فصول وقال : إنها أجزاء ، وإن كان الكتاب لم يصل كاملا كما ذكره الدكتور محمد مندور فى كتابه « النقد المنهجى عند العرب » ، قائلا : إنه عثر على مخطوطات من الكتاب لم تطبع ، وقال : إن الآمدى ذكر بعض الرسائل فى المقدمة لم يشتمل عليها ما طبع من الكتاب .

واجتهد فى طمس محاسن أبى تمام ، وتزيين مرزول البحترى ولعمرى إن الأمر كذلك ، وحسبك أنه بلغ فى كتابه إلى قول أبى تمام .

أصم بك الناعى وإن كان أسمعا

وشرع فى إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر، فتارة يقول : هو مسروق ، وتارة يقول : هو مرزول ، ولا يحتاج المتعصب إلى أكثر من ذلك إلى غير ذلك من تعصباته ، ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله لكان فى محاسن البحترى كفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام »(١) .

ولقد صنف الآمدى هذا الكتاب للموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وجعل من نفسه حكما عادلا بينهما ، فهو يوازن بين الرجلين من حيث العيوب والمساوىء ، وهو يؤثر الشعر المطبوع على الشعر المصنوع وحكم بأن لشعر البحترى ديباجة ولا ديباجة لشعر أبى تمام، والحقيقة أن المناظرة التى بدأ بها الآمدى كتابه وهى بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى تكشف عن ميل الآمدى إلى البحترى فهو معجب بشعره كاره لصنعة أبى تمام ، ومع ميل الآمدى للبحترى كان منصفا لأبى تمام حيث سوى بينه وبين البحترى فى كثير من الأخطاء ، كما دافع عن أبى تمام فى كثير من المواقف التى أخذها عليه النقاد .

وآراء ياقوت فى هذه المسألة تكشف عن حسن اطلاعه وقراءته الواعية ولقد كان على صواب عندما أبان عن ميل الآمدى لشعر البحترى ، وهذا — من وجهة نظرى — حق من حقوق البحترى فى أن يميل ويعجب

---

(١) أى الحط من قيمته

بنوع من الشعر ، ولكن ياقوتا كان قاسيا عنيفا في حكمه على الآمدى بعدم المصفة .

٣ — الالتزام بالمنهج وعدم التخبط .

مع إعجاب صاحبنا بكتاب الأغاني وإشادته بأبي الفرج إلا أنه لاحظ أن الكتاب يعد بأشياء ولا يفي بها ، ويذكر أن بعض المسائل قد تقدم ذكرها ، ولم يتقدم شيء ورأى أن هذا التخبط والاضطراب مما تعاب به المؤلفات كتب ياقوت عن الكتاب يقول .

«[١] لعمرى إن هذا الكتاب لجليل القدر شائع الذكر، جم الفوائد، عظيم العلم جامع بين الجد البحت والهزل النحت[٢]. وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به ، وطالعته مراراً وكتبت منه نسخة بخطي في عشر مجلدات ، ونقلت منه إلى كتابي الموسوم بأخبار الشعراء فأكثرت، وجمعت تراجمه فوجدته يعد بشيء ولا يفي به في غير موضع منه ، كقوله في أخبار أبي العتاهية ، وقد طالت أخباره ههنا وسنذكر خبره مع عتبه في موضع آخر،[٣] ولم يفعل .

وقال في موضع آخر : « أخبار أبي نواس مع جنان[٤] إذ كانت سائر

(١) معجم الأدباء حـ ١٣ ص ٩٨

(٢) النحت : الخالص ، ومثله ، البحت

(٣) تقول عبارة أبي الفرج ، ولم أذكر ههنا مع أخبار أبي العتاهية أخباره مع عتبة ، وهي من أعظم أخباره، لأنها طويلة وفيها أغان كثيرة، وقد طالت أخباره ههنا فافردتها ، الأغاني حـ ٣ ص ١٨٣ طبعة ليدن سنة ١٩٠٠ م

(٤) اسم جاريه من القيان ، والقيان جمع قينه وهي : الجارية المغنية

أخباره قد تقدمت ولم يتقدم شيء ، الى أشباه ذلك . والأصوات المائة هى تسع وتسعون وما أظن الا أن الكتاب قد سقط منه شيء ، أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم » .

ونلاحظ فى هذه الفقرة إعجاب ياقوت بهذا الكتاب حتى أنه التمس العذر لأبى الفرج فيما وقع فيه من تخبط ، وأرجعه إلى سقوط شيء من الكتاب أو غلبه النسيان عليه .

٤ — أغلاط التأليف :

والأغلاط التى لاحظها ياقوت فى المؤلفات التى أطلع عليها كثيرة جداً ، وهى تكشف بجلاء عن الصلة الوثيقة التى ربطت بينه وبين الكتاب فهو ناقد له بصير بما فيه ، يزن ما يطلع عليه كلمة كلمة ، يفهم ما يقرأ ، ويعى ما يقول ، يقـرأ فى كتاب الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم قوله عن المسعودى : إنه من أهل المغرب ، فيرى صاحبنا أن هذا خطأ ، والصواب أنه بغدادي الأصل ، مستندا إلى ما كتبه المسعودى عن نفسه فى السفر الثانى من كتابه « مروج الذهب » حيث ذكر مكان مولده ، وهو بابل ، ولكن ريب الأيام أنأت بينه وبين موطنه حيث انتقل إلى مصر وعاش بها ومات فيها .

وفى ترجمة الحسن بن الحسين السكرى ينقل عن « أمالى الحوزى »(١) ،

---

(١) الحوزى : بفتح المهملة وسكون الواو وكسر الزاى ، وبعدها ياء ، وهو : خميس بن على بن أحمد بن عـلى بن إبراهيم بن الحسن الواسطى الحوزى ، ومولده فى سنة سبع واربعين وأربعمائة ، وتوفى سنة عشر وخمسمائة ، وكان شاعرا أديبا محدثا .

بعضاً مما دار فى مجلس الفراء ببغداد من قضايا اللغة ، وبعد أن ذكر الخبر كما وجده أتبعه بالرد عليه قال(١) : «هكذا وجدت هذا الخبر فى أمالى الحوزى وهو ما علمت من الحفاظ ، الا أنه غلط فيه من وجوه ...» ويذكر هذه الوجوه موضع الخطأ مفصلة، ولولا طول الخبر والرد عليه لأثبته هنا(٢) .

ويرى صاحبنا أن من أغلاط التاليف أيضا : التحريف والاهمال فى أسماء البقاع . ولقد أبدى إعجابه الشديد بكتاب المقامات للحريرى ، وقد سبق أن نقلت عبارة له حول هذا الكتاب ، إلا أنه غضب أشد الغضب عندما قرأ كتابا يشرح هذه المقامات ، ووجد فيه أغلاطا لم يتحملها ، وهو يفتتح هذا الموضوع قائلا :

«(٣) ولقد صنف فى عصرنا هذا ، إمام ، من أهل الأدب ، جليل ، وشيخ يعتمد عليه ، ويرجع فى حـــل المشكلات إليه نبيل ، كتابا فى شرح المقامات ، التى أنشأها أبو محمد القاسم بن على بن محمد الحريرى ، فطبق مفصل الاصابة فى شرح أفانين ضروبها ، وغبر فى وجه كل من فرغ باله لإيضاح مشكلها وغريبها ، فإنه بهر العقول ، وأدهش الأذهان بمـا ذكره من أسرار بلاغتها ، وأظهره من مخزون براعتها ، وأوضحه

= والحوز التى ينسب إليها : قرية بازاء واسط من شرقيها الأعلى «واسط : بلد عراقى» ، راجع ترجمته فى معجم الأدباء حـ ١١ صـ ٨١ وما يليها ، ومعجم البلدان حـ ٢ صـ ٣١٨ ، وراجع ترجمته أيضا فى انباه الرواه ، وبغية الوعاة والوافى للصفدى

(١) معجم الأدباء جـ ٨ صـ ٦٩

(٢) وهو حول الخلاف فى تصغير كلمة «الهن» والأشعار التى جاءت فى ذلك والخلاف حول التقاء السكرى بأشياخه كأبى عبيده وغيره . راجع معجم الأدباء حـ ٨ صـ ٩٥

(٣) معجم البلدان حـ ١ صـ ٩

من مكنون معانيها . . . » ويستمر فى إبداء إعجابه وإشادته بهذا الشرح إلى أن يقول :

(١) « وسارت النسخ فى الآفاق سيرورة ذكاء فى الإشراق ، فلم يقدم مقدام متعنت ، ولاهجم مهاجم متبكت ، على مؤاخذته بشىء مما فيه ، ولا حدث محدث نفسه بحل عقد من مغازيه حتى ذكر أسماء الأماكن التى أسس عليها أبو محمد المقامات ، فانبت سلك در عقد لآليه (٢) وتداعى ما شيده فضله من مبانيه ، ثم يذكر أغلاطه فى تحديد المواضع والبقاع ويذكر معها تصويبها ، ويختتم نقده لهذا الكتاب بقوله :

(٣) « وقال فى التبريزية : تبريز بلدة من عواصم الشام ، بينها وبين منبج عشرون فرسخا ، وتبريز بلدة أشهر وأظهر من أن تخفى ، وهى اليوم قصبة نواحى أذربيجان ، وأجل مدنها ، وإلى غير ذلك من أغاليط غيره، فصار هذا الإمام ضحكة للبطالين ، وهزأة للساخرين ، ووجد الطاعن عليه سبيلا ، وإن كان مع كثرة إحسانه قليلا ، فلو كان له كتاب يرجع إليه ، وموئل يعتمد عليه خلص من هذه البلية نجيا ، وارتقى من الهبوط فى هذه الأهوية مكانا عليا » .

٥ — التعريف بالمؤلفات وبيان فوائدها وذكر أحجامها ، والكشف عن بعض عيوبها . ففى مقدمة ياقوت لمعجم الأدباء عرف بطائفة من كتب التراجم ، ونقد منها ما يحتاج إلى نقد ، ففى حديثه عن كتاب

(١) معجم البلدان حـ ١ ص ١٠

(٢) يلاحظ أن تتابع الاضافات سبب الثقل فى العبارة ، وهذا عيب فى كتابة ياقوت الانشائية سبق الحديث عنه ، ولا نجد شيئا من ذلك فى كتابة التأليف .

(٣) معجم البلدان حـ ١ ص ١٠

« المقتبس فى أخبار النحويين البصريين » لابن عمران المرزبانى قال : (١)
« ثم صنف فيه (٢) أبو عبيدالله محمد بن عمران المرزبانى كتابا حفيلا (٣)
كبيرا على عادته فى تصانيفه إلا أنه حشاه بما رووه وملأه بما وعوه فينبغى
أن يسمى مسند النحويين ، وقد وقفت على هذا الكتاب ، وهو تسعة عشر
مجلدا ونقلت فوائده إلى هذا الكتاب(٤)مع أنه أيضا قليل التراجم بالنسبة
إلى كبر حجمه » .

ولم يذكر ياقوت الاسم الحقيقى لهذا الكتاب فى « هذه الفقرة » لكنه
عندما ترجم فى معجمه للمرزبانى ذكر من مؤلفاته « المقتبس فى أخبار
النحويين البصريين » وليس هناك ما يمنع أن يكون هذا هو ذاك ، وإن
كان الأستاذ الفاضل محمد عبد الغنى حسن قد أوجد له اسما جديدا هو
« طبقات النحويين » (٥) مع العلم بأن هناك كتابا آخر مطبوعا يسمى
« طبقات النحويين واللغويين » لأبى بكر الزبيدى الأندلسى .

وقال ياقوت عن كتاب لابن فضال المجاشعى :

(٦) « ثم ألف فيه على بن فضال المجاشعى كتابا ، وسماه « شجرة الذهب
فى أخبار أهل الأدب » وقع إلى منه شىء فوجدته كثير التراجم ، إلا أنه
قليل الفائدة لكونه لا يعتنى بالأخبار ، ولا يعبأ بالوفيات والأعمار » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١ صـ ٤٧
(٢) أى الترجمة للأعلام.
(٣) الحفيل : الكثير والمبالغ فيما أخذ فيه .
(٤) يقصد معجم الأدباء .
(٥) انظر كتاب « علم التاريخ عند العرب » صـ ٢١٩
(٦) معجم الأدباء حـ ١ صـ ٤٨

ولا أعتقد أن صاحبنا تصفح كتابا ثم تركه دون أن يبدى فيه رأيا حتى ولو كانت مقولته كلمة اعجاب و تقدير .

٦ — المراجعة بعد التأليف :

يرى صاحبنا ضرورة مراجعة الكتاب بعد تأليفه، وتحسن أن تكون المراجعة عن طريق شخص آخر غير المؤلف لأن المتصفح لكتاب أبصر بما فيه من اضطراب أو خلل من مبتدىء تأليفه ، ويطلب من المتصفح لكتاب ألا يعتمد العنت ، ولا يقصد قصد من رأى حسنا ستره وعيبا أظهره ، ويوصى أيضا الناقد لكتاب أن يتأمله بعين الأنصاف لأن الكمال محال لغـــير ذى الجلال ، والمرؤ غير معصوم والنسيان فى الإنسان غير معدوم ، ويقول فى هذا الصدد .

(١) « فمن طلب عيبا وجد وجد ، ومن افتقد ذلل أخيه بعين الرضا فقد فقد ، فرحم الله أمرأ قهر هواه ، وأطاع الأنصاف ونواه » .

ولا شك فى أن هذه دعوة صادقة ومنهاج على سليم ، تنكشف فوائده تماما لمن يضطلعون بالتأليف والإبداع ، ولقد استشهد بكلمة قيمة لجعفر ابن يحي من خلال كلامه فى ذلك قال .

(٢) « وقد كتب جعفر بن يحي إلى بعض عماله — وقد وقف على سهو فى كتاب ورد منه — اتخذ كاتبا متصفحا لكتبك فان المؤلف تنازعه أمور وتعتوره (٣) خروق تشغل قلبه وتشعب (٤) فكره من كلام ينسقه ،

(١) المرجع السابق حـ ١ صـ ٥٦

(٢) المرجع السابق حـ ١ صـ ٥٦

(٣) تعتوره : تتناوبه وتتداوله

(٤) تشعب : تفرق .

وتأليف ينظمه ومعنى يتعلق به يشرحه،وحجة يوضحها،والمتصفح لكتاب أبصر بمواضع الخلل من مبتدىء تأليفه ».

٧ — حسن الخط ودقة الضبط :

كما نقد ياقوت الكتب والمؤلفات نقد أيضا خطوطها وطريقة كتابتها لمعرفته التامة بأنواع الخطوط وكثرة اطلاعه واشتغاله بهذه المهنة ، إلى جانب بيع الكتب ، ولقد جاء فى كلامه عرضا فى أكثر من موضع أن المؤلف يختلف ثمنه من نسخة إلى أخرى ، ويرجع هذا إلى الطريقة التى كتب بها ، فالكتب التى نسخت بيد على بن هلال المعروف بابن البواب يقع التغالى فى أثمانها كثيرا ، ولا قيمة لمؤلف كتب بطريقة رديئة لذلك انتشر التحريف والتصحيف فى المؤلفات القديمة وكان الكتاب يلجأون إلى تقييد الكلمات بضبطها بالحروف إلى جانب الحركات .

وصاحبنا ينظر إلى الخط نظرة فاحصة مركزة حول جودة منظره ودقة ضبطه ، وفى ترجمته لابن أخى يقول .

(١) « رأيت جماعة من أعيان العلماء يفتخرون بالنقل من خطه ، ورأيت خطه ، وليس بجيد المنظر ، لكنه متقن الضبط » .

ويقول عن ابن البواب: « صاحب الخط المليح والإذهاب الفائق » (٢).

ويقول عن على بن زيد القاشانى :

(٣) « وجدت بخطه ما كتبه فى سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وهو صاحب الخط الكثير الضبط المعقد،سلك فيه طريقة شيخه أبى الفتح »(٤).

---

(١) معجم الأدباء حـ٢ ص ١٢٧

(٢) المرجع السابق حـ ١٥ ص ١٢٠

(٣) المرجع السابق حـ ١٣ ص ٢١٨

(٤) هو أبو الفتح بن جنى .

ويقول عن أحمد الأدباء : « رأيت بخطه كتبا أدبية لغوية ونحوية فوجدته حسن الخط متقن الضبط » (١) .

وقبل أن انتهى من هذا الموضوع أذكر ما قاله الأستاذ محمد عبد الغنى حسن فى هذا الشأن قال .

(٢) « وكما خلق ياقوت الرومى ناقداً للأخبار والروايات ، فانه خلق ناقدا فنيا للخطوط ،وعلة ذلك أنه كان وراقا نساخا يشتغل بنسخ الكتب ، ولعله كان جيد الخط أو على الأقل — كان على علم بقواعده ومذاهب الجمال والاجادة فيه ، وهو حين ينتقد لا يبالى بقواعد غيره من الناس ، مهما خالفهم أو خالفوه فى الرأى ، لأنه كان فنانا أصيلا ، لامقلداً ولا تابعا » .

* * *

لا أعتقد أن صاحبنا قد ترك شيئا مما يتعلق بالتأليف إلا تكلم عنه ، فلقد نقد الروايات التى من مجموعها يتكون الكتاب ، ونقد الرواة الذين يحملون الأخبار ويفرزون الأشعار ، وبروح الكاتب الأديب الناقد الذواقة نقد ما وصلت إليه يداه من كتب واضعاً الأساس السليم والمنهج القويم لمن عاصره أو جاء بعده ، ولا زالت هذه النقدات نابضة حية مضيئة حتى اليوم .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٥ ص ٩٧

(٢) علم التاريخ عند العرب ص ٢٣٠ مؤسسة المطبوعات الحديثة سنة ١٩٦١

الفصل الثاني

النقد الذاتى

النقد الذاتى هو الحكم على النص الأدبى بالجودة أو الرداءة حكما عاما ، دون أن يصحب ذلك بيان العلل والأسباب على عكس النقد الموضوعى الذى يصاحبه التعليل والتفسير لبيان أسباب الاستحسان أو الاستهجان .

ولياقوت الحموى باع طويل فى هذين النوعين من النقد ، فهو ناقد ذاتى أحيانا يستحسن الشعر بذوقه ، ويحكم عليه أحكاما عامة غير مفصلة ، وموضوعى أحيانا أخرى يلتزم فى أحكامه القواعد والأصول التى ارتضاها سابقوه ، ويحاول تطبيق هذه الأصول على مختاراته من الشعر ، ولديه من الثقافة العميقة والخبرة الطويلة ما يساعده على التحليل والتفسير والحكم ، وسوف يأتى الحديث عن هذا النوع .

ولقد ارتبط ياقوت بالنقد عن طريق الشعر الذى يستشهد به لموضوع ما فلا يترك النص الذى أستدعاه حتى يحكم له أو عليه معتمداً على عدة أسس وركائز .

١ — الذوق الأدبى الذى يستعين به على استحسان نص أو استهجانه ولقد نمى ياقوت ذوقه بكثرة القراءة للروائع الأدبية ، والتمرس بالأساليب العربية ، والأنس بالأخيلة المبتكرة ، فذوقه نتيجة طبيعية لما أطلع عليه من الإنتاج الضخم الفنى هو حصيلة لستة أعصر سابقة .

والذوق الأدبى ضرورى فى النقد الذاتى الذى يصدر عنه ياقوت من

خلال حكم عام أو عبارة مختصرة تكشف عن استعداده الفطرى وتقبله للنص ، ويتيح له أن يفهم أسرار الكلام ومواطن الجمال فيه .

٢ — ولم يقتصر على الذوق فى استحسانه أو استهجانه للنص ، وإنما توفرت عنده كذلك الملكة أوالموهبة التى يعبر عنها بالحاسة الفنية ، وهذا الاستعداد هو الذى يوجهه ويبصره وينير له السبيل لاختيار نص دون آخر ، ويفصل بين ذوقه وأذواق الآخرين .

٣ — وياقوت رجل مثقف ثقافة واسعة ، لأن حياته كانت القراءة ولا شىء غيرها ، وليست ثقافته مقصورة على شىء بعينه ، وإنما كانت شاملة للفنون الأدبية المتوفرة فى عصره .

٤ — كما أن له خبرة وتجربة فى مجال الحكم على الأعمال الأدبية حكما عاما خاضعاً للنصفة والانتصار لما يمليه عليه ذوقه واحساسه ، والقارىء لكتبه يعجب لهذا الكم الهائل من قصائد الشعر ومقطوعاته التى يصف بعضها بالجودة أوحسن السبك أو يصف بعضا منها بالرداءه والركاكة وهكذا ومن خلال متابعتى لنقده الذاتى لاحظت ما يلى :

١ — يحكم على الشعر حكما عاما مستحسنا أو مستهجنا ، ففى ترجمته لأبى العلاء المعرى يختار قصيدة غزلية من شعره ، قدم لها فقال :

(١) « وأنا كثير الاستحسان لقول أبى العلاء :

أسالت أتى الدمـــع فوق أسيل

ومالت لظل بالعراق ظليـل (٢)

---

(١) معجم الأدباء جـ ٣ ص ١٣٢

(٢) الأتى : السيل الشديد ، والأسيل : الأملس.

أيا جـــارة البيت الممنع أهـله
غدوت ومن لى عندكم بمقيل ؟ (١)

إلى آخر القصيدة .

وفى ترجمته لابن هانىء الأندلسى يختار له مجموعة من القصائد ، ويقول فى التعليق على قصيدة له فى مدح جعفر بن الأندلسية :

(٢) « وقد بلغ فى هذه القصيدة غايات الإجادة ، ولولا طولها لأوردتها بتمامها » .

يقول فى ترجمة ابن سناء الملك :

(٣) « ومن شعره الذى سارت به الركبان قصيدته الحماسية الغزلية وهى :

سواى يخاف الدهر أو يرهب الردى
وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
ولـكننى لا أرهب الدهر إن سطا
ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا
ولو مد نحوى حادث الدهر طرفه
لحدثت نفسى أن أمـــد له يدا

وبعد أن ذكر له مجمـوعة من الأبيات قال : « ومنها فى التخلص إلى الغزل .. » (٤)

---

(١) بمقيل : أى بمكان يقضى فيه وقت القيلولة .
(٢) معجم الأدباء حـ ١٩ ص ١٠٠
(٣) المرجع السابق حـ ١٩ ص ٢٦٨
(٤) المرجع السابق حـ ١٩ ص ٢٧٠

ومن كل شيء قد صحوت سوى هوى
أقام عــذولى بالملام وأقعدا
إذا وصل من أهواه لم يك مسعدى
فليت عذولى كان بالصمت مسعدا

ويقول فى نهاية مااختاره منها :

(١) « والقصيدة طويلة كل بيت منها فريدة فى عقد وشعره كثير ، وأكثره جيد ، اختار ياقوت من هذه القصيدة سبعة عشر بيتا من مجموع أبياتها التى تبلغ ثلاثة وأربعين، ولقد استشهد شارح ديوان ابن سناء الملك بعبارة ياقوت السابقة ، كما استشهد بعبارة لابن حجة الحموى أشاد فيها أيضا بهذه القصيدة ونقلها الشارح عن كتابه خزانة الأدب .

وقد علق الأستاذ عبد الخالق عمر على هذه القصيدة فى هامش معجم الأدباء بقوله :

(٢) « حقا إنه شعر رائع، وما أولى روعته بالتأثير البالغ ،وماأجدرها أن تكون قرينة لامية أبى العلاء : « ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل ؟ .

ولقد دلل ياقوت باختياره لهذة القصيدة وغيرها على حسن نقده للشعر ، وسلامة ذوقه ورهافة حسه ، والذى يقرأ ما اختاره صاحبنا لابن سناء الملك سوف يشهد للشاعر وناقده بالإجادة وإصابة الغرض وحسن الفهم .

كما استشهد ببعض القصائد والمقطوعات التى حكم عليها بالضعف والرداءة أو الركاكة لنفهم بذلك ذوقه فى استهجان الأشعار الضعيفة أو المصنوعة الممقوتة .

---

(١) المرجع السابق ح ١٩ ص ٢٧١
(٢) معجم الأدباء ح ١٩ ص ٢٦٨

فلقد اختار شعراً لأبى طاهر السلفى يمدح فيه أحمد بن محمد الخطابى، ويعبر عن شغفه بتآليفه ورغبته فى تحصيل تصانيفه.

يقول:

ظن هذا الخطاء فى الخطابى	شيخ أهل العلوم والآداب (١)
من على كتبه اعتماد ذو الفضـ	ل، ومن قوله كفصل الخطاب
أن يحوز الفردوس إذا أتعب النفس لذى العرش غاية الأتعاب	

وبعد أن يذكر للسلفى أربعة أبيات أخرى قال:

(٢) «وللسلفى فيه أشعار غير هذا، فى نهاية الضعف والسقط كما ترى».

وفى ترجمة القاسم بن محمد الديمرتى يذكر له خمسة أبيات، والبيت الثالث منها فى شطر واحد، وهو شعر مصنوع حاول فيها الديمرتى أن يجمع فى هذه الأبيات عشرة شعراء جاهليين قال:

الأصل أن تحكم شعر العشرة	أشعار قوم فى زمان لم تره
أشعار بشر ولبيد وعدى	نعم والأعشى وعبيد الأسدى
حتى إذا أحكمت شعر النابغة	... ...
فابتد فى شعر أمرىء القيس	فالفخر فى ذاك وشعر أوس
وابتدر القوم وفيهم طرفه	وكل ما قال زهير فى صفه

ثم نقد ياقوت هذه الأبيات قائلا: (٣) (وهذا شعر هذا العلامة كما ترى فى غاية الركاكة والرداءة، ولم يستطع تصريع (٤) البيت الذى فيه ذكر النابغة).

---

(١) يقصد بالخطاء: نفسه اعترافا بالتقصير فيه، وخبر ظن أن يحوز.

(٢) معجم الأدباء جـ ٤ صـ ٢٥٧ (٣) معجم الأدباء جـ١٦صـ٣٢٠

(٤) أى جعله ذا مصراعين.

كان ياقوت يضرب صفحاً عن الشعر الذى لايروق له مثلا فعل فى ترجمة على بن حمزة الأصبهانى عندما اختار له قصيدتين جاء فى إحداها قوله يرثى أبا محمد بن بحر :

وقالوا : ألا ترثى ابن بحر محمداً
فقلت لهم : ردوا فؤادى واسمعوا

فلن يستطيع القول من طار قلبه
جريحاً طريحاً بالمصـــائب يقرع

ومن بان عنه إلفه وخليله
فليس له إلا البعث مرجـــع

وبعد أن أورد هذه القصيده وأختها قال:(١) « ولعلى بن حمزه الأصبهانى هذا مفاوضات طوال وجوابات لجماعة من شعراء أصبهان ، منهم أبو الحسن طباطبا العلوى وغيره، ولم أذكر منها شيئاً لطولها ولقلة فائدتها عندى ، فشعره على هذا النمط لا طائل فيه إلا أنه عند أهل أصبهان جليل نبيل ».

وبهذا تأكد لنا أن صاحبنا لم يثبت فى كتابه كثيراً من النماذج التى اطلع عليها ورأى انحطاط مستواها .

وفى حديثه عن اليمامة اختار بيتين لزرقاء اليمامة ولم يشأ أن يذكر غيرهما يقول :(٢) « وأنشأت تقول :

خذوا خذوا حذركم ياقوم ينفعكم
فليس ما قد أرى م الأمر يحتقر

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٣ صـ ٢٠٨

(٢) معجم البلدان جـ ٥ صـ ٤٤١

إنى أرى شجراً من خلفها بشر
لأمر اجتمع الأقوام والشجر

وهى من أبيات ركيكة » .

٢ — يتجلى ذوق ياقوت فى اختياره للشعر عندما يحرص على تنقيته من السخف والفحش كأن يحذف الأبيات التى تشتمل على لفظ مكشوف يجرح الحياء أو عبارة فاضحة لا تصلح للتداول على الألسنة .

ففى حديثه عن اربل يختار قصيدة للشاعر نوشروان البغدادى المعروف بشيطان العراق الضرير قدم لها فقال :(١) « ثم قال يعتذر عن هجائه لإربل ، ويمدح الرئيس مجد الدين داود بن محمد ، كتبت منها ما يليق بهذا الكتاب ، وألقيت السخف والمزح » ، وذكر منها :

قد تاب شيطانى وقد قال لى :
لا عدت أهجو بعدها إربلا
كيف ؟ وقد عاينت فى صدرها
صدراً ، رئيساً سيداً مقبلا

وفى ترجمته للحسين بن الحسن الواسانى يذكر له قصيدة فى هجاء أبى الفضل يوسف بن على والتعريض بمنشا بن إبراهيم القزاز ، ويذكر ياقوت أن هذه القصيدة كانت سبباً فى عزله عن عمله ويختار منها سبعة وأربعين بيتا ثم يقول :

(٢) « والقصيدة طويلة نحو مائة وأربعين بيتاً ، وفيها من الفحش ما لا يجمل بالأديب ذكره وفيما أوردناه كفاية » .

---

(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٢٩
(٢) معجم الأدباء ج ٩ ص ٢٦٤

ولقد سلك هذا المنهج مع كل الشعراء الذين تحدث عنهم أو اختار لهم، ففي ترجمته لحماد عجرد يعرض عن الأهاجي التي كانت بينه وبين بشار بن برد ومطيع بن إياس لما فيها من السخف والمجون، بل إن صاحبنا يتابع ما قاله راشد بن إسحاق الكاتب من شعر فلم يجد له إلا ثلاثة أبيات خالية من الفحش فذكرها في ترجمته قال:

(١) « وقال راشد الكاتب، وهو يجود بنفسه في مرضه الذي مات فيه بطريق مكة ولم أقف له على شعر خال من الفحش والمجون غيرها » والأبيات هي:

أطبقت للنوم جفناً ليس ينطبق
وبت والدمع في خدي يستبق

لم يسترح من له عين مؤرقة
وكيف يعرف طعم الراحة الأرق ؟

وددت لو تم لي حجي ففزت به
ما كل ما تشتهيه النفس يتفق

٢ — يفرق في اختياره للشعر بين المطبوع والمصنوع، وينقده على أساس معانيه وألفاظه، ويربطه بمناسبته التي قيل فيها ليسهل فهمه، ويميل أحيانا إلى شرح مفرداته وذكر معناه

في ترجمته لخويلد بن خالد المعروف بأبي ذؤيب الهذلي يختار له قصيدة في رثاء بنيه مطلعها:

أمن المنون وريبه تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

---

(١) المرجع السابق جـ ١٩ ص ١٢٥

ومنها :

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا المنيـــة أقبلت لا تدفع
وإذا المنيـة أنشبت أظفـــارها
ألفيت كل تميمـــة لا تنفع

وذكر أن القصيدة نحو سبعين بيتا ، واختار رأى ابن رشيق الذى عدها فى المطبوع من شعر العرب ، ويرى ياقوت أن شعر أبى ذؤيب على نمط فى الجودة وحسن السبك .

وفى كتابته عن قريش يروى بيتاً من الشعر عن ابن عباس — رضى الله عنه وهو :

وقريش هى التى تسكن البحر بها سميت قريشاً

قال « ... وهذا الوجه بارد والشعر مصنوع جامد »(١) ، والوجه البارد الذى يذكره هو رجوع التسمية بقريش إلى الدابة التى تسمى بذلك وتسكن البحر وتأكل دوابه ، ويقصد بجمود الصنعة جفاف البيت وتكلفه، وهذا ما رآه أيضاً فى حكمه على قصيدة لمحمد بن طباطبا صاحب كتاب « عيار الشعر » ، ونقل منها ياقوت أربعة عشر بيتا وهى وصف لدعوة طعام أقامها أحد أصحابه ، بدأها بقوله :

يا دعوة مغبره قاتمة كأنها من سفر قادمة

وبعد أن يذكر صاحبنا الأبيات التى اختارها يقول :(٢) « والقصيدة طويلة باردة نشبت فى كتابتها فكتبت منها هذا » .

---

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٣٧
(٢) معجم الأدباء ج ١٧ ص ١٥٣

فهو يرفض الشعر المصنوع الجاف الخالى من جيشان العاطفة وثورة الوجدان كما يبنى اختياره للشعر على أساس معانيه الحسنة وألفاظه الجزلة، ففى حديثه عن الوزير أبى نصر المنازى يختار له أربعة أبيات . ويقدم لها قائلا :

«وهو القائل يصف واديا ، ولم أسمع فى معناه أحسن منه معنى وجزالة»(١) وأنا أرى صدق ياقوت فى حكمه على هذه الأبيات ، فلقد جاء فيها :

نزلنا دوحه فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم(٢)

يرد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

ولا يخفى جمال التشبيه فى الأول وروعة التصوير فى الثانى .

وكثير من الأشعار التى يختارها يحرص على ذكر مناسبتها مثلما فعل فى حديثه عن أبيات قتيلة بنت النضر التى رثت فيها أباها ، ومدحت رسول الله ﷺ ، وكان قد قتل أباها عند الأثيل(٣) :

ما كان ضرك لو مننت ، وربما
من الفتى ، وهو المغيظ المحنق

والنضر أقرب من أصبت وسيلة
وأحقهم ، وإن كان عتق يعتق ،

وذكر أن الرسول عندما سمع شعرها رق لها وقال :

«لو سمعت شعرها قبل قتله لوهبته لها»(٤) .

---

(١) معجم البلدان جـ ٥ ص ٢٠٢

(٢) سيأتى الحديث عن هذه الأبيات لبيان نسبتها إلى قائلها .

(٣) موضع قرب المدينة .

(٤) معجم البلدان جـ ١ ص ٩٤

كما يعمد ياقوت إلى شرح المفردات . وذكر معانى الأبيات ليسهل فهمها ويحسن متابعتها والأمثلة كثيرة ، بل إن كتابته عن معانى الشعر تتتابع أحيانا فى أكثر من عشر صفحات متوالية كصنيعه فى شعر « ابن محمد البلطى » (١) .

شعراء ياقوت :

إذا ترجم ياقوت فى معجم الأدباء لرجل اختار له من شعره ما يدال به على موهبته ومكانته بين الشعراء . لكنه فى مؤلفاته الأخرى يختار لكل الشعراء ويستشهد لما يكتب عنه بما يعثر عليه من شعر قل أو كثر بصرف النظر عن قائله . ومن خلال متابعتى لما كتبه فى غير معجم الأدباء وجدته يكثر من اختياره لمجموعة معينة من الشعراء ، بل إنه يثبت للواحد منهم فى معجم البلدان مثلا قطعا متتابعة، الأمر الذى دفعنى إلى البحث عن أسرار ذلك فلم أجد سببا مقبولا أفسر به هذا الاتجاه اللهم إلا أن يكون هؤلاء الشعراء قد أكثروا فى شعرهم من الحديث عن المواضع والأمكنة والأنساب والقبائل والفرق الاسلامية ، إلى غير ذلك من الموضوعات التى شغف بها ياقوت وكتب فيها وبحث عنها ، وفى مقدمة من يختار لهم من الشعراء : مالك بن الريب المازنى ، وكثير عزه ، وعبد الله بن قيس الرقيات .

مالك بن الريب المازنى :

لم يترجم ياقوت لهذا الشاعر فى معجم الأدباء مع أن له ترجمة فى الأغانى وخزانة الأدب للبغدادى والشعر والشعراء وغيرها . ويكثر اختيار ياقوت

---

(١) انظر معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٤١ ومايليها .

لشعر مالك فى معجم البلدان بخاصة ، ففى حديثه عن سنام (١) يختار شعراً لمالك يقول فيه :

تذكرنى قباب الترك أهلى ومبداهم إذا نزلوا سناما
وصوت حمامة بجبال كس دعت مع مطلع الشمس الحماما
فبت لصوتها أرقاً وباتت بمنطقها تراجعنى الكلاما

ثم نجد صاحبنا يتابع قصيدة لمالك بن الريب تعتبر من عيون القصائد فى الشعر العربى . وكثيراً ماأولاها النقاد عناية واهتماما لقيمتها الأدبية ، ولمناسبتها الغريبة . فلقد رثى فيها مالك نفسه بعد أن مرض فى مدينة نيسابور ، ولم يشأ ياقوت أن يذكر هذه القصيدة فى موضع واحد كما فعل مع سائر القصائد ، ولكنه وزعها على عدة أبواب من معجم البلدان .

ذكر نقلا عن السكرى أن سعيد بن عثمان بن عفان عندما ولى على خراسان من قبل معاوية مر بمالك وصاحب له ، وكانا لصين يقطعان الطريق فاستصحبهما ، ولكن مالكا لم ينل منه شيئا مما كان قد وعده به ، وحدثت بينهما جفوة فترك سعيداً ، وقفل راجعا فلما كان بأبر شهر وهى نيسابور مرض فقيل له : أى شىء تشتهى ؟ فقال أشتهى أن أنام بين الغضا وأسمع حنينه ، وأخذ يرثى نفسه .

وهو يرى أن مالكا من الشعراء المطبوعين على القول الرقيق ، مع أنه كان لصا فاتكا ، ولقد وصف ياقوت هذه القصيدة بالجودة والشهرة وأعجب بها ، ورواها مكتملة ، وبدأت روايته لها فى حديثه عن خراسان .

---

(١) اسم موضع .

والقصيدة تبدأ بقوله :

لعمرى لئن غالت خراسان هامتى
لقد كنت عن بابى خراسان نائيا
ألا ليت شعرى ! هل أبيتن ليلة
بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

وذكر هنا أربعة أبيات ثم أتبعها بعشرة أبيات أخرى ذكرها فى حديثه عن الطبسين (١) أولها :

دعانى الهوى من أهل أود وصحبتى
بذى الطبسين فالتفت ورائيا

وفى مادة « السمينة »(٢) ذكر بيتين آخرين وهما :

ولكن بأطراف السمينة نسوة
عزيز عليهن العشية مابيا
صريع على أيدى الرجال بقفزة
يسوون لحدى حيث حم قضائيا

ويقول ياقوت : « وكان قد مرض بخراسان فقال هذه القصيدة قبل موته .. »(٣) وهذا يخالف ماذكره فى التقديم لهذه القصيدة عندما ذكر أن المرض كان بنيسابور وليس بخراسان .

---

(١) بلدة فى بلاد العجم .
(٢) اسم ماء لبنى الهجيم فى طريق القاصد للبصرة . راجع معجم البلدان حـ ٣ صـ ٢٥٨ .
(٣) معجم البلدان حـ ٣ صـ ٢٥٩ .

ولقد تضاربت أقوال الراوة فى مناسبة هذه القصيدة ، وتأثر ياقوت نفسه بذلك ثم ذكر فى حديثه عن « مرو »(١) اثنى عشر بيتا . أولها .

ولمـا تراءت عند مرو منيتى
وحل بها سقمى وحـانت وفاتيـا

أقول لأصحـابى : أرفعونى فإننى
يقر بعينى أن سهيل بدا ليـا

وقد لاحظت هنا اضطرابا فى تتبع ياقوت لهذه القصيدة ، فهو يذكر قبل الأبيات الواردة فى مادة « مرو » قوله : « وكناقد كتبنا قصيدة مالك ابن الريب متفرقة وأحلنا فى كل موضع على ما يليه ولم يبق منها إلا ذكر مرو بها تتم » (٢) .

فالعبارة صريحة فى أن القصيدة تتم بمـا ذكره فى مرو ، ولكنه عاد فى الموضع نفسه وأخبر أن هناك بقية سيذكرها فى « الشبيك » (٣) وهذا ماحدث إذ ذكر فى هذا الموضع ثمانية أبيات أولها :

وقوفا على بئر الشبيك فأسمعا
بها الوحش والبيض الحسان الراونيا

وذكر بعدها أربعة أبيات فى رحا المثل(٤) قال :

(٥) « قال مالك بن الريب بعدما أوردناه فى الشبيك من قصيدته المشهورة .

---

(١) أشهر مدن خراسان .   (٢) معجم البلدان حـ ٥ ص ١١ .
(٣) اسم موضع فى مياه بنى مازن .
(٤) اسم موضع .
(٥) معجم البلدان حـ ٣ ص ٣٢ .

فيا ليت شعرى هل تغيرت الرحا
رحا المثل ، أو أمست بفلج كما هيا

وفى مادة بولان « (١) ذكر ياقوت الأبيات السبعة الأخيرة من هذه القصيدة وقال .

(٢) « هذا آخر قصيدة مالك بن الريب ، وقد ذكرتها بتمامها فى هذا الكتاب متفرقة ونبهت فى كل موضع على مايتلوه وأولها فى خراسان » .

فلقد وزع القصيدة على سبعة مواضع ، ونبه على ترتيب مقاطعها ورواها فى سبعة وأربعين بيتاً وليس فى ثمانية وخمسين كما رواها بذلك عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب ، وبين الروايتين خلاف كبير فى العدد والترتيب (٣) ونحن نشارك صاحبنا أعجابه بهذه القصيدة وتذوقه لها وإشادته بها ، فهى قصيدة جيدة رائعة مؤدية لغرضها فى تصوير العواطف الإنسانية لدى الشاعر ، كما تنوعت ألفاظها بين السهولة فى مقام الحنين والذكرى ، والجزالة فى مقام الشدة والبسالة ، وتضمنت كثيراً من المعانى والخواطر التى اعجب بها ياقوت ، ورق لها وحرص على تتبعها والتعرف عليها .

أهم فنون الشعر التى يختار منها .

١ — الغزل .

وجد ياقوت فى شعر كثير عزه وجميل بثينه وابن قيس الرقيات

(١) اسم موضع فى طريق الحاج من البصرة .
(٢) معجم البلدان حـ ١ ص ٥١١ .
(٣) وازن الدكتور أحمد الشرباصى بين الراويتين فى كتابة « ملامح أدبية » .

وغيرهم ما أشبع رغبته من هذا اللون الشعرى الذى رأى فيه الصدق مع النفس ، والمعاناة الحقيقية فانتقى أجوده ، وتغنى بأعـــذبه ، فلنقرأ له قوله :

(١) « وكثيراً ما كنت أترنم عند كونى بمرو بقول بعض الأعراب » :

أقريـة الوادى التى خان إلفهـا
من الدهر أحداث أتت وخطوب

تعـالى أطارحك البـكاء فإننا   كلانا بمرو الشاهجان غريب

(٢) ويعرض لشعر العباس بن الأحنف فيذكر أنه شاعر مجيد رقيق الشعر ، وكل شعره فى الغزل ، يختار له خمس مقطوعات غزلية أخرها قوله :

أبـكى الذين أذاقونى مـــودتهم
حتى إذا أيقظونى فى الهوى رقدوا

واستنهضونى فلما قمت منتصبا   بثقل ما حملونى منهم قعدوا

ويصف ياقوت شعره قائلا :(٣) « وشعره كله غاية فى الجـــودة والانسجام والرقة » وصاحبنا يعنى عناية خاصة بالشعر العاطفى يحرص على إيراده كلما تيسر له بل إنه إحيانا يتـكلف المناسبة من أجل إيراد الشعر العاطفى ، ففى حديثه عن كفافة وهو اسم ماء كانت عنده وقعة بين فزارة وبنى عمرو بن تميم ، يورد فى المادة قصيدة بتمامها لابن هرمة مما يـكشف عن إعجابه وهيامه بهذا اللون .

---

(١) معجم البلدان حـ٥ صـ١٤٤

(٢) معجم الأدباء حـ١٢ صـ٤٤

(٣) معجم الأدباء حـ١٢ صـ٤٤

٢ — الوصف

عنى ياقوت بهذا اللون الشعرى ، وعبر عن ذلك بما انتقاه من الروائع التى اختارها بدقه ، ونقدها بعناية ، ففى حديثه عن بوان يختار قصيدة المتنبى التى قدم لها قائلا

(١) « وقد أجاد المتنبى فى وصفه فقال :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربى فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

الأبيات ... »

ومن أروع قصائد الوصف التى اختارها ياقوت وتكلم عنها قصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى ، ولقد ذكرها مرتين ، الأولى عندما ترجم للبحترى فى معجم الأدباء وقال فى تقديمه لها :

(٢) « ومن غرر شعره فى الأوصاف قوله يصف إيوان كسرى .. »

وذكر ياقوت منها ثلاثة وأربعين بيتا ، وأولها :

حضرت رحلى الهموم فوجهـ ... ـت إلى أبيض المدائن عنسى(٣)

وذكرها ثانية فى معجم البلدان من خلال حديثه عن الإيوان يقول :

(٤)« ومن أحسن ما قيل فى الإيوان قول أبى عبادة البحترى ... » ويذكر القصيدة برواية أخرى تزيد عن الأولى بثلاثة أبيات .

---

(١) معجم البلدان حـ١ صـ٥٠٣

(٢) معجم الأدباء حـ١٩ صـ٢٥٤

(٣) عنسى : ناقتى الصلبة ، وأبيض المدائن : الإيوان .

(٤) معجم البلدان حـ١ صـ٢٩٥

كما اختار قصيدة طويلة للصنوبرى فى وصف حلب ، وقدم لها فقال
(٢)« وقد أكثر الشعراء من ذكرها ووصفها والحنين إليها ، وأنا اقتنع من ذلك بقصيدة لأبى بكر محمد بن الحسن بن مرار الصنوبرى ، وقد أجاد فيها ، ووصف متنزهاتها وقراها القريبة منها فقال :

احبسا العيس احبساهـــا وسلا الدار سلاهـا
واسألا أين ظباء الـ دار ؟ أم أين مهاها ؟

وأورد القصيدة ، وهى تزيد على مائة بيت واستغرقت من الكتاب نحو أربع صفحات كبيرة .

ونلاحظ أن معظم القصائد الطويلة التى وردت فى مؤلفات ياقوت كانت فى الوصف ففى ترجمة الحسين بن الحسن بن واسان ذكر له مجموعة من القصائد كانت الأولى — وهى أطولها — فى الوصف قال عنها : (٢)« ومن أجود شعره قصيدته النونية التى وصف بها دعوة عملها فى « خرايا » من قرى دمشق قال :

من لعين تجود بالهملان ولقلب مدله حيران
ياخليلى أقصرا عن ملامى وارثيا لى من نكبتى وارحمانى

ولقد اختار من هذه القصيدة مائة وسبعة وثلاثين بيتا ، وبعد انتهائها قال :
(٣) « والقصيدة كلها غرر ولطائف ، وأجاد وأحسن فيها كل الإحسان وأبان عن مقاصده بها أحسن بيان »

---

(١) معجم البلدان حـ ٢ صـ ٢٨٦
(٢) معجم الأدباء حـ ٩ صـ ٢٣٣
(٣) معجم الأدباء حـ ٩ صـ ٢٥٣

٣ – المديح

اختار ياقوت من هـذا الفن مجموعة من قصائد الشعر ومقطوعاته التى استحسنها لجودة ألفاظها وروعة معانيها، وبعدها عن التكلف، والصنعة التى يمقتها، ويرى صاحبنا أن للبحترى تصرفا حسنا فى ضروب الشعر سوى الهجاء، فإنه لم يحسنــه، ويرى أيضا أن أجود شعره ما كان فى الأوصاف، وسبق أن ذكرت نقده لقصيدة البحترى فى وصف إيوان كسرى .

اختار صاحبنا أكثر من قصيدة للبحترى فى المدح واعتبر احداها — وهى فى مدح المتوكل — من غرر شعره، قدم لها فقال : (١)« ومن غرر شعره فى المديح قصيدته الرائية التى مدح بها المتوكل على الله يهنئه بعيد الفطر، ويذكر خروجه فيه للصلاة قال : »

الله مكن للخليفة جعفر ملكا يحمله الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها والله يرزق من يشاء ويقدر

القصيدة .....»

ولقد ذكرت فى موضع سابق أن صاحبنا يميل إلى أبى تمام أكثر من ميله إلى البحترى، وليس معنى ذلك أنه كاره لشعر البحترى بدليل هذا الاعجاب الجارف والتقدير البالغ كتب عنه يقول :

(٢) « وكان يتشبه بأبى تمام فى شعره، ويحذو حذوه وينحو نحوه فى البديع الذى كان أبو تمام يستعمله ويراه إماماً، ويقدمه على نفسه ويقول

---

(١) المرجع السابق حـ١٩ صـ٢٥١

(٢) معجم الأدباء حـ١٩ صـ٢٤٩

فى الفرق بينهما قول منصف إن جيد أبى تمام خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه ويرى أنه مقدم فى الوصف على المديح .

ومن الشعراء المقدمين عنده ابن هانىء الأندلسى الذى اختار له أربعة قصائد طوال أولها فى مدح المعز ، ذكرها فقال :

(١) « ومن غرر شعره قصيدته الرائية المشهورة التى مدح بها المعز المذكور وهى ... »

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

وجنيتم ثمر الوقائع يانعا بالنصر من ورق الحديد الأخضر

القصيدة .... » .

وذكر ياقوت أن عماد الدين الأصبهانى نظم قصيدة فى الشوق إلى دمشق والتأسف عليها وجعل صلاح الدين مخلصها ثم اختار منها ثمانية وعشرين بيتا ، وأولها

أجيران جيرون مالى مجير سوى عدلكم فاعدلوا أو فجوروا(٢)

ومالى سوى طيفكم زائر فلا تمنعوه إذا لم تزوروا

القصيدة .... » .

وقال فى ختام ما أورده منها : (٣) « قد أطال نفسه فى هذه القصيدة ، وكلها غرر ، وقد اكتفينا بما أوردناه منها » .

---

(١) المرجع السابق حـ١٩ صـ٩٣

(٢) جيرون : حصن عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود عليه السلام : راجع معجم البلدان حـ ٢ صـ١٩٩

(٣) معجم الأدباء حـ١٩ صـ ١٨

٤ — الرثاء :

ذكر ياقوت فى ترجمة محمد بن أحمد الغندجانى عدة مقطوعات فى الرثاء، وهى لامرأة تسمى الذلفاء بنت الأبيض بكت فيها ابن عم لها يسمى « نجده بن الأسود تقول فى إحداها .

ياقبر نجدة لم أهجرك مقلية ولا جفوتك من صبرى ولا جلدى
لكن بكيتك حتى لم أجد مدداً من الدموع ولا عونا من الكمد

الأبيات .... » .

وذكر مجموعة أبيات لزياد الأعجم فى رثاء المغيرة بن المهلب أولها :

إن السماحة والمروة ضمنا قبراً بمرو على الطريق الواضح

ثم قال . « وهى من أحسن المراثى »(١).

ومن مقطوعات الرثاء التى اختارها قول لبيد يرثى أخاه أربد :

يا أربد الخير الكريم نجاره أفردتنى أمشى بقرن أعضب
ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى قوم كجلد الأجرب
يتأكلون خيانة وملاذة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب(٢)
إن الرزيئة لارزيئة بعدها فقدان كل أخ كضوء الكوكب

الأبيات .... »

ولقد سبق أن تعرضت لإعجاب ياقوت الفائق بقصيدة مالك بن الريب التى رثى بها نفسه ، وهى من أعظم قصائد رثاء النفس فى الشعر العربى .

* * *

---

(١) معجم الأدباء حـ ١١ ص ١٧١

(٢) الشغب بالتسكين : تهييج الشر .

وهكذا كان النقد الذاتي عند ياقوت — اعتمد فيه على ذوق مرهف وملكة أصيلة، وثقافة واسعة، وتمرس متصل، وكان حكمه على القريض حكما عاماً، لا يعرض فيه لسبب ولا يقيسه بمقياس، ولا يعتمد فيه على قواعد موضوعة، وكان يميل إلى شرح الأبيات وتحليلها عندما يجد فيها غموضاً أو التواء، ولم تسمح أحاسيسه ومشاعره أن يذكر شعراً يحمل لفظاً خارجاً أو عبارة مكشوفة، كما كان الغزل أول الفنون التي أغرم بها، فمثل له بالعشرات من القصائد الطوال .

وهو يفضل المطبوع من الشعر على المصنوع، ويستعذب ما حلا لفظه وجاد معناه . وعبارات الاستحسان عنده دقيقة مركزة ومنصفة للشعر والشعراء .

الفصل الثالث

النقد الموضوعى

هو نقد ينظر إلى ما فى العمل من أفكار وتجارب ويقومها ويحكم عليها اعتماداً على ثقافة الناقد وذكائه وإلمامه بالأصول النقدية ، فهو نقد تحليلى أو منهجى ، تستند فيه الأحكام إلى القواعد الثابتة بدون إغفال الذوق .

وسوف نعرض لبعض القطع الأدبية التى حكم فيها ياقوت بذوقه وثقافته أحكاماً نقدية متنوعة ، وبالنظرة إلى هذه الأحكام سوف نرى اتصالها الوثيق بقضايا النقد المتعارف عليها.

١ – الموازنة :

يوازن ياقوت بين المقطوعتين من الشعر إذا اشتركتا فى موضوع واحد ، والأسس التى يبنى عليها موازنته هى جودة المعنى وصدق التجربة وحسن السبك والملائمة بين اللفظ والمعنى ، وعند تساوى المعنيين تكون الميزة للسابق منهما ، وهو أحيانا يقف عند حد التفضيل بين المقطوعتين للاعتبارات السابقة ، وأحيانا يشرح الأسباب وهذا أكمل وأجمل فى الموازنات النقدية ، ولنقرأ له مثالا يحدد طريقته ومنهجه .

فى حديثه عن صديقه الشهاب محمد بن فضلون قال:

(١) «وكنت مرة أعارض معه إعراب شيخنا أبى البقاء عبد الله بن الحسين العكبرى لقصيدة الشنفرى(٢) اللامية إلى أن بلغنا إلى قوله :

واستف ترب الأرض لا يرى له
على من الطول امرؤ متطول(٣)

فأنشدنى فى معناه لنفسه يقول :

ممـــا يؤجج كربى أننى رجـــل
سبقت فضلا ولم أحصل على السبق
يموت بى حسداً مما خصصت به من لايموت بداء الجهل والحمق
إذا سغبت استفقت الترب فى سبغى
ولم أقل للئيم : سدلى رمق
ولإن صديت وكان الصفو ممتنعاً
فالموت أنفـــع لى من مشرب رنق
وكم رغائب مال دونها رمق زهدت فيها ،ولم أقدر على الملق

---

(١) معجم البلدان حـ ٤ ص ١٣٦

(٢) الشنفرى : هو ثابت الأومى ، شاعر جاهلى لقب بالشنفرى لضخامة شفتيه أولأن الشنفرى هو الأسد أوالجمل أو الرجل النشيط، وهذا المعنى يناسب طبيعته ، وهومن الشعراء الفقراء الذين عرفوا فى تاريخ الأدب العربى بالصعاليك ، ومثله تأبط شرا ، والمسيب بن على ، وعمرو بن براق وغيرهم، واللامية هى قصيدته المعروفة «بلامية العرب» لأن قافيتها على حرف اللام ، وهى سجل لألوان الحياة فى صحراء العرب ، وتصوير لحياة الفقر والصعلكة ، وتبدأ بقوله :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فإنى إلى قوم سواكم لأميل

(٣) استف : أتناول ، الطول : الفضل والمنة ، متطول : يمتن يمن بالجميل الذى قدمه .

وقد ألين وأجفو فى محلهمـــا
فالسهل والحزن مخلوقان من خلق

فقلت له قول الشنفرى أبلغ لأنه نزه نفسه عن ذى الطول وأنت نزهتها عن اللئيم فقال : صدقت لأن الشنفرى كان يرى متطولا فينزه نفسه عنه ، وأنا لا أرى إلا اللئيم ، فكيف أكذب ؟ فخرج من اعتراضى إلى أحسن مخرج » .

وإن كان الأخير وسع المعنى وزاد عليه الظما ، وهو لا يرضى بالملق فى سبيل الوصول إلى أية رغيبة من الرغائب .

ولقد تتسع دائرة الموازنة لتشمل أكثر من مقطوعتين مع الإتفاق بينهما فى المعنى ، وهذه أربع مقطوعات فى معنى واحد.

فهو يروى شعراً للقضاعى يقول فيه :

ويلى على ساكن شاطىء الصراه	كدر حبيه على الحياة
ما تنقضى من عجب فكرتى	لقصة قصر فيها الولاة
ترك المحبين بلا حاكم	لم يجلسوا للعاشقين الولاة
وقد أتانى خبر ساءنى	لقولها فى السر : واسوأتاه
أمثل هذا يبتغى وصلنا	أما يرى ذا وجهه فى المراه

ثم يقول ياقوت : (١) « وهذا معنى حسن ترتاح إليه النفس ، وتهش إليه الروح ، وقد قيل فى معناه ويذكر ستة أبيات فى المعنى نفسه لشاعر لم يكشف عن اسمه ، والأبيات .

مرت فبثت فى قلوب الورى	إلى الهوى من مقلتيها الدعاه

---

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٣٩٩

فظل كل الناس من حسنها
ودلها المفرط أسرى عناه

فقلت : يامولاة مملوكنا
جودى لمن أصبحت أقصى مناه

ومن إذا بات فى ليلة
يصيح من حبك : وامهجتاه

فاقبلت تهزأ منى إلى ثلاث حور كن معها مشاه

ياأسم ! يافاطم ! يازينب
أما رأى ذا وجهه فى المراه

ثم يورد مقطوعة أخرى من أربعة أبيات حول هذا المعنى لشاعر لم يحدد اسمه وهى :

جارية أعجبها حسنها ومثلها فى الخلق لم يخلق

أنبأتها أنى محب لها فأقبلت تهزأ من منطق

والتفتت نحو فتاة لها
كالرشأ الأحور فى قرطق(١)

قالت لها : قولى لهذا الفتى
انظر إلى وجهك ثم أعشق

ثم يقول بعد أن عرض هذه المقطوعات الثلاث ، واشتراكها فى معنى واحد :

---

(١) الرشأ : الغزال إذا تحرك ومشى ، وقرطق : قباء

(١) وأحسن من هذا كله وأجمل وأعلق بالقلب قول أبي نواس وأظنه السابق إليه . . »

وقائـلة لهـا في حال نصح   علام قتلت هذا المستهاما ؟

فـكان جوابهـا في حسن مس
أأجمع بين هذا والحراما ؟(٢)

ولأبي نواس فضل السبق كما ظن ياقوت ولـكني اختلف معه فالمعنى الأول أجمل وأدق لأن المحبوبة في تلك القطع السابقة تحيل المستهام بها على مايقنعه بدمامته .

كما ذكر صاحبنا في مؤلفاته كثيراً من موازنات السابقين له، ولاشك في أنه قد استفاد منها، وتأثر بها ، ففي ترجمته لإبراهيم بن إسحاق الحربي يعرض موازنة للمبرد بين عدة مقطوعات من الشعر :

يقول :(٣) « وحدث محمد بن عبد الملك الـكاتب قال : كنت يوماً عند المبرد فأنشدنا :

جسمي معي غير أن الروح عندكم
فالجسم في غربة والروح في وطن

فليعجب الناس مني أن لي بدنا
لا روح فيه ولي روح بلا بدن

---

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٤٠٠ .

(٢) في معجم البلدان أأجمع وجهه هذا والحراما ، وعلى هذا يختل الوزن العروضي .

(٣) معجم الأدباء ج ١ ص ١٢١

ثم قال : ما أظن أن الشعراء قالوا أحسن من هذا .

قلت : ولا قول الأخرق ؟ قال : هيه (١) قلت الذى يقول :

فارقتكم وحييت بعدكم ما هكذا كان الذى يجب
فالآن الق النـاس معتذرا من أن أعيش وأنتم غيب

قال ولا هذا : قلت ولا قول خالد الكاتب ؟

روحان لى روح تضمنهما بلد وأخرى حازها بلد
وأظن غائبتى كشاهـــدتى بمكانها تجد الذى أجــد

قال ولا هذا . قلت إذا هويت شيئا ملت إليه ، ولم تعدل إلى غيره .

قال : لا ، ولكنه الحق ،فأتيت ثعلبا فأخبرته، فقال ثعلب:ألا أنشدته:

غابوا فصار الجسم من بعدهم ما تنظـــر العـين له فيـا (٢)
بأى وجـــه أتلقـــاهم إذا رأونى بعدهم حيـا ؟
يا خجلتى منهم ومن قولهم ما ضرك الفقد لنـا شيـا

قال : وأتيت ابراهيم الحربى فأخبرته فقال : ألا أنشدته :

يا حياتى ممن أحب إذا ما قلت بعـد الفـراق إنى حييت
ولو صدقت الهوى حبيبا على الصحة لما نأى لـكنت أموت(٣) .

---

(١) هيه وايه : اسم فعل أمر ومعناه طلب الزيادة من الـكلام عاما إن نون وخاصا إن لم ينون كما هنا .

(٢) فيا ، أى فيئا والفيء : الظل . حذف الهمزة لمناسبة الروى .

(٣) صدقه الهوى : أخلص فيه ، وقوله على الصحة ، أى على الوجه الصحيح .

قال : فرجعت إلى المبرد فقال : استغفر الله إلا هذين البيتين ، معنى بيتى إبراهيم » كما حفلت ترجمته لاسامه بن منقذ بعدة موازنات موضوعية حول المعانى المبتكرة أو المأخوذة من الآخرين .

٢ — السرقات الأدبية وما يتصل بها :

سبقت الإشارة إلى أن صاحبنا كان ينفر نفوراً شديداً ممن يسرقون مؤلفات الآخرين وينسبونها إلى أنفسهم ، أو يأخذون منها شيئا دون أن يذكروا ويحددوا مواطن أخذهم .

ونحن نعرض هنا لنوع آخر من السرقة شاع ذكره وكثرت مسمياته ، ولعل أكثرها شهرة اصطلاح السرقات الأدبية التى تتمثل فى اعتماد شاعر على شاعر آخر فيأخذ منه دون أن يبتدع شيئا جديداً ، وللسرقة الأدبية تفريعات كثيرة ليس من منهجنا التعرض لها ، كما أنه ليس لصاحبنا حديث مفصل عن السرقات الأدبية مثلما فعل سابقوه ولاحقوه من النقاد أمثال ابن رشيق وابن الأثير ، وانما نستطيع أن نجد فى مؤلفاته كثيراً من الموازنات التى حكم فيها بالأخذ لشاعر من آخر ، فدراسته لهذا الموضوع دراسة تطبيقية ، فهو يوازن بين الأشعار بهدف معرفة نواحى الاتباع أو الابتداع حتى يصل إلى الآخذ والمأخوذ منه ، وهو يعبر عن السرقة بالأخذ ، أو هكذا يطلق عليها ، وهى تسمية مهذبة لطيفة فى مجال النقد ، وأفضل بكثير من كلمة السرقة المنفرة .

كما أننى أذكر أن الحكم بالأخذ لا يتسنى لكل فرد ، وإنما يقدر عليه أصحاب الهمم العالية الذين توثقت صلاتهم بالشعر حفظا وفهما وتذوقا ، وأرى أن صاحبنا واحد من هؤلاء .

ففى ترجمة قابوس الديلمى الملقب بشمس المعالى قدم ياقوت لمقطوعة من شعره فقال :

(١) « وكان قد تمت عليه نكبة أخرجته من مقر عزه وموطن ملكه، فشتته عن الأوطان وألحقته بخراسان، فأقام بها برهة من الزمان إلى أن أسفر صبحه وفاز بعد الخيبة قدحه(٢)، وتحرج الزمان من جوره عليه فرد ملكه إليه فقال في حال نكبته، ويذكر له هذه الأبيات.

قل للذى بصروف الدهر عيرنا ... هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر يطفو فوقه جيف ... ويستقر بأقصى قعره الدرر
فان تكن عبثت أيدى الزمان بنا ... ونالنا من تأذى بؤسسة ضرر
ففى السماء نجوم غير ذى عدد ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ثم قال ياقوت بعد أن أورد هذه الأبيات .

(٣) « وأما البيت الثانى فأخذه من قول ابن الرومى » :

دهر علا قدر الوضيع به ... وغدا الشريف يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه ... سفلا وتعلو فوقه جيفه

ويواصل تتبعه لشعر الرجل فيقول :

(٤) « وقوله وفى السماء نجوم مأخوذ من قول أبى تمام :

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت ... عيدان نخل ولا يعبان بالرتم(٥)
بنات نعش ونعش لا كسوف لها ... والشمس والبدر منها الدهر فى الرقم(٦)

---

(١) معجم الأدباء ج١٦ ص٢٢٣
(٢) القدح : السهم قبل أن يفصل ويراش ، والمراد النصيب .
(٣) معجم الأدباء ج١٦ ص٢٢٤
(٤) المرجع السابق ج١٦ ص٢٢٤
(٥) الرتم : شجر بذره كالعدس واحدته رتمه .
(٦) بنات نعش : كواكب ، والرقم : السواد ، ويعنى به الخفاء للكسوف والخسوف .

وفى موضع آخر تراه يذكر شعراً لرجل جاهلى من بنى عقيل، ولم يحدد إسمه والبيت الأخير من هذا الشعر هو قوله :

يثيران من نسج الغبار عليهما قميصين أسمالا ويرتديان(١)

قال ياقوت :

(٢) «زعموا أن أول من جعل الغبار ثوباً هذا الشاعر ثم تبعته الخنساء فقالت :

جارى أباه فأقبـــلا وهما يتعاوران مـــلاءة الفخر

فأخذه عدى بن الرقاع فقال :

يتعاوران من الغبار ملاءة بيضاء محـكمة هما نسجاها

فصاحبنا أمام ثلاثة أبيات رأى أولها هو المتقدم فحكم له بالأصالة والسبق وإن كان الحكم مبنياً على زعم السابقين، ثم رأى أن الخنساء تبعته فى هذا المعنى ، وهذه التبعية يصدق عليها الاحتذاء الذى عده عبد القاهر الجرجانى أخذاً وسرقة ، ثم قرر أن عدى بن الرقاع قد أخذ معنى بيته من الخنساء ، وهذا واضح بمجرد النظر إلى البيتين . والأمثلة كثيرة على هذا النهج ، بل أن ترجمة واحدة فى معجم الأدباء كترجمة أسامة بن منقذ تعطينا أكثر من مثال حكم فيها ياقوت بالأخذ بين الشعراء ففيها ينقل الشعر عن عماد الدين الأصبهانى ، ثم يحكم فيه بادئاً كلامه بقوله : « قلت أنا » ويذكر مقولته على النمط السابق .

كما أن من منهجه ألا يحكم بالأخذ إلا إذا كان متأكداً من الحكم

---

(١) الضمير فى « يثيران » راجع إلى الجأبين فى البيت السابق ، والجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش .

(٢) معجم البلدان جـ ٣ ص ١٨٥ .

وقابضاً على الدليل بكلتا يديه وإلا فقد قرأنا له أحكاماً فى هذا الموضوع لكنه بدأها بأفعال الظن لا بأفعال اليقين .

فهو ينقل شعراً مكتوباً على حائط من حيطان سامراء وهو :

حكم الضيوف بهذا الربع أنفذ من
حكم الخلائف آبائى على الأمم

فكل مافيه مبذول لطارقه ولا ذمام به إلا على الحرم

ثم يقول :(١) « وأظن هذا المعنى سبق إليه هذا الكاتب ، فإذا هو مأخوذ من قول أرطاه بن سهية المرى حيث قال :

وإنى لقوام لدى الضيف موهناً
إذا أغدف الستر البخيل المواكل(٢)

دعا فأجابته كلاب كثيرة على ثقـــة منى بأنى فاعل

وما دون ضيفى من تلاد تحوزه لى النفس إلا أن تصان الحلائل

ويذكر فى ترجمة المفجع هجاء لبعض الشعراء وهو :

إن المفجع ويـــله شر الأوائل والأواخر

ومن النـــوادر أنه يملى على الناس النوادر

ويقول ياقوت :(٣) « كأنه من قول أبى تمام :

ومالك بالغريب يد ولكن تعاطيك الغريب من الغريب

ولا يعتبر ياقوت التقارب فى المعنى من باب الأخذ أو السرقة ، ففى

---

(١) معجم البلدان حـ ٣ ص ١٧٧

(٢) أغدف : أرخى .

(٣) معجم الأدباء حـ ١٧ ص ١٩٣

ترجمته لعلى بن هارون المنجم ينقل شعراً له من كتاب « نشوار المحاضرة » للتنوخى فى جارية صفراء ، وقد شكا الصفراء مرة إلى الطبيب يقول :

جس الطبيب يدى وقال مخبراً   هذا الفتى أودت به الصفراء
فعجبت منه إذا أصاب وما درى   قولا وظاهر ما أراد خطاء

وبعده قال ياقوت:(١) « قلت أنا: وقريب من هذا قول الوزير المهلبى:

وقالوا للطبيب أشر فإنا   نعدك للعظيم من الأمور
فقال شفاؤه الرمان مما   تضمنه حشاه من السعير
فقلت لهم : أصاب بغير قصد   ولكن ذاك رمان الصدور

الإغارة :

والإغارة : نوع من السرقة ففيها يعمد الشاعر إلى أخذ بيت لآخر وينسبه لنفسه، ثم يتبعه الناس فى ذلك ، وهذا ماعناه ياقوت عندما كتب عن الحسين بن الضحاك يقول :(٢) « وكان شاعراً مطبوعاً حسن التصرف فى الشعر ، وكان أبو نواس يغير على معانيه فى الخمر ، فإذا قال شيئاً فيها فسبه الناس إلى أبى نواس ، وله غزل كثير أجاد فيه ، وهو أحد الشعراء المطبوعين الذين أغناهم عفو قرائحهم عن التكلف ، ولقد ذكر شعراً له فى فنون متعددة ومنها الغزل والخمر لكنه لم يورد شاهداً يؤكد به وجهته من أن أبا نواس كان يغير على معانيه فى الخمر فعلا .

توارد الخواطر :

يرى ياقوت عدم التسرع فى اتهام الأدباء بالسرقة لمجرد وجه شبه بين نصين من الشعر ، فقد يقع للمتأخر معنى يسبقه إليه المتقدم من غير أن يلم به ، وكما وقع للأول وقع للثانى ، ولذلك فهو يرى كثيراً مما عد من

(١) معجم الأدباء حـ ١٥ ص ١١٩
(٢) معجم الأدباء حـ ١٠ صـ ٦

سرقات الشعراء يرجع إلى توارد الخواطر ووقوع حافر على حافر حسب تعبيره، وسوف أذكر هنا مثالين يتضمنان شعراً له يروى فى الأول منهما شعراً لجعفر الموصلى يقول فيه :

أيها القرم الذى أعوزنا فيه النديد(١)
وأعانته على المجد مساع وجدود(٢)
عجل النجح فإن المطل بالوعد وعيد

ويقول ياقوت فى عقب هذه الأبيات :(٣) « وهذا معنى عن لى من قبل أن أقف على هذه الأبيات ، وكنت أعجب كيف فات الأوائل لاشتماله على مطابقة التجنيس وحسن المعنى مدة ، حتى وقفت على ماههنا ، فعلمت أن أكثر ماينسب إلى الشعراء من السرقات . إنما هو توارد الخواطر . ووقوع حافر على حافر . وأما أبياتى فهى(٤) :

ياسيداً بذ من يمشى على قدم	علما وحلماً وآباء وأجدادا(٥)
ماذا دعاك إلى وعد تصيره	بالخلف والمطل والتسويف إبعادا
لاتعجلن بوعد ثم تخلفه	فيثمر المطل بعد الود أحقاداً
فالوعد بزر ولطف القول منبته	وليس يجدى إذا لم يلق حصاداً

ويذكر شعراً فى المثال الثانى لشمس المعالى قابوس إلى عضد الدولة. وقد أهدى له سبعة أقلام :

قد بعثنا إليك سبعة أقلا	م لها فى البهاء حظ عظيم
مرهفات كأنها ألسن الحيـ	ـات قد حاز حدها التقويم
وتفاءلت أن ستحوى الأقالـ	ـيم بها كل واحد إقليم

(١) القرم : السيد العظيم . والنديد : الند والشبيه .
(٢) الجدود : جمع جد . (٣) معجم الأدباء حـ ٧ ص ٢٠٤
(٤) سبق الحديث عن هذه الأبيات عند الكتابة عن شعر ياقوت . وكذلك المقطوعة التالية (٥) بذ : فاق وسبق .

ثم قدم ياقوت لأبيات له فقال :

٦ —(١)وكنت فى سنة سبع وستمائة قد توجهت إلى الشام، وفى صحبى كتب من كتب العلم أتجر فيها ،وكان فى جملتها كتاب صور الأقاليم للبلخى، نسخة رائعة مليحة الخط والتصوير فقلت فى نفسي : لو كانت هذه النسخة لمن يجتدى بها بعض الملوك ، ويكتب معها هذه الأبيات ، وقلتها ارتجالا، لكان حسنا ، والأبيات فى معنى أبيات قابوس ، ولم أكن شهد الله وقفت عليها ولا سمعتها وهى :

ولما رأيت الدهر جار ولم أجد
من الناس من يعدى على الدهر عدواكا
ركبت الفلا يحدو بى الأمل الذى
يدنى على بعد التنائف مثواكا
ورمت بأن أهدى إليك هدية
فلم أر مايهديه مثلى لشرواكا
فجئتك بالأرضين جمعا تفاؤلا
لعلمى بأن الفال رائد عقباك
فخذ هذه واستخدم الفلك الذى
براه إلهى كى يدور ببغياكا

إن ما ذكره صاحبنا فى هذا الموضع يدور فى فلك التطبيق ، وهو يعبر عن السرقة بالأخذ ولا يعيب التقارب فى المعنى أو ما يعبر عنه بالاحتذاء ، ولا يقبل الاغارة بين الشعراء ويبرء ساحة الشعراء من تهم كثيرة حول السرقات لرجوعها إلى توارد الخواطر ، ويحتكم إلى النص قبل القواعد ذات التقاسيم العديدة .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ صـ ٢٢٥

٣ — التضمين :

والتضمين من المسائل التي تعرض لها ياقوت في دراسته لشعر من يترجم لهم ، والمقصود به أن يأخذ الشاعر بيتاً أو شطرة من شاعر آخر، فيذكره في شعره متمثلا به .

والتضمين بعيد عن السرقة ، إذا لجأ الشاعر إلى الاستعانة بالأبيات المشهورة، أو أشار إلى صاحبها لبيان أنها ليست من مقوله، والشعراء العظام لا يلجأون كثيرا إلى التضمين . ولقد رأينا كثيراً من الشعراء يضمنون في شعرهم .وبخاصة شعراء العصر العباسي الثاني .وقد توسع القاضي الفاضل فيه توسعا ملحوظا .

وفي تتبع ياقوت للتضمين نراه يرصد منه ثلاثة أنواع :

(أ) التضمين بالبيت كاملا :

ذكر منه نماذج كثيرة . ففي ترجمته لعلي بن أحمد الغالي يأتي له بمقطوعة من الشعر قالها عندما باع كتاب «الجمهرة» لابن دريد مجبراً مكرها لفقره واحتياجه . والبيت الأخير منها يقول :

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم من رب بهن ضنين(١)

ويذكر ياقوت (٢) : «والبيت الأخير من هذه الأبيات(٣) تضمين قاله

---

(١) كرائم : جمع كريمة . وهي الشيء النفيس الذي يكرم على أهله وضنين : بخيل

(٢) معجم الأدباء حـ١٢ ص ٢٢٩

(٣) هو البيت السابق

أعرابي فيما ذكره الزبير بن بكار عن يوسف بن عباس قال : ابتاع حمزة ابن عبدالله بن الزبير جملا من أعرابي بخمسين دينارا . ثم نقده ثمنه. فجعل الأعرابي ينظر الى الجمل ويقول :

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك
كـرائم من رب بهن ضنين

فقال له حمزة : «خذ جملك والدنانير لك . فانصرف بجمله والدنانير»
ويذكر ياقوت أبياتاً لأحمد بن إبراهيم اللؤلؤى وأخرها قوله :

حرمت منايا منك إن كان الذى
تقـوله الواشون عـنى كما قالوا

وبعده قال ياقوت :

(١)وهذا البيت الأخير تضمين من أبيات لها قصة أناذاكرها : ويذكر القصة ويورد فيها أبياتا للخليجى يقول فى أولها :

برئت من الإسلام . إن كان الذى
تقـوله الواشون عنى كما قالوا

ثم بدل هذا البيت الى :

حرمت منايا منك إن كان الذى
تقوله الواشون عـــنى كما قالوا

وهذا ما ضمنه أحمد بن إبراهيم اللؤلؤى .

---

(١) معجم الأدباء حـ٢صـ٢٢٠

(ب) التضمين ببيتين كاملين :

وهذا ما حدده ياقوت فى ترجمته لمحمد بن الجهم عندما ذكر له قصيدة فى مدح الفراء . ووصف مذهبه فى النحو . وجاء فى آخرها هذان البيتان.

كيف نومى على الفراش ولما   يشمل الشام غادة شعواء(١)

تذهل المرء عن بنيه وتبدى   عن براها العقيلة العذراء(٢)

ويذكر أن هذا الشاعر ضمن شعره هذين البيتين وهما لعبد الله بن قيس الرقيات .

(ج) التضمين بأعجاز الأبيات :

وهذا كثير ذكر منه أبياتاً من شعر محمد بن الحسن الحاتمى ضمنها أعجاز أبيات للنابغة . وهى فى الحماسة . وذكر للنابغة قوله :

لايهنأ الناس ما يرعون من كلأ

وما يسوقون من أهل ومن حال

ثم ذكر للحاتى :

وليلة ضل عنها الصبح داجية   لبستها بمطول الجرى هطال

وقد رمى البين شعب الحى فاقتسموا

أيدى سبا بين تقويض وترحال

---

(١) شعواء : متفرقة ممتدة

(٢) براها : جمع بره : وهى كل حلقة من سوار وخلخال وقرط . والعقيلة من النساء : الكريمة المخدرة والعذراء : البكر

فناسبت أنجم الآفاق عيسهم ... وما يسوقون من أهل ومن مال
ترى الهلال نحيلا فى مطالعه ... أمسى ببلدة لاعم ولا خال
والجدى كالطرف يستن المراح به ... الى ذوات الذرى حمال أثقال

فالشطر الأول فى هذه الأبيات من عمل الحاتمى . والشطر الثانى من تضمينه .

ولا يتأتى الحكم على ما فى الشعر من التضمين لكل واحد . وإنما يقوم به أصحاب الهمم العالية الذين أكثروا من قراءة الشعر وفهمه ودرسه . ومعرفه أغواره وأسراره .

٤ — تحقيق الشعر ونسبته الى قائليه :

حرص ياقوت فى نقده للشعر أن يذكر قائله . وعند ما يجد البيت أو المقطوعة أو القصيدة متنازعاً فيها . يورد كل من أرعاها أو نسبت إليه .

ففى ترجمته للصاحب بن عباد يذكر أبياتا له نقلا عن الثعالبى . ومنها مقطوعة تنتهى بقوله :

والله لا راجعته ولو أنه ... كالبدر أو كالشمس أو كبويه

أخذه من قول ابن المعتز :

والله لا كلمتها ولو أنها ... كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفى

ثم يقول ياقوت :

(١) هكذا ذكر الثعالبى ونسب هذا البيت إلى ابن المعتز . وهو لأبى بكر محمد بن السراج النحوى . وله قصة ظريفة . وهى مذكورة فى أخباره من هذا الكتاب) .

---

(١) معجم الأدباء جـ ٦ ص ٢٩٣

وينقل ياقوت عن المرزبانى شعراً للفتح بن خاقان يقول فيه :

بنى الحب على الجور فلو
أنصف المحبوب فيه لسمج

ليس يستملح فى حكم الهوى
عاشق يحسن تأليف الحجج

ثم يقول:(١) « وهذان البيتان يرويان لعلية بنت المهدى » .

وفى ترجمته لحمدة بنت زياد يورد خمسة أبيات ويقدم لها قائلا :

(٢) « وقد نسب إليها أهل المغرب الأبيات الشهيرة المنسوبة للمنازى، الشاعر المشهور ... ويذكر الأبيات وأولها :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

ثم يقول فى نهايتها : « وقد أجمع أهل المشرق على نسبة هذه الأبيات للمنازى ، وهو أحمد بن يوسف المنازى المتوفى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة وأنه عرضها على أبى العلاء المعرى، فجعل المنازى كلما أنشده المصراع الأول من كل بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثانى، كما نظمها المنازى ، ونسبها أدباء الأندلس ومؤرخوها إلى حمدة وجزم بذلك طائفة منهم ، وفيهم من رواها لها قبل أن يخلق المنازى والله تعالى أعلم » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٦ ص ١٨٤
(٢) المرجع السابق حـ ١٠ ص ٢٧٦
(٣) المرجع السابق حـ ١٠ ص ٢٧٧

وفى معجم البلدان يعرض ياقوت لهذه الأبيات عند حديثه عن المنازى ولا يشير إلى ما ذكرناه فى معجم الأدباء حول الخلاف فى نسبتها، ولا يتردد فى إلحاقها بالمنازى قائلا :

(١) « وهو القائل يصف واديا ، ولم أسمع فى معناه أحسن منه معنى وجزالة ... » ويذكر الأبيات .

وربما يقع التنازع فى الشعر بين أكثر من اثنين مثل القصيدة التى ذكرت منسوبة لعلى بن محمد التنوخى التى جاء فيها :

وراح من الشمس مخلوقة   بدت لك فى قدح من نهار
هواء ولكنه ساكن   وماء ولكنه غير جارى
إذا ما تأملته وهو فيه   تأملت ماء محيطا بنار

وبعد أن أورد ياقوت منها ثمانية أبيات قال : (٢) « وقد تنوزعت هذه الأبيات ورويت لغيره فقيل : إنها لأبى نصر الأنطاكى النحوى وغيره » .

ونقل إلى معجم الأدباء قصيدة طويلة للحسين بن عبد الله البغدادى ثم قال فى التقديم لها :

« (٢) وهو صاحب القصيدة الرائية نسبت للشيخ الرئيس ابن سينا وليست له » ويبدو أن صاحبنا متأكد من قوله ، لجزمه فى الحكم على غير عادته ، ثم يؤكد الربط بين القصيدة والشاعر فيقول :

---

(١) معجم البلدان حـ ٥ صـ ٢٠٢
(٢) معجم الأدباء حـ ٤ صـ ١٩١

(١) « وقد دلت هذه القصيدة على علو كعبه فى الحكمة والاطلاع على مكنوناتها ، وقد سارت بها الركبان ، وتداولها الرواة » .

وهكذا نلاحظ أن صاحبنا ينقد الشعر بدقة ويتأكد من نسبته لذويه، ويذكر ما تنوزع فيه ؛ ولا يلحق بيتاً أو مقطوعة أو قصيدة برجل إلا إذا كان واثقا مما يقول ولقد اخطأ كثيراً من السابقين أمثال أبى الفرج الأصبهانى والمرزوقى والثعالبي والتنوخى وغيرهم عندما نسبوا الشعر لغير أصحابه وقائليه .

٥ — بين النقد والبلاغة :

لا يغفل ياقوت المسائل البلاغية عند نقده للشعر ، وهذه بعض النكات التى يعرض لها :

(ا) المبالغة :

لقد تابع فى نقده للشعر نوعاً واحداً من المبالغة ، وهو ما أطلق عليه اسم الغلو أو الإفراط، وذكر منه أمثلة من شعر أبى تمام والمتنبى، ولم يترك بيتاً يحمل مبالغة إلا ذكره بالشرح وإبداء الرأى . بل وجدته أحيانا يذكر فيه أكثر من رأى ، وسوف أذكر نموذجا أوضح فيه طريقته ورأيه حول المبالغة ، وما يقع فيها من إفراط .

يقول :(٢) « وقال أبو الطيب يمدح سيف الدولة :

بذرى اللقان غبارا فى مناخرها
وفى حناجرها من ألس جرع

---

(١) المرجع السابق حـ ١٠ ص ٢٣

(٢) معجم البلدان حـ ١ ص ٥٥

كأنما تتلقـــاهم لتسلكهم
فالطعن يفتح فى الأجواف ما تسع

وهذه من إفراطات أبى الطيب الخارجة إلى المحـال ، فإنه يقول : إن هذه الخيل شربت من ماء الس ووصلت إلى اللقان ، وبينهما مسافة بعيدة ، فدخل غبار اللقان فى مناخرها قبل أن يصل ماء آلس فى أجوافها . ويقول فى البيت الثانى : إن الطعن يفتح فى الفرسان طريقـا بقدر ما يسع الخيل فيسلكونه فيكون مسيرهم إلى مواضع طعناتهم » وأشار إلى إسراف المتنبى فى المبالغة بعد شرحه السابق عندما عرض للبيت الأول منهما فى حديثه عن بلدة لقان فقال :

(١) « وذكر المتنبى فى قوله :

يذرى اللقان غبارا فى منـاخرها
وفى حناجرهـا من آلس جرع

وهذا البيت من إسرافات المتنبى فى المبالغة ، لأنه يقول : إن هذه الخيل شربت من ماء آلس ، وهو بلد بالروم ، فلم يتعد حناجرها حتى أذرى اللقان الغبار فى مناخرها يعنى سارت من آلس إلى اللقان فى مدة هذه مقدارها وبينهما مسافة بعيدة » .

(ب) التجنيس وحسن المعنى :

الجناس أو التجنيس عند علماء البديع : هو تشابه الكلمتين فى اللفظ فقط مع المماثلة التامة أو بدونها قليلا مع الاختلاف بين اللفظين فى المعنى وهو من المحسنات اللفظية .

---

(١) معجم البلدان حـ ٥ صـ ٢١

والتجنيس المستحسن عند ياقوت هو ما انضم إليه المعنى الجيد الحسن ويمثل له بقول جعفر بن محمد الموصلى :

أيها القرم الذى أعوزنا فيه النديد
وأعانته على المجد مساع وجدود
عجل النجح فإن المطل بالوعد وعيد

ويرى هذا النمط الشعرى متحققا فى شعر ابن ماكولا ، ويقول: «ومن مستحسن شعره فى التجنيس . . . »(١) ويختار منه عدة مقطوعات ، ومنها هذان البيتان :

أليس وقوفنا بديار هند وقد رحل القطين من الدواهى؟
وهنـــد قد غدت داءا لقلبى
إذا صدت ولكن الدوا هى(٢)

ويصف الحسن الفارقى فيقول :(٣) «شاعر رقيق الحواشى مليح النظم ، متمكن من القافيـة كثير التجنيس ، قلما يخلو له بيت من تصنيع وإحسان بديع »

ولقد أعرض ياقوت عن كثير من الأشعار التى تغرق فى الجناس على حساب المعنى ويرى رأى عبد القاهر الجرجانى فى تفضيل الجناس إذا قرن بالمعنى المقبول الحسن .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٥ صـ ١٠٤
(٢) الدواهى : كلمتان الدواء وهى ، ويريد أن يقول : هى الدواء لقلبى مع أنها أصل الداء .
(٣) معجم الأدباء حـ ٨ صـ ٥٤

وفي نقده للشعر يرى وجوهاً بلاغية أخرى فينبه عليها كالاستطراد الذي يشرحه ويمثل له بمثالين في ترجمته للبحتري ، والالتفات الذي يعرض له من خلال الشعر أيضا ويراه في قول علقمة بن عبده التميمي :

وما أنت ؟ أم ما ذكره ربيعة
تحل بأين أو بأكناف شريب

ويقول : (١) وهو من بلاغة العرب التي ورد مثلها في الكتاب العزيز وهو صرف الخطاب من المواجهة إلى الغائب ، والمراد به المخاطب الحاضر . لأنه أراد في البيت : أم ما ذكرك ربيعة فصرفه عن المواجهة » .

وهذه المسائل . وإن كانت بلاغية إلا أن صاحبنا أدركها وعلق عليها في حديثه عن نقد الشعر والتعريف بصناعته .

(١) معجم البلدان حـ ٥ ص ٤٤٥

الفصل الرابع

مصادره النقدية

ليس فى الإمكان الإلمام الكامل بكل المصادر التى اطلع عليها ياقوت لأنها تعد بالآلاف وليس بالمئات، ولأن الكثير منها ضائع لم يصل إلينا، أولازال مخطوطا لم يطبع .

وإذا أردنا الرجوع إلى كل مصادره التى قرأها الناس مطبوعة منشورة فسوف نخرج بذلك عن صميم موضوعنا ، خاصة وأن عدداً كبيراً من مصادره لايرتبط من قريب أو بعيد بالأدب ونقده. ولا يبقى إلا أن نتحدث عن أهم واشهر المؤلفات التى اطلع عليها ونقل عنها ، وتكون منها نقده الأدبى ومنهجه فى الحكم على النصوص الأدبية ، واستعان بها فى معالجة بعض القضايا النقدية التى شغلت النقاد فى زمانه .

١ ـ الأغانى : لأبى الفرج الأصبهانى « على بن الحسين » .

يأتى كتاب الأغانى لأبى الفرج فى مقدمة الكتب التى استفاد ياقوت بها ، ونقل إلى مؤلفاته منها .

وكتاب الأغانى موسوعة كبيرة ، وتراث أدبى ضخم ، يشهد بمقدرة صاحبه ، وسعة علمه ، ونشاطه الأدبى .

والكتاب أصل من أصول الأدب ونقده يتفق مع معجم الأدباء فى نواح كثيرة ، فكل منهما يجمع كثيراً من شعر الشعراء وأخبارهم ، فلقد ترجم أبو الفرج لأكثر شعراء العرب من جاهليين وإسلاميين ، وترجم

لكثير من المغنيين فى الدولتين الأموية والعباسية ، وجعل مبناه على الأصوات المائة المختارة للرشيد .

ولقد طبع الأغانى أكثر من مرة ، ولكن طبعته الثالثة التى نهضت بها دار الكتب المصرية تعد أفضل وأدق الطبعات (١).

ترجم ياقوت لأبى الفرج فى معجم الأدباء فذكر أنه على بن الحسين ابن محمد بن الهيثم ، وبعد أن ذكر نسبه مطولا قال : (٢) «العلامة النساب الإخبارى الحفظة (٣) الجامع بين سعة الرواية والخلافة فى الدراسة لا أعلم لأحد أحسن من تصانيفه فى فنها وحسن استيعاب مايتصدى لجمعه ، وكان مع ذلك شاعراً جيداً مات فى أربع عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فى خلافة المطيع لله ، ومولده سنة أربع وثمانين ومائتين » .

وفى هذه الترجمة تحدث ياقوت عن كتاب الأغانى قائلا :

(٤) « لعمرى إن هذا الكتاب لجليل القدر، شائع الذكر ، جم الفوائد عظيم العلم ، جامع بين الجد البحت والهزل النحت، وقد تأملت هذا الكتاب وعنيت به ، وطالعته مراراً ، وكتبت منه نسخة بخطى فى عشر مجلدات ، ونقلت منه إلى كتابى الموسوم بأخبار الشعراء » .

---

(١) الطبعة الأولى للكتاب وهى طبعة بولاق فى عشرين جزءاً والطبعة الثانية ، وهى طبعة سامى فى واحد وعشرين جزءا ، والطبعة الأخيرة ، وهى التى قامت وزارة الثقافة المصرية باصدارها فى أربعة وعشرين جزءاً وهى مصورة عن طبعة دار الكتب ومكملة لها .

(٢) معجم الأدباء حـ ١٣ صـ ٩٥ .

(٣) الحفظة : الكثير الحفظ .

(٤) معجم الأدباء صـ ١٣ صـ ٩٨ .

وعند حديث ياقوت عن مؤلفات أبى الفرج كتب عن الأغانى يقول :

« وله تصانيف منها كتاب الأغانى ، وقد أورد فيه مادل به على اتساع علمه و كثرة حفظه » .

ويذكر ياقوت من واقع علمه بالتجارب الثمن الذى وصل إليه هذا الكتاب ، ويوضح كيف كان الملوك والأمراء يحرصون على اقتنائه قال: (١) « (٢) قرأت على ظهر جزء من نسخة بكتاب الأغانى لأبى الفرج : حدث ابن عرس الموصلى وكان المترسل بين عز الدولة ، وبين أبى تغلب بن نصر الدولة ، وكان يخلف أبا تغلب بالحضرة قال : كتب إلى أبو تغلب يأمرنى بابتياع كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى فابتعته له بعشرة آلاف درهم من صرف ثمانية عشر درهما بدينار فلما حملته إليه ووقف عليه ورأى عظمة وجلالة ماحوى قال : لقد ظلم وراقة المسكين ، وانه ليساوى عندى عشرة آلاف دينار ولو فقد لما قدرت عليه الملوك إلا بالرغائب (٣) وأمر أن يكتب له نسخة أخرى ويخلد عليها إسمه ، فابتدأ بذلك ، فماأدرى أتمت النسخة أم لا ؟ » .

وفى ترجمة أحمد بن إبراهيم اللؤلؤى ، ومن خلال كلام ياقوت عن التضمين نراه ينقل عن الأغانى أكثر من صفحة ، وربما قال : قال صاحب الأغانى تاركا اسمه وهو « على بن الحسين » أو كنيته وهى « أبو الفرج » .

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٣ ص ١٢٥ .

(٢) جاءت هذه الفقرة فى التصدير لطبعة دار الكتب المصرية لكتاب الأغانى .

(٣) الرغائب جمع رغيبة : وهى المال الكثير .

ولقد نقل قصيدة من الشعر عن المبرد فى مادة « دولاب » بمعجم البلدان وبعد أن ذكر مايقرب من نصفها نقل رأياً لأبى الفرج فى تحقيق ثلاثة أبيات منها ، وهذا التصرف من ياقوت يوحى باهتمامه بآراء أبى الفرج الموجودة بكتابه (الأغانى) بخاصة :

ولقد اعتمد صاحبنا كثيراً على هذا الكتاب بالنقل كما سبق أو بالتصرف زيادة أونقصا قال أبو الفرج :[1] (أخبرنى محمد بن الحسن بن دريد قال : حدثنى أبو حاتم قال : اجتمع أبو العتاهية ومحمد بن مناذر فقال له أبو العتاهية: ياأبا عبدالله كيف أنت فى الشعر ؟ فقال : أقول فى الليلة إذا سنح القول لى واتسمت القوافى عشرة أبيات إلى خمسة عشر فقال له أبو العتاهية ، ولكنى لو شئت أن أقول فى الليلة ألف بيت لقلت . فقال له ابن مناذر أجل والله إذا أردت أن أقول مثل قولك .

ألا ياعتبة الساعة أموت الساعة الساعة

لقلت ، ولكنى لاأعود نفسى مثل هذا الكلام الساقط ولا أسمح لها به فخجل أبو العتاهية وقام يجر رجله) .

ويورد ياقوت هذه المقالة على لسان أبى العتاهية مع توسع فيها دون أن يشير إلى كتاب الأغانى (٢) .

٢ — الفهرست لمحمد ابن اسحاق النديم .

ذكر ياقوت فى الترجمة المختصرة التى عقدها لابن اسحاق النديم أنه صنفه

---

(١) الأغانى حـ ١٧ صـ ١١ طبعة بولاق سنة ١٨٦٨ م .

(٢) راجع معجم الأدباء حـ ١٩ صـ ٥٧ .

كتاب الفهرست فى سنة سبع وسبعين وثلاثمائه . وتحدث عن هذا الكتاب حديثا مختصرا لا يتناسب مع أهمية الكتاب ، فلقد كنت منتظراً أن اقرأ كلاما كثيراً حول هذا الكتاب ، فصفحات معجم الأدباء تكاد تنطق بكثرة النقول عن الفهرست ولنرجع إلى ماقاله ياقوت فى ترجمة ابن النديم : (١)
محمد بن اسحاق النديم ... ، مصنف كتاب الفهرست الذى جود فيه واستوعب استيعابا يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحققه لجميع الكتب ، ولا أبعد أن يكون قد كان وراقاً يبيع الكتب) .

وتأتى مقدمة هذا الكتاب موجزة محددة تكشف عن موضوعه ، وتحدد سنة تأليفه يقول ابن النديم : (٢)) هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها فى أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ الابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلثمائة للهجرة » وكتاب الفهرست مطبوع فى مجلد واحد ، ومع أن صفحاته تتجاوز الخمسمائة بقليل إلا أنه عظيم الفائدة لجمعه أسماء الكتب العربية المنقوله من الأمم المختلفة أو المؤلفة باللسان العربى ، كما أنه يترجم لمؤلفيها ويذكر أخبارهم ويعين تاريخ وفياتهم .

والكتاب عبارة عن عشر مقالات وكل مقالة تشتمل على عدة فنون مابين ثلاثة وخمسة وثمانية ، فالمقالة الثالثة مثلا تشتمل على ثلاثة فنون فى الأخبار والآداب والسير والأنساب

والفن الأول فى أخبار الإخباريين والرواة والنسابين وأصحاب السير والأحداث وأسماء كتبهم

---

(١) معجم الأدباء حـ ١٨ صـ ١٧ .
(٢) الفهرست : المقدمة ، طبعة دار المعرفة بيروت .

والفن الثانى فى أخبار الملوك والكتاب والمترسلين وعمال الخراج وأصحاب الدواوين وأسماء كتبهم .

والفن الثالث فى أخبار الندماء والجلساء والمغنيين .. إلخ

والكتاب على هذا النمط يجمع ما ألف الناس إلى آخر القرن الرابع الهجرى ولقد اعتمد ياقوت على كتاب الفهرست فى تحديد مصنفات بعض الرجال المترجم لهم بمعجم الأدباء والذين لهم تراجم بكتاب الفهرست، وهذا الكتاب أهم مصدر اعتمد عليه ياقوت فى نقده للكتب والمؤلفات والذى سبق الحديث عنه .

ففى ترجمة إبراهيم نفطويه يذكر ياقوت مؤلفاته بالاعتماد على كتاب « الفهرست » فهو يقول : « قال محمد بن إسحاق النديم — ثم يسرد مؤلفاته » وبموازنة ما ذكره بما جاء فى الفهرست تبين أن ثلاثة كتب جاءت فى معجم الأدباء ولم ترد بالفهرست وهى كتاب البارع ، وكتاب الوزراء وكتاب أمثال القرآن ، ولا ندرى إذا كانت هذه الكتب قد سقطت من الفهرست أم زادها ياقوت فى معجمه دون أن يبين ذلك .

ويكاد ياقوت يتفق مع ابن النديم فى ذكر مصنفات جحظه البرمكى إلا فى كتاب واحد ذكره ياقوت بعنوان « كتاب ديوان شعره » .

وفى ترجمة الحسن بن عبد الله الأصبهانى ينقل ياقوت عن ابن إسحاق مع خلاف أيضا بين ما نقله وما هو موجود بالفهرست .

كما لاحظت أن صاحب معجم الأدباء لا يقتصر على أسماء الكتب وما يتصل بها فيما ينقله عن الفهرست ، ولكنه ينقل عنه مثلا بعضاً من أخبار الرجال المترجم لهم ، فياقوت يستعين بما كتبه ابن النديم عن الحسن ابن عبد الله المرزبانى من حيث المولد والنشأة والإمامة فى النحو وغيرها ،

ونقل ياقوت قائمة بأشعار القبائل التى عملها السكرى وزاد عليه عـــدداً من القبائل .

٣ — يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى

طبع كتاب يتيمة الدهر فى مصر لأول مرة فى أربعة أجزاء سنة ١٣٥٢هـ ١٩٣٤ م ولقد ارتضى مصحح الكتاب ما قاله ابن قلاقس الاسكندرى تعليلا للتسمية بيتيمة الدهر ، وقوله مضمن فى بيتين من الشعر هما:

أبيات أشعار اليتيمة أبكار أفكار قديمة
ماتوا وعاشت بعدهم فلذاك سميت اليتيمة

واليتيمة كتاب أدب ونقد يؤرخ للأدباء والشعراء ويحلل نظمهم ونثرهم ، وهو قريب الشبه بكتاب الأغانى . وأفضل ناحية تسترعى الانتباه فى هذا الكتاب هى الناحية النقدية فلم يترك الكتاب شاعراً دون نقد وتعقيب لشعره وإيضاح للمسروق والمستهجن منه .

ليس لأبى منصور الثعالبى ترجمة بمعجم الأدباء وأغلب الظن عندى أن ترجمته قد ضاعت فيما ضاع من هذا المعجم ، لأنه من غير المعقول أن يترك صاحبنا رجلا كالثعالبى دون أن يكتب عنه . فياقوت ينقل كثيراً عن اليتيمة ، ويذكر أيضاً أنه رأى تتمة لهذا الكتاب فالرجل يتابع ما كتبه الثعالبى الذى ولد فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، وتوفى سنة ٤٢٩ أو ٤٣٠ من الهجرة .

ولنأت إلى بعض ما أخذه ياقوت عن هذا الكتاب .

فى ترجمة أحمد بن المتيم ينقل عن الثعالبى وصفه لهذا الرجل يقول :

(١) « قال الثعالبي : رأيته ببخارى شيخاً رث الهيئة ، تلوح عليه سيماء الحرفة ، وكان يتطبب ويتنجم ، فأما صناعته التي يعتمد عليها ، فالشعر » وهذا نص كلام الثعالبي في اليتيمة (الجزء الرابع) الذي يورد للرجل قصيدة وعـدداً من المقطوعات ، ولا ينقلها ياقوت كاملة بل يختار منها ما يتناسب مع ذوقه ومنهجه في اختيار الشعر الصالح للتداول ، ومما ذكره ياقوت نقلا عن الثعالبي : قول أحمد بن المتيم في غلام تركي .

قلبي أسير في يدى مقلة تركية ضاق لها صدرى
كأنها من ضيقها عروة ليس لها زر سوى السحر

وفي ترجمة أحمد بن محمد الخطابي يقول أبو منصور :(٢) « وأنشدني غير واحد له :

وما غمة الإنسان في شقة النوى
ولـكنها والله في عدم الشكل
وإني غريب بين بست وأهلها
وإن كان فيها أسرتي وبها أهلي

ويذكر أبو منصور أشعاراً أخرى . ويترجم ياقوت لهذا الرجل فيقول :

(٣) « وأنشد أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، لأبي سليمان الخطابي في اليتيمة أشعارا منها ... » ويذكر البيتين اللذين ذكرا آنفا ثم يذكر بعدهما شعراً لأبي منصور في هذا الرجل نفسه .

---

(١) معجم الأدباء حـ ٤ صـ ٢٤٤

(٢) يتيمة الدهر حـ٤صـ٣١٠ الطبعة الأولى سنة ١٩٣٤، مطبعة الصاوى

(٣) معجم الأدباء حـ٤صـ٢٥٤

وينقل ياقوت عن اليتيمة فى ترجمته لأحمد بن مسكويه قوله :(١)«قال أبو منصور الثعالبي . كان فى الذروة العليا من الفضـــل والأدب ، والبلاغة ، والشعر ، وكان فى ريعان شبابه ، متصلا بابن العميد ، مختصاً به وفيه يقول :

لا يعجبنك حسن القصر تنزله
فضيلة الشمس ليست فى منازلها

لو زيدت الشمس فى أبراجها مائة
مازاد ذلك شيئا فى فضائلها

والأمثلة كثيرة فى معجم الأدباء بل إننا نقرأ لصاحبنا عبارة توحى باهتمامه بهذا الكتاب . فى حديثه عن محمد بن إسحاق الزوزنى ذى الخط المليح يقول :

(٢) « وكان ينسخ كتب الأدب بخط مقروء صحيح أحسن النسخ ، ولقد رأيت نسخة من كتاب يتيمة الدهر لأبى منصور الثعالبى فى خمس مجلدات بخطه المليح بيعت بثلاثين ديناراً نيسابورية ، وكانت تساوى أكثر من ذلك » .

٤ — مؤلفات أبى حيان التوحيدى

اطلع ياقوت على معظم ما كتبه أبو حيان الذى ترجم له فى معجم الأدباء ترجمة طويلة تقارب الخمسين صفحة ، ومن كتب أبى حيان التى نقل منها ياقوت إلى مؤلفاته :

---

(١) معجم الأدباء حـ٥ صـ٧

(٢) المرجع السابق حـ١٨ صـ٢٠٠

الإشارات الإلهيـــة ، والإمتاع والمؤانسة ، والبصائر والذخائر ، والصداقة والصديق ، ومثالب الوزيرين ، والمقابسات ، وكتاب المحاضرات والمناظرات ، وغيرها .

ومن يطالع ترجمة ابن عباد وابن العميد وأبى الفرج الأصفهانى ومسكويه وأبى حيان والحسن المرزبانى وأبى سعيد السيرافى وجحظة البرمكى وغيرهم بمعجم الأدباء فسوف يشهد كثيراً من النقول عن أبى حيان . وفى آخر ترجمته بمعجم الأدباء نقل ياقوت عن كتاب الوزيرين ما يأتى :(١) قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين : جرى بينى وبين أبى على مسكويه شىء ، قال لى مرة : أما ترى إلى خطأ صاحبنا — وهو يعنى ابن العميد فى إعطائه فلانا ألف دينار ضربة واحدة — لقد أضاع هذا المال الخطير فيمن لا يستحق ، فقلت بعدما أطال الحديث وتقطع بالأسف: أيها الشيخ ، أسألك عن شىء واحد ، فاصدق فإنه لامدب للكذب بينى وبينك لو غلط صاحبك فيك بهذا العطاء وبأضعافه وأضعاف أضعافه ، أكنت تخيله فى نفسك مخطئاً ومبذرا ومفسدا ، أو جاهلا بحق المال ؟ أو كنت تقول : ما أحسن ما فعل وليته أربى عليه ؟ فان كان الذى تسمع على حقيقته ، فاعلم أن الذى يرد ورد مقالك إنما هو الحسد أو شىء آخر من جنسه ، وأنت تدعى الحكمة وتتكلف الأخلاق ، وتزيف الزائف ، وتختار منها المختار ، فافطن لأمرك ، واطلع على سرك وشرك » .

ومع كتاب مثالب الوزيرين الذى يطلق ياقوت عليه أحيانا « أخلاق الوزيرين » نقرأ لأبى حيان كلاما آخر يصف به ابن عباد وينقله ياقوت فى ترجمته للصاحب يقول :

---

(١) معجم الأدباء حـ١٥ ص٥١

(١) « قال أبو حيان : كان ابن عباد يأتى السجع فى أثر كلامه ، مع روية طويلة ، وأنفاس مديدة ، وحشرجة صدر ، وانتفاخ منخريه ، والتواء شدقيه وتعويج عنقه ، واللعب بشاربه وعنفقته ، فلو رأيته يقرر المسائل على هذه الأمثلة العجيبة ، والبيان الشافى ، لرأيت عجباً من العجائب وضرباً من الغرائب .

وينقل ياقوت عن أبى حيان كثيراً فى تحقيق الشعر وبيان نسبته إلى أصحابه ، ويذكر منه الأصلى والمسروق والمحتذى ، والأمثلة كثيرة .

٥ — خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهانى :

وجد ياقوت فى كتاب « خريدة القصر » بغيته عندما أراد الترجمة للأدباء والشعراء الذين عاشوا فى رحاب الدولة الأيوبية والتقوا بأمرائها كما أن معاصرة ياقوت للعماد الأصبهانى صاحب التصانيف الكثيرة سهل له أن يطلع على هذه المؤلفات وفى مقدمتها « خريدة القصر وجريدة العصر » ومع أن ياقوتا عاش ثلاثا وعشرين سنة فى حياة العماد الذى توفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة إلا أنه لم يلتق به على ما أعرف من خلال متابعتى لأخبار الرجلين ، وعن كتاب الخريدة قال ياقوت :

(٢) « جمع العماد فى هذا الكتاب تراجم شعراء الشام ، والعراق ، ومصر ، والجزيرة ، والمغرب . وفارس ، مما كان بعد المائة الخامسة إلى بعد سنة سبعين وخمسمائة ، وهو يدخل فى عشر مجلدات لطيفة »(٣) .

---

(١) معجم الأدباء حـ ٦ ص ٢٦٤

(٢) معجم الأدباء حـ ١٩ ص ١٩ .

(٣) الكتاب مطبوع فى جزأين كل جزء فى مجلد .

ولقد ترجم ياقوت لأسامة بن منقذ معتمداً فى ترجمتـــه الطويلة على كتاب الخريدة . ومما نقله ياقوت عن العماد فى ذلك :

(١) « قال العماد : وأسامة كاسمه فى قوة نثره ونظمه ، يلوح من كلامه إمارة الإمارة ، ويؤسس بيت قريضه عمارة حلو المجالسة ، حالى المساجلة ندى الندى بماء الفكاهة ، عالى النجم فى سماء النباهة ، معتدل التصاريف ، مطبوع التصانيف ، أسكنه عشق الغوطة دمشق المغبوطة » وينقل ياقوت من كتاب الخريدة شعراً لأسامة بن منقذ قال :

(٢) « وقوله أيضا :

يا دهر مالك لايصد ... دك عن مساءتى العتاب
أمرضت من أهوى ويأ ... بى أن أمرضه الحجاب
لو كنت تنصف كانت الـ ... أمراض لى وله الثواب(٣)

أخذ هذا المعنى من قول الشاعر :

ياليت علته لى غير أن له ... أجر المريض وأنى غير مأجور

فصاحبنا ينقل عن العماد بدقة وأمانة حول مسائل نقـــدية متعددة كالأخذ والاحتذاء وينقل عنه كثيراً من الموازنات بين أشعار لأسامة وبين أشعار الآخرين ولتحقيق ذلك رجعت إلى أكثر من مصدر منها ديوان أسامة نفسه ، حيث وردت فيه الأبيات الثلاثة السابقة وغيرها مما استشهد به ياقوت نقلا عن الخريدة .

وكان صاحبنا ينبه على مايجده من اختلاف بين خريدة القصر ، وغيرها

---

(١) معجم الأدباء حـ ٥ صـ ١٩٢ .
(٢) المرجع السابق حـ ٥ صـ ١٩٧
(٣) الأبيات فى ديوان أسامة بن منقذ صـ ٥٥

من الكتب ففى ترجمته لعلى بن زيد البيهقى ينقــل عن الخريدة ما جاء فى ترجمة هذا الرجل ولكنه يجد اختلافا بين ما نقــله وما أخذه من كتاب « مشارب التجارب » للبيهقى فيقول ياقوت فى ذلك :

(١) « هكذا ذكر العماد وإذا عارضت قوله بما ذكره البيهقى عن نفسه فى كتابه الذى نقلت لفظه منه من خطه ، وجدت فيه اختلافا فى التاريخ ، وغيره والله أعلم » .

٦ — الرسالة المصرية فى شعراء مصر فى القرن الخامس لأبى الصلت :

تعرفت على هذه الرسالة الأدبية النقدية والأخلاقية الاجتماعية لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ ، (٢) من خلال كتاب « نوادر المخطوطات »(٣) ثم توثقت صلتى بهذه الرسالة عندما وجدت ياقوتا ينقل عنها فى أجزاء كثيرة من مؤلفاته ، وفى مقدمتها «معجم الأدباء» وما نقله عن هذه الرسالة أكثر مما نقله عن كتب معروفة مشهورة فى مجال الأدب ونقده أيضا كالعمدة لابن رشيق أو الموازنة للآمدى .

وربما يكون ذلك راجعاً إلى ندرة المادة الأدبية والنقدية والعلمية فى هذه الرسالة التى نقل منها كثير من المؤلفين القدماء ولعل منهم : ياقوت فى معجم الأدباء والقفطى فى « أخبار العلماء » وابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء » والأسعد بن مماتى فى « قوانين الدولة » والمقرى فى « نفح الطيب »

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٣ صـ ٢٣٢ .
(٢) أو فى سنة ٥٢٩ هـ كما فى معجم الأدباء وطبقات الأطباء .
(٣) جمع وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

والمقريزى فى « الخطط » والأدفوى فى « الطالع السعيد » والسيوطى فى « حسن المحاضرة »(١).

ولهذه الأسباب كانت الرسالة المصرية أول ماطبع من نوادر المخطوطات.

يصف أمية مصر فى هذه الرسالة ، ويذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء ويورد فيها شعراً على اختلاف فنونه لمن يتحدث عنهم من الشعراء كما أورد بها شعراً لنفسه أيضا.

ومما نقله ياقوت عنها قوله فى ترجمة أسعد بن المهذب مماتى :

(٢) « وكان مماتى مع ذلك كريما ممدحا ، قد مدحه الشعراء ، فذكر أبو الصلت فى كتاب الرسالة المصرية له ، أن أبا طاهر اسماعيل بن محمد النشاع ، المعروف بابن مكنسه ، كان منقطعا إليه ، فلما مات مماتى رثاه ابن مكنسه بقصيدة منها :

ماذا أرجى من حيا ... تى بعد موت أبى المليح
ما كان بالنكس الدنى ... من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما ... غدروا به دين المسيح

كذا قال ، لعلهم اغتالوه أو قتلوه ».

والبيتان الأخيران موجودان بالرسالة مع ترجمة لابن مكنسة لم ترد بمعجم الأدباء(٣) ونقل ياقوت كثيراً من الرسالة عند ترجمته لأمية ، وأورد

(١) راجع نوادر المخطوطات — الرسالة المصرية ص ٩.
(٢) معجم الأدباء حـ ٦ ص ١٠٧.
(٣) راجع الرسالة حـ ٤٣ ، ٤٤.

له قصيدة من الشعر فى ترجمته بالمعجم ، وستة أبيات منها عند حديثه عن بركة الحبش(١) بمعجم البلدان أولها :

لله يومى ببركة الحبشى والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياض مضطرب كصارم فى يمين مرتعش

ويحكى أمية مناسبة هذه القصيدة فيقول :

(٢) « واتفق أن خرجنا فى مثل هـذا الزمان إلى « بركة الحبش » ، فافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من روحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شموس فى خلع البدور ، ونجوم بالصفا تدور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء فقال ذلك بعضنا وهو يعنى نفسه ، ويذكر القصيدة التى أورد ياقوت معظمها منسوبا إليه .

وهكذا ينقل صاحبنا بكثرة عن هذه الرسالة الموجزة التى لم تزد عن خمسين صفحة المطبوعة داخل المجلد الأول لنوادر المخطوطات .

٧ — مؤلفات أخرى :

ومن مصادر الأدب ونقده التى ترددت كثيراً بمؤلفات ياقوت الأنموذج فى شعراء القيروان للحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة لأبى على التنوخى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لأبى الحسن على بن بسام المتوفى سنة ٥٥٤ هـ والكامل للمبرد ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ووشاح دمية القصر للبيهقى وغيرها كثير .

---

(١) موضع على نيل مصر .
(٢) نوادر المخطوطات حـ ١ ص ٢٠

وعن مراجع ياقوت بمعجم الأدباء يقول الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

(١) «وبمناسبة المراجع والمصادر نود أن نؤكد هنا أن كتاب «معجم الأدباء» من الكتب العربية التى تمدنا بثروة واسعة من أسمـــاء الكتب ونفائس التراث العربى سواء أكانت هذه الكتب مما رجع إليها ياقوت، أو مما ذكرها للمؤلفين الذين يترجم لهم» ثم يقول عن ياقوت :

(٢) «فهو رجل لايزهى بالاكثار من المصادر، ولايسره أن يسود صفات كتابه بذكر قوائم طويلة من المراجع، ولكنه يختار ما يصح التعويل عليه فيحسن الاختيار، لأنه عليم بالكتب، ناقد لهـــا، وازن لاقدارها».

وأعتقد أن مصادر ياقوت موضوع يحتاج إلى دراسة منفردة أرجو أن يوفقنى الله لذلك فى القريب العاجل .

---

(١) علم التاريخ عند العرب ص ٢٣١

(٢) المرجع نفسه ص ٢٣١

الخاتمـة

لقد عالجت فى هذا البحث مناهج الأدب والنقد وطرائق الكتابة فيهما فى العصر العباسى الثانى من خلال شخصية ياقوت الحموى الذى يعد نموذجا صادقا للفكر الثقافى والذوق الأدبى فى هذا العصر .

فهو رجل ذو ثقافة واسعة ، ونتاج موسوعى ، ومنهج ريادى فى الإنشاء والتأليف ، وصاحب مدرسة ناجحة فى كتابة التاريخ والجغرافية والرحلات .

ولقد وضح أنه كاتب أديب ، وشاعر ناقد ، يستحق العناية بدراسته والاهتمام بالترجمة له نظراً لمكانته العلميـة والأدبية ، وندرة مؤلفاته ، واتساع ثقافته ، وشمول معارفه ، وموسوعية كتبه .

ومما يؤسف له ويؤسى أنه لم يجد أية رعاية ، ولم ينل حظوة واضحة من مؤرخى زمانه ، ومن هنا أرجو أن تكون كتابتى عنه ، انصافا له ، واعترافا بفضله لأنه من الأفذاذ الجهابذه الذين أعطوا بسخاء لفنون الأدب والنقد والتأليف .

ويهمنى أن أشكر الله أنعمه أن كانت هذه الرسالة غير تقليدية ، وأنها ذات جدية خاصة فى فكرها ومنهجها وأسلوبهـا وطرزها ، وذلك لعدة أسباب منها :

١ — أنها لم تتفق مع الرسائل العلمية أو الأدبية التى تكتب عن الأعلام فى الاهتمام الخاص بدراسات مبسوطة عن العصر وأحواله المختلفة ، ولقد كتبت عدة صفحات جمعت فيهـا موجزاً مركزاً عن الأحوال السياسية التى سادت العصر الذى عاش فيه صاحبنا وارتبطت به من خلال معايشته لها أو حديثه عنها ، أو أثرت فى أدبه الشعرى أو النثرى .

٢ — أنى عندما تكلمت عن حياته جملته هو الذى يترجم لهذه الحياة فراجعت كتابته عن نفسه قبل قراءة ما كتبه عنه الآخرون .

٣ — أن الرسالة اهتمت بالموازنات اهتماما كبيراً فقد عقد بهما باب واسع المدى للموازنة بين مؤلفات ياقوت وغيرها من الكتب المناظرة لها بعد دراساتها لتتضح مكانته وتبرز أهميته من خلال تراثه الضخم .

٤ — أنى التقيت بمعظم من كتبوا عنه من المحدثين وأرسلت عدداً منهم من الأقطار العربية الشقيقة ، واستفاد البحث بمشورتهم ، ونبهت على ذلك فى مواضعه .

٥ — أنى أستعنت فى هذا البحث بعدد كبير من المراجع الأجنبية سواء أكانت بلغاتها الأصلية ، أم مترجمة إلى لغة الضاد ، واكتشفت أن المستشرقين قد عرفوا الكثير عن أدبائنا ، وسبقونا إلى نشر مؤلفاتهم ، ولا ينبغى أن ننكر هذه الحقائق حتى لو أغضبت بعض الناس .

ولقت بحثت فى هذه الرسالة ما يلى :

المقدمة وجنحت فيها إلى الحديث الإجمالى عن الرجل ومكانته ، وذكر الظروف التى أحاطت باختيارى له موضوعا للبحث والدراسة ، ثم دلفت إلى ذكر المنهج العلمى والتخطيط الفنى لذلك البحث الذى وافق عليه السيد المشرف بعد تقديمه إليه .

الباب الأول وقد درست فيه ألوان العصر وصور الحياة فى فصلين .

تحدثت فى الأول منهما عن الحيـــاة السياسية فى عصر ياقوت ، ودلفت بالحديث إلى ثلاث دول قامت كل منها بدور خطير فى العصر العباسى الثانى ، وهى دولة السلاجقة والدولتان الخوارزمية والأيوبية .

وحددت الصلة التى كانت بين ياقوت ووزير حلب ، وبينت أحوال اللغة والأدب فى هذه الحقبة .

ثم تحدثت فى الفصل الثانى عن حيـــاة ياقوت ، وآثاره ، وسجلت رسوم هذه الحيـاة من خلال كلامه عن نفسة ـ كما سبق ـ ووازنت بين ما كتبه عن نفسه وما سطره الآخرون عنه ، وكذلك تحدثت عن نشأته وعتقه وحريته ورحلاته إلى مصر والشام والخليج العربى وإيران وغيرها من ممالك العـــالم الإسلامى ، وقدمت صورة واضحة عن ثقافته وشيوخه ومؤلفاته التى توفى عنها سنة ست وعشرين وستمائة من الهجرة .

أما الباب الثانى : فهو « معجم البلدان ومعجم الأدباء دراسة وموازنة» وقد أخترت هذين الكتابين لأنهما أهم مؤلفاته .

ويقع هذا الباب فى أربعة فصول .

أما الفصل الأول فقد قدمت فيه دراسة لمعجم البـلدان . وقدمت الحديث عن هـذا المعجم لظهور شخصية ياقوت فيه أكثر من غـيره . ووازنت بين الكتابة الجغرافيـة وكتابة الرحلات ، وقلت إن صاحبنا جمع بين النوعين . فكان أديباً جغرافيا ورحالة يصور ما شاهده وعاينه بأسلوب أدبى منمق . ثم سجلت ملامح الكتاب ومزاياه وأوضحت أن هذا المعجم كتاب أدب ونقد وتاريخ وتراجم وجغرافيـة وأنساب وقصص وأساطير .

ولقد سار ياقوت فى تأليفه حسب منهج دقيق أطلقت عليـه منهج المعاينة التاريخية . فهو يجمع مواد تأليفـه عن طريق الرحلة والمشاهدة والمعاينة ثم يلجأ إلى الكتب والمؤلفات .

كذلك ذكرت أن معجم البلدان كان من أوائل المؤلفات التى ذكرت

معظم مراجعها ومصادرها فى المقدمة ثم فى متن الكتاب، وليس فى أسفل الصفحات كما يفعل معظم المؤلفين الآن .

وفى الفصل الثانى وموضوعه : « معجم البلدان بين معجم ما استعجم وتقويم البلدان » عقدت موازنتين الأولى بين « معجم البلدان » و « معجم ما استعجم » وقد كشفت عن أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف بينهما .

والثانية : بين « معجم البلدان » و « تقويم البلدان » مع بيان أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف أيضا . وذكرت أن الكتابين لا يصلان إلى ما وصل إليه « معجم البلدان » أسلوبا ومنهجا وعمقا واتساعا فحكمت له بالتفوق ، ولصاحبه بالبراعة والمقدرة .

وقدمت فى الفصل الثالث دراسة عن « معجم الأدباء » وبينت مكانته بين كتب التراجم ، وذكرت أن هذا الفن قد وصل إلى مرحلة متقدمة على يدى ياقوت الذى بذ فيه أقرانه .

وعند الكتابة عن المعجم قلت فى البداية إنه معجم عام ترجم فيه صاحبه لكل الطبقات من أهل الأدب والنحو واللغة والأنساب والتاريخ والوراقة وغيرهم وأنه التزم بمنهج المعاينة الذى التزمه فى معجم البلدان فكان يلتقى بالأدباء الذين يترجم لهم ويسأل عنهم حتى يتأكد من صدق كلامهم .

وجعلت الفصل الرابع للموازنة بين هذا المعجم و « نزهة الألباء فى طبقات الأدباء » من جهة وبينه وبين « وفيات الأعيان » لابن خلكان من جهة أخرى مع بيان أوجه الاتفاق ثم أوجه الاختلاف . وذكرت أن كتاب ابن خلكان السابق هو أقرب كتب التراجم إلى « معجم الأدباء » وتوصلت إلى أن الكتابين يكمل بعضهما الآخر وأوضحت أن « معجم الأدباء » محتاج إلى إعادة طبعه بتحقيق أفضل ، فالكتاب قد وصل إلينا ناقصا .

والباب الثالث جاء فى أربعة فصول مسبوقة بمقدمة عن أدب ياقوت .

وفى الفصل الأول تحدثت عن الكتابة الإنشائية أو الفنية ، ممثلة فى الرسائل الإخوانية ومقدمات الكتب وبعض المقالات المتنوعة .

ولقد ضمنت هذا الفصل حديثا عن الخصائص الفنية لهذه الكتابة .

وفى الفصل الثانى تحدثت عن كتابة التأليف «العلمية » وأفضت فى الحديث عن وصف ياقوت للرجال والبلدان والشعوب والطبيعة ومظاهر الحياة ثم بينت منهجه فى كتابه التاريخ ، واكتفيت بعد ذلك بالحديث عن الكتابة الدينية ، وحسمت القول فيما وجه إليه بشأن تعصبه على الإمام على كرم الله وجهه .

وأنهيت الفصل بالحديث عن خصائص هذا اللون من الكتابة وملامحها الأسلوبية .

وفى الفصل الثالث تحدثت عن «ياقوت الحموى شاعراً» وقد تمكنت من جمع عـــدد من القصائد والمقطوعات التى قالها فى مناسبات متعددة ، وشرحت بعضها وأبنت عما فى شعره من طبع أو صنعة .

وفى الفصل الرابع تحدثت عن « ياقوت فى ميزان الأدب والتأليف » وتكلمت عن نظرة القدماء له ثم بينت مكانته فى نظر المحدثين ، وختمت هذا الفصل ببيان مكانته عند المستشرقين الذين نشروا كتبه المطبوعة وكتبوا عنها فى مجلات الإستشراق .

وفى الباب الرابع «ياقوت الحموى ناقداً » جعلت الحديث عن موضوعه فى أربعة فصول .

وقد تكلمت فى الفصل الأول عن النقد التاريخى ، وقسمت الحديث فيه إلى ثلاثة أقسام ، الأول عن «نقده للروايات والأخبار» والثانى عن « نقده للرواة » الذين يحفظون الأشعار والأخبار ويروونها للناس ، والثالث عن

« نقد الكتب والمؤلفات » مبيناً منهجه فى كل قسم منها والطريقة التى ارتاح إليها فيما كتب .

وجعلت الفصل الثانى للحديث عن النقد الذاتى «وعرفته بأنه الحكم على النص الأدبى بالجودة أو الرداءة حكما عاما،دون أن يصحب ذلك بيان العلل والأسباب ، وتكلمت عن الطرق التى يتبعها ياقوت فى استحسانه أو استهجانه للنص الأدبى ، وكتبت عن الشعراء المفضلين عنده ، واخترت واحداً منهم للحديث عنه ، وهو مالك بن الريب المازنى ، وذكرت بعض فنون الشعر التى يختار منها عند حديثه عن الأعلام أو البلدان ومنها الغزل والوصف والمديح .

وجعلت الفصل الثالث للحديث عن «النقد الموضوعى»أو المنهجى،الذى ينظر فيه الناقد إلى مافى العمل الأدبى من أفكار وتجارب ويتذوقها ويحكم عليها ، معتمداً على ثقافته وذكائه وإلمامه بالأصول النقدية .

ومن الموضوعات التى شغلت ياقوتا،وعرضت لها ، الموازنة،والسرقات الأدبية ، والإغـــارة ، وتوارد الخواطر ، والتضمين ، والمبالغة ، والتجنيس .

وجعلت الفصل الرابع والأخير من هذا الباب عن « مصادر ياقوت النقدية»التى تكون منها نقده ومنهجه فى الحكم على النصوص،ومن مراجعه التى كتبت عنها الأغانى ، ويتيمة الدهر ، وخريدة القصر وغيرها .

وبعد هذا العرض الموجز لأبواب هذا البحث وفصوله . أستطيع أن أؤكد أننى قد انتهيت إلى العديد من النتائج التى من أهمها:

١) تحديد مؤلفات ياقوت تحديداً كاملا ، والإبانة عمـــا وقع فيه المؤرخون من اضطرابات حولها ، والكشف عن المخطوط والمفقود

إلى جانب المطبوع حتى يكون القارىء لهذا البحث على دراية وعلم بهذه الأمور .

٢) إخراج أول دراسة مستقلة عن ياقوت ، تؤرخ لحياته، وتسجل أدبه على الحقيقة والواقع بعيداً عن الخلل والاضطراب .

٣) الكشف عن ضياع أجزاء كثيرة من تراجم معجم الأدباء. وبيان شدة الحاجة إلى إعادة طبع هذا الأثر الضخم بعد تحقيقه من جديد.

٤) إثبات أن ياقوتا كان رحالة وأديباً جغرافيا من الطراز الأول.

٥) إثبات أنه كان يملك حاسة فنية . وذوقا مرهفاً اعتمد عليهما فى اختيار الشعر وتنقيته وتهذيبه من السخف والفحش والمجون.

٦) إيضاح جهود المستشرقين وعملهم الدقيق فى خدمة اللغة والأدب وقد كان طبع مؤلفات ياقوت من ثمار الاستشراق .

٧) إثبات أن ياقوتا الحموى شاعر بعد أن تم العثور على مجموعة من القصائد والمقطوعات تكون منها فصل تام من هذه الرسالة .

٨) بيان أن هناك لونا قديما من الأدب وهو الأدب الجغرافى الذى كان ياقوت رائداً له، فضلا عن كونه من أوائل المؤسسين لعلم الجغرافية القديمة .

٩) تحديد جهود ياقوت فى مجال النقد، وإيضاح أنه أصدر عن ثلاثة اتجاهات نقدية وهى الاتجاه التاريخى، والاتجاه الذاتى الشخصى، والاتجاه الموضوعى .

١٠) إثبات أن ياقوتا رائد فى نقد الرواة والروايات والأخبار ونقد الكتب وأساليب التأليف .

١١) ضم ناقد جديد إلى قائمة النقاد يوازن بين الشعراء ويكشف السرقات والإغارة والمبالغة والتضمين وغيرها وهو ياقوت .

١٢) إثبات أن ياقوتا كان علماً في التأليف والكتابة وكان صاحب منهج يستند إلى المعاينة والمشاهدة ولا يكتفى بالكتب والمراجع عند التأليف .

١٣) تأكيد أن ياقوتا كان يهتم اهتماما كبيراً بمراجعه ومصادره فهو يذكرها مقرونة بأسماء أصحابها في مقدمات كتبه ثم يثبتها في مواطنها بمتون الكتب .

١٤) إثبات أن معارفه لم تقتصر على الكتابة الفنية والنقد والشعر والتاريخ والجغرافية بل تعدتها إلى مجموعة أخرى من الفنون والمعارف كالفلك والأنساب والدين والحضارة والسياسة إلخ .

وبعـــد

فإنني أستطيع أن أؤكد أنني راض تمام الرضا بحسب تفكيري وتقديري عن هذه الدراسة التي أبدأ بها السير إلى ميدان الأدب الرحيب

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

المؤلف
السيد محمد أحمد ديب

أهم المراجع والمصادر حسب الترتيب الهجائي

أولا : المراجع والمصادر العربية ، المطبوعة أو المخطوطة :

١) الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى — تأليف الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى — مكتبة الكليات الأزهرية سنه ١٩٧٥ م .

٢) اتجاهات النقد الأدبى العربى — تأليف الدكتور محمد السعدى فرهود دار الطباعة المحمدية — القاهرة .

٣) أثر المقامة فى نشأة القصة المصرية الحديثة — للدكتور محمد رشدى حسن — الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤م .

٤) أخبار النحويين البصريين — لأبى سعيد السيرافى — تحقيق طه الزينى ومحمد عبد المنعم خفاجى — الطبعة الأولى ١٩٥٥م ، مصطفى البابى الحلبى .

٥) أدب الرحلة عند العرب ، تأليف الدكتور حسنى محمود حسن .

٦) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام ، الدكتور عبد الحميد محمود المسلوت ، مطبعة زهران ١٩٧١ م .

٧) الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى ، للدكتور إبراهيم على أبى الخشب ، دار الفكر العربى .

٨) الأدب فى العصر الأيوبى ، الدكتور محمد زغلول سلام دار المعارف ١٩٦٨ م .

٩) الأدب المقارن ، دكتور محمد غنيمى هلال . دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٧ م الطبعة الثالثة .

١٠) الأدب وفنونه — الدكتور عز الدين اسماعيل — مطبعة دار النشر ١٩٥٥ م

١١) أسرار البلاغة — لعبدالقاهر الجرجانى — شرح وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى — نشر مكتبة القاهرة الطبعة الأولى ١٩٧٢م جزءان .

١٢) الأسس الفنية للنقد الأدبى . الدكتور عبد الحميد يونس . الطبعة الأولى ١٩٥٨م

١٣) أسس النقد الأدبى عند العرب . الدكتور أحمد أحمد بدوى ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٩ م

١٤) الأعلام . لخير الدين الزركلى . مطبعة كوستا توماس وشركاه بالظاهر القاهرة . طبعة ثانية

١٥) الأعلام . لابن قاضى شهبه (مخطوط)

١٦) أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب . الدكتور صلاح الدين المنجد مؤسسة التراث العربى . بيروت ١٩٥٩م

١٧) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى . طبعة لندن ١٩٠٠م عشرون جزءا

١٨) إنباه الرواة على أنباه النحاه . للقفطى . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٠ م أربعة أجزاء .

١٩) بعض مؤرخى الإسلام . على أدهم . مكتبة نهضة مصر بالفجالة

٢٠) بغية الوعاه ، للسيوطى . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه — ١٩٦٤م . جزءان

٢١) تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعى . دار الكتاب العربى بيروت .

٢٢) تاريخ الأدب الجغرافى العربى . أغناطيوس كراتشكوفسكى (مترجم) نقله إلى العربية . صلاح الدين عثمان هاشم طبعة لجنة التأليف والنشر ١٩٥٧ م .

٢٣) تاريخ الأدب العربى . أحمد حسن الزيات . دار نهضة مصر للطبع والنشر

٢٤) تاريخ الأدب العربى . كارل بروكلمان (مترجم) ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار . دار المعارف ١٩٧٤م ستة أجزاء

٢٥) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الثانى.الدكتور إبراهيم على أبو الخشب . الهيئة المصرية العامة للكتاب.فرع الاسكندرية . ليست به سنة الطبع .

٢٦) تاريخ بغداد . للخطيب البغدادى . مطبعة الخانجى ١٣٤٩هـ١٩٣١م ١٢ مجلدا .

٢٧) تاريخ النقد العربى . من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى . الدكتور محمد زغلول سلام . دار المعارف بمصر ١٩٦٤م

٢٨) تراث الإنسانية . المجلد الأول .القاهرة ١٩٦٣م دراسة للأستاذ إبراهيم الأبيارى

٢٩) التراجم والسير . للاستاذ محمد عبد الغنى حسن . دار المعارف ١٩٦٩م . الطبعة الثانية

٣٠) تقويم البلدان . لأبى الفداء . طبع دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨٤٠ م .

٣١) ثقافة وكتاب . إبراهيم زكى خورشيد . دار المعارف ١٩٨٠ م

٣٢) جنكيز خان سفاح الشعوب للكاتب الصينى : ف . يان (مترجم) ترجمة : السيدة صوفى عبد الله . دار الهلال بمصر . العدد (٥)

٣٣) حديث السندباد القديم . الدكتور حسين فوزى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣م

٣٤) الحياة الأدبية فى العصر العباسى . الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى . نشر رابطة الأدب الحديث . مطبعة دار العهد الجديد . طبعة أولى ١٩٥٤م

٣٥) خريدة القصر وجريدة العصر . للعماد الأصبهانى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م

٣٦) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . عبدالقادر عمر البغدادى مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه . ليست به سنة الطبع

٣٧) دراسات نقدية فى الأدب المعاصر . مصطفى عبد اللطيف السحرتى الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩م

٣٨) دراسة فى مصادر الأدب . الدكتور الطاهر أحمد مكى دار المعارف ١٩٧٧م الطبعة الرابعة

٣٩) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى . تعليق وشرح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى . مكتبة القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٦٩م

٤٠) دولة السلاجقة . الدكتور عبد النعيم محمد حسنين . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م

٤١) ديوان أسامة بن منقذ — تحقيق الدكتور أحمد بدوى وحامد عبد المجيد

٤٢) ديوان ابن سناء الملك

٤٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — ابن بسام

٤٤) الذوق الأدبي — أرنولد بنيت (مترجم) ترجمة الدكتور على محمد الجندى — مكتبة نهضة مصر

٤٥) الرحالة العرب — الدكتور نقولا زيادة — دار الهلال ١٩٦٥م

٤٦) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى — الدكتور زكى محمد حسن دار المعارف ١٩٤٥ م

٤٧) رحلة ابن جبير — لابن جبير الأندلسى — مطبعة السعادة ١٣١٦هـ

٤٨) الرسالة المصرية — أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت — تحقيق عبد السلام هارون — من سلسلة نوادر المخطوطات — الطبعة الثانية ١٩٧٢م

٤٩) زهر الآداب وثمر الألباب — لأبى إسحاق الحصرى القيروانى المكتبة التجارية الكبرى ١٩٢٥ م تحقيق محمد زكى عبد السلام مبارك أربعة أجزاء

٥٠) السرقات الأدبية — الدكتور بدوى طبانة — مكتبة نهضة مصر

٥١) سيرة القاهرة — تأليف ستانلى لينبول — (مترجم)

٥٢) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب — لابن العماد الحنبلى مكتبة القدس ١٣٥١هـ

٥٣) شعراء بغداد — من تأسيسها حتى اليوم — بقلم على الخاقانى مطبعة أسعد — بغداد ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م

٥٤) الصورة الأدبية — الدكتور مصطفى ناصف — مكتبة مصر

٥٥) صور تاريخية ، على أدهم

٥٦) علم التاريخ عند العرب ، محمد عبد الغنى حسن ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ١٩٦١م

٥٧) العمدة ، لابن رشيق ، دار الجيل (لبنان) الطبعة الرابعة ١٩٧٢م

٥٨) فن الشعر ، الدكتور محمد مندور ، دار القلم

٥٩) الفلاكة والمفلوكون ، أحمـــد بن على الدلجى ، مطبعة الشعب ١٣٢٢هـ

٦٠) الفنون الأدبية وأعلامها فى النهضة العربية الحديثة، تأليف إنياس المقدسى ، دار الكاتب العربى ، لبنان

٦١) الفهرست ، لابن النديم . دار المعرفة . لبنان

٦٢) فوات الوفيات ، محمد بن شاكر الكتبى . تحقيق الدكتور إحسان عباس . دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٣م

٦٣) فى الأدب والنقد ، الدكتور محمد مندور . دار نهضة مصر ١٩٧٣ م

٦٤) فى ميزان النقد الأدبى . الدكتور طه مصطفى أبو كريشة مطبعة المليجى بالجيزة ١٩٧٦ م

٦٥) فى فلسفة النقد . الدكتور زكى نجيب محمود . دار الشروق

٦٦) فى النقد الأدبى عند العرب . الدكتور محمد طاهر درويش دار المعارف ١٩٧٩م

٦٧) قضايا النقد الأدبى والبلاغة عند اللغويين فى القرن الثالث الهجرى الدكتور عبد الواحد حسن الشيخ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . فرع الاسكندرية . الطبعة الأولى ١٩٨٠ م

٦٨) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . حاجى خليفة

٦٩) كنوز الأجداد — محمد كرد على — مطبعة الترقى — دمشق ١٩٥٠ م .

٧٠) كيف تكتب بحثا أو رسالة . تأليف الدكتور أحمد شلبى . النهضة المصرية . الطبعة الثالثه ١٩٥٧ م :

٧١) مجمع الأمثال . للميدانى . طبعة الحلبى .

٧٢) مذاهب النقد وقضاياه . الدكتور عبد الرحمن عثمان . الطبعة الأولى ١٣٩٥ م ؛ ١٩٧٥ م طبعة شركة الاعلانات الشرقية .

٧٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى . دار المعارف النظامية حيدر أباد ١٣٣٩ م .

٧٤) مراتب النحويين لأبى الطيب اللغوى . تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم . دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٤ م .

٧٥) مراصد الأطلاع فى أسماء الأمكنة والبقاع صفى الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق البغدادى . مكتبة عيسى البابى الحلبى .

٧٦) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . الدكتور عبد الله الطيب دار الفكر

٧٧) مروج الذهب ـ للمسعودى ـ دار التحرير للطبع والنشر ، أربعة أجزاء .

٧٨) المشترك وضعاً والمفترق صقعا ، ياقوت الحموى ١٨٤٦ م جوتنجن نشر دار الكتاب اللبنانى .

٧٩) مصادر البكرى ومنهجه الجغرافى ، الدكتور عبد الله يوسف الغنيم نشر ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية ، الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م

٨٠) معجم الأدباء . ياقوت الحموى . دار إحياء التراث العربى . لبنان . الطبعة الأخيرة . عشرون جزءاً ، صورة من طبعة دار المأمون ،

٨١) معجم البلدان . ياقوت الحموى . دار صادر بيروت ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م . خمسة أجزاء .

٨٢) معجم الشعراء . للمرزبانى . تحقيق عبد السلام أحمد فراج . دار إحياء الكتب العربية .

٨٣) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . لأبى عبيد البكرى تحقيق الأستاذ مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م أربعة أجزاء

٨٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة . يوسف إليان سركيس . القاهرة ١٩٣٠ م

٨٥) معجم المؤلفين . تراجم مصنفى الكتب العربيـــة . عمر رضا كحالة .

٨٦) مقالات فى النقد الأدبى . الدكتور محمد مصطفى هدارة . دار القلم ١٩٦٤ م

٨٧) المقتضب فى جمهرة النسب ـ ياقوت الحموى ـ « مخطوط فى نسختين » .

٨٨) ملامح أدبية ، الدكتور أحمد الشرباصى ، مطبعة الرسالة ١٣٨٩هـ ١٩٦٩ م

٨٩) منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى ـ ر . بلاشير ، هـ . درمون « مترجم » مطبعة كلنكسيك . باريس . الطبعة الثانية ١٣٧٦هـ ١٩٥٧ م

٩٠) الموازنة بين أبي تمام والبحتري — للحسن بن بشر الآمدى — تحقيق محي الدين عبد الحميد — مطبعة السعادة ١٣٧٣ هـ ١٩٥٤ م

٩١) مؤلفات رائدة لمؤلفين رواد ، محمد عبدالغنى حسن ، دار الهلال ١٩٨١ م .

٩٢) النثر الفنى فى القرن الرابع . الدكتور زكى مبارك ، جزءان . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

٩٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ابن تغرى بردى .

٩٤) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ، لأبى البركات كمال الدين عبد الرحمن ابن محمد الأنبارى ، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٦٧ م

٩٥) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، لأبى على التنوخى ، مطبعة أمين هندية ١٩٢١ م

٩٦) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب ، الدكتور محمد السعدى فرهود ، دار الطباعة المحمدية ١٩٧٥ م

٩٧) النقد الأدبى ، الدكتور أحمد أمين ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م جزءان .

٩٨) النقد الأدبى ، سيد قطب ، دار الشروق ، لبنان .

٩٩) النقد الأدبى : الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف ١٩٧٩ .

١٠٠) النقد الأدبى ، الدكتور محمد غنيمى هلال ، دار مطابع الشعب الطبعة الثالثة ١٩٦٠ م

١٠١) النقد الأدبى ، تاريخه ونظرياته ، الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب ، دار التأليف ١٩٦٧ م ، ١٩٦٨ م الطبعة الأولى .

١٠٢) النقد الأدبي عند العرب ، الدكتور حفني محمد شرف ، مطبعة الرسالة ١٩٧٠ م

١٠٣) النقد الأدبي من خلال تجاربي ، مصطفى عبد اللطيف السحرتي لجنة البيان العربي ١٩٦٢م

١٠٤) النقد المنهجي عند العرب ـ الدكتور محمد مندور ـ دار نهضة مصر .

١٠٥) نهاية الأرب في فنون الأدب . للنويري . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، عشرون جزءاً

١٠٦) نوادر المخطوطات ، عبد السلام هارون ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده . الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م ثمانية أجزاء

١٠٧) الوافي بالوفيات ، للصفدي ، المطبعة الهاشمية ، دمشق ١٩٥٣ م

١٠٨) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، المطبعة الميمنية بمصر ١٣٣١ هـ جزءان .

١٠٩) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . لابن خلكان . تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، لبنان ، ثمانية أجزاء

١١٠) يتيمة الدهر للثعالبي . الطبعة الأولى ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م مطبعة الصاوي أربعة أجزا.

ثانيا : الدوريات :

١ ــ الثقافة ـ السنوات ١٩٤٥ ، ١٩٥١ ، ١٩٥٢ م

٢ ــ الرسالة : السنوات : ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ م .

٣ ــ الشرق : السنة : ١٢

٤ ــ الشعر : أعداد كثيرة .

٥ — لغة العرب « عراقية » السنوات ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٣ م .

٦ — مجلة المجمع العلمى العراقى : المجلدان السادس والسابع للسنتين ١٩٥٩ ، ١٩٦٠م

٧ — المقتبس : « قاهرية » أصدرها محمد كرد على السنوات ١٦٠٦ م، ١٩٠٨ ، ١٩٠٩،١٩١٣ م

٨ — فصول مجلة النقد الأدبى (العدد الثانى يناير ١٩٨١) .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

1 — Il libro - Garzanti Della storis.

2 — Encielopedia - Garzanti.

3 — Les Penseurs de L'islam, Carra de vaux.

4 — Encyclopédie de l'islam, IV Regis. Blachere.

5 — Catalogue des Manvscrits Arabes de la Bibliothéque Nationale.

الفهرست

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

والحمد لله أولا وأخيراً

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٨/٧٠٠٦ م